

ISSN 0258 - 1094



مجلة

مَجَلَّةُ الْعَرَبِيَّةِ الْأَدَبِيَّةِ
مجلة عليّ بن محمد بن نبي بن الجوش والدراستات في اللغة العربية

السنة التاسعة والثلاثون

العدد التاسع والثمانون

ربيع الأول ١٤٣٧ هـ - كانون الأول ٢٠١٥ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هيئة التحرير

الأستاذ الدكتور

خالد الكري

رئيس التحرير

الأستاذ الدكتور

إنحوت أحمد فرحان

الأستاذ الدكتور

محمد عدنان البنجيت

الأستاذ الدكتور

محمد حور

الأستاذ الدكتور

سعيد التل

الأستاذ الدكتور

عبد المجيد نصير

الأستاذ الدكتور

سمير استيتية

الأستاذ

محمد سليمان السعودي

أكذير المسار للجمع

الإخراج الفني

خسار أبو حليما

التحرير

ناور رزة

عزلاوي مجيب

عبد الله حماظ

مجلة مجمع اللغة العربية الأردني

مجلة متخصصة محكمة

شروط النشر:

١. تعنى المجلة بالبحوث التي تعالج قضايا اللغة العربية وآدابها.
٢. يكون البحث المقدم للمجلة مستوفياً شروط البحث العلمي من حيث الإحاطة والاستقصاء والإضافة المعرفية والمنهجية والتوثيق وسلامة اللغة ودقة التعبير.
٣. يشترط في البحث أن يكون خاصاً بمجلة المجمع، وأن لا يكون قد نشر أو قدم لأي جهة أخرى لغايات النشر، ويقدم الباحث تعهداً خطياً بذلك، ولا مانع من أن يكون البحث جزءاً من رسالة علمية غير منشورة.
٤. أن تتسم البحوث النقدية بأسلوب النقد العلمي الموضوعي.
٥. يصبح البحث بعد قبوله للنشر حقاً لمجلة المجمع، ولا يجوز النقل عنه إلا بالإشارة إلى مجلة المجمع.
٦. لا يجوز لصاحب البحث أو لأي جهة أخرى إعادة نشر ما نشر في المجلة أو ملخص عنه في أي كتاب أو صحيفة أو دورية إلا بعد مرور ستة أشهر على تاريخ نشره في المجلة، وأن يحصل على موافقة خطية من رئيس التحرير.
٧. يرسل الباحث نسخة إلكترونية من بحثه على بريد المجمع الإلكتروني بعنوان:
(jaa@ju.edu.jo) أو على موقع المجمع على شبكة المعلومات (الإنترنت) (www.majma.org.jo) باستخدام البرنامج الحاسوبي (Ms word) بحجم خط (١٤) للمتن و (١٢) للهوامش على وجه واحد من الورقة حجم (4 A).

٨. لا تزيد صفحات البحث على ثلاثين صفحة، بمعدل (٣٠٠) ثلاثمئة كلمة للصفحة الواحدة.

٩. يتولى تحكيم البحث محكمان أو أكثر حسب ما تراه هيئة التحرير، ويلتزم الباحث بدفع النفقات المالية المترتبة على إجراء التحكيم في حال سحبه بحثه أو الرغبة في عدم متابعة إجراءات التحكيم وفق ما يقدره رئيس التحرير.

١٠. يكون قرار هيئة التحرير بإجازة نشر البحث أو الاعتذار عن عدم نشره نهائياً، وتحفظ هيئة التحرير بحق عدم إيداء الأسباب، ويجوز في حال الاعتذار أن يزود الباحث بالملاحظات والمقترحات التي يمكن أن يفيد منها في إعادة النظر ببحثه.

١١. يلتزم الباحث بإجراء التعديلات التي يطلبها المحكمون إذا كان قرار هيئة التحرير بإجازة نشر البحث مشروطاً بذلك.

١٢. البحوث غير المجازة لا ترد لأصحابها.

١٣. البحوث المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها، ولا تعبر عن هيئة التحرير أو المجمع.

١٤. يخضع ترتيب البحوث عند النشر في المجلة لمعايير فنية تراها هيئة التحرير.

١٥. يكون توثيق البحوث كما يأتي:

أ- المصادر:

يوثق المصدر عند ذكره لأول مرة على النحو الآتي:

يذكر اسم المؤلف كاملاً، وتاريخ وفاته بالهجري والميلادي بين قوسين، إن كان متوفى، واسم المصدر كاملاً بالحرف الغامق، إذا كان عربياً، وبحروف مائلة إن كان بلغة أجنبية، وعدد الأجزاء أو المجلدات وأقسامها، واسم المحقق، ودار النشر، ورقم الطبعة، ومكان النشر، وسنة النشر، ورقم الصفحة أو الصفحات.

مثال:

أبو عثمان سعيد بن محمد السرقسطي (ت ٤٠٠هـ، ١٠١٠م)، كتاب الأفعال،
ج٣، تحقيق د. حسن محمد محمد شرف، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية،
القاهرة، ١٩٧٥م، ج١، ص ١٨٥.

ب- المراجع:

يذكر اسم المؤلف كاملاً، وتاريخ وفاته بالهجري والميلادي، إن كان متوفى، ثم
اسم المرجع كاملاً بالحرف الغامق إن كان عربياً وبحروف مائلة إن كان بلغة
أجنبية، وعدد الأجزاء أو المجلدات وأقسامها، إن وجدت، ودار النشر، ورقم
الطبعة، ومكان النشر، وسنة النشر، ورقم الصفحة أو الصفحات.

مثال:

حسن سعيد الكرمي (ت ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م)، الهادي إلى لغة العرب، ٤ ج، دار
لبنان للطباعة والنشر، ١٩٩١م، بيروت، ج١ ص ٢٣٩.

ج- محاضرات المؤتمرات:

يذكر اسم المحاضر كاملاً، وعنوان بحثه أو مقالته بالحرف الغامق بين
علامتي اقتباس، هكذا " " ويذكر عنوان الكتاب كاملاً، واسم المحرر أو
المحررين ويضاف إليه/إليهما كلمة "رفاقه/رفاقهما" إن كانوا أكثر من اثنين على أن
تذكر أسماؤهم جميعاً في قائمة المراجع، واسم دار النشر، ومكان النشر، وسنة
النشر، ورقم الصفحة أو الصفحات.

مثال:

شكران خربوطلي، "أوقاف دمشق وأثرها على الحركة العلمية فيها في العصر
الأموي"، المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام: الأوقاف في بلاد الشام، تحرير
الدكتور محمد عدنان البخيت، مطبعة الجامعة الأردنية، منشورات لجنة تاريخ بلاد
الشام، عمان، ٢٠٠٩م، ص ١٣-٢٧.

يذكر اسم صاحب البحث أو المقالة كاملاً، وعنوان بحثه أو مقالته بالحرف الغامق بين علامتي تنصيص هكذا " " ويذكر اسم المجلة بالحرف الغامق للمجلات العربية، وبحروف مائلة للمجلات الأجنبية، ورقم المجلد والعدد، ورقم الصفحة أو الصفحات.

مثال:

حسن حمزة، "الوضع والاشتقاق والدلالة"، مجلة المعجمية، تونس، ٢٠٠٢م، العدد ١٨، ص ٨١-٩٨.

١٦- يراعى عند الإشارة إلى الصفحة أو الصفحات المقتبس منها في الحواشي، ما يأتي:

- يوضع الرمز (ص) للدلالة على الصفحة أو الصفحات المقتبس منها إذا كان المصدر أو المرجع عربياً والحرف (p) للصفحة الواحدة، و (pp) لأكثر من صفحة إذا كان المصدر أو المرجع أجنبياً.

- يذكر اسم السورة ورقم الآية أو الآيات في متن البحث، وبرسمها القرآني.

- يذكر الحديث النبوي الشريف ومظانه ومصادر تخريجه من كتب الحديث النبوي الأصول، ويوثق كل مصدر منها توثيقاً كاملاً.

- عند ورود بيت أو أبيات من الشعر، يذكر اسم الشاعر والبحر ومصادر تخريجه.

- يذكر اسم المؤلف كاملاً عند الاستشهاد بمخطوط، ويذكر عنوان المخطوط كاملاً، ومكان وجوده، وتاريخ النسخة، وعدد أوراقها، ورقم الورقة.

١٧. تكتب أسماء الأعلام الأجنبية في متن البحث بحروف عربية (ولاتينية بين قوسين) على أن يذكر الاسم كاملاً عند وروده لأول مرة.

١٨. تكتب أسماء أعلام التراث العربي الإسلامي في متن البحث كاملة مع ذكر تاريخ الوفاة بالهجري والميلادي بين قوسين للأعلام، وتعرف المواقع في ضوء المراجع الحديثة.

١٩. توضع أرقام التوثيق بين قوسين، وتكون متسلسلة من أول البحث إلى آخره.

٢٠. يقدم كل صاحب بحث قبل النشر سيرته الذاتية في حدود (٥٠) خمسين كلمة تقريباً، تتضمن أعلى مؤهل علمي، والجامعة التي تخرج فيها، ومكان عمله، ومركزه الوظيفي واهتماماته العلمية، وعنوان بريده الإلكتروني.

٢١. يقدم إلى صاحب البحث نسخة من العدد المنشور فيه بحثه و(٢٥) مستلة من بحثه.

ترسل البحوث والمراسلات إلى المجلة على العنوان الآتي:

رئيس هيئة تحرير مجلة مجمع اللغة العربية الأردني

ص.ب (١٣٢٦٨) عمان (١١٩٤٢) الأردن

هاتف ٠٠٩٦٢٦٥٣٤٣٥٠٠

ناسوخ (فاكس) ٠٠٩٦٢٦٥٣٥٧٠٦٤

البريد الإلكتروني: jaa@ju.edu.jo

موقع المجمع على شبكة المعلومات (الإنترنت) www.majma.org.jo

- أولاً: البحوث
- ١٥
- ١٧ -١ نظريةُ البقاء في العربية النونُ نموذجاً د. يس أبو الهيجاء
- ٩٣ ٢ - النصُّ الجاحظي وإشكالاتُ التأويل د. مسالتي عبدالبشير
بحث في تجليات القراءة الاستدرجية
- ١٤١ ٣ - ما لم ينشر من شعر السراج البغدادي د. عبدالرازق الحويزي
(٤١٧ أو ٤١٨ - ٥٠٠ هـ)
- ١٩٣ ٤ - شعر سعد بن ناشب (ت ١١٠هـ / ٧٢٨م): د. حامد كساب عياط
تقديم وجمع وتحقيق
- ٢٥٣ ٥ - بناء الأسطول الأموي (النشأة والتطور) د. غيداء خزنة كاتبي
- ٣٣٧ ثانياً: أخبارٌ مجمعةٌ

البحوث

نظريةُ البقاءِ في العربيةِ "النونُ نموذجاً"

يس أبو الهيجاء

جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية

ملخصُ البحثِ

ينهضُ هذا البحثُ من فرضِ أن دراسةَ العربيةِ تتألفُ من طائفةٍ من النظرياتِ، تُشكّلُ مجموعها النظريةَ اللغويةَ العربيةَ الكليةَ. ويتغيّ هذا البحثُ الكشفَ عن وجهٍ من الوجوهِ النظريةِ في النحوِ العربيِّ، بمفهومه العامِّ، ألا وهو نظريةُ البقاءِ، وهي نظريةٌ تحاولُ تجليةَ جانبٍ من جوانبِ العربيةِ، استخداماً وتنظيراً. والبحثُ يتناولُ هيئةً من هيئاتِ هذه النظريةِ، التي تماهتْ في نظريةِ الحذفِ. ويحاولُ - ما استطاعَ - أن يُشكّلَ لها كياناً يُناظرُ كيانَ نظريةِ الحذفِ.

وقد تناولتُ في هذه النظريةِ جانباً من مسائلِ الخِلفةِ في التّوناتِ عند اجتماعها. ذلك الذي أودعَ فيه النحاةُ كثيراً من حُججهم، وعليهم، ومصطلحاتهم. ولئن لم نجدُ أحداً من اللغويينَ بعامةٍ - فيما أعلم - وقفَ على هذه النظريةِ باباً مستقلاً، ومنهجاً متكاملًا للنظرِ النحويِّ بمفهومه العامِّ فإنهم عالجوها منجّمةً في كثيرٍ من الأبوابِ النحويةِ والصرفيةِ والصوتيةِ، ونظّروا لمذاهبهم فيها.

إنّ نظريةَ البقاءِ إنما هي نظريةٌ تفسيريةٌ، وهي مناظرٌ موضوعيٌّ لنظريةِ الحذفِ، على أنّها تلجُ الظواهرَ من بابِ البقاءِ لا الحذفِ، وتتعدّدُ بالعناصرِ المتوجّهةِ بالبقاءِ. وقد عرّفها البحثُ بأنّها النظريةُ التي تقومُ على التنظيرِ لبقاءِ عنصرٍ من عناصرِ الجملةِ؛ كلمةً أو ما يمثّلها، أو حرفٍ، دونَ غيره عند اجتماعها، ممّا يشارِكُه بعلاقةٍ من العلائقِ، أو صفةٍ من الصفاتِ. وممّا لا شكَّ فيه أنّها ليستُ منفصلةً من نظريةِ الحذفِ، بل هي مستخلصةٌ من مذاهبِ

النحويين المنعكسة في تلك النظرية، وقد بين البحث الحد الذي يفصلها من نظرية الحذف.

أما عمارة هذا البحث فتنقسم إلى أربع مسائل من بقاء بعض النونات عند اجتماعها. وقد أفرّد البحث باباً لتسجيل علل النحويين في التنظير لكل مسألة من تلك المسائل، ثم أنشأ باباً ذكر فيه مصطلحات النحويين بعامّة في هذه النظرية، تصريحاً أو استخلاصاً. وانتهى إلى نقد الأسس المنطقية التي قامت عليها عند النحويين في مسألة تخفيف النون في المسائل المذكورة، وتشتيتهم مسائلها بين النحو والصرف. وأسس لنظر جديد مبني على القيم الصوتية في هذه النظرية، في المسائل التي طرحها البحث.

وبعد، فالبحت - فيما يظن الباحث - نهج يفتح للدارسين باباً، لم يكن غائباً عنهم غياباً تاماً، بل كان يختلط بغيره، ما يضيّع معالمه. ولئن تناول هذا البحث جزءاً يسيراً من نظرية البقاء، وجزءاً يسيراً أيضاً من مسائل البقاء والخلف في حرف أو صوت النون، فإن ثمة قضايا أخرى كثيرة يمكن درجها وتناولها تحت هذه النظرية، نحواً، وصرفاً، وصوتاً، بل ودلالة. والوصول فيها إلى مسالك الفكر اللغوي لدى القدماء، والسعي إلى الإفادة منه وتقويمه.

١: العربية نظريات:

ينهض البحث من فرض أنّ دراسة العربية تقوم على طائفة من النظريات، تولّف بمجموعها النظرية اللغوية بكليتها. ولا جرم أنّ تلك النظريات شادت هيكل العربية العظيم، وأوصلت معماره إلى هذا الصرح الباذخ، ومما لا شك فيه أيضاً أنه كما أنّ للصرح العظيم أسساً وقواعد ومفاصل، لا يقوم إلا بها، ولا يستوي إلا بوجودها، فإن فيه من التزيّد والعروض ما يكون أكثر جمالاً بفقده والتخلص منه.

إنَّ نظريةَ البقاءِ تقفُ بينَ النظريَّاتِ التي قامَ عليها علْمُ العربيَّةِ، ولئنْ نهضَ هذا العلمُ على نظريَّاتِ قازَّةٍ، أُحكِمَتْ صنعُها، واستُكْمِلَ منهجُها، وتضافَرَ على صقلِها علماءُ أفذاذٍ، كنظريَّةِ العَمَلِ والعاملِ، ونظريَّةِ العَلَّةِ، فقد قامَ على نظريَّاتٍ أخرى تفاوتتْ فيها الصنعةُ، وتفرقتْ بها المناهجُ كنظريَّةِ الأصلِ والفَرعِ، والحذفِ والتقديرِ، والإضمارِ والإظهارِ، والتقديمِ والتأخيرِ، والعَوَضِ والمعَوَضِ، والأصولِ المرفوضةِ، والموضعِ، والإدغامِ، والإبدالِ، والإعلالِ...، ومنها نظريَّةُ البقاءِ التي نتكلَّمُ عليها.

وإنما سُئِلَ هذه القضايا في مصطلحِ النظريَّةِ لأنها تقومُ جميعاً على أسسٍ وفروضٍ نظريَّةِ قازَّةٍ، منهجاً وتطبيقاً، انطلقَ منها اللغويونَ لتفسيرِ الظواهرِ اللغويَّةِ، التي بدتْ في استعمالِ العربِ للغتهم. والتي تشكَّلُ معاً ما يمكنُ أن يسمَّى النظريَّةُ اللغويَّةِ العربيَّةِ الكليةِ أو العامةِ.

ولو أننا نصبنا آلةً كالطائرةِ أو السيارةِ في مقابلِ النظامِ اللغويِّ، لكانَ ادِّعاءُ أنَّ المُحرِّكَ في هذه المركباتِ وأشباهها يتفرَّدُ بوصفِها خطأً كبيراً، على أساسيةِ المُحرِّكِ في عملِ هذه الآلاتِ، فهي عبارةٌ عن نظامٍ متكاملٍ، يساندُ المُحرِّكَ فيه الكثيرُ من الأنظمةِ المترابطةِ، كنظامِ الكهرباءِ، والاحتراقِ، والتوازنِ، والتبريدِ، والفراملِ... تشكَّلُ مجموعها وصفَ هذه الآلاتِ. وكذا هي اللغاتُ، فإنَّ كلَّ نظامٍ تتجلَّى فيه نظريَّةٌ عامَّةٌ تصفه، وتميِّزُ هويتهُ، ويتألَّفُ من نظريَّاتٍ جزئيةٍ واصفةٍ لهذا النظامِ، تتكاملُ في رسمِ الصَّورةِ الكليةِ له.

لم يسلكِ اللغويونَ القدماءُ مصطلحَ النظريَّةِ في كلامهم، ومن عجبٍ أنه مع كثرةِ تردادِ هذا المصطلحِ عندَ اللغويينَ العربِ المُحدثينَ، في عُنواناتهمِ ومناقشاتهمِ فإنَّه يعزُّ على الباحثِ أن يقفَ على نَظَرٍ بيِّنٍ لمفهومِ هذا المصطلحِ في التراثِ اللغويِّ العربيِّ بعامةٍ، يبيِّنُ جوانبه، وعناصرَ نقائه ومفارقتهِ للنظريَّةِ اللغويَّةِ عندَ

الغربيين، ولعلّ مصطلح النظرية في العربية يكادُ يربُغُ على قضية العملِ والعملِ، يقول د. حسن المُلخ^(١): "إنّ نظرية النحو أوسعُ من حدودِ نظرية العملِ، ولكنّ سحرَ نظرية العملِ غطّى العيونَ على الجوانبِ النظريةِ الأخرى في نظرية النحو العربي"، وهو مقارنةٌ حَقِيقِيَّةٌ للقضية.

ولعلنا بدايةً نفيّدُ شيئاً من الوقوفِ على المفهومِ العامِّ للنظرية، على الاختلافِ البينِ في تعريفها، وتفرّقِ مناهجها. وفي مُكنتنا القولُ أنّها الرّبطُ بينَ مفهومين أو أكثر، من أجلِ صياغةِ فرضيةٍ مُحكّمةٍ، لمجموعِ العلاقاتِ التي تقومُ بينَ أجزاءِ ظاهرةٍ ما، أو ظواهرَ عدةٍ، وتبيينِ المبادئِ الأساسيةِ التي تشكّلُ الظاهرةَ موضوعَ البحثِ، التي تتغيّرُ الفرضيةُ النظريةُ الكشَفَ عنها. وهي تتجاوزُ تحليلَ الواقعِ إلى التنبؤِ بحركةِ التغيّراتِ التي تطرأُ على المُعطياتِ المتشابهةِ موضوعِ التنظيرِ. ونحن ههنا معنيونَ بالجانبِ اللغويِّ من هذا التعريفِ. ولا يفوتنا أنّ هذه النظرياتِ ليست سواءً، في وضوحِ تلكِ العلاقاتِ، ولا في المقدرةِ على تفسيرها والكشفِ عنها، ومواءمتها للروايزِ. وينبني على هذا تفاوتُ النظرياتِ في إحكامها، والقَبولِ بنتائجها.

وإذا كانت اللغةُ نظاماً متكاملأً من الأصواتِ والبنى والتراكيبِ والدلالةِ فإنه يلزمُ اللغويينَ أن يعكسوا فرضياتِ أو نظرياتِ تجلّي تفاصيلِ هذا النظامِ، وتكوّنُ النظريةَ الكبرى التي تشكّلُ هويته. فالنظرياتُ من جانبٍ آخرَ على ما يقولُ الدكتور عبدالدايم^(٢): "هي تلكِ الفروضُ الذهنيةُ التي يضعها العلماءُ في تحديدهم لأنظمةٍ؛ أي أنّ النظرياتِ هي المقابلُ الذهني الذي يضعه العلماءُ لأنظمةٍ التي تقومُ في الظاهرةِ نفسها، لا في عقولِ العُلَماءِ". ولعلّ في هذا يكونُ جوابُ سؤالِ

١. المُلخ، حسن، التفكير العلمي في النحو العربي، الاستقراء، التحليل، التفسير، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان، ط١، ٢٠٠٢: ٣٧.

٢. محمد عبدالعزيز عبدالدايم، النظرية اللغوية في التراث العربي، دار السلام، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦: ٣٣.

الدكتور كمال شاهين^(١): "نحن لا ندري ما النظرية اللغوية التي استند إليها قدماء النحاة في دراستهم للنظام اللغوي، ولا ما منهج الدرس اللغوي العربي القديم؟" وقد وقف الدكتور عبدالدايم على آراء المستشرقين الذين درسوا العربية على هذا المنهج، وعلى رأسهم فرستينغ، في ترجمته وتعليقه على كتاب "علل النحو للزجاجي"، الذي عنون لكثير من موضوعاته بالنظرية^(٢). كما تكلم على نظرية الفئات أو الأجناس النحوية في كتابه^(٣): Greek Elements in Arabic Linguistic Thinking، ملامح يونانية في الفكر اللغوي العربي. وممن ذكّر على هذا المنهج تالمون (Talmon)، وجونثان أوينز (Jonathon Owens)^(٤).

إن المقصود بنظرية قضية البقاء إنما هو إبرازها والتركيز عليها، ولم شتاتها، ثم إخضاعها للدراسات التي تستخلص المبادئ الأساسية لهذه النظرية، في مختلف الميادين اللغوية التي تتمظهر فيها، كجزء من النظرية اللغوية العربية العامة، في مقابل نظرية الحذف. ولا بد في ذلك من الوقوف على المنهج الذي عالج به القدماء هذه النظرية، وتحليل تعاليلهم، والأصول التي استندوا إليها في التنظير لهذه القضية، وتسجيل مصطلحاتها عندهم، أو استنباطها، ثم العبور بمسائلها إلى تفسير متوازن، يخلصها مما علق بها من تأويلات وتعليقات، بعيدة من اللغة ومسالكتها.

-
١. شاهين، كمال، نظرية النحو العربي القديم، دراسة تحليلية للتراث اللغوي العربي، من منظور علم النفس الإدراكي: ٥٧. وينظر: النظرية اللغوية: ٧٧.
 ٢. ينظر: النظرية اللغوية: ٤٧، كما ينظر أيضاً: Az- The explanation of Linguistic Causes Versteegh, Kress, Zggajys Theory of Grammar Introduction.
 ٣. النظرية اللغوية: ٤٧، وينظر: ملامح يونانية في الفكر اللغوي العربي، فرستينغ، كيس، ترجمة محمود كناكري، عالم الكتب الحديث، الأردن، إربد، ط٢، ٩١: ٢٠٠٣.
 ٤. ينظر: النظرية اللغوية: ٤٧، وما بعدها.

أما عمارة هذا البحث فتنقسم إلى أربع مسائل من مسائل البقاء والخلفة في النون، وتلي بعض المسائل ملحقات. وفي ذيل كل مسألة باب لتسجيل العلة الواردة في البقاء، موضوع المسألة، حتى يسهل حصرها، وتبيين الأسس النظرية التي قامت عليها المسألة. ثم يلي هذه المسائل جميعاً بابٌ مُستقلٌ لتسجيل المصطلحات التي استخدمتها النحاة في التنظير لهذه القضية بعامّة. وقد جاءت مسائل البحث على النحو الآتي:

- الأولى: اجتماع نون النسوة، مع نون الوقاية.

- الثانية: اجتماع نون الرفع مع نون الوقاية.

- الثالثة: اجتماع نون الأحرف الناسخة وحرفي الجرّ "من" و"عن"، أو وبعض الظروف مع نون الوقاية.

- الرابعة: اجتماع نون الأفعال الخمسة مع نون التوكيد.

بادئاً يمكننا أن ننتقظ معالم نظرية البقاء في كثير من أنظار النحويين ومفهوماتهم قديماً ومحدثين، فهي قضية مُستطيلة، تتبدى في أصول منهجهم، وفي تطبيقاتهم. على أنها أشتات، تفرقها الظواهر النحوية والصرفية بمفهومها الشامل، وتتعاورها العلة، ولكنها تآررُ إلى أصلٍ هو أقرب إلى المنطق منه إلى طبيعة اللغة.

ولئن لم نجد أحداً من اللغويين بعامّة - فيما أعلم - وقف على هذه النظرية باباً مستقلاً ومنهجاً متكاملًا للنظر النحوي أو الصرفي فإنهم عالجوها منجماً في كثير من الأبواب النحوية والصرفية، ونظروا لمذاهبهم فيها. وقد تناولوها من باب الحذف لا البقاء. فهي نظرية - في جلتها - منعكسة. وهي، بعد، ليست ابتكاراً بقدر ما هي توصيفٌ لظاهرة لغوية، حالت في كثير من تحليلات اللغويين وتوصيفاتهم.

ولعلّ هذا البحث يترك الباب مُشرعاً لمن أراد أن يعالج الكثير من جوانب النحو أو الصرفِ بمعناه الواسع، ممّا يندرج ضمن هذا المفهوم، تحت عباءة هذا المنهج المستحدث؛ لتعدو هذه النظرية بيّنة المعالم.

إنّ نظرية البقاء إنما هي نظرية تفسيرية، وهي مناظرٌ موضوعيٌ لنظرية الحذف، على أنّها تلج الظواهر من باب البقاء لا الحذف، وتتعدّد بالعناصر المتوّجة بالبقاء. ولئن كان ضربة لازب - في هذه النظرية - أنّ كلّ بقاء يناظره حذفٌ عضويٌّ، فليس كلّ حذفٍ بعامةٍ يوازيه بقاءً، بعد تنحية السياق وتجلياته، ولعلّ هذا من أميز معالم هذه النظرية.

وعليّ بديناً أنّ أدلّف خطوةً أخرى في تحديد معالم القصد - المفترض - لهذه النظرية، فهي النظرية التي تقوم على التعليل لبقاء عضوٍ أو عنصرٍ من عناصر الجملة؛ كلمةٍ أو ما يمثّلها، أو حرفٍ، دون غيره عند اجتماعها، ممّا يشاركه بعلاقةٍ من العلائق، أو صفةٍ من الصفات.

وسأتناول هنا جانباً من هذه النظرية؛ إذ سأقفُ منها على هيئةٍ من اجتماع النونات، وتشكلاتها الوظيفية في هذا الباب؛ سواءً كانت هذه النونُ حرفَ معنى أم ضميراً، أم حرفَ إعرابٍ، وبقاءً إحداها. فالنونُ من أكثر الأصوات العربية استعمالاً، وتفاعلاً، وهي، بعد، من أبرز النماذج في هذه النظرية.

١:٢: المسألة الأولى: اجتماع نون النسوة، مع نون الوقاية:

لعلّ سببويه أولٌ من عرضَ لقضية البقاء في هذه المسألة، إذ قال^(١): "وإذا كان فعلٌ الجميع مرفوعاً ثم أدخلت فيه النون الخفيفة أو الثقيلة حذفت نون الرفع، وذلك قولك لتفعلنّ ذاك... لأنه اجتمعت فيه ثلاث نونات، فحذفوها استتقالاً... وقد

١. سببويه، أبو بشر، عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، ط٣، ١٩٩٨: ٥١٩/٣-٥٢٠.

حذفوها فيما هو أشدُّ من ذا^(١)، بلغنا أنَّ بعضَ القراءِ قرأ^(٢) ﴿اتَّحَاوَنِي﴾ الأنعام: ٨٠،
٨٠، وكان يقرأ^(٣) ﴿هَبِم تَبَشَّرُونَ﴾ الحجر: ٥٤، وقال عمرو بن مَعَدٍ يَكْرِبُ:

تَرَاهُ كَالنَّعَامِ يُعَلُّ مِسْكَاً يَسُوءُ الْفَالِيَّاتِ إِذَا فُلِّيَنِي
يريد "فليئني".

فسيبويه في هذا النصِّ القصيرِ يعرضُ للقضيةِ بمجملها؛ إذ يذكرُ اجتماعَ
نونِ الرفعِ مع نونِ التوكيدِ، ونونِ الوقايةِ، وهو يجعلُ البقاءَ لنونِ الوقايةِ والتوكيدِ.
ثم نراه يسجِّلُ شاهداً اجتمعتُ فيه نونُ الوقايةِ مع نونِ النسوةِ، وبقيت إحداهما، ولم
يصرِّح ببقاء أيٍّ منهما.

أما من حيثُ القضيةُ فإنِّي استهلَّها كما بدتْ في الشاهدِ المَسْكُوتِ عنه،
فأعرضُ بادئاً لقضيةِ البقاءِ في مسألةِ اجتماعِ نونِ النسوةِ مع نونِ الوقايةِ، وأرجئُ
سائرَ المسائلِ التي تحتاجُ إلى وقفةٍ أطولٍ؛ حتى يتسنى لنا الوقوفُ على جوانبِ
هذه القضيةِ، وتحليلِ معالمِ نظريةِ البقاءِ فيها.

١. يعني أنهم حذفوها من نونين.

٢. هذه قراءة نافع وابن هشام وذكوان والداجوني في جُلِّ طرقه، وأبي جعفر، وقرأها الباقر بالنون
المشددة. ينظر: السبعة في القراءات، ابن مجاهد، أبو بكر، أحمد بن موسى، تحقيق: شوقي ضيف،
دار المعارف، مصر، ط٢، ١٤٠٠هـ: ٢٦١. وحجة القراءات، ابن زنجلة، عبدالرحمن بن محمد،
تحقيق: سعيد الأفغاني، دار الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٢: ٢٥٧. والبحر المحيط، أبو حيان، محمد
بن يوسف، تحقيق: عادل عبدالوجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١: ١٧٤/٤.
الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، محمد بن أحمد، دار التراث: ٢٩/٧. و"إتحاف فضلاء البشر في
القراءات الأربع عشر"، الدمياطي، شهاب الدين، أحمد بن محمد، تحقيق: أنس مهرة، دار الكتب
العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨: ٢٦٧/١.

٣. الحجر: ٥٤. وهي قراءة نافع، وقرأ ابن كثير بالتشديد.

بادئاً لم تجتمع نون النسوة مع نون الوقاية في القرآن الكريم مطلقاً^(١). وإذا كان سيبويه - كما ذكر - لم يحدّد أيّ النونين الباقية في الشاهد، فقد جعلها أبو سعيد السيرافي نون الضمير، وعلّل بقاءها؛ فقال^(٢): "وينبغي أن تكون النون المحذوفة النون التي مع الياء الثانية، لا التي مع الياء الأولى في "قلّينّي"، فهي ضميرُ الفاعلات، والنونُ الثانيةُ لغير معنى، لا يُخلّ سقوطها بالكلام". وعلّل ابنه الكسرَ في نون الضمير^(٣): "فإن قال قائل: فالنونُ التي هي علامةٌ مبنيةٌ على الفتح، والنونُ التي مع الياء مكسورة، وهذه النونُ الباقيةُ مكسورة، فينبغي أن نجعلها النونَ التي تُستعملُ مكسورة، ولا نجعلها النونَ التي هي مبنيةٌ على الفتح، ثم كُسرَتْ لما حذفتْ النونُ مع الياء. قيلَ له لا يُنكرُ أن تُكسرَ النونُ التي هي علامةٌ إذا وقعتْ بعدَ الياء، وقد رأيناهم فعلوا مثلَ هذا في قولهم "ليتي"، حينَ اضطرُّوا فكسروا "تاء" "ليت"، وهي مبنيةٌ على الفتح".

وكان عرضُ الأخفش للشاهد المذكور، وذهب إلى بقاء نون الضمير، قال^(٤): "فحدّف النونَ الآخرة؛ لأنها النونُ التي تزداد ليترك ما قبلها على حاله، وليست باسم، فأما الأولى فلا يجوزُ طرحها، فإنها الاسمُ المضمّر". وتبعه المُبرّد

١. وينظر: عُزيمة، محمد عبدالخالق، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة: ٤/٣: ٣٤٩.

٢. السيرافي، أبو سعيد، شرح كتاب سيبويه، تحقيق: أحمد مهدي، وسيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م، ٤/٢٥٤. وينظر: ابن أبي سعيد السيرافي، يوسف، شرح أبيات سيبويه، تحقيق: محمد علي سلطاني، مطبعة الحجاز، دمشق، ١٩٧٦م: ٢/٣٠٣-٣٠٤. والشنتمري، الأعم، "تحصيل عين الذهب من معدن جواهر الأدب، في علم مجازات العرب"، تحقيق: زهير سلطان، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٩٢م: ٥٢٠.

٣. ابن أبي سعيد السيرافي، يوسف، شرح أبيات سيبويه: ٢-٣٠٣-٣٠٤.

٤. الأخفش الأوسط، سعيد بن مسعدة، معاني القرآن، تحقيق: هدى قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٩٠م: ١/٢٥٤.

(٢٧٧هـ)^(١). والأخفش يَعُدُّهُ من بابِ الاضطرارِ، إذ نَقَلَ عنه السَّمِينُ الحلبيّ (٧٥٦هـ) - في المسألةِ نَفْسِهَا - قولَهُ في بيتِ مُتَمِّمِ بنِ نُؤَيْرَةَ^(٢):

ولقد عَلِمْتُ ولا مَحَالَةَ أَنَّنِي لِلْحَادِثَاتِ فَهَلْ تَرَيْنِي أَجْرَعُ

"فهذا يجورُ على الاضطرارِ".

وخالفَ الرَّجَاجُ، وجعلَ البقاءَ للنونِ الثانيةِ، إذ قالَ عندما عرضَ لقولِهِ تعالى: ﴿يُعْجِزُونَ﴾ الأنفال: ٥٩^(٣): "فَتُحُّ النُّونِ الاختيَارُ، وَيَجورُ كسْرُهَا على أن يكونَ المعنى أَنهم: لا يُعْجِزُونَنِي، بحذفِ النونِ الأولى لاجتماعِ النونينِ، وذكر: "تراه كالثغام... البيت". والظاهرُ من كلامِ الرَّجَاجِ أَنَّهُ لا يَفَرِّقُ - في هذه المسألةِ - بينَ نونِ الضميرِ ونونِ الرفعِ، فهو يَنْكَلِمُ على نونِ الرفعِ في الآيةِ، ويضمُّ الشاهدَ إليها. ولم يخصَّصْ علَّةً للبقاءِ أو الحذفِ ههنا".

وأبو عليٍّ يَنْفُضُ مذهبَ الرَّجَاجِ، فلا يجورُ عندهُ أن يكونَ البقاءُ للنونِ الثانيةِ^(٤): "لأنَّ الاستتقالَ يَقَعُ بالتكريرِ في الأعمِّ... فالمحذوفةُ المصاحبةُ للياء؛ ليسلمَ سكونُ لامِ الفعلِ، وما يَجري مجراها أو حركتها، ولا يجورُ أن تكونَ الأولى هي المحذوفةُ، فيبقى الفعلُ بلا فاعلٍ". وتبعه على هذا الحذفِ تلميذهُ ابنُ جنِّي؛ إذ

١. ينظر: السيوطي، جلال الدين، الأشباه والنظائر، تحقيق: عبدالعال سالم مكرم، عالم الكتب، ط٣، ٢٠٠٣، ٨٥/١.

٢. السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدرر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد الخراط، دار القلم، دمشق: ٦٢٦/٥، والبيت في المفضليات، للضبي، محمد بن يعلى، تحقيق: أحمد شاکر، وعبدالسلام هارون، ط٦، بيروت، لبنان: ٥٣.

٣. معاني القرآن: ٤٢٢/٢.

٤. وينظر: الفارسي، أبو علي، الحسن بن عبدالغفار، الشيرازيات، تحقيق: حسن هندأوي، كنوز إشبيلية، السعودية، ط١، ٢٠٠٤م: ٧٣/١.

قال^(١): "وأما قَلْبِيَّيْ فَحُذْفُ الأُولَى مِنْهُ أْبَعْدَ فِي الجَوَازِ؛ لِأَنَّهَا عَلامَةُ الأَسْمَاءِ المُضْمَرَةِ".

ونرى مَلْحَمًا جَدِيدًا عِنْدَ أَبِي عَلِيٍّ فِي بَقَاءِ نُونِ الضَّمِيرِ؛ إِذْ يَقُولُ بِحُذْفِ النُّونِ المَسْمُومَةِ بِالوَقَايَةِ ههنا لعلتين: أولهما صوتيةٌ مكانيةٌ، فالاستتقالُ لا يكونُ بادئًا، فلزِمَ حذْفُ ما أدى إليه وهو الثانيةُ، والعلَّةُ الثانيةُ تركيبيةٌ، إذ حذفتُ نونَ النسوةِ يُعَلَّقُ الفَعْلُ بلا فاعلٍ.

وذهب ابنُ مالكٍ مذهبَ الزجاجِ، وعلَّلَ مذهبه فقال^(٢): "ولما كانَ للفعلِ بهذه النونِ صوتٌ ووقايةٌ ممَّا ذكرَ حُوفِظَ على بقائها مطلقاً إذا تَقَيَّها مثلُها، ودعت الحاجةُ إلى حذْفِ"، وحملَ مذهبَ سيبويه على هذا، وأردفَ: فهي الباقيةُ عندَ سيبويه في قولِ الشاعر: "تراه كالثَّغَامِ...." فحذفتُ الأُولَى وبقيت الثانيةُ، كما أنَّها هي الباقيةُ في "أفغيرَ الله تأمروني". وهذا مذهبٌ مخالفٌ لما نُسِبَ إلى سيبويه، فضلاً عن أنَّه قياسٌ مختلفٌ، كما سنعلمُ.

ووقفَ أبو حيانَ (٧٤٥هـ) موقفَ أبي عليٍّ وقال معللاً اختياره^(٣): "لأنَّ نونَ الإناثِ اسمٌ ضميرٌ فاعلٌ، ونونُ الوقايةِ حرفٌ، وجيء به ليقى الفعلُ من الكسرِ، فالذي كانَ يقتضيه القياسُ أن كلَّ ما اتصلَ بالفعلِ، ممَّا كانَ يمكنُ كسره فلا يصلُ الكسرُ إلى الفعلِ بسببه، أن لا يؤتى فيه بنونِ الوقايةِ، لكن كانَ يعرضُ لئسأً في بعضِ الصورِ...، أما في نحو "ضربنني" فلو لم يؤت بنونِ الوقايةِ، واجتزأ بكسرِ النونِ، التي هي ضميرٌ لم يُلبسِ، فجاء قولهم: "قَلْبِيَّيْ"، تنبيهاً على ما كان

١. ابن جني، أبو عثمان، المنصف، تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبدالله أمين، وزارة المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٥٤: ٣٣٨/٢.

٢. ابن مالك، جمال الدين، شرح التسهيل، تحقيق: عبدالرحمن السيد ومحمد المختون، هجر للطباعة والنشر، مصر، ط١، ١٩٩٠م: ١٤٠/١.

٣. التنزيل والتكميل: ١٩٢/٢.

ينبغي أن يكونَ، وذلك في الضرورة. فالأولى أن يُعتدَّ أن المحذوفة هي نونِ الوقاية، وأنَّ المثبَّة هي نونُ الضميرِ العائد على الفاليات".

وهنا لفتةٌ لأبي حيَّانٍ في تبينِ أصلِ الضرورة عندَه في هذه المسألة؛ إذ هي كسرُ نونِ الضميرِ الذي ألجأ إليه حذفُ نونِ الوقاية، تنبيهاً على الأصلِ الذي ذَكَر. وممن جعلَ هذا من بابِ الضرورة أيضاً: القيرواني^(١) والثمانيني^(٢) والرضي^(٣).

وابنُ هشامٍ (ت ٧٦١هـ) يقرُّ أصلاً من أصولِ البقاء، إذ يقول^(٤): "إذا دار الأمر بينَ كونِ المحذوفِ أولاً أو ثانياً، فكونُهُ ثانياً أولى". وهو يظاهرُ مذهبَ الجمهورِ، فيقول^(٥): "هذا هو الصحيحُ، وفي البسيطِ^(٦) أنه مجمعٌ عليه؛ لأنَّ نونَ الفاعلِ لا يليقُ بها الحذفُ". وقال الدلائي^(٧): "وقاله من لا يُحصي كثرَةً".

١. القزاز القيرواني، محمد بن جعفر، ما يجوز للشاعر في الضرورة، تحقيق: رمضان عبدالنواب، وصلاح الدين الهادي، دار العروبة، الكويت: ٣١٨.

٢. الثمانيني، عمر بن ثابت، القواعد والفوائد، تحقيق: عبدالوهاب الكحلة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م: ٤١٣.

٣. الرضي، الأسترابادي، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب، تحقيق: عبدالعال سالم مكرم، عالم الكتب، ط ١، ٢٠٠٠م: ١٩٦/٣.

٤. ابن هشام الأنصاري، جمال الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق: مازن المبارك وآخرين، دار الفكر، دمشق، ط ٦، ١٩٨٥: ٨٠٩.

٥. المغني: ٨٠٩.

٦. وهو كتاب لضياء الدين بن العليج، ذكر السيوطي أنَّ أبا حيَّانٍ وأتباعه أكثرُوا من النقل عنه، ولم يقف له على ترجمة. ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن، المكتبة العصرية، لبنان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم: ٣٦٦/٢.

٧. الدلائي، محمد بن أبي بكر، نتائج التحصيل في شرح كتاب التسهيل، تحقيق: مصطفى العربي: ٥٨٠.

ويقول الدكتور زيد القرآلة^(١): "ولم أجد حُجَّةً مُطَرِدَةً عند العلماء في خلافهم"، والواقع - كما رأينا - يؤكدُ أَنَّ حَجَّتَهُم مُطَرِدَةٌ في هذا، ومبنيَّةٌ على قِيَمٍ مُحدَّدة، وإن لم يُعَدَمِ الخلاف.

ويمكننا أَنْ نخلصَ في قضية البقاء من المسألة الأولى إلى أَنْ جُلَّ النحويين انتهوا فيها إلى أَنَّ اجتماعَ نونِ النسوةِ (الضمير) ونونِ الوقاية، وبقاءَ إحداهما لا بدَّ أَنْ يكونَ الباقي نونَ الضمير.

وقد رأينا سيبويه يُعمِّضُ المسألة، على أن النحاةَ بعده يستون خلفَ هذا الرأي، إلا ما رأيناه من مخالفةِ الزجاج، وابنِ مالكٍ في تفسيره كلامَ سيبويه. والحذفُ كما بدا ضرورةً، وقد بيَّن أبو حيانَ أصلَ هذه الضرورة.

٢:١:١: عللُ البقاءِ بينَ نونِ الضميرِ ونونِ الوقاية:

أما عللُ البقاءِ في هذه المسألة فأبرزُها في نونِ النسوةِ (الضمير) القيمةُ التركيبيةُ لنونِ النسوةِ، في مقابلِ علةٍ ضعيفةٍ لنونِ الوقاية. إذ هي اسمٌ، جاءَ لمعنى، يُخلِّ سقوطةً بالكلام، وأنَّ الاستتقالَ يقعُ بالتكريرِ، فالبقاءُ للسابقِ، ونونُ الوقايةِ هي المُكرَّرةُ، وهذه علةٌ صوتيةٌ.

وفي مقابلِ ذلك وجدنا عللاً أقلَّ في التنظيرِ لبقاءِ نونِ الوقاية. وهي أنها ثاني المُكرَّرِ المستقلِّ، كما تبينَ من مذهبِ الزجاج، وهي علةٌ صوتيةٌ. وأنها صوتٌ ووقايةٌ للفعلِ، على مذهبِ ابنِ مالك، وهي ههنا علةٌ صوتٌ صرفيةٌ.

٣: المسألةُ الثانيةُ: اجتماعُ نونِ الرفعِ معَ نونِ الوقاية:

وقد رأينا سيبويه يعرضُ لها آنفاً^(٢)، عند كلامه على نونِ التوكيد؛ إذ قال: "... وقد حذفوها فيما هو أشدُّ من ذلك"^(٣)، بلغنا أن بعضَ القراء قرأ "اتحاجوني"

١. القرآلة، زيد، نون الوقاية: التسمية والوظيفة اللغوية، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد (٤)، العدد (٤)، تشرين الأول، ٢٠٠٨: ١٥٢.

٢. وينظر الكتاب: ٥١٩/٣-٥٢٠.

٣. يعني أنهم حذفوها من نونين.

الأنعام: ٨٠، وكان يقرأ^(١) "فيم تبشرون" الحجر: ٥٤. ويجعلها من قراءة الموثوق بهم، ويردّف قائلاً: "وهي قراءة أهل المدينة، وذلك لأنهم استنقلوا التضعيف". فهو يقرّ ببقاء النون الثانية، وحذف نون الرفع، على أنه لا يعلّل ذلك بأكثر من العلة الصوتية، التي هي الاستتقال.

وقال النحاس (ت ٣٣٨هـ)^(٢): "وُحكي عن أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٩هـ) أنه قال: "هو لحنٌ... قال أبو عبيدة: وإنما كرهه التثقيب من كرهه للجمع بين ساكنين، وهما الواو والنون فحذفوها". وأبو عبيدة هنا ينحى في الحذف منحىً جديداً، يتجاوز تقلّ اجتماع المثليين إلى النقاء الساكنين، وهو يبني هذا على أنّ الصيغة الأصلية في هذه البنية إنما هي المشدّدة.

وجعل الفراء التخفيف في هذه القراءة على نية التشديد؛ إذ قال^(٣): "وقد كسر أهل المدينة، يريدون أن يجعلوا النون مفعولاً بها. وكأنهم شدّدوا النون، فقالوا: "تبشروني" ثم خففوها، والنية على تثقيبها، كقول عمرو بن معد يكرب:

تراه كالثغام
.....

وميزة هذا الرأي أن لا بقاء فيه ولا حذف؛ لأنّ المخففة هي عينُ المشدّدة، وهو لا يدرك بالخطّ.

وقايس الأَخفشُ التخفيف في القراءة الثانية، قال^(٤): "وقد قرأ بعضُ القراءِ 'بم تبشرون'، أراد: تبشروني، فأذهب إحدى النونين استنقلاً لاجتماعهما، كما قال: ما أَحسّتْ منهم أحداً، فألقوا إحدى السينين استنقلاً، فهذا أجدرُّ أن يستنقل؛ لأنهما جميعاً متحركتان". ونرى هنا إعراض الأَخفش عن تقرير المحذوفِ منهما، فضلاً

١. الحجر: ٥٤. وهي قراءة نافع، وقرأ ابن كثير بالتشديد.

٢. النحاس أبو جعفر، إعراب القرآن، تحقيق: الدكتور زهير زاهد، عالم الكتب، ط ٣، ١٩٨٨م: ٧٨/٢.

٣. الفراء، يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق: أحمد نجاتي وآخرين، دار السرور، لبنان: ٨٩/٢-٩٠.

٤. إعراب القرآن: ٢٥٤/٢.

عن عدم تعليل حذفه بأكثر من الاستتقال. كما أعرض أبو عبيدة من قبل؛ إذ قال في القراءة نفسها^(١): "قوم يكسرون النون، وكان أبو عمرو يفتحها، ويقول: إنها إن أضيفت لم تكن إلا بنونين؛ لأنها في موضع رفع، فاحتج من أضافها بغير أن يلحق فيها نونا أخرى، بالحذف؛ حذف أحد الحرفين، إذ كانا من لفظ واحد.. وذكر بيت أبي حية النميري:

أبالموت الذي لا بد أني...

وبيت عمرو بن معد يكرب".

على أن السمين الحلبي (٧٥٦هـ) يُسند للأخفش حُجَجاً في بقاء نون الرفع وحذف نون الوقاية؛ إذ ينقل عنه^(٢): "أن الثقل إنما حصل بالثانية، ولأنه قد استغني عنها، فإنه أتى بها لتقي الفعل من الكسر، وهو مأمون؛ لوقوع الكسر على نون الرفع؛ ولأنها لا تدل على معنى، بخلاف نون الرفع. وأيضاً فإنها تُحذف في نحو: "ليتي"، فيقال: "ليتي". وعلى الأرجح أن هذا من تعاليل المتأخرين. ومن عجب أن ابن مالك ينقل عن الأخفش ما ينقض هذا المذهب، كما سنرى.

ونقع عند الأخفش ههنا - كما رأينا في المعاني - على مذهب آخر في الحذف؛ إذ جعل الأصل في الصيغة توالي النونين المتحركتين، فالحذف جاء بعد فك التشديد، وليس كما رأينا عند سيبويه وأبي عبيدة، ولا عند الفراء؛ إذ لا حذف عنده. وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن في كلام الأخفش مسألة أخرى من مسائل نظرية البقاء، ألا وهي البقاء في حروف المباني، في نحو: "أحسنت"، على أنها ليست من همتا ههنا.

١. أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تحقيق: فؤاد سزكين، مكتبة محمد الخانجي، مصر:

٣٥٢/١-٣٥٣.

٢. الدر المصون: ١٨/٥.

وأَسَدُ ابنِ يَسْعُون (ت ٥٤٠هـ) إلى المُبَرِّد^(١): "أنه يرى فيما كان مثل هذا بقاء النون الأولى وحذف الثانية؛ لأنها إنما زِيدت مع الياء في الواحد ليسلمَ قبلها حرفُ الإعراب".

والنحاس في القراءة الثانية "فبم تبشرون" يبيِّن مذهبي أبي عمرو وسيبويه^(٢): "وَحُكِيَ عن أبي عمرو بن العلاء أَنه قال: كَسُرُ النونِ لَحْن، يذهبُ إلى أَنه لا يُقال: "أنتم تقوموا"، فيحذفُ نونَ الإعرابِ.. والأصلُ عند سيبويه "فبم تبشرون" بإدغام النون في النون، ثم استثقلَ الإدغامَ فحذفَ أحدَ النونين، ولم يحذف نونَ الإعرابِ كما تأوَّل أبو عمرو، بل حَذَفَ النونَ الزائدة". وههنا مسألةٌ أَلصَقُ، فعلى الرغم من ميكانيكية التخفيف في الصَوْتِ المُدغم، وعُسْرِ الفصلِ بينَ الحرفين إلا أَنَّ النحاسَ يشرِّحُه، ويقرِّرُ الخالفَ والمخلوفَ، ويبيِّن حُجَّةً هي إلى المنطقِ أقربُ منها إلى طبيعةِ اللغة. ثم نجدُه يحدِّدُ علَّةَ حذفِ النونِ الثانية؛ إذ ينعثها بالزائدة. وأردف: "فأما "تأمروني"^(٣) بنون واحدةٍ مخففةٍ فإنما يجيءُ مثله شاذًّا في الشعر، وأبو عمرو بن العلاء رحمه الله يقولُ لَحْنٌ".

وتعليلُ النحاس لردِّ أبي عمرو لهذه القراءة أَنه لا يقالُ "أنتم تقوموا" إصابةً بالغةً لجوهرِ المسألةِ عنده، على أَنَّ قياسَ أبي عمرو ليس صائباً، لأنَّ العلةَ التي حُذفت إحدى النونين من أجلها ليست موجودةً في المثالِ الذي قاسَ عليه، ودفعه إلى ردِّ الحذفِ.

وجعلَ أبو عليّ التشديدَ أصلَ المسألة؛ إذ يقول^(٤): واختلفوا في تشديدِ النونِ وتخفيفها من قوله تعالى: (أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ) (تَأْمُرُونِي) لا نظَرَ في قولٍ من شَدَّد.

١. ابن يسعون، يوسف بن بيقى، المصباح لم أعتَم من شواهد المصباح، تحقيق: محمد الدعجاني،

الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط١، ٢٠٠٨: ٥١٠/١.

٢. إعراب النحاس: ٣٨٣/٢.

٣. الزمر: ٦٤.

٤. الفارسي، أبو علي، الحسن بن عبدالغفار، الحجة للقراءات السبع، تحقيق بدر الدين فهوجي، وبشير

جويجاتي، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ٣: ٣٣٣/١٩٨٤.

ويردُفُ: "فأما وجهُ التخفيفِ فإنَّهما حذفَا النونَ الثانيةَ لالتقاءِ النونينِ، والتضعيفُ يُكره، فيُتوصَلُ إلى إزالتهِ تارةً بالحذفِ، نحو "عَلَمَاءُ بَنِي فلان"، وتارةً بالإبدال، نحو:

لا أَمَلَاهُ حَتَّى يُفَارِقَا

... فَحَدَفَا الثانيةَ من المثل كراهةً التضعيفِ. ولا يجوزُ أن يكونَ المحذوفُ النونَ الأولى؛ لأن الاستتقالَ يقعُ بالتكريرِ في الأمرِ الأعمِّ. والأولى أيضاً فيها أنها دلالةُ الإعرابِ، وإنما حُذفتِ الثانيةُ كما حذفتها من "ليتي"، في قوله:

... إذ قَال لَيْتِي أَصَادِفُهُ وَأَتْلَفُ بَعْضَ مَالِي

... كما لا تحذفُ الأولى في "أتحاجوني" لأنها الإعراب... وقد جاءَ حذفُ هذه النونِ في كلامهم، قال:

"أَبَالْمَوْتِ الَّذِي لَا بَدْءَ لِي... .. تَخَوَّفِينِي

... وزعمَ بعضُ البصريينِ في حذفِ هذه النونِ أنها لغةٌ لغطفان... وأما قراءةُ نافعٍ "فبم تبشرون" فإنه أراد "تبشروني" وتعديةُ الفعلِ إلى المضمَرِ المنصوبِ؛ لأنَّ المعنى عليه، فأثبت ما أخذ به غيره من الكسرةِ التي تدلُّ على الياءِ المفعولةِ، وحذفَ النونَ الثانيةَ؛ لأنَّ التكريرَ بها وقعَ، ولم يحذفِ الأولى التي هي علامةُ الرفعِ، وقد حذفوا هذه النونَ في كلامهم لأنها زائدة، ولأنَّ علامةَ الضميرِ الياءِ دونها".

وإذا وقفنا على كلامِ أبي عليٍّ تبينَ لنا إضافةُ إلى جعله التشديدَ الأصلَ في هذه البنيةِ أنه ذهبَ إلى أنَّ الحذفَ جاءَ من الصيغةِ المفككةِ. ثم نراه يعرِّجُ بالمسألةِ إلى أفقٍ آخر؛ إذ يذكرُ زعمَ البصريينِ أنه لغةٌ لغطفان. وقد جعلها عبده الراجحيُّ في قيسِ عيَّلان، وأردف^(١): "كما أنها من القبائلِ الباديةِ التي كانت تسكنُ مجاورةً لطبيِّ،

١. الراجحي، عبده، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٦م: ١٥٤.

والبدو يميلون إلى السهولة والسرعة في الكلام، ومن هنا كان الحذف". ولعلّ هذا من أكبر آفات النحو في الكثرة الغالبة من مسائل الخلاف، فجلّ اللغويين يستريضون بتقييد الظاهرة اللغوية بلهجة من اللهجات، أو قبيلة من القبائل، أو بقعة من البقع، ولا يتقدمون في سبيل ذلك خطوة واحدة، ليتحققوا من هذه الظاهرة.

على أنه في الشيرازيات جعل الحذف من الصيغة المشددة؛ وقيسها على التخفيف في "الدني" و"إن" (١).

وابن جنّي في "المنصف" يقفو مذهب أستاذه أبي علي - كما سجّله في الحجّة - في هذه المسألة، وتعليلها، فهما ينطلقان من فلسفة واحدة في بقاء هذه النون (٢).

على أنه يجدر الوقوف على مسألة غاية في الأهمية، وهو التناقض الذي يبدو في النصوص التي أثبتها المحققون لابن جنّي في المنصف، يستوي في ذلك التحقيق المشهور لإبراهيم مصطفى وزميله (٣)، والتحقيق الصادر عن دار الكتب العلمية (٤). فبعد أن بيّن ابن جنّي مذهبه الذي تابع فيه أستاذه، يبرّر نصّ بادي الغرابة، جاء فيه: "وقرأ بعضهم: قال: أتأجوني في الله"، فحذف النون الأولى التي هي علم الرفع، يقول: "هو يمكّني" فيحذف الضمة للتخفيف، كذلك يحذف النون للتخفيف، ولا يجوز أن تكون المحذوفة الثانية؛ لأنها من الاسم المضمّر، ولا يمكّن حذفها". فهو هنا - كما يبدو - ينقلب على مذهبه، الذي ذهب إليه، قبل قليل. وقد بنى الدكتور زيد (٥) على هذا النصّ حكماً باضطراب ابن جنّي، بعد أن قال بقاء نون الرفع وحذف نون الوقاية في "تخوفيني" (٦).

١. الشيرازيات: ٧٤/١.

٢. ينظر: المنصف، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩: ٣٣٧/٢ - ٣٣٨.

٣. المنصف: ٣٣٨/٢.

٤. ينظر: المنصف بتحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩: ٥٥٢.

٥. ينظر: نون الوقاية، التسمية والوظائف اللغوية: ١٤٩.

٦. المنصف: ٣٣٨/٢.

وهذا نصٌّ وهمٌ فيه محققو المُنصفِ، وتبعهم غيرهم^(١)، إذ أسندوا إلى ابن جنِّي ما لم يقله، فالقراءة المقصودة في قوله: "وقرأ بعضهم هي: "أتحاجوناً" وليس ما أثبت المحقّقون، وهي من البقرة^(٢) وليست من الأنعام، وعلى هذا فليس فيها نونٌ وقيّة، وكلام ابن جنِّي - لو تنبّه المحقّقون - بيّن، إذ يقول: ولا يجوزُ أن تكونَ المحذوفةُ الثانيةُ لأنّها من الاسمِ المضمَرِ، فأين الاسمُ المضمَرُ من النونِ التي ينعنونها بالوقاية؟! فالنصُّ ينقضُ بعضه بعضاً، فضلاً عن أنه يخالفُ مذهبَ ابن جنِّي الذي ذكره آنفاً. ولا يمكنُ أن يكونَ هذا العلمُ قد وقع في الخلطِ في أسطر قليلة.

والمسألةُ لما تنتهى بعدُ، فلم يَنْصَ أحدٌ - حتّى ابنُ جنِّي نفسه في المحتسب - على هذه القراءةِ المحرّفة، غير ما جاء في تحقيقي المُنصفِ المذكورين آنفاً، والمنقولُ أنّ الشذوذَ فيها إنما هو الصيغةُ المشددةُ "أتحاجوناً"^(٣).

١. ينظر: ابن إياز، جمال الدين الحسين بن بدر، قواعد المطارحة في النحو، تحقيق: علي الحمد، ويس أبو الهيجاء، وشريف النجار، دار الأمل للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١١: ٤٣٩. وابن يسعون، يوسف ابن بيقى، المصباح لم أعتَم من شواهد المصباح، تحقيق: محمد الدعجاني، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط١، ٢٠٠٨: ٥١٠/١.

٢. آية: ١٣٩.

٣. ينظر معاني الأخفش: ٢٥٤/١. ومعاني القرآن وإعرابه، الزجاج، أبو إسحاق، إبراهيم بن السري، تحقيق: عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، ط١، ١٩٨٨: ٢١٦/١، ومختصر في شواهد القرآن، ابن خالويه، أبو عبدالله الحسين بن أحمد، مكتبة المتنبّي، القاهرة: ١٧، وإعراب النخّاس: ٢٦٨/١، وشواهد القراءات للكرماني، رضي الدين، محمد بن أبي نصر، تحقيق: شمران العجلي، مؤسسة البلاغ، بيروت، لبنان: ٧٧. وإعراب القراءات الشّواذ، العكبري، أبو البقاء، تحقيق: محمد عزوز، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٦: ١/١، والكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقبائل، في وجوه التأويل، الزمخشري، محمود بن عمر، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ٢٢٤/١، والبحر المحيط: ٤١٢/١.

على أن أول من أشار إليها الأخفش^(١)، ثم تلاه الزجاج في معانيه^(٢)، فالنحاس^(٣)، كما سنرى. والظاهر أنها إمكانية لغوية لا قراءة، ولكن النسخا خطبوا فيها خطباً عشواء، ثم اعتسفها المحققون.

وإذا عدنا إلى مذهب الزجاج ألفيناه - كما أشرت سابقاً - لا يفرق في هذه المسألة أيضاً، ويصر في مذهبه على بقاء النون الأولى، دون تعليل بين.

وابن خالويه (ت ٣٧٠هـ) يذكر مذهباً للكوفيين مما لا نجدُه قبله^(٤): "وقال أهل الكوفة: أدغم ثم حذف، وحبّتهم: وكادوا يقتلونني"، و"أعدانني"، فقالوا: لما أظهرت النونات لم تحذف، وإنما الحذف في المشدّات، نحو "تأمرؤني"، و"أتأجرؤني"، وهذه حجة غاية في الضعف؛ لأنها تُقرّ ظناً، لا سبيل إلى التحقق منه. ثم هي تفترض بعد هذا أن كل ما ورد من الصيغ المخففة عبرت من طريق التشديد، والواقع اللغوي ينقض ذلك.

والرضي يدلّف خطوة جديدة في التنظير لمسألة البقاء والحذف هنا، فقيام نون الرفع مقام نون الوقاية، دون نوني الضمير ونوني التوكيد أنها تماثلها من حيث إنها لا معنى لها على مذهب البصريين^(٥)، وجامعها أمر لفظي، ولما جاء الثقل من نون الوقاية بحكم موقعها، فقد جاء حذفها. أما على قول سيبويه، وهو

١. معاني القرآن: ٢٥٤/١.

٢. معاني القرآن وإعرابه: ٢١٦/١.

٣. إعراب القرآن: ٢٦٧/١.

٤. ابن خالويه، أبو عبدالله أحمد بن الحسين، إعراب القراءات السبع وعللها، تحقيق: عبدالرحمن بن عثيمين، مكتبة الخانجي، ط ١، ١٩٩٢: ٣٤٤/١-٣٤٥.

٥. ينظر "مسألة إعراب الفعل" في: "أبو البركات الأنباري، عبدالرحمن بن محمد، تحقيق، الإنصاف في مسائل الخلاف، محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، دمشق: ٥٤٩/٢. واللباب في علل البناء والإعراب، العكبري، أبو البقاء، محب الدين عبدالله بن الحسين، تحقيق: غازي طليمات، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٩٥: ٢١-٢٢، والعكبري، أبو البقاء، مسائل خلافية في النحو، تحقيق: محمد خير حلواني، دار الشرق العربي، ط ١، ١٩٩٢: ٨٨، ٩٧.

أن المحذوف نون الأعراب، لأنها المعرضة للحذف بالجزم والنصب ولا معنى لها، فالعلة في عدم حذف نون الضمير ونوني التأكيد ظاهرة، لأنها ليست معرضة للحذف ولها معنى^(١). والرضي يذكر النظيرين المتناقضين دون أن يظهر لنا موقفه منهما. وخلصاً المسألة أن النظيرين صائبان، ومن ثم يمكننا القول نظرياً أنه لا يمكن تقرير أي النونين التي بقيت.

وابن بزّي (٥٨٢هـ) يجعله من باب الضرورة؛ إذ قال حين عرض لقول أبي حية الثميري^(٢):

بِالمَوْتِ الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يَ مُلَاقٍ - لَا أَبَاكَ - تُخَوِّفِينِي

"فأما تخوفيني فإنه أراد تخوفيني" فحذف أحد النونين للضرورة^(٣)، فقيل حذف الأولى كما حذف حركة الإعراب في قول امرئ القيس:

"فاليومَ أَشْرَبَ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ"

وهي محاولة جديدة للبحث عن علة مقنعة لبقاء نون الوقاية وحذف هذه النون، وهو مسوغ متهافت، لاختلاف القياس، ومن ثم اختلاف العلة. وتبعه على هذا أبو حيان^(٤).

١. الأسترابادي، رضي الدين، شرح الرضي، شرح كافية ابن الحاجب، تصحيح وتعليق يوسف عمر، جامعة قاريونس، ١٩٧٨: ٤٥٠/٢.

٢. ابن بزّي، عبدالله، شرح شواهد الإيضاح لأبي علي الفارسي، تحقيق: عيد درويش، ومحمد علام، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٥م: ٢١٣. وينظر: خزنة الأدب ولب ألباب لسان العرب، البغدادي، عبدالقادر بن عمر، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخاني، ط٤، ١٩٩٧: ١٠٦/١٠٥/٤.

٣. وينظر: ابن يسعون، المصباح لما أعتم من شواهد المصباح: ٥١٠/١-٥١١.

٤. التنزيل والتكميل: ١٩٦/١.

ولم تذكر كتبُ الضروراتِ هذه المسألة^(١) - فيما وقعت عليه - ما خلا كتابَ القَرَازِ الفيرواني (ت ٤١٢هـ)^(٢).

وأبو حَيَّان يستدلُّ في هذه المسألةِ على بقاءِ نونِ الرفعِ استدلالاً مقلوباً؛ إذ يقيسه على الحذفِ في الأحرفِ الناسخة، ثم يتنبَّه فيردفُ: "ولكن يلزمُ من ذلك تفضيلُ الفرعِ على الأصلِ في ذلك". وهو يسجِّلُ بعضَ الحججِ التركيبيةِ المنطقيةِ في بقاءِ نونِ الرفعِ وحذفِ نونِ الوقايةِ، إذ يقولُ: "فنونُ الرفعِ دخلتِ لعاملٍ، ونونُ الوقايةِ جاءتِ بغيرِ عاملٍ، فلو كانَ المحذوفُ هو نونُ الرفعِ للزمَ من ذلك وجودُ مؤثِّرٍ بلا أثرٍ مع إمكانِهِ".

ونجدُ مكيَ بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) يسجِّلُ وصفاً جديداً ههنا؛ إذ يفتحُ حذفَ نونِ الوقايةِ، لأنه أفضى إلى كسرِ نونِ الرفعِ^(٣). ولا شكَّ أنه قبَّحَ ظنِّي يتجاوزُ الظاهرةَ اللغويةَ إلى تقبيحِ قراءةٍ سبعيةٍ.

وابنُ مالكٍ يخالفُ النحويينَ في مذهبِ الأخفشِ، خلافَ ما نقلَ السمينِ الحلبيُّ عنه، فيقولُ: "وفي المحذوفِ خلافٌ، فأكثرُ المتأخرينَ على أنَّ المحذوفةَ في التخفيفِ نونُ الوقايةِ، وأنَّ الباقيةَ نونُ الرفعِ، ومذهبُ سيبويه والأخفشِ عكسُ ذلك. وقد صحَّحَ ابنُ مالكٍ مذهبَهُما - على حدِّ نقلِهِ له - لوجوهٍ حشدَ فيها خلاصةَ

١. ينظر: السيرافي، أبو سعيد، ضرورة الشعر، تحقيق: رمضان عبدالنواب، دار النهضة العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٥م. وابن عصفور، علي بن مؤمن، ضرائر الشعر، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م. والألوسي، محمود شكري، الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط ١، ١٩٩٨م.

٢. القراز الفيرواني، ما يجوز للشاعر في الضرورة: ٣١٨.

٣. القيسي، مكي بن أبي طالب، مشكل إعراب القرآن، تحقيق: حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٥هـ: ٢٥٨/١.

مذهبه في بقاء نون الوقاية^(١): أحدها أن نون الرفع قد تحذف دون سبب مع ملاقاتها لنون الوقاية، ولا تحذف نون الوقاية المتصلة بفعلٍ محضٍ غير مرفوع بالنون، وحذف ما عهد حذفه أولى من حذف ما لم يُعهد حذفه، وأيضاً فإن نون الرفع نائبة عن الضمة، وقد حُذفت الضمة تخفيفاً عن الفعل في قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ" و"مَا يَشْعُرْكُمْ" في قراءة للسوسي، وفي الاسم، كقراءة بعض السلف: (٢) ﴿وَرُسُلَنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُوبُونَ﴾ الزخرف: ٨٠، بسكون اللام، ﴿وَيُعَوِّلُهَا أَحَقُّ﴾ البقرة: ٢٢٨، بسكون التاء. فحذف النون النائبة عنها تخفيفاً أولى، وليؤمن بذلك تفضيل الفرع على الأصل. وأيضاً فإن حذف نون الرفع يؤمن معه حذف نون الوقاية؛ إذ لا يعرض لها سبب آخر يدعو إلى حذفها، وحذف نون الوقاية أولاً لا يؤمن معه حذف نون الرفع عند الجزم والنصب. وحذف ما يؤمن بحذفه حذف أولى من حذف ما لا يؤمن بحذفه حذف. وأيضاً لو حُذفت نون الوقاية لاحتيج إلى كسر نون الرفع بعد الواو والياء، وإذا حُذفت نون الرفع لم يحتج إلى تغيير ثانٍ، وتغيير يؤمن معه تغيير أولى من تغيير لا يؤمن معه تغيير". وقد صحح الخُضري والأشموني^(٣) والصبان^(٤) مذهب ابن مالك.

ومذهب ابن الحاجب (ت ٦٤٦هـ) في نون الوقاية مذهباً فريداً؛ إذ أملى: "ونون الوقاية وأشباؤها مثل حروف المضارعة وشبهها، ليست بكلمة، وإنما هي كالألف

١. شرح التسهيل ١/٥٢. وينظر: ابن مالك، شرح الكافية الشافية، تحقيق: عبدالمنعم هريدي، دار المأمون للتراث، ط ١، ١٩٨٢م: ٢٠٨-٢١١.

٢. الزخرف: ٨٠.

٣. ينظر: الصبان محمد بن علي، حاشية الصبان، على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ضبط وتصحيح إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧: ١/١٨٠.

٤. حاشية الصبان: ١/١٨٠-١٨١.

في "ضارِب" والميم في "مخرج"، والألف في "سكرى" و"غضبي" ونحو ذلك^(١).
غير أن النحاة لم ينتبهوا إلى هذه الالتفاتة في تنظيرهم لبقاء نون الرفع وحذفها.

ويلحقُ بهذه المسألة مسألة اقتران نون الرفع بنون الضمير (للمتكلم)، وقد وقفت عليها الأخفش عند كلامه على "أتحاجونا"؛ أنفاً، إذ قال^(٢): "... ومثله قل أتحاجونا في الله"،... وإن شئت لم تدغم هذا كله". كما رأينا الزجاج يشير إليها في معانيه،^(٣): "إن شئت حذف إحدى النونين فقلت: "أتحاجونا". ولم يقف على الخالف والمخولف ههنا. ووقف عليه النحاس، قال^(٤): "ويجوز "أتحاجونا" بحذف النون الثانية كما قرأ نافع فبم تبشرون"، فهو يُبقي على نون الرفع، ويحذف نون الضمير، قياساً شكلياً على مذهبه في مسألة: "تبشروني"، على الرغم من كل ما قيل في قيمة الضمير.

وفي خضم حشد أبي علي لحذف النون الثانية في "أتحاجوني"، يذكر من شواهد حذف النون في هذه المسألة، إذ يقول: "وزعموا أن المفضل أنشد^(٥):

تَذَكُّرُونَا إِذْ لَا تُقَاتِلُكُمْ إِذْ لَا يَضُرُّ مُعَدِّمًا عَدَمُهُ

وهو خلطٌ لا وجه له ههنا، فمذهبه في هذه المسألة بين كما رأينا.

وقد نرى مذهباً متفرداً في المسألة يصنع من الضرورة مذهباً في البقاء. قال أبو علي القيسي عندما عرض لقول الشاعر: "أبالموت الذي لا بد أني..."^(٦):

١. ابن الحاجب، أبو عمرو، أمالي ابن الحاجب، تحقيق: فخر قذارة، دار الجبل، بيروت، دار عمار، عمان: ٨١٩/٢.

٢. معاني القرآن: ٢٥٤/١.

٣. معاني القرآن وإعرابه: ٢١٦/١.

٤. إعراب القرآن: ٢٦٧/١.

٥. الحجة: ٣٣٥/٣، والبيت لطرفة في ديوانه، وهو فيه "تذكرون" بلا شاهد، ديوان لطرفة، اعتنى به عبدالرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠٠٣: ٧٩، وينظر: اللسان (خزم).

٦. إيضاح شواهد الإيضاح: ٢٨٣/١.

وأما قولُ الفضلِ بن العباس:

كلُّ له نيَّةٌ في بغضِ صاحبه
بنعمةِ اللهِ نَقَلِكُمْ وتَقْلُونَا

فيحتملُ أمرين:

أحدهما: أنه حذفَ النونَ الأخيرةَ، لإقامةِ الوزنِ، لأنها اسمٌ، وليست زائدةً على الألفِ، كما كانت النونُ الثانيةُ، في " تخوفيني " و(أثحاجوئي)، زائدةً على الياءِ، وهي اسمٌ، فَحَدَفُ النونِ من "تخوفيني"، "وفليني" أسهلُّ من حذفها في قوله: "تقلونا"، و"تضربونا"...

الثاني: أرادَ، "بنعمةِ اللهِ أنْ نَقَلِكُمْ وتَقْلُونَا"، فعطفَ "تقلونا" وحذفَ النونَ التي هي علامةُ الرفعِ، وحذفَ "أن"، كما قال طرفة:
ألا أيُّ هذا الرَّاجِرِ أَحْضَرَ الوَعْيِ وَأَنْ أَشْهَدَ اللِّدَاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدي

ونرى هنا مذهباً متفرداً في الضرورةِ، سداً ولُحْمُته التَّأويلُ؛ يُبْقِي نونَ الرفعِ في التَّأويلِ الأوَّلِ، ونونَ الضميرِ في الثاني. وتضربُ أصولُه في كلامِ لابنِ جَنِّي^(١). وهو في مجملِه محاولةٌ للخروجِ من هذا المأزقِ، وتفسيرُ هذه الظاهرةِ اللغويةِ، بما يهادنُ القاعدةَ النحويةَ.

وهذه خلاصةُ منطقِ النحويين القدماءِ في التسويغِ لنظريةِ بقاءِ نونِ الوقايةِ أو نونِ الرفعِ عند اجتماعهما، ونقضِهم أدلَّةَ القائلينَ بغيرِ مذهبهم. وجُلُّ هذا جريٌّ في غيرِ ميدانِ، وجرجرةٌ للمنطقِ الأرسطي في تعليلِ القضايا اللغويةِ، وقياسُ نماذجِ في سياقاتٍ غيرِ قابلةٍ لقياسهم.

١. ينظر المنصف، وكلام ابن جَنِّي على قول الشاعر: "انظر قبل تلوماني...": ٣٣٧/٢.

أما المحدثون، فنجد أحمد تيمور يقول^(١): إذا اتصلَ بهذه النونِ نونُ الوقايةِ جازَ حذفُها تخفيفاً. وقال عباس حسن^(٢): وفي تعيينِ النونِ المحذوفةِ جدلاً طويلاً، أهي نونُ الأفعالِ الخمسةِ أم نونُ الوقايةِ. والأيسر - وهو الذي يسائرُ القواعدَ العامةَ أيضاً- أن نقولَ عند الإعرابِ: إنَّ النونَ الموجودةَ هي نونُ الأفعالِ الخمسةِ، بشرطِ أن يكونَ المضارعُ مرفوعاً... أما إذا كانَ منصوباً أو مجزوماً، فالنونُ الموجودةُ هي نونُ الوقايةِ، والمحذوفةُ نونُ رفعِ الأفعالِ الخمسةِ حتماً... وفي غيرِ ما سبقَ يتساوى أن تكونَ المحذوفةُ هذه أو تلك، فلا أثرٌ لشيءٍ من ذلك في ضبطِ كلماتِ الجملةِ، وفهمِ معناها.

على أننا لا ندري على أيِّ دليلٍ جزمَ هذا العالمُ الجليلُ ببقاءِ نونِ الأفعالِ الخمسةِ، في الحالةِ الأولى، بينما ساوى بين أن تكونَ المحذوفةُ هذه أو تلك، في ما وسّمه بـ"غير ما سبق". فضلاً عن أنه لم يقلْ للمعربِ: كيف يمكنه أن يحزمَ أمره ويعيّنَ الباقيّةَ والمحذوفةَ في حالِ تساوتِها في البقاءِ والحذفِ؟

وعند الدكتور زيد القرآلة^(٣): "أن تحديدَ النونِ المحذوفةِ يقومُ على أساسِ ترجيحِ الأقلِ أهميةً وضرراً في حذفِها، والإبقاءِ على ما يُمثّلُ الأكثرَ أهميةً... والحقيقةُ أنه لا فرق بين أن يكونَ المحذوفُ نونَ الرفعِ أو نونَ الوقايةِ، فالسياقُ لا يتضمّنُ وجودَ جازمٍ أو ناصبٍ، وعليه فالفعلُ مرفوعٌ بحكمِ السياقِ، وإن حُذفتِ النونُ" ويردِّف قائلاً^(٤): "وإذا كانتِ النونُ المثبتةُ هي نونُ الرفعِ فإن نونَ الوقايةِ لم تُحذفْ، بل الأولى أن يقالَ: لم يُؤتَ بها أصلاً؛ لأنَّ حضورها طارئٌ، وعملها إقامةٌ

١. السماع والقياس، تيمور، أحمد، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠١: ٨٩. وينظر: ضياء

السالك إلى أوضح المسالك، عبدالعزيز النجار، مطبعة السعادة، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣: ١٢٤.

٢. حسن، عباس، النحو الوافي، دار المعارف: ٢٨٤/١.

٣. نون الوقاية: ١٥٢.

٤. السابق نفسه: ١٥٢.

البناء المقطعي، ولما كانت نون الرفع تقوم بهذا الغرض، إضافة إلى وظيفة الرفع، فقد دلّ هذا على أنّ نون الرفع قد قامت بوظيفة مزدوجة، وهي الرفع والوقاية، من المقطع المرفوض". وهذا كلامٌ وجيه لا سبيلَ إلى التحقّق منه، وإن كان وصفُ "الضرر" لم يستخدم من قبل، فالنونان حاضرتان في البنية الجذرية لهذه الصيغة، والقول بعدم مجيء إحداهما، يدفع بالقضية كلّها، إلى بابٍ آخر.

ونخلص من هذه المسألة عند النحويين إلى أنّ جمهورهم ذهب في اجتماع نون الرفع مع نون الوقاية إلى بقاء نون الرفع، إلا ما رأينا من مذهب ابن مالك، وما أسنده إلى الأخفش. وقد رأينا اضطرابهم في المسألة الملحقة.

٣: ١: علل البقاء في اجتماع نون الوقاية مع نون الرفع:

ويمكننا هنا أن نقول أنّ الثقل، والتضعيف، وتوالي المتلين تكمن خلف التخفيف، الذي اكتسى بالبقاء والحذف، كما يمكننا أيضاً استقراءً علل البقاء في هذه المسألة لكلّ من الفريقين حسب مذهبهم في بقاء إحدى النونين، أمّا الفريق الأول، وهو الذي يقول ببقاء نون الرفع وحذف نون الوقاية، وهو الأكثر، فنجدُ علته على النحو الآتي:

أنّ نون الرفع سابقة؛ ولذلك لم يحصل بها الثقل، وإنما بالنون الثانية المكررة، والعلّة الثانية إنما هي وقوع الكسر على نون الرفع، فاستغني عن وظيفة نون الوقاية. وأنّ نون الرفع تدلّ على معنى، بخلاف نون الوقاية. وكذلك ثبتت هذه النون ليسلم حرف الإعراب. وهي دلالة إعراب. وأنها غير زائدة. والحمل على النظير في الأحرف المشبهة أفضى إلى بقاء نون الرفع، وحذف نون الوقاية. وأخيراً حذف نون الرفع عملاً بلا عامل.

أما علل بقاء نون الوقاية، فلأنها غير معرّضة للحذف مع الفعل، إذا اتصلت بفعلٍ محضٍ غير مرفوع بالنون. ولأن نون الرفع نابت عن الضمة، وقد قرئ

بحذف هذه الضمة، وتُقل ذلك عن العرب، فهي من باب حملِ النظير. كما أن في بقائها تفضيلاً للأصل على الفرع في مسألة الإعراب. وأن حذف نونِ الرفعِ يؤمّن معه حذفُ نونِ الوقاية. كما أن حذفَ نونِ الوقايةِ يُلجئُ إلى كسرِ نونِ الرفعِ، وتغييرِ يؤمّنُ معه تغييرُ أولى.

وكما نرى فإن عللَ البقاءِ بينَ الفريقينِ تكادُ تكونُ متساويةً، وإن ظفّرَ المذهبَ الأولُ بالكثرة.

أما المسألةُ الملحقةُ في البقاءِ بينَ نونِ الرفعِ ونونِ الضميرِ فبقاءُ نونِ الرفعِ قياساً على بقائها مع نونِ الوقاية. أو بقائها لإقامةِ الوزن. وقد رأينا بقاءَ نونِ الضميرِ ههنا قياساً شاذاً، في حذفِ نونِ الرفعِ على تقديرِ "أن".

٤ : المسألة الثالثة: اجتماعُ نونِ الأحرفِ الناسخةِ وحرفيِ الجرِّ "من" و"عن"، أو وبعضِ الظروفِ معَ نونِ الوقايةِ.

٤ : ١ : نونُ الوقايةِ معَ نونِ الأحرفِ الناسخةِ:

بادئاً اجتزأتُ في هذه المسألةِ باتصالِ الأحرفِ الناسخةِ النونيةِ بالضميرِ، من معالجتها مخففةً مفردةً؛ لأنَّ في معالجتها متصلةً ما يغني عنها مفردةً، فضلاً عن نُدرَةِ الوقوفِ على مسألةِ البقاءِ في حالةِ أفرادها.

ويبتدئها سيوييه، ناقلاً عن الخليل؛ إذ يقول^(١): "فإن قلت: "فما بالُ العربِ قد قالت: "إني وكأني ولعلي ولكني" فإنه زعمُ أن هذه الحروفَ اجتمعَ فيها أنها كثيرةٌ في كلامهم، وأنهم يستقلونَ في كلامهم التضعيفَ، فلما كثرَ استعمالُهم إياها معَ تضعيفِ الحروفِ حذفوا التي معَ الياءِ".

١. الكتاب: ٣٦٩/٢.

فسيبويه يروي عن الخليلِ عَلتينِ عامَتينِ لبقاءِ النونِ المشدَّدةِ وحذفِ نونِ الوقايةِ ههنا؛ إذ استتقالُ النوناتِ، وكثرةُ تداولِ هذه الحروفِ أفضتْ إلى حذفِها. على أنه لا يقفُ على سببِ لبقاءِ النونِ المشدَّدةِ، ولا تخصيصِ نونِ الوقايةِ بالحذفِ.

ثم يلتفتُ^(١): "فإن قلت: 'لعلِّي ليسَ فيها نونٌ. فإنه زعمُ أن اللامَ قريبٌ من النونِ... فحذفُوا هذه النونَ كما يكثرُ استعمالُهم إياها... وقال الشعراءُ 'ليتي' إذا اضطروا، كأنهم شبهوه بالاسم، حيث قالوا: الضاربي، والمضمر منصوبٌ، قال الشاعر، زيد الخيل:

كَمُنِيَّةِ جَابِرٍ إِذْ قَالَ لَيْتِي أَصَادِفُهُ وَأَفْقَدُ جُلَّ مَالِي

وهو يجعل الحذفَ في "لعلُّ" لقربِ لامِها من النونِ، أمَّا الحذفُ في "ليتي" فمِنَ الضرورةِ".

والمبردُ يتابعُ سيبويه في هذا^(٢). وابن السراجُ يبيِّنُ شطرَ الإحصاءِ^(٣): "وليتني أكثرُ من ليتي، ولعلِّي أكثرُ من لعلَّتي، وإنَّني وإني سواءٌ".

ونقل السيرافي علةَ الفراءِ في سُقوطِ النونِ الثالثةِ (الوقايةِ) من هذه الأحرفِ^(٤): "وأما الفراءُ فإنه اعتلَّ لسقوطِ النونِ في: 'إنَّ وكأَنَّ ولعلُّ' بأنها لم تُخرجِ^(٥) على لفظِ الفعلِ، يعني: بنيةِ الفعلِ، وأنَّ 'ليت' لما خرجَ على وزنِ الفعلِ

١. الكتاب: ٣٧٠/٢.

٢. ينظر: المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد، المقتضب، تحقيق: محمد عبدالخالق عزيمة، القاهرة، ١٩٩٤: ٢٥٠/١.

٣. ابن السراج، أبو بكر، محمد بن سهل، الأصول في النحو، عبدالحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٨: ٢٥٩/١. وينظر: ١٢٢/٢.

٤. شرح السيرافي: ١٣٤/٣. وينظر: شرح المفصل/ ابن يعيش، موفق الدين، عالم الكتب: ٩٠/٣-٩١.

٥. أي: بعدتْ عن لفظِ الفعلِ.

قَوِيَّ فِيهَا إِثْبَاتِ النُّونِ"^(١). وقد نقلَ أبو حَيَّانَ عن الفراءِ إِجَازَةَ "لَيْتِي" و"لَيْتِي"^(٢)، ولم يزدْ على ذلك.

وجاء في مجالس ثعلب^(٣): "لَيْتِي وَلَيْتِي، وَلَعَلِّي وَلَعَلَّنِي وَإِنِّي وَإِنِّي، وكَأَنِّي وكَأَنِّي... الكوفيونَ يقولون: لم يُضَفْ فلا يَحْتَاجُ إِلى النُّونِ، وسيبويه يقولُ: اجتمعتْ حروفٌ متشابهةٌ فحذفوها. وقال أبو العباس: وفي كُلِّها يجوزُ بالنونِ وبحذفها:

كمنية جابر إذ قال لَيْتِي...."^(٤).

والكوفيونَ كما نرى لا يخالفونَ البصريينَ في البقاءِ والحذفِ، ولكنَّ الخلافَ في العلةِ العامَّةِ، والمسألةُ عندهم محمولةٌ على السَّعةِ.

وأبو عَلِيٍّ يتابعُ البصريينَ في بقاءِ المشدَّدةِ وحذفِ نونِ الوقايةِ ههنا^(٥)، وكذا ابنُ عصفور^(٦)، وأبو حَيَّانَ (٧٤٥هـ)^(٧). والرَّضِي، وَعَلَّلَ حذْفَهُ^(٨): "أما جوازُ حذفها فلأنَّ الإلحاقَ للمشابهةِ لا بالأصالةِ" وَيَعْنِي إِحَاقَهَا بِالْفِعْلِ. والدَّلَالِي

١. يعني بوزن الفعل في "ليت" أن أوله مفتوح، وثانيه ساكن، وثالثه مفتوح، وهو يشبه الفعل الماضي المعتل العين، نحو: باع.

٢. ينظر: ارتشاف الضرب: ٩٢٣، و"أوضح المسالك"، ابن هشام جمال الدين، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، ط٥، بيروت، ١٩٧٩: ١١٠/١.

٣. ثعلب، أبو العباس، أحمد بن يحيى، مجالس ثعلب، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار المعارف، مصر: ١٠٦/١.

٤. وينظر: ابن عادل دمشقي، أبو حفص عمر بن علي الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبدالوجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م، ط١: ١٨/٥.

٥. الشيرازيات: ٧٣/١.

٦. المقرب، علي بن مؤمن، ابن عصفور، تحقيق: أحمد الجواربي، وعبدالله الجبوري، ط١، ١٩٧٢: ١٠٨/١.

٧. ارتشاف الضرب: ٩٢٣.

٨. شرح الكافية، دار الكتب العلمية (طبعة بولاق): ٤٥٤/٢.

(١٠٩٤هـ) (١)، وَعَلَّلَ حَذْفَهَا، لكونها طرفاً، وسنرى الإشكالَ في تحديد الطرفِ
ههنا.

وذهب ابن الشَّجَرِيّ (ت ٥٤٢هـ) إلى أن البقاءَ في هذه المسألةِ في النونِ
الأولى من المشدَّدةِ ونونِ الوقايةِ، والمحذوفُ النونُ الوسطى، قال (٢): "من خَفَّفَهْنَ
بحذفِ إحدى النوناتِ،... حذَفَ النونَ الوُسْطَى، لأنَّها هي التي حذَفَها قَبْلَ أن
يَتَصَلَّنَ بالنونِ الثالثةِ. وجاءَ القرآنُ بإقرارِها في قوله (٣): (إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا)
طه: ١٤، وبعدها في قوله (٤): (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ) طه: ١٢. ومما حذَفُوا منه من
مضاعفِ الحروفِ "رَبَّ".." وهو يرمي إلى مسألةِ تخفيفِ هذه الأحرفِ، مع
إعمالِهن.

والعُكْبُرِيّ (٦١٦هـ) في اللُّبابِ (٥) يذهبُ مذهبَ الخليلِ وسيبويه في التعليلِ
العامِّ للحذفِ، غيرَ أنَّه يخالفُ في البقاءِ والحذفِ. وهو يعدُّ الأصلَ في "إِنِّي"
و"كَأَنِّي" "إِنِّي"، كأنني، ويردِّفُ قائلاً: "والمحذوفُ النونُ الثانيةُ (من المشدَّدةِ)
لوجهين:

أحدهما: أنها حُذِفَتْ قَبْلَ دخولِها على الضميرِ.

١. نتائج التحصيل في شرح التسهيل، محمد بن محمد بن أبي بكر المرابط الدلائي، تحقيق: مصطفى
العربي: ٥٧٣/٢.

٢. ابن الشجري، هبة الله بن علي، أمالي بن الشجري، تحقيق: محمود الطناحي، مكتبة الخانجي:
١٧٩/٢.

٣. طه: ١٤.

٤. السابق نفسه، ١٢.

٥. العكبري، أبو البقاء، محب الدين عبدالله بن الحسين، اللباب في علل البناء والإعراب، تحقيق: غازي
طليمات، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٥: ٢١٨/١.

والثاني: أن النون الأولى لا يجوز حذفها؛ لأنك تحتاج إلى تسكين الثانية ليصح إدغامها، فيصيرُ معك حذفٌ وتسكينٌ وإدغامٌ، ولأنَّ الثقل لا يقع إلا بالمكّرر لا بالأول. ولننظرُ كيف يفصدُ النوناتِ؟ على الرغم من أن المكّرر إنما هو نون الوقاية هنا".

والمُرادي (ت ٧٤٩هـ) يسجّلُ عللاً جديدة^(١): وإنما ألحقتُ هذه النونُ مع هذه الأحرفِ لشبهها بالأفعالِ المتعدية في عملِ الرفعِ والنصبِ، وأوجهٍ آخرَ مذكورةٍ في موضعها، فاستمرت "ليت" على مقتضى هذا الشبهِ إلا في الشعر، وضغفت "عل" من جهةٍ أنها تُعلّقُ في الغالبِ ما قبلها بما بعدها، ومن أجلِ أنها تجرّ على لغة. وأردفَ قائلاً: وما ذهبَ إليه الناظمُ من أن المحذوفةَ من: "إني وأني.." نونُ الوقايةِ هو مذهبُ الأكثرينَ من البصريينَ والكوفيينَ، وذهبَ بعضهم إلى أن الساقطَ هو النونِ الثانيةِ، وذهبَ بعضهم على أن المحذوفَ هو النونُ الأولى. والصحيحُ الأولُ؛ لأنها طرفٌ، وبدليلِ "علي". ونرى هنا كيف انتقلت صفةُ الطرفِ إلى نونِ الوقايةِ.

والمالقيّ (ت ٧٠٢هـ) في "رصفِ المباني" يذهبُ إلى حذفِ النونِ الثانيةِ من المشددةِ أيضاً، ويسجّلُ علّةً جديدةً لهذا الحذفِ؛ إذ يقول^(٢): "فالنونُ الأصليةُ محذوفةٌ لاجتماعِ النونينِ المتحركتينِ، ودلتْ نونُ الوقايةِ عليها، ولا نقولُ: إنها المحذوفةُ؛ لأنها وُضعتْ لمعنى هو باقٍ، فكان ينبغي أن تبقى معه، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ طه: ١٢، ولا ندري كيف استتبطَ من هذا الشاهدِ ما ذهبَ إليه.

١. المرادي، ابن أمّ قاسم، توضيح المقاصد والمسالك في شرح ألفية بن مالك، تحقيق: عبدالرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠١: ٣٨٠/١.

٢. المالقي، أحمد بن عبدالنور، رصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق: أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط ٣، ٢٠٠٢: ٢٠٣. وينظر: همع الهوامع للسيوطي: ٢/٢٦١، وشرح المفصل/ ابن يعيش، موفق الدين، عالم الكتب: ٩٠/٣-٩١.

والمحدثون في هذا - بمجملهم - على مذهب البصريين^(١). ويرى الدكتور زيد أن المحذوفة أتى كانت فهي غير محددة، والسبب في ذلك أن تضعيف النون ساعد على بناء المقطع، ولم تبق ياء المتكلم (الكسرة المشبعة) منفصلة في مقطع لا تجيزه العربية^(٢). على أن الإشكالية الكبرى في هذه القضية، هو ما تجنب تحديده الدكتور زيد.

ويرى الدكتور زيد أيضاً: أن التخفيف هو السبب في جواز الحذف وعدمه، ففوق نون الوقاية يمثل حفاظاً على البناء وهيئته، وعدم تأثره بلحاق ياء المتكلم، وحذف نون الوقاية إنما يتم لتخفيف مقطع صوتي^(٣). وما قاله الدكتور زيد - بقطع النظر عن المحذوف والباقي - لم يتككب جادة الصواب. على أن العلة التي لم يقف عندها أحد من النحويين إنما هي دواعي هذا التخفيف، الذي يتجاوز كراهية النقل، ومما لا شك فيه أنه مجموعة من العوامل النفسية والسياقية، تحتاج إلى دراسة منفصلة للوقوف عليها، كما سنرى.

وقد ألحقوا بهذه المسألة اتصال الأحرف الناسخة بضمير المتكلم "نا". قال أبو علي^(٤): "وكذا من قال: "إنّا"، فإنما يحذف النون الثانية من "إن"، ولا يحذف التي من علامة الضمير". وهو يقيس ذلك على "الذن" أيضاً: "فأما قولهم "من لدنا"،

١. ينظر على سبيل المثال: الهاشمي، أحمد، القواعد الأساسية للغة العربية، دار الكتب العلمية، بيروت: ٨٦. حسن، عباس والنحو الوافي، دار المعارف: ٢٨١/١. وأحمد مختار عمر وأخران، النحو الأساسي، ط١، ١٩٨٤، دار السلاسل، الكويت: ٢٩. و مكرم، عبدالعال سالم، تطبيقات نحوية وبلاغية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٢ : ١٥٥/١. والدقر، عبدالغني، معجم قواعد العربية في النحو والتصريف، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩٣ : ٤٠٤. نون الوقاية، زيد القرالة: ١٥٣.

٢. نون الوقاية: ١٥٥.

٣. السابق نفسه، ص ١٤٧.

٤. الفارسي، الشيرازيات: ٧٣-٧٤. وينظر: الفارسي: الإغفال، وهو المسائل المصلحة من كتاب "معاني القرآن وإعرابه للزجاج"، لأبي إسحاق الزجاج، تحقيق: عبدالله الحاج إبراهيم: ٣٩٠/٢.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ الكهف: ٦٥، فلا تُحذف النون الثانية منه، كما حُذفت في قول من قال: "لَدَنِي"؛ لأن النون الثانية من علامة الضمير، وليست بزيادة، كالتي في قوله: ﴿مِنْ لَدُنِّي﴾ الكهف: ٧٦. وهو يَنشُدُ الدليل في مسألة أخرى، فيقول: "ألا ترى أن النون الثانية قد حُذفت من "إِنَّ"، وأُعملت في نحو قول من قال: "إِنَّ زيداَ منطلقاً"، وقد أعملوها في المضمير محذوفة، في نحو ما أنشد البغداديون:

فلو أنك في يوم الرّخاء سألتني

وتبعه ابن الدهان (ت ٥٦٩هـ) في "الغرة"^(١)، وزاد ابن سيدة (ت ٤٢٨هـ)^(٢): "والنون من فعلنا" لم تحذف في موضع، وهذا قياس في غير محله، وهو يشبه قياس أبي عمرو في قراءة "فيم تبشرون"، الأنفة الذكر.

وهو - بهذا القياس المنطقي - يُعيد تأكيد القيمة التركيبية في نظرية البقاء، ويتخذ من مسألة إعمال "إِنَّ" مخففة دليلاً؛ إذ هذا الإعمال يجعل حذف نون من هذا الحرف وأشباهه إمكانيّة متاحةً تمكّنه من تقليد هذا التركيب، والقول بحذفها في مثل هذه الحروف، وبقاء نون الضمير.

وابن جنّي لا يخالفه، وإن اختلفت علته^(٣): "فأما قوله عز اسمه: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر: ٤٩، ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ ق: ٤٣، ونحو ذلك، فأصله "إننا"

١. ابن الدهان، محمد سعيد بن المبارك، الغرة في شرح اللمع، تحقيق: فريد السليم، دار التدمرية، الرياض، ط ١، ٢٠١١، ٢٨/١. وينظر: التنزيل والتكميل: ١٨٣/٢-١٨٤.

٢. ابن سيدة، أبو الحسن، علي بن إسماعيل، المخصص (اشتقاق أسماء الله عز وجل)، تحقيق: خليل جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٩: ٥/٢٢٣. وأرى أنّ "سيدة" بالتاء المربوطة أصوب.

٣. ابن جنّي، سر صناعة الإعراب، تحقيق: حسن هندواوي، دار القلم، ط ١، ١٩٨٥: ٥٤٩/٢-٥٥٠.

ولكن حُذِفَتْ إحدَى النونين من إن تخفيفاً، وينبغي أن تكون الثانية منهما لأنها طرف فهي أضعف".

والمرادي (ت ٧٤٩هـ)^(١) يحكي عن بعض النحويين المذاهب الثلاثة، إلا أنه يُصَحِّح حَذْفَ الثانية؛ لما ذَكَرَ أبو عليّ، وابن سيّدة. وقال السيوطي^(٢): "ولم يُقَلَّ أحدٌ بحذف الثالثة؛ لأنها اسمٌ، وقد حكاها بعضهم. وقال الصبّان^(٣): "ولم يُقَلَّ أحدٌ يُعْتَدُّ به أنها الثالثة؛ لأنها اسمٌ، كذا في الرّوداني". ومن عجبٍ أن ابنَ عادِلٍ ينقلُه عن الفراء، ولا يعقبُ، إذ يقول^(٤): "وقال الفراءُ: "مَنْ قَالَ: "إِنَّا" أَخْرَجَ الحَرْفَ على أصلِهِ؛ لأنَّ كِتَابَةَ المتكلمين "نا"، فاجتمع ثلاثُ نوناتٍ، ومَنْ قال: "إنا" استتقلَّ اجتماعها؛ فأسقطَ الثالثة، وأبقى الأولىين". كما قال بها القرطبيُّ من بعد^(٥).

٤ : ١ : ١ : عِلَلُ البَقَاءِ بَيْنَ نُونِ الأَحْرَفِ النَّاسِخَةِ وَنُونِ الوَقَايَةِ:

ولا تختلف العلة في أصل هذه المسألة، ألا وهي علة ثقل التضعيف، والنقاء الأمثال، في تكاثف النونات، مع كثرة دورانها، على ما ذهب إليه سيبويه.

وأولى العلة في تحديد العنصر المتوج بالبقاء هنا إنما هي في بقاء النونين الأولى من المشددة ونون الوقاية. وحذف النون الثانية من المشددة؛ لأنها حُذِفَتْ قَبْلَ دُخُولِ الضمير. وكذا حُذِفَتْ النون الثانية من "إِنَّ"؛ لأنَّ الثقل لا يقع إلا بالمكزّر، ولأنَّ حَذْفَ الأولى يُفْضِي إلى سلسلةٍ من التغيّرات. ومنها أيضاً حذْفُها لأنها طرفٌ. ومن ذلك أيضاً اجتماع نونين متحركتين، النون الثانية المُدغم فيها،

١. توضيح المقاصد: ٣٨٣/١.

٢. همع الهوامع: ٢٦٢/١، وانظر حاشية الصبّان: ١٨٢/١.

٣. حاشية الصبّان: ١٨٣/١.

٤. اللباب في علوم الكتاب: ١٢٥/٩.

٥. الجامع لأحكام القرآن: ٥٣/٩.

ونونِ الوقايةِ، فحُذِفَتِ الأولى المُدغَمُ فيها، ونونُ الوقايةِ لم تُحذفْ لأنها لمعنىً هو باقٍ.

أما علّةُ بقاءِ النونِ الثانيةِ المُدغَمِ فيها، ونونِ الوقايةِ، وحذفِ النونِ الأولى أنْ الأولى المُدغمةُ ساكنةٌ، والساكنُ يسرَعُ إليه الاعتلالُ.

وأما بقاءُ النونِ المشددةِ وحذفُ نونِ الوقايةِ فلم يذكر الخليلُ وسيبويه والمبردُ لذلك علّةً، وذكرها الفراءُ؛ إذ هي بعدُ هذه الأحرفِ عن الفعلِ. والرّضِي؛ لأنّ الإلحاقَ للمشابهةِ لا بالأصالةِ. كما تحذفُ لأنها طرفٌ، كما ذكّر الدّلائِي. وقد رأينا اختلافاً في تحديدِ الطرفِ ههنا.

وأما المسألةُ الملحقةُ وهي اجتماعُ الحرفِ الناسخِ مع الضميرِ فعلّةُ البقاءِ في النونِ الأولى إنما هي العلّةُ المذكورةُ في "إني"، وأنّ النونَ الثالثةَ من علامةِ الضميرِ. أما علّةُ بقاءِ النونينِ الأولى والثانيةِ، كما رأيناها عند الفراءِ، فلأنّ الثالثةَ هي آخرُ المكرّرِ المُستقلِّ.

٤ : ٢ : البقاءُ في اقترانِ نونِ حرفيِ الجرِّ "من" و"عن" ونونِ الوقايةِ، ويُحقّقُ بها "لَدُنْ":

أما مسألةُ حرفيِ الجرِّ "من" و"عن"، فإنّ أولَ من عرَضَ لها سيبويه؛ وهو يسجّلُ بادئاً تفسيراً الخليلِ لسببِ لحاقِ النونِ بها؛ إذ قال^(١): وسألته -رحمه الله- عن قولهم: "عني وقدني، وقطني ومني ولدني"، فقلت: ما بالهم جعلوا علامةَ إضمارِ المجرورِ ههنا كعلامةِ إضمارِ المنصوبِ؟ فقال: إنّه ليسَ من حرفِ تلحقه ياءُ الإضافةِ إلا كانَ مُتحرّكاً مكسوراً، ولم يُريدوا أنْ يحركوا الطاءَ التي في "قط" ولا النونَ التي في "من"، فلم يكنْ لهم بدٌّ من أنْ يجيئوا بحرفٍ لياءِ الإضافةِ

١. الكتاب: ٣٧٠/٢-٣٧٣.

مُتَحَرِّكٍ؛ إذ لم يُرِيدُوا أَنْ يَحْرَكُوا الطَّاءَ وَلَا النُّونَاتِ؛ لِأَنَّهَا لَا تُذَكَّرُ أَبَدًا إِلَّا وَقَبْلَهَا حَرْفٌ مُتَحَرِّكٌ مَكْسُورٌ. وَكَانَتِ النُّونُ أَوْلَى؛ لِأَنَّ مِنْ كَلَامِهِمْ أَنْ تَكُونَ النُّونُ وَالْيَاءُ عِلْمَةً الْمُتَكَلِّمِ، فَجَاؤُوا بِالنُّونِ؛ لِأَنَّهَا إِذَا كَانَتْ مَعَ الْيَاءِ لَمْ تَخْرُجْ هَذِهِ الْعِلْمَةُ مِنْ عِلْمَاتِ الْإِضْمَارِ، وَكَرِهُوا أَنْ يَجِيئُوا بِحَرْفٍ غَيْرِ النُّونِ فَيَخْرُجُوا مِنْ عِلْمَاتِ الْإِضْمَارِ. وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ لَا يَحْرَكُوا الطَّاءَ وَالنُّونَاتِ كَرَاهِيَةً أَنْ تُشَبَّهَ الْأَسْمَاءُ نَحْوَ "يَدٍ وَهَنْ" ... وَقَدْ جَاءَ فِي الشَّعْرِ: "قَطِي، وَقَدِي، فَأَمَّا الْكَلَامُ فَلَا بَدَّ فِيهِ مِنَ النُّونِ".

ثم يُرَدِّفُ^(١): "وَأَمَّا "قَطٌ وَعَنْ وَلُذْنٌ" فَإِنَّهِنَّ تَبَاعَدْنَ مِنَ الْأَسْمَاءِ، وَلِزِمَهُنَّ مَا لَا يَدْخُلُ الْأَسْمَاءَ الْمُتَمَكِّنَةَ، وَهُوَ السُّكُونُ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُ ذَلِكَ عَلَى الْفِعْلِ نَحْوَ "حُذُّ وَزِنٌ"، فَضَارَعَتِ الْفِعْلَ وَمَا لَا يُجَزَّزُ أَبَدًا، وَهُوَ مَا أَشْبَهَ الْفِعْلَ، فَأَجْرِيَتْ مَجْرَاهُ وَلَمْ يُحْرَكُوهُ".

وَإِذَا وَقَفْنَا عَلَى هَذَا النَّصِّ عَلِمْنَا أَنَّ سَبَبِيَّوِيهِ وَقَفَ عَلَى قِيَمَةِ النُّونِ الْمُلْحَقَةِ بِهَذِهِ الْأَدْوَاتِ، وَلَمْ يَتَنَاوَلْ الْحَذْفَ إِلَّا فِي "قَطٌ" وَ"قَدٌ"، فَلَمْ يَعْضُ فِيهِ لِحَذْفِ النُّونِ مِنْ "مَنِي" وَ"عَنِي"، وَأَنَّ مَا يَنْسِبُهُ النُّحَوِيُّونَ إِلَيْهِ مِنْ ضَرُورَةِ الْحَذْفِ فِيهِمَا إِنَّمَا هُوَ مُقَابِلَةٌ عَلَى كَلَامِهِ فِي "قَدٌ، وَقَطٌ". وَإِنْ كَانَ تَكَلَّمَ عَلَى الْحَذْفِ فِي هَذَيْنِ الْحَرْفَيْنِ فِي سِيَاقٍ آخَرَ، يَخْتَلَفُ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ^(٢). وَهُوَ يَشِيرُ ضَمْنًا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ إِلَى وَجُوبِ النُّونِ الْمَشْدُدَةِ عِنْدَ إِضَافَةِ هَذَيْنِ الْحَرْفَيْنِ إِلَى الْيَاءِ.

وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ الْمَبْرَدُ^(٣)، وَزَادَ فِي قِيَمَةِ النُّونِ الْمُلْحَقَةِ^(٤): "وَإِنَّمَا زِيدَتْ النُّونُ لِأَنَّهَا تَزَادُ فِي الْأَوَاخِرِ، كَالْتَنْوِينِ الَّذِي يَلْحَقُ الْأَسْمَاءَ، وَالنُّونِ الْخَفِيفَةَ وَالثَقِيلَةَ الَّتِي

١. الْكِتَابُ: ٣٧١/٢. وَيَنْظُرُ شَرْحَ السِّيْرَافِيِّ عَلَى الْكِتَابِ: ١٣٣/٣-١٣٤.

٢. يُنْظَرُ: الْكِتَابُ: ٤١٢/٣.

٣. الْمُقْتَضِبُ: ٢٤٩/١، ٢٦٣.

٤. نَفْسُهُ: ٢٦٣/١.

تلقحُ الأفعالَ، والنونِ التي تُزادُ مع الألفِ في "فعلان"، والنونُ حرفٌ أغنُ مضارعٌ حروفَ المدِّ واللينِ".

وقد عرضَ الزَّجاجُ (ت ٣١١هـ) لهذه المسألةِ في كلامِهِ على قوله تعالى^(١): ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ الكهف: ٧٦، وَرَدَّ التَّخْفِيفَ فِي هَذَيْنِ الْحَرْفَيْنِ؛ إِذْ قَالَ: وَيُقْرَأُ "مِنْ لَدُنِّي" بِتَخْفِيفِ النُّونِ؛ لِيُعْلَمَ سَكُونُ النُّونِ؛ لِأَنَّ أَصْلَ "لَدُنْ" الْإِسْكَانُ، فَإِذَا أَضْفَعْتَهَا إِلَى نَفْسِكَ زِدْتَ نُونًا؛ لِيُعْلَمَ سَكُونُ النُّونِ الْأُولَى، تَقُولُ: "مِنْ لَدُنْ زَيْدٍ" ... فَتَقُولُ: "مِنْ لَدُنِّي"، كَمَا تَقُولُ: "عَنْ زَيْدٍ وَعَنِّي"، وَمَنْ قَالَ: "مِنْ لَدُنِّي"، لَمْ يَجْزُ أَنْ يَقُولَ: "عَنْ زَيْدٍ وَعَنِّي"، بِحَذْفِ النُّونِ؛ لِأَنَّ "لَدُنْ" اسْمٌ غَيْرٌ مَتَمَكِّنٍ، وَ"مِنْ" وَ"عَنْ" حَرْفَانِ جَاءَا لِمَعْنَى. وَ"لَدُنْ" مَعَ ذَلِكَ أَثْقَلُ مِنْ "مِنْ" وَ"عَنْ". وَالِدَلِيلُ عَلَى أَنَّ الْأَسْمَاءَ يَجُوزُ فِيهَا حَذْفُ النُّونِ قَوْلُهُمْ: "قَدْنِي" فِي مَعْنَى "حَسْبِي".

وَالزَّجَّاجُ يَفْرُقُ فِي مَسْأَلَةِ التَّخْفِيفِ هَهُنَا بَيْنَ الْأِسْمِ وَالْحَرْفِ، وَيَجْعَلُهُ جَائِزًا فِي الْأِسْمِ، وَيَبْطِئُهُ فِي الْحَرْفِ، عَلَى حَدِّ تَعْلِيلِهِ.

وقد ردَّ عليه أبو عليّ في الإغفالِ قال^(٢): "ألا ترى أنه لو امتنع الحذفُ من "مَنِي، وَعَنِّي" لأنهما حرفان لمعنى؛ لامتنع في "إِنِّي وَلَعَلَّنِي" ولامتنع في "ليبتني وكأني". على أنه يجيزُ الحذفَ من بابِ الضرورة؛ إذ يستأنف: والحذفُ في "قد" جاء في الشعر... ووجهه أن الشاعرَ إذا اضطرَّ حذفَ النونَ، وردَّ الكلمةَ إلى الأصلِ... ولو اضطرَّ فحذفَ من "مَنِي" و"عَنِّي"، لجازَ ذلك أيضاً".

ثم يردُّ أبو عليّ عليه مسألةُ الثقلِ^(٣): "ليس بشيءٍ، ألا ترى أنه حُذِفَ من "قد" وهو مثل "مِنْ"... فليس الحذفُ في هذه الحروفِ معتبراً به ثقلها لا خفتها، ألا ترى أن "علَّ" قد تحذفُ منها وقد لا تُحذفُ".

١. معاني القرآن وإعرابه: ٣/٣٠٣-٣٠٤. وضبط المحقق للنص مُلبس ومضطرب.

٢. الإغفال: ٢/٣٩٢.

٣. السابق نفسه: ٢/٣٩٤.

وكلام أبي عليّ بيّن في بقاء النون الأصيلّة، عند التخفيف. على أنّه كلامٌ أجدُر بالمنطقِ منه باللغة، لأنّ مدارّ المسألة إنّما هو الاستخدام، وليس التعليل المنطقيّ، والكلام على خفةٍ وتقلٍ لا سبيل إلى التحقّق منه.

ولم يلتفت ابن خالويه (ت ٣٧٠هـ)^(١) إلى الباقي ولا المحذوف في هذه المسألة، غير أنّه ما لبث أنّ اقتضّب بيتاً من الشعر:

أيّها السائلُ عنهم وعنيّ لستُ من قيسٍ ولا قيسُ مني

أراد: عنيّ، ومنيّ، فخفف، ولعلّ هذا من أوائلِ نجوم هذا الشاهدِ النادرِ.

وعلى الرغم من أنّ سيّويه والمبرد لم يصرّحا بمسألة الضرورة في الحذف، باستثناء "قط" و"قد"، فقد صرّح جُلُّ النحويّين بأنّ الحذف فيها جميعاً من الشاذّ الذي لا يعرّج عليه، وجعلوا البقاء للنون الأصيلّة المشدّدة، كابن السراج^(٢)، وابن جنّي^(٣)، والأنباري^(٤)، والزمخشري (ت ٥٣٨هـ)^(٥)، وابن مالك^(٦)، والمالقي (ت ٧٠٢هـ)^(٧)، وابن هشام^(٨)، وابن عقيل^(٩)، والمرادي^(١٠)، والرضي^(١١)، وأبي

١. إعراب القراءات السبع، لابن خالويه: ٤٠٧/١.
٢. الأصول في النحو: ١/١٢٢.
٣. سر صناعة الإعراب: ٢/٥٥٠.
٤. الإنصاف: ١/١٣٠.
٥. شرح المفصل: ٣/١٢٤-١٢٥.
٦. شرح التسهيل: ١/١٣٧-١٣٨.
٧. رصف المباني: ٣٢٦-٣٦٣.
٨. أوضح المسالك: ١/١١٨.
٩. ابن عقيل، بهاء الدين، المساعد على تسهيل الفوائد، تحقيق: محمد كامل بركات، مركز البحث العلمي، وإحياء التراث الإسلامي ١/٩٦، وشرح الألفية: ١/١١٦.
١٠. المرادي، الحسن بن قاسم، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدين قباوة، ومحمد فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢: ١٥٥، ٢٥٤.
١١. شرح الكافية، (دار الكتب العلمية) ٢/٢٣.

حيان^(١)، والسيوطي^(٢)، والأشموني (ت ٩٠٠هـ)^(٣)، والبغدادي (ت ١٠٩٣هـ)^(٤)،
والصبان (ت ١٢٠٦هـ)^(٥).

وابن يعيش (ت ٦٤٣هـ)، يجيزه في القياس، ويأخذ بيد المسألة إلى درجة القلة؛
فيقول^(٦): "وهو قليل في الاستعمال، ولكن القياس لا يباه كل الإباء، من حيث كانت
حروفاً... فلذلك حذفها من حذف حملاً على غيرها من الحروف"، ويذكر شاهد ابن
خالويه. وهذا توصيف غير موفق من ابن يعيش، وقياس عقلي، فهذا شاهد فذ نادر
وليس قليلاً، ولا ندري كيف عبر إلى ابن خالويه. وقد شاع بعد ابن يعيش^(٧). ونسبه
ابن الناظم (ت ٦٨٦هـ) إلى بعض النحويين^(٨). وابن هشام يكاد ينكره^(٩): "وفي النفس
من هذا البيت شيء، لأننا لم نعرف له قائلاً ولا نظيراً، لاجتماع الحذف في
الحرفين... وفي التحفة: لم يجئ الحذف إلا في بيت لا يعرف قائله".

ونسب الأبيدي إلى أبي موسى الجزولي أن الحذف في هذه الأحرف لغة،
وإن لم تكن في شهرة الإثبات^(١٠). وهذا - كما ذكرنا من قبل - أيسر شيء على
النحويين قولاً، وأشقاه إثباتاً.

-
١. ارتشاف الضرب: ٩٢٤.
 ٢. الهمع: ٢٦٠/١.
 ٣. شرح الأشموني: ١٨٣/١-١٨٤.
 ٤. الخزانة: ٣٨١/٥.
 ٥. شرح الأشموني: ١٨٣/١-١٨٤.
 ٦. شرح المفصل: ١٢٥/٣.
 ٧. ينظر المراجع الأنفة الذكر، ممن تلا ابن يعيش.
 ٨. ابن الناظم، أبو عبدالله بدر الدين بن مالك، شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد
باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠: ٤٤.
 ٩. الخزانة: ٣٨١/٥.
 ١٠. شرح الجزولية للأبيدي علي بن محمد، تحقيق: سعد حمدان الغامدي (رسالة مخطوطة): ٥٦٥/١.

ويسجل ابن حمدون في حاشيته في الكلام على الشاهد رأياً فريداً^(١): "وقيل، لا شاهد فيها؛ لأن المحذوف نونها الأصلية، وردَّ بأن الحرف الأصلي بعيدٌ من الحذف".

والإمام الشاطبي (ت ٥٧٩٠هـ) يصوغ نصاً منطقياً بارعاً في هذه الظاهرة جديراً بالتسجيل، إذ يقول^(٢): "لما كان لحاق النون لـ"من" وعن" حكماً لازماً بالاستقراء صار كأن النون لاحقة لهما وجوداً، فلذلك عدَّ الناظم عدم لحاقهما لهما تخفيفاً. وأيضاً فعلة عدم لحاقها إنما هو استتقال التضعيف. والتضعيف إنما يستتقل عند وجوده حقيقةً أو توهمًا، فإذا التخفيف ثانٍ عن التضعيف حقيقةً أو توهمًا". وهو يثني على ابن مالك في استخدامه الحذف هنا، ويُردف^(٣): "لأن الحذف إنما يكون بعد الإثبات فنبه على أن لحاق النون فيها هو الأصل، وأن عدم لحاقها حذفٌ في المعنى القياسي".

أما (لُدُن) فقد رأينا سيبويه يعرض لقيمة النون الثانية "الوقاية" في نحو "لُدني"، وهو يشير ضمناً إلى وجوب النون المشددة عند الإضافة^(٤).

وذهب الزجاج إلى جواز تخفيفها كما رأينا آنفاً^(٥). وهو يقرُّ من قياسه على "قُدني" على أن البقاء فيها للنون الأصلية، والحذف للوقاية. وقد نسب إليه الرضي القول بضرورة حذف النون منها^(٦).

-
١. ابن حمدون، حاشية ابن حمدون على شرح المكوّدي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣: ١/٩١.
 ٢. الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، تحقيق: عبدالرحمن بن سليمان العثيمين، معهد البحوث العلمية والتراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ٢٠٠٧: ١/٣٤٣.
 ٣. السابق نفسه.
 ٤. ينظر الكتاب: ٣٧٢/٢، وينظر أيضاً: ٢٨٥/٣، وما بعدها.
 ٥. معاني القرآن وإعرابه: ٣/٣٠٣-٣٠٤.
 ٦. شرح الكافية: ٤٥١/٢.

وينبغي الوقوف على كلام أبي عليّ في هذه المسألة؛ إذ فصلَ فيها بما لم يُسبقَ إليه؛ إذ يقول^(١): "اعلم أن "لُدُن" اسم غير متمكّن، حُذفت اللامُ منه في حالِ الإضافةِ إلى المُظهر، في نحو قولهم: "من لُد الحائطِ إلى البيت، و:

من لُدَ لَحِييِهِ إِلَى مَنحُورِهِ"^(٢)

وكان القياسُ ألا يُحذفَ منه لمشابهته الحرفَ في البناء... إلا أنه لما كان اسماً وآخره النون، وكانت النونُ مشابهةً لحروفِ اللينِ استُجيزَ الحذفُ فيه في حالةِ الإضافةِ إلى المُظهر... فإذا اتصلَ بالمضمرِ رُدَ إلى أصله... ف جاء: ﴿مِنْ لُدُنُهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الكهف: ٢، وجاء ﴿مِنْ لُدُنَا﴾ النساء: ٦٧^(٣)، فألزمَ الردَّ في المضمرِ. فأما من قال: و"من لُدُنِي"، فأضافَ إلى نفسه، فالجيدُ الإثباتُ وتَرَكَ الحذفَ؛ لأنه إضافةٌ إلى المضمرِ... . واعلمَ أن من حَذَفَ فقال: "من لُدُنِي" لم يَحذفِ النونَ من حيثُ حَذَفَ مِنَ الواحدِ مضافاً إلى المُظهرِ، نحو: "لُد الحائطِ؛ لأنَّ من حَذَفَ في الإضافةِ إلى المُظهرِ يَرُدُّ في الإضافةِ إلى المُضمرِ... ولكن الحذفَ لاجتماعِ المتلينِ. وهو هنا يَنفي شُبُهَةَ حَذَفِ النونِ الأصيلِ، ويؤكدُ حَذَفَ نونِ الوقايةِ، من "لُدُن"، وهو يؤكدُ كَرَّةً أُخرى ما ذهبَ إليه في الحُجَّةِ.^(٤)

على أن بابَ الحذفِ يختلفُ عندَ أبي عليّ في "لُدُنِي"؛ إذ يردفُ: "قلا يُستحسنُ على هذا الحذفِ في القراءةِ "من لُدُنِي"، لأنه ليسَ بموضعِ ضرورةٍ. وهو

١. الإغفال: ٣٨٢/٢. وينظر: الحجة: ١٦١/٥

٢. ويروى: منخوره، بالخاء.

٣. وقد جاء هذا التركيب في القرآن الكريم ست مرات، ما ذكر من النساء، وفي: الكهف: ٦٥، ومريم:

١٣، وطه: ٩٩، والأنبياء: ١٧، والقصص: ٧٥.

٤. الحجة: ١٦١/٥.

يوازن بين "لدني" و"إني" فيقول: "لا يكون 'لدني' مثل 'إني'، لأن الأمثال في 'إني' أكثر منها في 'لدني'... فالحذف فيه أقرب منه في 'إني'، ومما يؤكد ذلك أن في 'إن' قبل لحاق النون الثالثة له نونين لازمين، وليس في 'لُدُن' حرفان مثلان لازمان قبل لحاق النون الثانية".

ووقف النحاس على قراءة (لُدُنِي)^(١)، فقال: وهذه قراءة أبي عمرو والأعمش وحمزة والكسائي، وقرأ أهل المدينة "من لُدُنِي"، بتخفيف النون، والقراءة الأولى أولى في العربية، وأقيس. وهو ينقل حجة الحذف عن المبرد: "والحجة في جوازه على ما حكي عن محمد بن يزيد أن النون حُذفت كما قرأ أهل المدينة: 'فبم تبشرون' بكسر النون^(٢)، وأحسن من هذا ما ذهب إليه أبو إسحاق".

وعرض ابن خالويه لقراءة نافع بالتخفيف وأردف معلقاً^(٣): "كراه اجتماع النونين، فحذف واحدة". ومسألة الكراهة هذه مردودة، وهي أضيقت من أن توصف بها هذه الظاهرة، واللغة لا تبني على الكراهية، وإنما هي إمكانية متاحة مال إليها^(٤).

وابن مالك يؤيد مذهب الزجاج، إذ يقول في شرح التسهيل^(٥): "ولحاق النون مع 'لُدُن' أكثر من عدم لحاقها، وزعم سيبويه أن عدم لحاقها من الضرورات، وليس كذلك، بل هو جائز في الكلام الفصيح". وأبو حيان ينفي عن سيبويه

١. إعراب القرآن، للنحاس: ٤٦٧/٢.

٢. ولم أقع عليه في المقتضب.

٣. إعراب القراءات السبع، لابن خالويه: ٤٠٧/١.

٤. وينظر: رأي الدكتور زيد القرالة في الكراهية هذه، في نون الوقاية: ١٥٣.

٥. شرح التسهيل: ١٣٦/١. وينظر التذييل والتكميل: ١٨٢/٢.

تعرّضه لـ"الدن"^(١). والأقرب من قول أبي حيان أنه لم يصرح - كما دُكر - إلا في "قد"، وإن أشار ضمناً إلى مسألة الضرورة.

ونقل أبو حيان عن ابن عصفور^(٢): "وإنما كان الحذف في "الدن" أحسن، لأنهم يقولون "لد"، فيحذفون النون، ولدُ المحذوفة إذا اتصلت بها ياء المتكلم لم تلحقها نون الوقاية؛ لأنها إذ ذاك بمنزلة "مع" ... فكأن الذين حذفوا نون الوقاية مع إثبات النون حملوها في ذلك عليها إذا حُذفت نونها".

وجعل الشاطبي المسألة على وجهين^(٣): "إما على أنهم أجروه على الأصل من الاسمية، فلم يلحقوا النون، وعاملوا "الدني" معاملة عَضْدِي^(٤)... وإما على أنهم حذفوا النون كراهية التضعيف، على حدّ حذفها من قوله تعالى: "قبح تبشرون"، ونحوه^(٥)". وليس في المذهب الأول عند الشاطبي بقاء ولا حذف؛ إذ الصيغة دخلت محذوفة النون، كما رأينا في إشارة ابن عصفور.

وهنا ينبغي التوقف في هذه المسألة على خلط لا يعدمه النظر، ألا وهو الكلام على اجتماع المثليين، أو القياس على "كأني" و"تبشرون"، وتأمرون"، فليس في "الدن" إذا أضيفت إلى المتكلم إلا إمكانتان، التشديد، وهو الكثير، والتخفيف وهو الأقل، ولا استخدام للصيغة المفككة، إلا ببنية متخيلة. وعلى هذا، فليس هناك اجتماع مثليين اجتماعاً حقيقياً ظاهراً، كما رأينا في الصيغ المذكورة آنفاً، يُفضي إلى الثقل، بل المسألة قائمة على التخفيف من التضعيف.

١. ينظر: التذييل والتكميل: ١٨٢/٢، وارتشاف الضرب: ٩٢٥.

٢. التذييل والتكميل: ١٨٣/٢.

٣. المقاصد الشافية: ٣٣٧/١.

٤. أي في تخفيفها، وتسكين الضاد.

٥. ولم أقع عليه في المقتضب.

وجلّ النحويين يقولون بقلة حذف النون الثانية (الوقاية)، لا بضرورتها، كالجزولي^(١)، وابن عصفور^(٢)، والأبدي^(٣)، وابن عقيل^(٤)، وابن هشام^(٥)، والأشموني^(٦)، والسيوطي^(٧)، والرضي^(٨)، والبغدادي^(٩). ومن المحدثين الغلابيني (ت ١٩٤٤)^(١٠)، وعباس حسن (ت ١٩٧٨)^(١١)، وعبدالغني الذقر^(١٢).

٤:٣: علل البقاء بين نون حرفي الجرّ "من" و"عن" و"لذّن"، وبين نون الوقاية:

العلّة الرئيسيّة في الحذف والبقاء التخفيف، وثقل التقاء الأمثال، أو التضعيف. أمّا علّة البقاء لهذه النونات الأصيلة فالأصالة. إلا ما وجدنا من الرأي الذي ذكره ابن حمدون في بقاء النون الثانية (الوقاية)، ولم يُعلّله.

-
١. ينظر: التذييل: ١٨٣.
 ٢. السابق نفسه.
 ٣. السابق نفسه.
 ٤. وينظر: المساعد على تسهيل الفوائد: ٩٥/١. وشرح ابن عقيل على الألفية، تحقيق: محي الدين عبدالحميد: ١١٥/١.
 ٥. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام، أبو محمد، عبدالله جمال بن يوسف، تحقيق: محمد محي الدين، دار الجيل، بيروت، ط ٥، ١٩٧٩: ١٢٠/١.
 ٦. شرح الأشموني: ٦٠/١.
 ٧. همع الهوامع، السيوطي، جلال الدين، تحقيق: عبدالحميد هندراوي، المكتبة التوفيقية، مصر: ٢٦١/١. وشرحه على الألفية (البهجة المرضية)، دار السلام، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٠: ٧٧.
 ٨. شرح الكافية: ٤٩٢/٤.
 ٩. خزنة الأدب: ٣٨٤/٥.
 ١٠. جامع الدروس العربية، الغلابيني، مصطفى، المكتبة العصرية، بيروت، ط ٢٨، ١٩٩٣: ٦٠/٣.
 ١١. النحو الوافي: ٢٨٢/١.
 ١٢. معجم القواعد العربية: ٢٧.

٥: المسألة الرابعة: اجتماع نون الأفعال الخمسة مع نون التوكيد:

والمسألة الأخيرة من هذه النظرية إنما هي مسألة البقاء في التقاء نون الأفعال الخمسة، ونون التوكيد الثقيلة.

وقد رأينا سبويه يفتح نظرية البقاء بهذه المسألة، يقول^(١): "وإذا كان فعل الاثنين مرفوعاً وأدخلت النون الثقيلة حذفت نون الاثنين لاجتماع النونات، ولم تحذف الألف لسكون النون؛ لأن الألف تكون قبل الساكن المدغم، ولو أذهبت لم يعلم أنك تريد الاثنين، ولم تكن الخفيفة هنا؛ لأنها ساكنة ليست مدغمة، فلا تثبت مع الألف. ولا يجوز حذف الألف فيلتبس بالواحد. وإذا كان فعل الجمع مرفوعاً ثم أدخلت فيه النون الخفيفة أو الثقيلة حذفت نون الرفع، وذلك قولك: لتفعلن ذلك، ولتذهبن؛ لأنه اجتمعت فيه ثلاث نونات، فحذوها استتقالاتاً. وتقول: هل تفعلن ذلك، تحذف نون الرفع لأنك ضاعفت النون، وهم يستقلون التضعيف، فحذوها إذ كانت تحذف. وهم في هذا الموضع أشد استتقالاتاً للنونات". ويرد^(٢): "واعلم أن الخفيفة والثقيلة إذا جاءت بعد علامة إضمار تسقط^(٣)، إذا كانت بعدها ألف خفيفة أو ألف ولام، فإنها تسقط أيضاً مع النون الخفيفة أو الثقيلة، وإنما سقطت لأنها لم تحرك، فإذا لم تحرك فتحذف لئلا يلتقي ساكنان".

١. الكتاب: ٥١٩/٣. وينظر: التعليقة على كتاب سبويه، أبو علي الفارسي، تحقيق: عوض القوزي،

ط ١، ١٩٩٠: ١٨/٤، وما بعدها. وابن يعيش: ٣٧/٩-٣٨.

٢. الكتاب: ٥٢٠/٣.

٣. نعت لعلامة الإضمار.

وقال الخليل^(١): "إذا أردت الخفيفة في فعل الاثني كانت بمنزلة إذا لم تُرد الخفيفة في فعل الاثني، في الوصل والوقف؛ لأنه لا يكون بعد الألف حرف ساكن ليس بمُدغمٍ ويردف^(٢)": "وأما يونس وناس من النحويين فيقولون: اضربان زيداه واضربان زيداه، فهذا لم تقله العرب، وليس له نظير في كلامها".

فسيبويه يقف على علة واحدة في البقاء والحذف في هذه المسألة، ألا وهي تكاثف النونات. وهو يجعل الحذف في نون الرفع لهذه العلة، على الرغم من تقدمها، كما صنع في المسألة الأولى. وهو هنا - وإن لم يُشر - يحمل النون الخفيفة على الثقيلة؛ إذ ليس ثمة تكاثف للنونات. وهذا على الرغم من مذهبه أنهما نونان لا نون واحدة، على ما استدل هو من كلام الخليل؛ إذ يقول^(٣): "وزعم الخليل أنهما توكيد، كما التي تكون فصلاً، فإذا جئت بالخفيفة فأنت مؤكدة، وإذا جئت بالثقيلة فأنت أشد توكيداً"، وقال^(٤): "فالخفيفة في الكلام على حدة والثقيلة على حدة". ومذهب البصريين هو مذهب سيبويه^(٥). وأغرق ابن بابشاذ (ت ٤٦٩ هـ) في هذا المذهب حتى بلغ قوله^(٦): "والتأكيد بالنون الشديدة بمنزلة التأكيد باسمين، في قولك: "قام القوم كلهم أجمعون"، والتأكيد بالنون الخفيفة بمنزلة التأكيد باسم واحد من قولك "قام القوم كلهم".

١. الكتاب: ٥٢٥/٣.

٢. الكتاب: ٥٢٧/٣، وينظر المقتضب: ٢٤/٣. وشرح السيرافي: ٢٥٩/٤، والحجة للقراءات للفارسي: ٤٤١/٣. والإنصاف: ٦٥٠/٢.

٣. ينظر الكتاب: ٥٠٨/٣-٥٠٩.

٤. السابق نفسه: ٥٢٤/٣.

٥. ينظر: المراجع السابقة واللاحقة.

٦. ابن بابشاذ، الطاهر بن أحمد، شرح المقدمة المحسبة، تحقيق: خالد عبدالكريم: ٢٠٩/١.

وهذا قياسٌ منطقيّ، ومنتزَعٌ من متغايرٍ، فكيفَ ثَمَلُ نونٌ أصيلةٌ في "إِنَّ"
و"لَكِنْ"، على حرفٍ معني غيرٍ مستقلٍّ بنفسِه. وقد ذهبَ الكوفيونَ إلى أنهما نونٌ
واحدةٌ^(١)، وهو - فيما أرى - أسدُّ من مذهبِ سيبويه، ومن قالَ به.

والمبرّدُ يتفقُ معَ سيبويه في مسألةِ البقاءِ والحذفِ، ويخالفُه في التعليلِ؛ إذ
يقولُ^(٢): فإذا ثنيتَ أو جمعتَ أو خاطبتَ مؤنثاً فإنَّ نظيرَ الفتحِ في الواحدِ حذفُ
النونِ، ممَّا ذكرتَ لك. تقولُ للمرأة: هل تضربينَ زيداً؟ ولا تضربينَ عمراً، فتكونُ
النونُ محذوفةً التي كانت في تضربين، ألا ترى أنك إذا قلتَ: لن تضربَ يا فتى،
قلتَ للمرأة - إذا خاطبتها -: "لن تضربي، وكذلك لن تضربا، ولن تضربوا للاثنين
والجماعة. فتحذفُ النونَ نظيرَ الفتحِ في الواحدِ". وقد نقلَ عنه ابنُ ولادٍ
(ت ٣٣٢هـ) ردّه تعليلَ سيبويه، إذ قال^(٣): "وهذا اعتلالٌ فاسدٌ؛ لأنَّ الجمعَ بينَ
نونينِ في "تضربونني" وثلاثِ نوناتٍ في قولهم: "إتني" غيرٌ مستنكرٌ...". وقد
انتصرَ ابنُ ولادٍ لسيبويه، وسوّغَ علته.

١. ينظر: الإنصاف: ابن يعيش ٣٧/٩، واللباب في علل البناء والإعراب، العكبري: ٦٧/٢،
والإنصاف: ٦٥٣/٢، والمساعد: ٦٦٤/٢، والرضي: والمغني: ٤٤٣، والجنى الداني، والمقاصد
النحوية: ١١٧٠، وارتشاف الضرب: ٦٥٣، والهمع: ٦١٢/٢. والدمامي، محمد بن أبي بكر، شرح
الدمامي على مغني اللبيب، تعليق: أحمد عناية، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٧:
٢٤٦/٢. وناظر الجيش، محب الدين، محمد بن يوسف، تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد (شرح
التسهيل)، تحقيق: علي فاخر وآخرين، دار السلام، مصر، ط ١، ٢٠٠٧: ٣٩١٨/٩. وشرح
الأشموني: ٣١٤/٣.

٢. المقتضب: ٢١/٣-٢٢.

٣. انظر دفاع ابن ولاد في الانتصار لسيبويه على المبرّد، ابن ولاد التميمي، أبو العباس أحمد بن
محمد، تحقيق: زهير سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٩٦: ٢٣٤. وينظر المقاصد الشافية:
١٠٦/١.

والمبزود يستقي علته هذه من أستاذه المازني^(١)، وهو يقيس فتحة البناء في الفعل المؤكد على فتحة التصب في المضارع، والجامع إسقاطهما النون. على أن المازني نفسه - على الأغلب - اقتبس هذه العلة من سيبويه؛ إذ يقول في فاتحة كتابه^(٢): "فالنون ههنا في "يفعلن بمنزلتها في "فعلن"، وفعل بلام "يفعل" ما فعل بلام فعل" لما ذكرت لك، ولأنها قد تبنى مع ذلك على الفتحة في قولك: "هل تفعلن"، وألزموا لام "فعل" السكون، وبنوها على العلامة، وحذفوا الحركة لما زادوا، لأنها في الواحد ليست في آخرها حرف إعراب، لما ذكرت لك". وعلى الرغم من هذا فقد قدم سيبويه ههنا علة نقل التضعيف وتكاثف النونات على هذا القياس.

وابن السراج يلقح بين تينك العلتين في حذف هذه النون^(٣)، وكذا السيرافي^(٤)، والصيمري^(٥)، والخوارزمي (ت ٦١٧هـ)^(٦).

ولا خلاف بين النحاة على بقاء نون التوكيد بقسميها في أصول هذه المسألة، وإنما تبدى خلافتهم في بناء المضارع وإعرابه معهما^(٧). ثم ركز من بعد ذلك في هذا الخلاف - كما رأينا - خلاف آخر في علة حذف نون المضارع، عند بعض النحويين، وليس كلهم. قال الرضي^(٨): "وأما حذف النون التي هي علامة الرفع في

-
١. ينظر الانتصار: ٢٣٦.
 ٢. الكتاب: ٢٠/١.
 ٣. ينظر: الأصول: ٢٠١/٢.
 ٤. شرح السيرافي: ٢٥٣/٤.
 ٥. الصيمري، أبو محمد، عبدالله بن علي، التبصرة والتذكرة، تحقيق: فتحي علي الدين، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٢: ٤٢٨/١.
 ٦. الخوارزمي، القاسم بن الحسين، التخمير، شرح المفصل في صنعة الإعراب، تحقيق عبدالرحمن العثيمين، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٠: ١٨٤/٤.
 ٧. ينظر: شرح التسهيل: ٣٦/١، رصف المباني: ٤٠١، وشرح ابن عقيل: ٤٠/١، وشرح الرضي: ٢٠/٤، المقاصد الشافية: ١٠٤/١، تمهيد القواعد: ٢٣٥/١، ٣٩٤٧/٨، والخزانة: ٢٢٣/٤. ثم إن هناك مذهباً ثالثاً، يفرق بين أن تباشر النون الفعل فيحكم ببنائه، أو تفصل عنه بفواصل فيحكم بإعرابه، وينظر: ارتشاف الضرب: ٦٢٢/٢، وتمهيد القواعد: ٣٩٣٧/٨.
 ٨. شرح الكافية: ٤٩٢/٤. وينظر: ٢٤/٤.

الأمثلة الخمسة فلأنَّ الفعلَ صارَ مبنياً عندَ الجمهورِ، وعندَ غيرِهِم لاجتماعِ النوناتِ^(١). وليسَ دقيقاً ما قاله الرضيُّ؛ فعلى الرَّغم من هذا الخلافِ فسيبويه يقولُ ببناءِ الفعلِ معَ النونينِ^(٢)، وتبعَه في هذا ابنُ عقيلٍ^(٣)، والأشموني^(٤)، والصبَّان^(٥)، وخالد الأزهري^(٦)، ولم يمنعْهم هذا من القولِ بحذفِ نونِ الرفعِ لاجتماعِ النوناتِ. كما رأينا من جمعِ العَلَّتَيْنِ، وهو يرى بناءَ المضارعِ معَ النونينِ. أمَّا من جعلَ البناءَ سبباً في علةِ حذفِ هذه النونِ فنجدُ المازنيَّ على رأسِهِم^(٧)، وتبعَه المبردُ^(٨) ثم تلميذه ابنُ السراجِ^(٩)، والسيرافي^(١٠)، وأبو علي (ت ٣٧٧هـ)^(١١)، وابن يعيش (ت ٦٤٣هـ)^(١٢)، وابن عصفور (ت ٦٦٩هـ)^(١٣)، والجرجاني (ت ٤٧٦هـ)^(١٤). والمحدثون أميل إلى رأيِ سيبويه^(١٥).

١. وينظر ابن يعيش: ٣٨/٩.
٢. ينظر الكتاب: ٢٠/١.
٣. شرح ابن عقيل: ٣٩/١.
٤. شرح الأشموني: ٢٨٨/١.
٥. حاشية الصبَّان على الألفية: ٣٢٨/٣.
٦. التصريح بمضمون التوضيح: ط ١، ١٩٩٧: ٤/١٨٣.
٧. ينظر الإغفال: ١٤٢/١.
٨. ينظر المقتضب: ١٩/٣.
٩. ينظر الأصول: ١٩٩/٢.
١٠. شرح كتاب سيبويه: ٢٥٨/٤.
١١. ينظر الإغفال: ١٤٢/١.
١٢. شرح المفصل: ٣٧/٩.
١٣. شرح الجمل: ٤٩٣/٢.
١٤. الجرجاني، عبدالقاهر، المقتصد في شرح الإيضاح، كاظم بحر المرجان، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٢: ١١٣٠-١١٣١.
١٥. ينظر: جامع الدروس العربية: ٢٦٦/١. النحو الوافي: ١٨٧/٤. النجار، عبدالعزيز، ضياء السالك إلى أوضح المسالك، مطبعة السعادة، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٣: ٢٣٦/٣. السيد، أمين، تصريف الفعل، مكتبة الشباب: ١٢٧. الراجحي، عبده، التطبيقات الصرفية، دار النهضة العربية، بيروت: ٦١. الأنطاكي، محمد، المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، دار الشرق العربي، بيروت، ط ٣: ١٤٩/٣، ٢٨٩/١. مكرم، سالم، عبدالعال سالم، وتطبيقات نحوية وصرفية، مكرم، عبدالعال سالم، ٧٤/٢. والدقر، عبدالغني في "معجم قواعد العربية": ٥٥٠. والسيد، عبدالحميد، المغني في علم الصرف، دار صفاء، عمان، ط ١، ٢٠٠٩: ١٧٤.

وفي عود الكلام على دخول النون الخفيفة على الأفعال الخمسة في نحو: "يضربان" فقد وجدنا الخليل وسيبويه يردانه. وقال الرضوي^(١): "وأما يونس والكوفيون، فجوّزوا إلحاق الخفيفة بالمشى وجمع المؤنث، فبعد ذلك، إما أن تبقى النون عندهم ساكنةً، وهو المروي عن يونس؛ لأن الألف قبلها، كالحركة لما فيها من المدّة، كقراءة نافع^(٢) (وَمَحْيَاي) الأنعام: ١٦٢، أو قراءة أبي عمرو: "واللّاي"^(٣)، وقولهم: "التقت حلقنا البطان". ولا شك في أن كلّ واحد في مقام الشذوذ، فلا يجوز القياس عليه. وإما أن تُحرك بالكسر للساكنين، وعليه حمل قوله تعالى: (وَلَا تَتَّبِعَانِ): ٨٩، بتخفيف النون".

وجعل أبو علي قراءة "ولا تتبعان"^(٤) من باب التوكيد، إذ قال: "يمكن أن يكون خففَ الثقلية للتضعيف"، ويردّف^(٥): إلا أنه حذف الأول من المثليين في نحو "قيراطٍ ودبنار"، ولزم ذلك في هذا الموضع؛ لأن الحذف لو لحق الثانية لزم النقاء ساكنين، على غير ما يُستعمل في الأمر العامّ الشائع. وهو يجعل البقاء ههنا في النون الثانية منها، ويُفرغ على مذهبه في حذف المكرر المُستقل، كما رأينا آنفاً.

١. شرح الرضي على الكافية: ٤/٤٩٢.

٢. ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، العراق، ١٩٩٩: ١/٣٤٢. ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت: ١/٩٢. الجامع: ٧/١٥٣. وأبو حيان، البحر المحيط: ١/٣٢٢. ونقل صاحب الدر المصون أن نافعاً رجع عن هذه القراءة: ٨/١١٥.

٣. من قوله تعالى (وَاللّاي يَيْسُنْ مِنَ الْمُحْيِي) الطلاق: ٤. وهي قراءة أبي عمرو، والبزري، ينظر: الدر المصون: ٤/١١٢.

٤. وهي عنده في رواية الأخفش الدمشقي عن أصحابه عن ابن عامر.

٥. الفارسي، أبو علي، الحجّة للقراءات السبع، تحقيق: بدر الدين قهوجي، وبشير جويجاتي، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٩٨٤: ٤/٢٩٣-٢٩٤.

وقال ابنُ خالويه^(١): "ويُقرأ بحذفِ النونِ، ويجعلُهُ مُعرباً، وكذا الأَنْباري^(٢). وحكى أبو حيانَ (٧٤٥هـ) عن النحويينَ أنَّ هذه النونَ هي الخفيفة^(٣): "فَقِيلَ هي نونُ التوكيدِ الخفيفةِ، وكُسِرَتْ كما كُسِرَتْ الشديدةُ. وقد حَكَى النحويونَ كَسَرَ النونِ الخفيفةِ في مثلِ هذا عن العربِ، ومذهبُ سيبويهِ والكسائيِّ أنَّها لا تدخلُ هنا الخفيفةُ، ويونسُ والفراءُ يريانِ ذلك". وأولُه ابنُ بابشاذَ "وأنتما غيرُ مُتَّبَعينِ"^(٤)، ومثله ابنُ عقيلٍ "وأنتما لا تتبعانِ"، وكذا الرضي^(٥)، وأبو حيانَ^(٦)، والشاطبي^(٧)، والصبان^(٨)، والشيخ خالد الأزهري^(٩).

ومن الاستدراكاتِ المتخيلةِ والرياضةِ العقليةِ التي ذكرها سيبويه في هذه المسألةِ قوله^(١٠): "وإذا وَقَفَتْ عندَ النونِ الخفيفةِ في فعلٍ مرتفعٍ لجميعِ رددتِ النونِ التي تثبت في الرفعِ، وذلك قولك: "وأنت تريد الخفيفة: هل تضربينَ وهل تضربونَ وهل تضربانِ"^(١١). ولا تقولُ: هل تضربونا، فتجريها مجرى التي تثبتُ معَ الخفيفةِ

-
١. ٦٥٢/١.
 ٢. ينظر الإِتصاف: ٦٦٧/٢.
 ٣. تفسير البحر المحيط: ١٨٧/٥.
 ٤. شرح المقدمة المحسبة: ٢٠٩-٢١٠.
 ٥. شرح الكافية: ٤٩٢/٤. وينظر: ابن بابشاذ، طاهر بن أحمد، شرح المقدمة المحسبة، تحقيق: خالد عبدالكريم: ٢٠٩-٢١٠، حاشية الصبان: ٣/٣٣٠.
 ٦. ارتشاف الضرب: ١٦٠٧/٥.
 ٧. المقاصد الشافية: ٥١٥/٣.
 ٨. حاشية الصبان: ٣/٣٣٠.
 ٩. التصريح: ١٩٨/٤.
 ١٠. الكتاب: ٥٢٢/٣.
 ١١. في النص المحقق ضبطت النونات بالسكون.

في الصلة^(١)، وقال الجرجاني^(١): "وإذا حذفت النون عادَ الواوُ هو ضميرُ الجميع، والياءُ الذي هو ضميرُ المرأة، لأجل أنَّهما سقطا لالتقائهما مع النون، وتعيدُ نونَ الرفعِ أيضاً". وهذا كُلهُ ضَرْبٌ من الرياضةِ العقليةِ لا سبيلَ إليها؛ لأنها تنقضُ الغرضَ الذي جاءتْ من أجله هذه النونُ. وكيفَ للمتكلِّمِ الذي يستجلبُ اهتمامَ السامعِ ليؤكدَ خبره، يلبسُ عليه أمره، ويغمضُ عليه مُرادَه؟ وهي، بعدُ، تُدخلُ السامعَ في قضايا ليس منها في كثيرٍ ولا قليل.

٥:١: عللُ البقاءِ في اجتماعِ نونِ الوقايةِ معِ نونِ التوكيدِ:

ثمةُ علتانِ للبقاءِ والحذفِ ههنا؛ اجتماعُ الأمثالِ الذي انبنى عليه استتقالُ التضعيفِ، والثانيةُ البناءُ الذي يُشبهُ النصبَ. وأمَّا البقاءُ فلنونِ التوكيدِ، وإنْ كانَ النحويونَ لم يقفوا على السببِ الرئيسِ في هذا البقاءِ، ألا وهو الدلالةُ، وفواتُ الغرضِ بحذفِ نونِ التوكيدِ. وعلَّةُ أبي عليٍّ في بقاءِ النونِ الثانيةِ من المشددةِ في "ولا تتبعانِ" - على حدِّ تفسيره - لئلا يلتقي ساكنان.

٦: مصطلحاتُ البقاءِ:

هذا بابٌ تُستخلصُ فيه مصطلحاتُ مُفترضةٌ لنظريةِ البقاءِ، وتعبيراتٌ تلامسُ حدَّ الاصطلاحِ، وقعتْ في هذه المسائلِ جميعاً، إمَّا تصريحاً وإمَّا استنباطاً، مرتبةً وُفقَ المسائلِ:

ولعلَّ أولَ ما يُذكرُ في ذلك المُصطلحاتُ المكررةُ والدائرةُ في القضيةِ كُلِّها، التي قامتْ عليها نظريتنا البقاءِ والحذفِ ألا وهي الاستتقالُ والتضعيفُ وتوالي الأمثالِ، والتداولُ.

١. المقصد في شرح الإيضاح: ١١٣٥. وينظر: الأصول لابن السراج: ٢/٢٠٣. وشرح الرضي على الكافية: ٤/٤٩٦.

أما في التفصيل فقد صرّح النحويون بالمصطلحات الآتية في المسألة الأولى لبقاء نون النسوة وهي: الإسناد، والاسمية، والدلالة على المعنى، وسلامة البناء، والسبق في المكرر، ولمحوا ب: الإخلال بالكلام (عند سقوطها). كما صرحوا لبقاء نون الوقاية: ب: الصيانة والوقاء.

وفي المسألة الثانية، صرحوا لبقاء نون الرفع" ب: الدلالة على المعنى، وسلامة حرف الإعراب، وكونها كلمة. ولمحوا ب: الخفة، والنيابة الصوتية (بكسر فتحتها)، والأصالة، والسبق، والحمل على التظير (في الحمل على الأحرف الناسخة). وفي المسألة الملحقة صرحوا ب: "الحمل" (على بقاء نون الرفع، في اجتماعها مع نون الوقاية)، وإقامة الوزن. أما في بقاء نون الوقاية، فقد صرحوا ب: البعد عن الحذف، والنيابة (نيابة نون الرفع عن حركة تُحذف، وهي الضمة)، وأمن الحذف، وأمن التغيير أو الاستغناء، وفقدان العامل.

أما المسألة الثالثة، فقد صرحوا في بقاء نون الحرف الناسخ ب: الاختصار، والسبق، والبعد عن الطرف أو الإيغال. ولمحوا ب: عدم العهد بالحذف. أما في بقاء نون الوقاية فقد صرحوا ب: قصد المعنى. ولمحوا ب التحرك (في بقاء النون الثانية المدغم فيها من "إن"؛ لأن الساكن يُسرّع إليه الاعتلال)، والقوة (في البعد عن الطرف الضعيف). وفي المسألة الملحقة صرحوا في بقاء الضمير ب "الإضمار".

أما حرفا الجرّ، و"لذن" فقد صرحوا في بقاء نونهن ب: الأصالة، ولم يؤثر عن ابن حمدون مصطلح في بقاء نون الوقاية.

أما المسألة الرابعة، فقد تكلموا على علل الحذف كالتخفيف وتوالي الأمثال والبناء، ولم يقفوا على مصطلح للبقاء، ولا شك أنه المعنى والدلالة، حتى لا يفوت القصد من صيغة التوكيد.

ويمكننا القول أن هذه هي المصطلحات أو التعبيرات الاصطلاحية التي حشدتها النحويون، ودارت في فلك نظرية البقاء، في مسائل اجتماع النونات التي تناولها هذا البحث.

٧: نظرية البقاء في الميزان:

هذا فصل رائز لنظرية البقاء وفق ما نظّر له القدماء، على ما رأينا في الآنف من البحث، ومحاولة لتقويم المنهج في هذه النظرية، على ما ناقشناه في البحث.

وبعد، فقد سجلت مسألها كما تناولها اللغويون بعامّة، وتعقبت كثيراً من آرائهم، وحصرت عليهم كما علّوا لها، واستتختت مصطلحاتهم، تصريحاً واستتباطاً. على أنه ينبغي أن ننحو في هذه النظرية إلى واقع يمكن ضبطه، والحكم عليه، بعيداً من الرجم بالغيب، وتشتيت المسائل بين القيم النحوية والقيم الصرفية أو الصوتية، والاتكاء على المنطق البعيد من واقع اللغة، والتلعب بالآراء، وفق ما يقتضيه ذلك المنطق، للعبور نحو نظرية متماسكة.

ومما لا شك فيه أن ثقل توالي الأمثال والتضعيف في صوت النون، الذي يمثل أكثر الأصوات الصحيحة ديناميكية، تأثراً وتأثيراً، سيؤدي إلى ظاهرة التخفيف، في كثير من استخداميه. وقضيتا البقاء والحذف إنما هما جزء من أسلوب معالجة هذا الواقع، إلى جانب أساليب أخرى كالقلب والإدغام والإعلال والتسهيل، والتفريق...

وهنا علينا أن نتوقف على مسألة المكرر المستقل كأهمّ العليل في قضيتي البقاء والحذف. فتفسير أبي عليّ الفارسي ومن تبعه، في بديهية سقوط المكرر المستقل إنما هو قياس على الكتابة لا النطق، وأبو عليّ نفسه نقضه في نحو "قيراط ودينار". فبنية الكلمة تنسك في النفس قبل نطقها، فإذا بانّت يكون المتحدث قد عالجه بما يتوافق مع إمكاناته النطقية، بقطع النظر عن السابق واللاحق، وما

قلبُ النونِ في مثلٍ: جَنْب، و"عنبر"، و"من بعد"، ولَمَّا يُنطَقُ بها بعدُ، بل إدغامُها في الكلمةِ الأولى المُنفصلةِ نحو: و"من ربهم"، و"من ورائهم" و"مَنْ يَكُن"، ونحو ذلك كثيرٌ إلا تأكيداً لهذه الحقيقة. فالنظرُ إلى النطقِ على أنه نمطٌ أو امتدادٌ من الخطِّ أو الطباعةِ، سيفضي إلى هذا الرأي الذي يقومُ على نظرٍ منطقيٍّ بحتٍ.

أما من حيث المسائلُ التي عالَجها البحثُ من هذه النظريةِ فالتخفيفُ في اجتماعِ النونينِ: سواءً أكانت نونُ النسوةِ (كما بدتْ في شاهدِ سيبويه)، أو نونُ الأفعالِ الخمسةِ، أو نونُ "الدُّن"، معِ النونِ المسمّاةِ بالوقايةِ، يقومُ - فيما أرى - على أنَّ النونَ الباقيةَ إنما هي نونٌ مخففةٌ من النونينِ، أي أنها لا نونُ النسوةِ، ولا نونُ الرفعِ، ولا النونُ الأصليةُ من "الدُّن"، ولا هي نونُ الوقايةِ، وقامتْ هذه النونُ المخففةُ بوظيفةِ نونِ الوقايةِ، فُحرِّكتْ بالكسرِ، فهما صوتانِ اختزلا في صوتٍ واحدٍ. وغيرُ ذلك ضربٌ بالحصي، وصناعةٌ لغويةٌ، لا سبيلَ إليها. فالناطقُ يتخففُ من ثقلِ النوناتِ بالإبقاءِ على واحدةٍ تحيلُ إلى الاثنتينِ، بدلالةِ السياقِ.

وثمةُ ملحظانِ دقيقانِ ما لنا معدى من الوقوفِ عليهما، أولُهما أننا رأينا النحويينَ يَفصلونَ بينَ الحرفِ وحركتهِ في الكلامِ على البقاءِ والحذفِ، والحقيقةُ أنه لا فصلَ، وأنَّ المحذوفَ مقطوعٌ، لا صامتٌ معزولٌ عن صوتِهِ. وأما الثاني فينبغي التمييزُ بينَ قاعدتينِ في البقاءِ والحذفِ، الأولى الجبرُ، والثانيةُ الاختيارُ. أما الجبرُ فيتبدى في المسألتينِ الأولى، والثانيةِ وما أُلحِقَ بها، ومسألةُ حرفيِ الجرِّ و"الدُّن"؛ أي أنَّ الأصلَ إنما هو اجتماعُ نونِ النسوةِ (الضميرِ)، ونونِ الرفعِ في الأفعالِ الخمسةِ، وكذا اجتماعُ نونِ الرفعِ معِ نونِ الضميرِ، في المسألةِ المُلحقةِ. وفي اقترانِ الأحرفِ الناسخةِ بضميرِ المتكلمِ، ونونِ حرفيِ الجرِّ، ولُدُن معِ نونِ الوقايةِ، معِ الجبرِ في الإدغامِ ههنا. ولا اختيارَ فيه على أصلِ المسألةِ. كما أنه لا اختيارَ في البقاءِ والحذفِ عندَ اقترانِ الأفعالِ الخمسةِ بنونِ التوكيدِ، فاخترالُ الصيغةِ على

سبيلِ الجبر. وما وراء ذلك في مسائلِ الأحرفِ الناسخةِ فاخْتِياراً، وإنْ تَلَجَّجَ بَيْنَ
القَلَّةِ والكثرةِ.

ولا بدُّ من التفصيلِ، فاجتماعُ نونِ النسوةِ ونونِ الوقايةِ من بابِ الجبرِ، على
أنه سُجِّلَ فيه إمكانتان: الأصلُ وهي إثباتُ النونينِ المتحرّكتين، والقليلُ وهي بقاءُ
واحدةٍ. وقد ذهبَ البحثُ إلى أن هذه النونَ مخففةً من النونينِ لإحداهما، وقامتْ
بوظيفةِ نونِ الوقايةِ، ويمكنُ تمثيلُ ذلك على النحوِ الآتي:

← فليَ ذَ ني

فليَ نَ + ي ← فليَ ذَ ني

← فليَ ذَ ني

وفي هذا تخفّفٌ من مقطعينِ إلى مقطعٍ واحدٍ، واختزالُ صوتينِ في صوتٍ
واحدٍ.

أما اجتماعُ نونِ الرّفْعِ ونونِ الوقايةِ فينتجُ منه ثلاثُ إمكاناتٍ، الصيغةُ
المشدّدةُ، وصيغةُ مفكّكةٍ بنونينِ متحرّكتين، وإنْ شِئنا بمقطعينِ قصيرينِ، وهما
الصيغتانِ الجبريتانِ، وصيغةٌ على خلافِ الأصلِ؛ بنونٍ مُخفّفةٍ من تينِكَ التّونينِ.

وهنا ينبغي التوقّفُ على أشياء في هذه المسألةِ، فالتخفيفُ فيها يتميّزُ عن
غيره من المسائلِ. فبادئاً إنَّ الصيغتينِ المشدّدةِ والمخفّفةِ تتشعّبانِ من المفكّكةِ؛ أي
التي بنونينِ. وهذا مبنيٌّ على أصلِ التركيبِ، فهي الصيغةُ الأصيلَةُ، وليستْ
المشدّدةُ هي الأصلُ، ولا المخفّفةُ ناجمةً منها⁽¹⁾ - كما يُتصوّرُ - بعمليةٍ ميكانيكيةٍ.
ولعلّ الذي دفعَ إلى القولِ بتولّدِ الصيغةِ المخفّفةِ من المشدّدةِ إنّما هو قربُ المشدّدةِ

١. ينظر رأي عبده الراجحي، في أصالة المشدّدة، في اللهجات العربية: ١٥٤.

منها خطأً ونطقاً. والذي يدفع هذا المذهب أن ثمة الكثير من الصيغ المخففة في هذه المسألة لم تُذكر فيها المشددة، ولا يُنصّر عروضاها بذهن الناطق.

فالتخفيف في هذه الصيغة اتخذ صورتين؛ فكما دمّجوا المقطعين المتماثلين القصير والمتوسط: "ت" "تي": ص ح، ص ح ح في مقطعٍ مديدٍ "تجاجوتي": ص ح ح ص ص؛ ليكون النطق من جهة واحدة، مألّ بعضهم إلى اختزال مقطعٍ كاملٍ منها.

ويمكن تمثيل ذلك على النحو الآتي:

← تَجَاوَدِي

تَجَاوَنٌ + ي ← تُجَاوَدِي

← تُجَاوَدِي

وأما ما أُلحق بهذه المسألة نحو: "تجاجوتا" "تقلونا" فهو من الباب نفسه.

← تُجَاوَتَا

← تَجَاوَنٌ + نَا

تَجَاوَنٌ + نَا

← تَجَاوَتَا

وأما "الدن" ففي إضافتها إلى المتكلم إمكانتان أيضاً؛ الأولى المشددة وهي الكثرة الكاثرة؛ لأنّ النون الثانية تُكأه، تُجَبَّرُ بِنَيْتِهَا الضعيفة، والثانية القليلة الاجتزاء بنونٍ مخففةٍ منهما، ويمكن تمثيلها على النحو الآتي:

← لُدُنِي

لُدُنٌ + ي ← لُدُنِي

← لُدُنِي

مع النظر إلى الصيغة الثانية "لُدُنْدِي" على أنها افتراضية، غير منطوقة.

وفي هذا تخففٌ من مقطعين متوسطين إلى مقطعين قصيرٍ ومتوسطٍ.

وأما عن حرفي الجر "مِنْ" و"عَنْ" فمما لا شك فيه أَنَّ النونَ المسماةَ بالوقايةِ تكأةٌ تجبرُ البنيةَ الصوتيةَ لهذين الحرفين، وتظهرُهما في النطقِ جليتين، وتخفيفُهما شاذٌّ يكسرُ هذه البنيةَ^(١)، ولا يُعتدُّ بالشاهدِ المذكورِ الذي لا يُعرفُ أصلُه في تخفيفِهما، صحَّ أم وُضِعَ، وتمثيلُهما - إن صحَّ تخفيفُهما - كتمثيلِ "لُدُنْ".

← مَدِّي

مِنْ + ي ← مَنِّي ←

← مَدِّي

أما اجتماعُ النوناتِ أو تكأفُها لا يكونُ إلا بأسرِ اثنتينِ بالتشديدِ، فأما النقاءُ النونِ المشددةِ في الأحرفِ الناسخةِ مع نونِ الوقايةِ، أو النقاءُ النونِ المشددةِ في الأفعالِ الخمسةِ المؤكدةِ بنونِ الرفعِ فمنَ البينِ أَنَّ الباقيَ إنما هو النونُ المشددةُ، فإنَّ شدةَ سطوعِها في التركيبِ لا تتركُ مجالاً للنخيلِ، والهندسةُ المنطقيةُ، في فكفكةِ النونينِ وتقليبيتهما، ليسلمَ المنطقُ اللغويُّ النظريُّ، والخلافُ في المحذوفِ من المُدغمينِ جريٌّ في غيرِ ميدانٍ. وأما ما ذكره الصبَّانُ في "إنَّا": "ولم يقلُّ أحدٌ يُعتدُّ به أَنَّ المحذوفةَ هي الثالثةُ"، فهذا يؤكدُ مدى سَطوةِ القاعدةِ وهيمنتها، ولو قال: ولم يجرؤُ أحدٌ يُعتدُّ به على مخالفةِ المنطقِ النحويِّ أو الصرفيِّ لكانَ كلامُه أقربَ إلى الصوابِ. فهذه الصيغةُ لا تختلفُ عن غيرها إلا في حسابِ المنطقِ النظريِّ، فالباقي ههنا أيضاً المشددةُ، واجتزأ من الضميرِ "نا" بالألفِ، بدلالةِ السياقِ.

١. ينظر: علة مجيء نون الوقاية مع هذين الحرفين، عند زيد القرآلة، في نون الوقاية: ١٤٧.

إمكانتان، الصيغة الكاملة بنوناتها، ولا شك في أنها الصيغة الأصلية،
والصيغة المخففة بسقوط النون الأخيرة، وقد قامت المشددة مقام نون الوقاية،
واستشعرت حركتها، وذلك على النحو الآتي:

← إِنْ دِي

إِنْ + ي ← إِنْ دِي

← إِنْ دِي

ومثلها "إِنَّا"، وإن قامت نون الضمير مقام نون الوقاية، وتمثيلها:

← إِنْ نَا

إِنْ + نا ← إِنْ نَا

← إِنْ ا

بالتخفيف من النون التي هي جزء من الضمير، والاجتزاء منها بالألف.
وأما اجتماع نون التوكيد الثقيلة ونون الأفعال الخمسة، فليس فيها إلا إمكانية
واحدة، ألا وهي اختزال الضمير، ونون الرفع، وتمثيلها على النحو الآتي:

يكتبون ← يكتبون + ن ← يكتبون

وكأنتها: يكتب + ن ← يكتبون

أي بالتخفيف من مقطع متوسط كامل، وسرعة الوصول إلى غاية التوكيد.
وأما الكلام على نون التوكيد الخفيفة فمحمول على الثقيلة، والرياضة العقلية
التي رأيناها عند سيبويه وغيره لا يمكن أن يعضدها الاستعمال، ولا يستبعد ما
حكاه يونس، على أن تبقى هذه النون ساكنة.

٨: الغائب في هذه النظرية:

وبعد، فالذي غاب عن كل مناقشات النحويين، والصرفيين - على الرغم من جدلهم، وتنظيرهم- في هذه المسائل قضيةً جديرةً بالوقوف، ألا وهي قضية الدلالة. فلم نَقْعْ على لفتةٍ واحدةٍ لأيٍّ منهم في هذه القضية، وما هذا لأنهم نسّوها - فيما أرى- في خضمّ التنظير للباقي والمخوف، بل لأنهم لم يروا للدلالة حظاً في هذه القضية. ولعلّ جلّ أمرهم ما كان يذكره بعضهم -فضلاً عن التخفيف- من مسألة الكراهة، وتعبير الكراهة أكبر من أن يُحيط بهذه القضية؛ ذلك أن التخفيف إمكانية قد يلجأ إليها البعض، لظروف دلالية تقوم على معطيات نفسية، أو سياقية، تُقضي إلى هذا العُدول في التخفيف.

وقد تنبّه الدكتور زيد في بحثه الأنف الذكر إلى هذه المسألة إذ قال: "إن الحذف اللغويّ مظهرٌ من مظاهر العربية، وهذا المظهرُ يسيرُ على نسقٍ يخضع لعللٍ ومسوّغاتٍ يقتضيها السياقُ والمعنى، ولا يشيعُ الحذف عشوائياً دون مسوّغاتٍ كما يتبادرُ للبعض". وهذه إصابةٌ لكبد القضية.

وبعد مسحٍ حفيّ وقعتُ على نصوصٍ قليلةٍ في التفسير تنبّهت إلى هذه الغائبة، وعلى رأسها لمحةٌ ذكرها القرطبي (ت ٦٧١هـ) في "الجامع"، ولم يُعقب، إذ قال في سورة هود^(١): (مِمَّا نَدْعُونَ) الخطابُ لصالح، وفي سورة إبراهيم (نَدْعُونَنَا)؛ لأنّ الخطابَ للرسلِ صلواتُ الله وسلامه عليهم.

غير أنّ النصّ الفريد في هذا الباب هو ما سجّله الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) في إحدى بصائره، وقد جمّع فيه إلى علة الاستتقال، علتين أخريين، علة دلالية وأخرى

١. القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، القاهرة: ٥٩/٩.

سياقياً؛ إذ يقول^(١): "قوله: ﴿وَأِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ هود: ٦٢، وفي إبراهيم: ﴿وَأِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ إبراهيم: ٩؛ لأنه في هذه السورة جاء على الأصل، و﴿تَدْعُونَا﴾ خطاب مفرد، وفي إبراهيم لما وقع بعده ﴿تَدْعُونَا﴾ بنونين؛ لأنه خطاب جمع، حذف النون استتقالاً للجمع بين النونات، ولأنه في سورة إبراهيم اقترن بضمير قد غيّر ما قبله بحذف الحركة، وهو الضمير المرفوع في قوله: ﴿كَفَرْنَا﴾، فغيّر ما قبله في ﴿إِنَّا﴾ بحذف النون. وفي هود اقترن ضمير لم يغيّر ما قبله، وهو الضمير المنصوب، والضمير المجرور في قوله: ﴿قَدْ كُنْتُمْ فِينَا مَرْجُوعًا قَبْلَ هَذَا أَتْنَهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ هود: ٦٢، فصحّ كما صحّ."

والتفت الطاهر بن عاشور (ت ١٢٨٤هـ) في "التحرير" إلى دلالة أخرى؛ إذ قال^(٢): "ومن محاسن النكت هنا إثبات نون "إِن" مع نون ضمير الجمع؛ لأن ذلك زيادة إظهار لحرف التوكيد، والإظهار ضرب من التحقيق، بخلاف ما في سورة إبراهيم من قول الأمم لرسولهم ﴿وَأِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾؛ لأن الحكاية فيها عن أمم مختلفة في درجات التكذيب، ولأن ما في هاته الآية خطاب واحد، فكانت "تدعوننا" بنون واحدة، هي نون المنكلم، ومعه غيره، فلم يقع في الجملة أكثر من ثلاث نونات، بخلاف ما في سورة إبراهيم؛ لأن الحكاية هنالك عن جمع من الرسل في "تدعوننا" فلو جاء "إننا" لاجتمع أربع نونات". وقد تنبّه الدكتور فاضل السامرائي إلى هذه القضية أيضاً، ووقف على معاني أخرى في هذه المسألة^(٣).

١. الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: محمد علي النجار: ٢٥١/١-٢٥٢.

٢. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م: ١١٠/١٢، وينظر: ١٩٨/١٣.

٣. ينظر: السامرائي، فاضل صالح، معاني النحو، دار الفكر، عمان، ط ٢، ٢٠٠٢هـ: ٣٢٧/١-٣٢٩.

وتجدُر الإشارةُ ههنا إلى الإحصائية التي سجّلها الشيخ عبدالخالق عُضيمة في سفره الكبير متقصياً أحوال اجتماع الأحراف الناسخة النونية مع نون الوقاية في القرآن الكريم؛ إذ وردت "إني" مئةً وخمسين مرةً، بينما وردت "إنني" سبع مراتٍ. و"أني" سبع عشرة مرة. و"لكني" أربع مراتٍ، ولم ترد "أنني" ولا "لكنني" مطلقاً. ولا بد من دلالة خلف هذه الإحصائية، تنتظرُ التجليّة والكشف، في كلام مُستقل^(١).

أما الأفعال فقد سجّل الشيخ عُضيمة ثلاثة عشر فعلاً من هذا الباب: اجتمعت نونُ الرفعِ وواوُ الجماعةِ مع نونِ الوقايةِ في اثني عشرَ موضعاً، كما اجتمعت نونُ الرفعِ ونونُ التثنيةِ مع نونِ الوقايةِ في موضعٍ واحدٍ. وقد تَبَعَتْ قراءتها، فجاءت على النحو الآتي:

سبعةُ أفعالٍ لم تأتِ فيها إلا قراءةٌ واحدةٌ بالصيغةِ المفككةِ (الأصيلة)^(٢). ثلاثةُ أفعالٍ جاءت فيها القراءاتُ الثلاثُ^(٣). فَعَلٌ واحدٌ قُرئَ بالفكِّ والتشديد^(٤). وفعلٌ قُرئَ بالتشديدِ والتخفيفِ^(٥).

١. وقد سجّل الدكتور رمضان عبدالنوّاب جانباً من هذه الإحصائية، كما نقل نصوصاً في تخفيف النون من المسائل المذكورة في البحث، ينظر: رمضان عبدالنوّاب، بحوث ومقالات في اللغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ٣٣: ١٩٩٥-٣٥.

٢. وهي على النحو الآتي: (أَنْجَادِلُونِي) الأعراف: ٧١ (يَقْتُلُونِي) الأعراف: ١٥٠ (تَزِيدُونِي) هود: ٦٣ (يَدْعُونِي) يوسف: ٣٣ (يَعْبُدُونِي) النور: ٥٥ (تَدْعُونِي) غافر: ٤٣.

٣. (أَنْحَا جُونِي) الأنعام: ٨٠ وقراءة الفكِّ شاذة. (أَتْمِدُونِي) النمل: ٣٦، وقراءة الفكِّ شاذة. تَأْمُرُونِي الزمر: ٦٤.

٤. (وَتَدْعُونِي) غافر: ٤١، وقراءة التشديد شاذة.

٥. (تَبْشِرُونِي) الحجر: ٥٤.

وأياً كان موقفنا من هذه الدلالات فإنها تمثلُ وجهاً غائباً عند كلِّ مَنْ ناقشَ هذه المسائلَ - فيما وقعتُ عليه - من نظريةِ البقاءِ. ومما لا شكَّ فيه أيضاً أنها مسألةٌ تحتاجُ إلى وقفةٍ متأنيةٍ لتبيينِ وجوهِ الدلالةِ فيها، ودراسةِ معطياتها، في هذه القضيةِ، دراسةً تضيءُ الكثيرَ مما يقفُ خلفَ هذا التخفيفِ الذي يلجأُ إليه الناطقُ.

خلاصة وخاتمة:

وبعد، فعلى الفرض الذي نهض منه هذا البحث ألا وهو أن دراسة العربية تقوم على طائفة من النظريات المتعاضدة، تشكل النظرية الكلية الكبرى لهذه اللغة، فقد تعيا البحث الوقوف على نظرية من هذه النظريات، ألا وهي نظرية البقاء، تلك التي تماهت في نظرية الحذف. وحاولت ما استطعت أن أشكل لها كياناً يُناظر ويوازن كيان نظرية الحذف. وقد تناولت فيها جانباً من مسائل الخلفة والبقاء في التقاء النونات. أودعوا فيها كثيراً من حججهم، وعلمهم، ومصطلحاتهم، وهي، بعد، نظرية مستخلصة من مذهبهم المنعكسة في نظرية الحذف، وقد بين البحث مفهوم هذه النظرية التي قامت عليها هذه الدراسة، والحد الذي يفصلها من نظرية الحذف. وقد أفرد البحث باباً لتسجيل علل النحويين، بعد كل مسألة من مسائله، ثم أنشأ باباً ذكر فيه مصطلحات النحويين بعامّة في هذه النظرية، تصريحاً أو تلميحاً.

وانتهى إلى نقد الأسس التي قامت عليها هذه النظرية في مسألة تخفيف النون في المسائل المذكورة، وتشظيتها بين القيم النحوية والصرفية والصوتية، وأسس لنظر جديد متماسك في قضية البقاء، في المسائل التي طرحها البحث، مبني على القيمة الصوتية التي تنتج عن التقاء هذه النونات، والذي ينبغي أن يتخذ رائراً في هذه المسائل، خلاصته أن النون الباقية من النونين، إنما هي نون مخففة من تينك النونين، وليست إحداهما، فهما صوتان اختزلاً في صوت واحد. وإلا فلن ينتهي الجدل في هذه القضية. كما ذهب البحث إلى أن الأصل في بنية الأفعال الخمسة المقترنة بنون الوقاية إنما هي البنية المفككة، ثم انشعبت هذه البنية - تجنباً لتوالي المتلين - على صورتين؛ ليكون النطق من جهة واحدة، المشددة والمخففة. وردّ

البحث أن تكون المخففة قد نجمت من المشددة، بناءً على الاستخدام اللغوي لهذه
البنى.

وقد ميّزَ البحثَ بينَ مفهومينِ من هذا التخفيف؛ مفهومَ الجبر، ومفهومَ
الاختيار، ليضع المسائلَ في حيزها الصوتي التركيبي.

أما تكاثفُ النوناتِ فلا يكونُ إلا أن تُحطَمَ اثنتانِ منهنَّ بالتشديد، ويكونُ
البقاءُ في هذه المسألةَ للمشددة، وقد بيّنَ البحثُ قيمةَ هذا التشديدِ وسُطوعه في هذه
النظرية. وضربَ البحثُ صفحاً عن كلِّ تعليلاتِ وتحليلاتِ اللغويين، وما بُنيَ
عليها من فككفةٍ للصيغ التي وقعَ فيها التخفيف، بلغةٍ هي أقربُ للمنطقِ منها إلى
طبيعةِ اللغة، وجعلَ النظرَ واحداً في هذه المسائلِ.

وبعدُ، فلعلَّ هذا نهجٌ يفتحُ للدارسينَ باباً، لم يكن غائباً عنهم غياباً تاماً، بل
كان يختلطُ بغيره، ممّا يُضيقُ معالمه. ولئن تناولَ هذا البحثُ جزءاً يسيراً من نظريةِ
البقاء، وجزءاً يسيراً أيضاً من مسائلِ البقاءِ في حرفِ أو صوتِ النونِ، فإنَّ ثمةَ
قضايا أخرى كثيرةٌ يمكنُ درجُها وتناولُها تحتَ هذه النظريةِ، نحواً، وصرفاً،
وصوتاً، بل ودلالةً. والوصولُ فيها إلى مسالكِ الفكرِ اللغويِّ لدى القدماءِ، وتقويمه
إن استلزمَ ذلك.

والله الموفقُ من قبلُ ومن بعدُ.

المصادر والمراجع

- الأخفش الأوسط، سعيد بن مسعدة، معاني القرآن، تحقيق: هدى قزاعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٠.
- الأبدي علي بن محمد، وشرح الجزولية، تحقيق: سعد حمدان الغامدي (رسالة مخطوطة).
- الإستراباذي، الرضي، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب، تحقيق: عبدالعال سالم مكرم، عالم الكتب، ط ١، ٢٠٠٠.
- الإستراباذي، رضي الدين، شرح كافية ابن الحاجب، شرح الرضي على تصحيح وتعليق يوسف عمر، جامعة قاريونس، ١٩٧٨.
- الألوسي، محمود شكري، والضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط ١، ١٩٩٨م.
- الأنباري، أبو البركات، عبدالرحمن بن محمد، الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، دمشق.
- الأنطاكي، محمد، المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، دار الشرق العربي، بيروت، ط ٣.
- ابن إياز، جمال الدين الحسين بن بدر، قواعد المطارحة في النحو، تحقيق: يس أبو الهيجاء، وشريف النجار، وعلي الحمد، دار الأمل للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠١١.
- ابن بابشاذ، الطاهر بن أحمد، شرح المقدمة المحسبة، تحقيق: خالد عبدالكريم.
- ابن بري، عبدالله، شرح شواهد الإيضاح، تحقيق: عيد درويش، ومحمد علام، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٥م: ٢١٣.

- البغدادي، عبدالقادر بن عمر، خزانة الأدب ولب ألباب لسان العرب، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخاني، ط ٤، ١٩٩٧.
- تيمور، أحمد، السماع والقياس، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠١.
- ثعلب، أبو العباس، أحمد بن يحيى، مجالس ثعلب، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار المعارف، مصر.
- الثمانيني، عمر بن ثابت، القواعد والفوائد، تحقيق: عبدالوهاب الكحلة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣.
- الجرجاني، عبدالقاهر، شرح المقتصد في الإيضاح، كاظم بحر المرجان، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٢: ١١٣٠-١١٣١.
- ابن جنّي، أبو الفتح، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت.
- سر صناعة الإعراب، تحقيق: حسن هنداوي، دار القلم، ط ١، ١٩٨٥.
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، العراق، ١٩٩٩.
- المنصف، أبو عثمان، تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبدالله أمين، وزارة المعارف، القاهرة، ط ١، ١٩٥٤: ٣٣٨/٢.
- المنصف، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٩.
- ابن الحاجب، أبو عمرو، أمالي ابن الحاجب، تحقيق: فخر قدارة، دار الجيل، بيروت، دار عمّار، عمّان.

- حسن، عباس، النحو الوافي، دار المعارف: ٢٨٤/١.
- ابن حمدون، حاشية ابن حمدون على شرح المكوّدي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣.
- أبو حيّان، محمد بن يوسف، ارتشاف الضرب: تحقيق: رجب عثمان، مكتبة الخانجي.
- والبحر المحيط، تحقيق: عادل عبدالموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١.
- التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، دار القلم دمشق.
- ابن خالويه، أبو عبدالله الحسين بن أحمد، ومختصر في شواذ القرآن، مكتبة المتنبّي، القاهرة.
- إعراب القراءات السبع وعلها، تحقيق: عبدالرحمن بن عثيمين، مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٩٢.
- الخوارزمي، القاسم بن الحسين، التخمير، شرح المفصل في صناعة الإعراب، تحقيق: عبدالرحمن العثيمين، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٠.
- الدقر، عبدالغني، معجم قواعد العربية في النحو والتصريف، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩٣.
- الدلائي، محمد بن أبي بكر، نتائج التحصيل في شرح كتاب التسهيل، تحقيق: مصطفى العربي.
- الدماميني، محمد بن أبي بكر، وشرح الدماميني على مغني اللبيب، تعليق: أحمد عناية، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧.

- الدميّاطي، شهاب الدين، أحمد بن محمد، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، تحقيق: أنس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٨.
- ابن الدهان (ت ٥٦٩هـ)، أو محمد سعيد بن المبارك، الغرة في شرح اللمع، تحقيق: فريد السليم، دار التدمرية، الرياض، ط ١، ٢٠١١.
- الراجحي، عبده، التطبيقات المصرفية، دار النهضة العربية، بيروت.
- اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٦.
- الرضي، شرح الكافية، دار الكتب العلمية، (طبعة بولاق): ٤٥٤/٢.
- الزجاج، أبو إسحاق، إبراهيم بن السري، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبدالجليل شلبي، عالم الكتب، ط ١، ١٩٨٨.
- الزمخشري، محمد بن عمر، والكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، في وجوه التأويل، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ابن زنجلة، عبدالرحمن بن محمد، وحجة القراءات، تحقيق: سعيد الأفغاني، دار الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٢.
- السامرائي، فاضل صالح، معاني النحو، دار الفكر، عمان، ط ٢، ٢٠٠٢هـ.
- ابن السراج، أبو بكر، الأصول في النحو، محمد بن سهل، عبدالحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٨.
- ابن أبي سعيد السيرافي، يوسف، شرح أبيات سيبويه، تحقيق: محمد علي سلطاني، مطبعة الحجاز، دمشق، ١٩٧٦.
- السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد الخراط، دار القلم، دمشق.

- سيبويه، أبو بشر، عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، ط ٣، ١٩٩٨.
- السيرافي، أبو سعيد، شرح كتاب سيبويه، تحقيق: أحمد مهدي، وسيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨.
- ضرورة الشعر، تحقيق: رمضان عبدالنوّاب، دار النهضة العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٥.
- السيّد، أمين، تصريف الفعل، مكتبة الشباب.
- السيد، عبدالحميد، المُغني في علم الصرف، دار صفاء، عمّان، ط ١، ٢٠٠٩.
- ابن سيده، أبو الحسن، علي بن إسماعيل، المخصص (اشتقاق أسماء الله عزّ وجلّ)، تحقيق: خليل جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٩.
- السيوطي، جلال الدين، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، المكتبة التوفيقية، مصر، عبدالحميد هنداوي.
- بغية الرعاة في طبقات اللغويين والنحاة، المكتبة العصرية، لبنان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم: ٣٦٦/٢.
- الأشباه والنظائر: تحقيق: عبدالعال سالم مكرم، عالم الكتب، ط ٣، ٢٠٠٣.
- الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، تحقيق: عبدالرحمن بن سليمان العثيمين، معهد البحوث العلمية والتراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط ١، ٢٠٠٧.
- شاهين، كمال، نظرية النحو العربي القديم، دراسة تحليلية للتراث اللغوي العربي، من منظور علم النفس الإدراكي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٢.
- ابن الشجري، هبة الله بن عليّ، أمالي ابن الشجري، تحقيق: محمود الطناحي، مكتبة الخانجي.

- الشنتمري، الأعلم، تحصيل عين الذهب من معدن جواهر الأدب، في علم مجازات العرب، تحقيق زهير سلطان، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٩٢.
- الصبان محمد بن علي، حاشية الصبان، على شرح الأشموني على ألفية بن مالك، ضبط وتصحيح إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
- الصيمري، أبو محمد، عبدالله بن علي، التبصرة والتذكرة، تحقيق: فتحي علي الدين، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٢.
- الضبي، محمد بن يعلى، المفضليات، تحقيق: أحمد شاکر، وعبدالسلام هارون، ط٦، بيروت، لبنان.
- ابن أبي طالب القيسي، مكّي، مشكل إعراب القرآن، تحقيق: حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ.
- ابن عادل الدمشقي، أبو حفص عمر بن علي الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م، ط١.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتتوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧.
- ابن العبد، طرفة، ديوانه، اعتنى به عبدالرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.
- عبدالنواب، رمضان، بحوث ومقالات في اللغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٥.

- أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تحقيق: فؤاد سزكين، مكتبة محمد الخانجي، مصر.
- عبدالدايم، محمد عبدالعزيز، النظرية اللغوية في التراث العربي، دار السلام، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٦: ٣٣.
- ابن عصفور، علي بن مؤمن، المقرب، تحقيق: أحمد الجواربي، وعبدالله الجبوري، ط ١، ١٩٧٢.
- وضرائر الشعر، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م.
- ابن عقيل، بهاء الدين، المساعد على تسهيل الفوائد، تحقيق: محمد كامل بركات، مركز البحث العلمي، وإحياء التراث الإسلامي: ٩٦/١، وشرح الألفية: ١١٦/١.
- عضيمة، محمد عبدالخالق، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة.
- ابن عقيل، وشرح ابن عقيل على الألفية، تحقيق: محي الدين عبدالحميد.
- العكبري، أبو البقاء، محب الدين عبدالله بن الحسين، واللباب في علل البناء والإعراب، تحقيق: غازي طليمات، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٩٥.
- إعراب القراءات الشواذ، تحقيق: محمد عزوز عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٩٦.
- مسائل خلافية في النحو، تحقيق: محمد خير حلواني، دار الشرق العربي، ط ١، ١٩٩٢.
- عمر، أحمد مختار، وآخران، النحو الأساسي، ط ١، ١٩٨٤، دار السلاسل، الكويت: ٢٩.

- الغلاييني، مصطفى، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، بيروت، ط ٢٨، ١٩٩٣.
- الفارسي، أبو علي، الحسن بن عبدالغفار، الحجّة للقراءات السبع، تحقيق: بدر الدين قهوجي، وبشير جويجاتي، دار المأمون للتراث، دمشق، ط ١، ١٩٨٤.
- الشيرازيات، تحقيق: حسن هندأوي، كنوز إشبيليا، السعودية، ط ١، ٢٠٠٤م.
- الإغفال، وهو المسائل المصلّحة من كتاب "معاني القرآن وإعرابه للزجاج"، لأبي إسحاق الزجاج، تحقيق: عبدالله الحاج إبراهيم.
- التعليقة على كتاب سيبويه، تحقيق: عوض القوزي، ط ١، ١٩٩٠.
- الفراء، يحيى بن زياد، معاني القراء، تحقيق: أحمد نجاتي وآخرين، دار السرور، لبنان.
- فرستينغ، كيس، ملامح يونانية في الفكر اللغوي العربي، ترجمة: محمود كناكري، عالم الكتب الحديث، الأردن، إريد، ط ٩١: ٢٠٠٣، ٢.
- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: محمد علي النجار.
- القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، القاهرة.
- القزاز القيرواني، محمد بن جعفر، ما يجوز للشاعر في الضرورة، تحقيق: رمضان عبدالنواب، وصلاح الدين الهادي، دار العروبة، الكويت.
- القيسي، أبو علي، الحسن بن عبدالله، شواهد الإيضاح، تحقيق: محمد الدعجاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٨٧.

- الكرمانى، رضى الدين، محمد بن أبى نصر، شواذ القراءات، تحقيق: شمران العجلى، مؤسسة البلاغ، بيروت، لبنان.
- ابن مالك، جمال الدين، شرح التسهيل، تحقيق: عبدالرحمن السيد ومحمد المختون، هجر للطباعة والنشر، مصر، ط١، ١٩٩٠.
- شرح الكافية الشافية، تحقيق: عبدالمنعم هريدي، دار المأمون للتراث، ط١، ١٩٨٢.
- المالقى، أحمد بن عبدالنور، رصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق: أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط٣، ٢٠٠٢.
- المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد، المقتضب، تحقيق: محمد عبدالخالق عضيمة، القاهرة، ١٩٩٤.
- ابن مجاهد، أبو بكر، أحمد بن موسى، السبعة في القراءات، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٤٠٠هـ.
- المرادى، ابن أم قاسم، توضيح المقاصد والمسالك في شرح ألفية ابن مالك، تحقيق: عبدالرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠١.
- الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدين قباوة، ومحمد فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
- مكرم، عبدالعال سالم، تطبيقات نحوية وبلاغية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٢.
- الملح، حسن، التفكير العلمي في النحو العربي، الاستقراء، التحليل، التفسير، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠٢.
- ناظر الجيش، محب الدين، محمد بن يوسف، تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد (شرح التسهيل)، تحقيق: علي فاخر وآخرين، دار السلام، مصر، ط١، ٢٠٠٧.

- ابن الناظم، أبو عبدالله بدر الدين بن مالك، شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠: ٤٤.
- النجار، عبدالعزيز، ضياء السالك إلى أوضح المسالك، مطبعة السعادة، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٣.
- النحاس، أبو جعفر، إعراب القرآن، تحقيق: الدكتور زهير زاهد، عالم الكتب، ط ٣، ١٩٨٨.
- الهاشمي، أحمد، القواعد الأساسية للغة العربية، دار الكتب العلمية، بيروت: ٨٦.
- ابن هشام، أبو محمد، عبدالله جمال بن يوسف، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محي الدين، دار الجيل، بيروت، ط ٥، ١٩٧٩.
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق: مازن المبارك وآخرين، دار الفكر، دمشق، ط ٦، ١٩٨٥.
- ابن ولاد التميمي، أبو العباس أحمد بن محمد، دفاع ابن ولاد في الانتصار لسبويه على المبرد، تحقيق: زهير سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٩٦.
- ابن يسعون، يوسف بن بيقى، المصباح لم أعتَم من شواهد المصباح، تحقيق: محمد الدعجاني، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط ١، ٢٠٠٨.
- ابن يعيش، موفق الدين، شرح المفصل، عالم الكتب.

المقالات:

١- زيد، القرآنة، نون الوقاية: التسمية والوظيفة اللغوية، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد (٤)، العدد (٤)، تشرين الأول، ٢٠٠٨: ١٥٢.

النصُّ الجاحظي وإشكالات التأويل بحث في تجليات القراءة الاسترجاعية

د. مسالتي محمد عبدالبشير

كلية الآداب واللغات - جامعة سطيف ٢-

سطيف - الجزائر

المقدمة:

في لحظة ما من لحظات تطور القراءة العربية يكون الالتفات إلى منجزاتها لمراجعتها، ولتصحيح مسارها بتصويب ما علق بها من أخطاء أو شابها من انحرافات أهم بكثير من مواصلة إنجاز المكتسبات الجديدة والتّماذي في تحقيق التّراكم الكمي.

تتغيا هذه الدّراسة استنطاق جملة من القراءات الحديثة التي تشكّلت حول نصوص الجاحظ(*) النقدية، والدّراسة بذلك ليست بحثاً في نصوص الجاحظ

(*) هو عمرو بن بحر الكناني البصري المكنى بأبي عثمان، تاريخ ميلاده هو عام ١٦٠هـ، أما وفاته فكانت بالبصرة سنة ٢٥٥هـ/ ٨٩٦م. وهناك مصادر ومراجع كثيرة تناولت حياة الجاحظ وأخباره وأثاره فمن المصادر مثلاً: الفهرست لابن النديم، ومعجم الأدياء لياقوت الحموي، ولسان الميزان لابن حجر العسقلاني، وتاريخ بغداد للقفطي، ومروج الذهب للمسعودي، وأمالي المرتضى. ومن المراجع الكثيرة نذكر: الجاحظ ومجتمع عصره لشارل بيلا، وأدب الجاحظ لحسن السندوبي، والجاحظ لأحمد الحوفي، وضحى الإسلام لأحمد أمين، وتواريخ الأدب العربي بمجملها مثل شوقي ضيف وكارل بروكلمان وعمر فروخ ومصطفى صادق الرافعي وغيرهم. ولا يشك أحدٌ من دارسي الأدب القديم في أن الجاحظ من أعظم أدياء العربية، فقد كان محط إعجاب الباحثين، قدامى ومحدثين، أدّهتهم سعة علمه، وإطلاعه على أكثر ما في هذا الكون من معارف، درس الجاحظ اللغة والأدب والبلاغة عن أئمة علمائها، وأخذ أصول الاعتزال عن رؤسائه وامتاز عنهم بدوقه الأدبي الرفيع وطبيعته النفاذة المبتكرة، ومن يطلع على عناوين مؤلفات الجاحظ سيجد أن قلمه وبيانه، قد سجّل كل ما تمخّض عنه الفكر البشري لعهدده، من علوم وآداب... هذه الشمولية، وذلك العمق والإبداع في آثار الجاحظ، جعل الدارسين المحدثين يكبّون على مدونته درساً وتمحيصاً، بحيث لا يخلو أي كتاب في العصر الحديث في أثناء حديثه عن الفكر البلاغي، أو تاريخ التراث العربي من ذكر الجاحظ بوصفه معلماً من المعالم البارزة، ذات الأثر الفعال في تاريخ البلاغة العربية منذ القرن الثالث وحتى أيامنا الحاضرة.

بالدرجة الأولى، بقدر ما هي بحث في مسارات التلقي التي دارت حول هذه النصوص من منظور استدراجي(*)؛ وذلك من أجل الكشف عن الدور الكبير الذي تمارسه القراءة والتلقي في «تصنيع النص» وتحديد قيمته ومعناه، كما نزوم من وراء هذه الدراسة التحقق من أن القراءات والتلقيات لأي نص إنما هي محكومة بأفقها التاريخي وسياقها الثقافي، فهي تتحرك وفق ما يتيح لها أفقها وسياقها من «ممكنات»، وفي المقابل فإنها ترضخ تحت الإكراهات التي يمارسه عليها هذا الأفق وهذا السياق، وهو ما يجعل من دراسة مسارات القراءة وسيلة جيدة ليس لاستكشاف نصوص الجاحظ فحسب، بل لاكتشاف طبيعة الإكراهات التي يمارسها أفق الانتظار في توجيه القراءات، وأثر هذه القراءات في تصنيع النص المقروء وتشكيل دلالاته.

أولاً: مقارنة النص الجاحظي بين إعادة القراءة وإعادة الإنتاج

يمثل الوعي بتراثنا البلاغي والنقدي لحظة أخرى من اللحظات التي ما فتئت تقلق تفكيرنا النقدي، منذ أصبح ما سمي بـ"الأصالة والمعاصرة" هاجساً تصدر عنه جميع الكتابات النقدية عن وعي أو لا وعي، فليس الاهتمام بتراث نقدي متنوع وخصب إلا وجهاً لإشكال ثقافي يتجسد في موقفنا من التراث والحداثة، وموقفنا من قضية التجديد والإبداع. ولعلّه حان الوقت كي نجعل من الاهتمام بتراثنا النقدي

(*) هناك مصطلحات عدة مقارنة لمصطلح الاستدراج، وصفت عمليات تحديث أو تجديد أو تأصيل الموروث النقدي والبلاغي عند العرب؛ منها: (الاستعادة) للباحث عبدالسلام المسدي (ينظر: التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص ١١ - ١٢)، ومنها كذلك: (التفكير الموجي الاقتطافي)، و(الاقتطافي)، و(الفصصة) للباحث حسام الخطيب (ينظر: الناقد العربي المعاصر والموروث النقدي، ص ١١١)، وكذلك مصطلح: (القراءة التطابقية) لعلي حرب (ينظر: علي حرب: هكذا أقرأ ما بعد التفكير، ص ١٣٣ - ١٣٤)، و(القراءة الاستعادية) وهي القراءة التي تؤكد حضور الماضي في الحاضر كأنموذج ومثال لأحمد كريم الخفاجي (ينظر: التراث النقدي العربي والتقبل الحداثي المعاصر، ص ٢٦).

لحظة تأمل فيما ينبغي صنعه من أجل تطوير الحقل النقدي من غير الجهة التي سعى إليها معظم نقادنا في السنوات الأخيرة. إن إشكال النقد العربي القديم هو إشكال قراءته؟ وإشكال هذا النقد هو أيضاً أحد أوجه الحضارة: كيف السبيل إلى فهم طبيعته؟

إنّ القارئ الحديث الذي يحاول أن يأخذ وجهة نظر منسجمة عن البلاغة العربية سيصاب بالدوار أمام الآراء المتضاربة التي صدرت في حقّ الجاحظ؛ فأنت تجد الرأى وضده ينسبان للبلاغي الواحد (الجاحظ من أنصار اللفظ وفي الآن ذاته من أنصار المعنى؟)، (الجاحظ يقول بالصرفة^(*) ومرة أخرى يقول بالنظم)، (بلاغة الجاحظ إقناعية، ومرة أخرى هي إبلاغية).

دون اهتمام بتفسير ذلك، وترى الحكم يطلق وهو، عند صاحبه مقيد أو معدل أو منسوخ أصلاً؛ وهذا كله ناتج في نظر البحث عن غياب القراءة النسقية المستندة إلى الأسئلة والخلفيات والإحراجات التي حكمت أعمال الجاحظ.

يتأكد التذكير في البدء أنّ مقاربات الدارسين للمدونة التراثية/الجاحظية اختلفت وتباينت منهجاً ومن ثمة نتائج، حتى كادوا أن يفترقوا وتتيه مراكبهم في بحر التراث تيهاً يضل معه الموضوع المدرس وتمحي رسومهم، ولعلّ مرد اختلاف هذه المقاربات راجع إلى تباين مستويات المباشرة التي يتخذونها منطلقات لنظراتهم في التراث وتقويمهم إياه .

ولعل موضوع القراءة وإشكال العلاقة بينها وبين النص الأدبي/النقدي، من المواضيع الأكثر حداثة والأكثر تعقداً في ميدان البحث النقدي الحالي، وهي على

(*) المقصود بالصرفة أن الله صرف هم العرب عن معارضة القرآن، وكانت في مقدورهم، لكن عاقهم عنها أمر خارجي، ولو لم يصرفهم عن ذلك، لجؤوا بمثله. ينظر: البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٩٣.

كل حال ضرورة تحقيقية وإنتاجية، تنهض على مجموعة من الآليات والانشغالات النفسية والثقافية والاجتماعية والجمالية وغيرها. ولذلك نُظر إليها وإلى حركيتها من زوايا مختلفة. غير أنه لا يسعنا في هذا المقام رصد هذه الانشغالات وهذه الزوايا المتسمة بالغنى، إن على مستوى الجهاز المفهومي أو التحليل الأدبي والنقدي.

من المفيد في هذا السياق أن نقرّر - وفق ما يقتضيه البحث - أن مشاريع القراءات الحديثة للنص التراثي/ الجاحظي طرحت إشكالاً منهجياً ارتبط بالمنهج الذي كانت تصدر منه هذه القراءات الحداثيّة والأسيقة التّاريخيّة والثّقافيّة والحضاريّة التي رافقت هذه المناهج في نشأتها وتطورها، والمرجعيّات الفلسفيّة التي منها خرجت والتي كانت توجه هذه القراءات.

وهذا الطرح المنهجي من شأنه أن يكشف لنا عن المرجعيّات والمفارقات التي كانت تحكم هذه المناهج الحداثيّة في قراءتها للمدونة الجاحظيّة خصوصاً والتراثيّة عموماً من حيث استكشاف المعنى وبناء الدلالة والعمل على إبراز الفوارق والتقاطعات بين ما كان سائداً من مناهج في قراءة الخطاب الجاحظي؛ (خاصة التلقي التاريخي) وما حملته هذه المناهج اللسانيّة من توجهات جديدة غير معهودة في مقارنة التراث. ومما يميز هذه المناهج في قراءتها للنص الجاحظي هو سعيها نحو إحداث قطيعة معرفيّة كليّة مع كل القراءات السياقيّة (*) التي جسّدها مجموعة

(*) هي التي تتطلق من نقطة الاهتمام بما حول النص كالمؤلف أو الحقبة التاريخية التي عاش فيها وما لها من أثر فيه، ومن شأن هذه المناهج دراسة السياق وما يتعلق به، ومن أبرزها المنهج التاريخي، الاجتماعي، النفسي وغيرها وهي جميعاً يمكن أن نسميها "تفسيرية" لأنها تسعى إلى تفسير النص بتفسير سياقه ويعرف الباحث حجازي السياق (comtexte) بقوله: «مفهوم يشير إلى مجموعة العوامل التي تؤثر في اتجاه النص، وفي تشكيله، وفي ظهوره، فالسياق العام للأثر الأدبي أو النص هو المجتمع والتاريخ» قاموس، مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، ص ٤١.

من الباحثين نذكر^(١) منهم حسن السندي: أدب الجاحظ (١٩٣١)، ومحمد كرد علي: أمراء البيان (١٩٣٧)، وشفيق جبري في كتابه "الجاحظ معلم العقل والأدب" (١٩٤٨)، وإحسان عباس في كتابه الموسوم "تاريخ النقد الأدبي عند العرب" (١٩٧١)، وقراءة عبدالكريم الخطيب: الإعجاز في دراسات السابقين، دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية (١٩٧٤)، وأطرف من مثل هذه القراءات في حدود اطلاعنا شوقي ضيف من خلال كتابه "البلاغة تطور وتاريخ"، الذي يُعدّ مدرسة قائمة الذات/ مدرسة التمهيد.

فأهم ما يميز القراءات الحداثيّة للنصّ الجاحظيّ هو سعيها الدؤوب نحو إحداث قطيعة كليّة مع كل القراءات السابقة التي أشرنا إليها؛ ومن أبرز هذه المقاربات نذكر قراءة الباحث حمادي صمود الموسومة بـ"التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قراءة" (١٩٨١)؛ فالباحث حمادي صمود لا ينطلق من مصادرة قبلية جاهزة يسعى بمقتضاها إلى إبراز ما يتوفر في نصوص الجاحظ من عناصر الحداثة، بل يبني دراسته مركزاً على إنطاق الخطاب الجاحظي من داخله واستجلاء آلية إنتاجه المعرفة النقدية.

(١) ويمكن أن نضيف إلى تلك الدراسات مقاربات ذات مشغل سياقي تاريخي صرف نحو «الوسط البصري وتكوين الجاحظ» لشارل بيللا (بالفرنسية ١٩٥٣، الترجمة العربية ١٩٦١)، و«النثر ودور الجاحظ فيه» لعبدالحكيم بلبع ١٩٥٥، و«مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ» لميشال عاصي ١٩٧٤ و«الجاحظ ومجتمع عصره» لجميل جبر ١٩٨٥، و«الجاحظ في حياته وأدبه وفكره» لجميل جبر أيضاً ١٩٨٦، و«البيان العربي» لبديوي طبانة ١٩٨٦، و«النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ» للأب فيكتور شلحت اليسوعي ١٩٨٧، و«المناحي الفلسفية عند الجاحظ» لعلي بوملحم ١٩٩٤، و«نقد الشعر عند العرب» لأمجد الطرابلسي ١٩٩٣.

ونضيف إلى مقاربة صمود قراءة عبدالحكيم راضي "الأبعاد الكلامية والفلسفية في الفكر البلاغي والنقدي عند الجاحظ" (١٩٨٣)*، وقراءة إدريس بلمليح "الرؤية البيانية عند الجاحظ" (١٩٨٤) وهي من بين أطرف الدراسات التي حاولت تطبيق مفهوم رؤية العالم كما حدده لوسيان غولدمان (Lucien Goldman)، وقراءة عبد السلام المسدي بعنوان "مع الجاحظ، البيان والتبيين، بين منهج التأليف ومقاييس الأسلوب، أسس تقييم جديدة" ضمن كتابه الموسوم بـ"قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون" (١٩٨٤)**.

(*) لقد وضع الباحث عبدالحكيم راضي في هذا المنجز الطريف أن فحص مقولات الجاحظ لا تتأني إلا من خلال جمع المواد المعرفية الموجودة في «البيان والتبيين» مع مواد «الحيوان» عطفاً على المواد الموجودة في «الرسائل». ومن ثم فقد سمحت القراءة الشاملة للمدونة الجاحظية ووضع نصوصها بعضها بإزاء بعض، وربط كل ذلك بالسباق المعرفي الذي كتبت فيه، للباحث/ عبدالحكيم راضي من الوقوف على ما بدا له الطائفة المحركة والأصل الجامع لمواقفه اللغوية وأرائه في جمال القول ونجاعته؛ نعي بذلك ما سماه بالفلسفة الاعتزالية، بحيث تنبّه عبدالحكيم راضي إلى أهمية المرجعيتين الكلامية والزمنية الدينية في كشف آراء أبي عثمان، مهتدياً إلى أصول الفلسفة الاعتزالية الجاحظية لا سيما المتعلقة باللفظ الذي يعتبره أهل الاعتزال مخلوقاً حادثاً بعد المعنى بالإضافة إلى رأيهم المعروف في قضية العلاقة بين الاسم والمسمى، وقولهم باللاتطابق بينهما مما له صلة وثيقة بتصوّر أبي عثمان للعلاقة بين اللفظ والمعنى، ومن ثم فقد حاول راضي تنزيل آراء الجاحظ ضمن فلسفة الرجل البيانية والعقائدية التنزيل الصحيح. وهكذا يذهب عبدالحكيم راضي مثلاً إلى أنّ موقف الدارسين المحدثين المتعلق بالنظر إلى كتاب البيان والتبيين على أساس أنه مرجع في نظرية الفن القولي «نتيجة أساسية هي وصفه بالاستطراد والميل إلى الخروج كثيراً عن موضوعه الأصلي، وهو استنتاج طبيعي في هذه الحالة»، ولو نظر إليه على أساس أنه مؤلف في علم الأدب ليطل «من تهمة الميل إلى فوضوية التأليف التي كثيراً ما توجه إلى الجاحظ». الأبعاد الكلامية والفلسفية في الفكر البلاغي والنقدي عند الجاحظ، ص ٢٠-٣٦.

(**) يتجلى الحضور الجاحظي في كتابات المسدي من خلال كتابيه: "التفكير اللساني في الحضارة العربية"، و"مع الجاحظ" البيان والتبيين بين منهج التأليف، ومقاييس الأسلوب، أسس تقييم جديدة، ضمن كتابه "قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون"، مصنع الكتاب للشركة التونسية للتوزيع، ٥، قرطاج، تونس، ديسمبر ١٩٨٤. ويبدو أنّ المسدي كان أكثر حرصاً على تجنب ما يمكن أن يوجه إليه من تهمة قراءة التراث من منظور حديث وإسقاط مفاهيم النقد الجديد على تصورات نقدية نشأت في ظل ظروف مباينة تمام المباينة للظروف التي ظهرت فيها هذه المفاهيم، فكان إلى المجادلة أنزع وإلى إبراز الأسس السليمة التي ينبنى عليها اختياره أميل، بمعنى أنّ للسؤال - الذي حاول المسدي الإجابة عنه - بعداً مزدوجاً قائماً على ما يلي: هل بوسعنا أن نقرأ الجاحظ/ التراث دون أن نعترّب عن عصرنا، وأن نخرط في العصر دون أن نعترّب عن أنفسنا وما به نكون؟

وقراءة جابر عصفور المعنونة ب: قراءة التراث النقدي (١٩٩١)، وكذا قراءة الجابري في كتابه التراث والحداثة: دراسات ومناقشات (١٩٩١)، وكتابه "بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية"، كما نخص بالذكر هنا قراءة محمد العمري في كتابه "البلاغة العربية أصولها وامتداداتها" (١٩٩٩)؛ حيث وظّف الباحث مفاهيم قرائية - في مقارنته للبلاغة العربية عامة ونصوص الجاحظ خاصة - لا تخرج عن مفاهيم النسق والبنية والمشروع والمنجز والقارئ والمقروء له، ومفاهيم أخرى تفرعية تدخل في إطار نظرية التلقي، ومن ثم فقد عدّ العمري هذه المفاهيم (ومفاهيم أخرى كالاختيار والتنسيق والمركز، والهامش وتحويل المركز)، ضرورية لفهم واستيعاب بنية البلاغة العربية، وقد كان حضور الجاحظ في قراءة الباحث ضمن المسار الثاني^(١) الذي يمتدّ في تقديره من الجاحظ إلى حازم القرطاجني، مسار تحليل الخطاب؛ وهو مسار مرّ في طريقه بكثير من المحطات؛ أهمّها عمل ابن سنان الخفاجي في كتاب "سر الفصاحة".

(١) والذي يمتد في تقديره من الجاحظ إلى حازم القرطاجني؛ مسار تحليل الخطاب، فالسؤال المطروح من قبل الجاحظ وابن وهب في تقدير العمري ليس هو السؤال الذي طرحه الجرجاني في الأسرار؛ فالسؤال عند الجرجاني هو ما الذي يجعل نصاً أحسن من نص آخر؟ أما البيان عند الجاحظ فهو الفهم والإفهام بكل بساطة، فالسؤالان إذن مختلفان؛ أي إنّ الاستشهاد للبيان الجاحظي بكلام الجرجاني يهمل هذا الفرق الابدستولوجي/ المعرفي؛ وإلا فإنّ البحث في أدبيّة النص موجود كذلك في تراث أرسطو (العقلاني) وفي تراث جميع الشعوب، أما المسار الأول فيبدأ من أبي عبيدة إلى الجرجاني، أو من مجاز القرآن إلى دلائل الإعجاز. فإذا قرأ القارئ أبا عبيدة فهو لم يمهّمه، لأن الجرجاني يعود إلى أبي عبيدة، والطريق بينهما محطات: منها ابن جني كمؤول لبعض المصطلحات ومفاهيم اللغويين. وعلى جانب هذا المسار هناك نقاد الشعر والفلسفة، حيث استعمل الجرجاني أثرهم لتأويل ذلك الرصيد اللغوي وتحويله إلى السؤال البلاغي (ينظر: "البلاغة العربية: أصولها وامتداداتها" القسم الثاني: الفصل الأول والثاني من ص ٢٥٨-٢٧٩).

وفق هذه الخلفيات المتعددة المشارب شرع محمد العمري في إعادة قراءة النصوص البلاغية الجاحظية في ضوء المعطيات المنهجية الحديثة مسترشداً ببعض التجارب الغربية التي كان لها صيت حسن عند الدارسين المحدثين على المستوى العالمي، مثل بنية اللغة الشعرية لجان كوهن، ومشروع هنريش بليث في إدماج البلاغة والأسلوبية في قالب سمائي عام يستثمر مزايا كل منهما في الجانب الذي تفوق فيه.

إنّ رفض هؤلاء الباحثين الاعتماد على المناهج السياقية مرجعه إلى دعوى قدم هذه المناهج وتغيبها كلياً للقارئ، من حيث هو أداة وطرف أساس في إنتاج المعنى الذي يحمله النص. فهي تراهن على المعنى المتعدد والمتنوع بدل المعنى الواحد مع عدم الاحتكام إلى السياق والظروف المحيطة بمقولات الجاحظ التي تعد الأصل في إدراك القصد الجاحظي.

عطفاً على أنّ هذا الانفتاح الدلالي للنص هو الذي يكفل لهذا النص البقاء والاستمرار عبر الأجيال والامتداد في الزمان والمكان؛ فالقراءة التأويلية في هذه المناهج تسعى إلى تقديم وجه متعدد/ محتمل من بين عدة وجوه تتصف كذلك بالاحتمال والنسبية... إلا أنه يمكننا القول - بتعبير جابر عصفور - «أنه لا توجد قراءة بريئة، أو محايدة للتراث، ذلك لأننا حين نقرأ التراث، ننطلق من مواقف فكرية محددة، لا سبيل إلى تجاهلها، ونفتش في التراث عن عناصر للقيمة الموجبة أو السالبة بالمعنى الذي يتحدّد إطاره المرجعي بالمواقف الفكرية التي ننطلق منها»⁽¹⁾.

والأسئلة المطروحة هنا هي: إلى أي مدى حقق قراء الجاحظ هذا الطموح في مقارنتهم للنص النقدي الجاحظي، وهل استطاعوا قراءة التراث/ الجاحظ كما هو

(1) قراءة التراث النقدي، ص ٥٥.

قراءة محايدة، أم إنهم انطلقوا في قراءتهم من أفكارهم الخاصة التي أسقطوها على النص التراثي الجاحظي فحملوه فوق طاقتة؟

يحدد الباحث جابر عصفور قوام النهج القرائي في «أن كل نص من نصوص التراث النقدي لا يمكن أن نقرأه في عزلة عن غيره من النصوص، فالتراث النقدي وحدة سياقية واحدة، داخل وحدة سياقية أوسع هي التراث كله»^(١).

ويؤكد الباحث عصفور أن الاتجاهات المتميزة في التراث النقدي لا يمكن فصلها عن الاتجاهات الأساسية في التراث من جهة، وعن دلالتها الاجتماعية أو صراعاتها الإيديولوجية من جهة أخرى، مما تتجلى فيه رؤى عالم ينطقها النص المقروء، ويشير إليها في صراعاته وتوازياته ضمن خصوصيات التاريخ وتقاطعته مع المفهوم الموازي للرؤى القديمة والمعاصرة، لتفصح قراءة التراث النقدي عن تقييم ضمني للرؤيا التي ينطقها هذا النص على مستوى العالم التاريخي الخاص بالنص المقروء، وعلى مستوى العالم التاريخي الموازي الخاص بالقارئ في الوقت نفسه^(٢).

ومن ثم فقد حدد عصفور ثلاث مشكلات لقراءة التراث النقدي هي: حضور التراث، والعلاقة به، والحدود القصوى لعملية القراءة أو فعلها، وينقسم الحضور إلى قسمين؛ الأول هناك في تاريخه الخاص، والثاني هنا في قراءته المنجزة الكاشفة عن عالم النص المقروء، بينما تتحول علاقة القارئ بالمقروء إلى علاقة اتصال وانفصال في آن واحد، لإبراز البناء القيمي لعالم القارئ ومخزونه الثقافي وتعالقه مع عالم وعيه المعاصر، وتتساجر عملية القراءة أو فعلها مع حدود الشكل

(١) قراءة التراث النقدي، ص ١٠.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ١١.

والمحتوى في تاريخه وفي استحضاره المعاصر بما ينفع في «توازن العلاقة بين الذات والموضوع في القراءة، ذات القارئ وموضوعها الذي هو النص المقروء»^(١).

أفصحت عمليات قراءة التراث النقدي إذن عند الباحث عصفور عن ضرورة العناية باللغة ومدلولاتها، وتجاوزها مع التصور المعاصر للقراءة بالتفسير أو التأويل أو العلاقات المتبادلة بين القارئ والمقروء، أو الوعي النظري والتطبيقي في المنظور والمنهج وآليات القراءة وإجراءاتها. وتتجلى هذه العمليات في ضبط الأبعاد العلائقية التي يشترك فيها النقد الأدبي القديم مع الحقول المعرفية المتعددة التي يتأثر بها وتتأثر به، والتي تجعل من بعض مفاتيح العلوم في التراث العام مفاتيح للتراث النقدي الخاص^(٢).

وهكذا، بنى عصفور كتابه على تصورين عن التراث، «الأول تصور يتعامل مع التراث باعتباره كتلة من الأحداث والمفاهيم والقيم، وأن التراث موجود في الذات العربية على الدوام، أما التصور الثاني فيتعامل مع التراث من منظور الوعي بالحاضر والإدراك للوجود الآني، وذلك هو التصور السائد، فضلاً عن أنه التصور الممكن عملياً»^(٣).

يتبين لنا وفق طرح عصفور أن كل قراءة إنما هي نتاج سياقاتها المعرفية والتاريخية، وأن كل فعل قرائي لا يعي شروطه وآلياته يظل بعيداً - مهما كان حرصه - عن النفاذ إلى أغوار النصوص وبواطنها.

(١) قراءة التراث النقدي، ص ١٢.

(٢) السابق نفسه، ص ٥٠.

(٣) السابق نفسه، ص ٧٠.

ثانياً: قراءة التراث الجاحظي بين مغالطة الشرعية وهم التأويل:
(عبدالعزیز حمودة،/ شكري المبخوت)

هناك تأويلات تستند إلى مرجعية غربية في إنجاز قراءتها للنص التراثي ولعل أخطر ما يتعرض له هذا النمط من التأويلات هو أن أحد جانبي التأويل (النص التراثي أو النظرية الغربية) يستدرج المؤول إلى النظرة التاريخية المبسطة والانحصار في الأسبقية الزمنية، ومن ثم يبدأ البحث عن الأصل أو أصل الفكرة أو أساس المبدأ النظري في أحد الجانبين دون الآخر. ومن هنا ينتهي التأويل إلى أن أحد الجانبين كان له السبق والريادة في صياغة ذلك المبدأ النظري وتقريره؛ وكثيراً - إن لم يكن دائماً- ما يصبّ التأويل لمصلحة النص التراثي مما يجعل عملية التأويل ليست منصفة أو عادلة لكلا الطرفين، وأبرز قراءة قاربت النص الجاحظي وفق هذا الطرح قراءة الباحث عبدالعزیز حمودة في كتابه الموسوم بـ"المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية"، وكذلك قراءة الباحث شكري المبخوت(*) في كتابه الموسوم بـ"جمالية الألفة: النص ومتقبله في التراث النقدي". وسنحاول الوقوف على أهم الخلفيات المؤسسة لفهم حمودة كما سنشير عرضياً إلى قراءة المبخوت للنص الجاحظي.

لقد أضحى الربط بين الموروث العربي الإسلامي والثقافة الغربية الحديثة أمراً مألوفاً على الساحة النقدية العربية، وهو ما ينم عن إشكالية في المواءمة بين فكر وافد يخشى بغيره أن يفلت منه عصره أو نفلت منه، وبين تراث أقل يخشى بغيره أن تفلت منه عروبتنا أو يفلت هو منها. وهي رغبة قديمة كانت لها تجلياتها التي

(*) شكري المبخوت باحث تونسي، حاصل على دكتوراه الدولة في الآداب من كلية الآداب بمنوبة، عميد سابق لكلية الآداب والفنون والإنسانيات بجامعة منوبة، ويشغل الآن وظيفة رئيس جامعة منوبة.

عبر عنها محمد مندور بقوله: «في الحق أن في المكتبة العربية القديمة كنوزاً نستطيع إذا عدنا إليها وتناولناها بعقولنا المثقفة ثقافة أوروبية حديثة، أن نستخرج منها الكثير من الحقائق التي لا تزال قائمة حتى اليوم»^(١)؛ بيد أن هذه الرغبة أخذت في التزايد بدءاً من النصف الثاني من القرن العشرين، خصوصاً في مجال النقد الشكلاني الذي يعد من أكثر أنواع النقد العربي الحديث اهتماماً بتأصيل توجهه في التراث النقدي العربي في محاولات متكررة، لتأكيد أسبقية العرب في مجالات متعددة. الحق أننا لا يمكن أن نتجاهل هذا الربط، إذ لا بد أن تستوقفنا بعض أوجه الشبه ودعاوى الأسبقية نفسها، إلا أننا لا نملك في بعض الأحيان سوى الانزعاج لكثرة ما تم إسقاطه من مفاهيم نقدية حديثة على نقدنا العربي القديم، ظناً بأن هذا الإسقاط يرفع من شأن التراث، وقد نستاء لهذه الإسقاطات لكثرة الخط فيها وانعدام الدقة.

لقد بات واضحاً فيما يقول الباحث لطفي فكري أنّ المسيرة النقدية المعاصرة جاءت أسيرة لنشاطات نقدية لا تفسح المجال بعيداً عن التبعية والتسليم بأراء الآخر على الصعيدين^(٢): التّظييري والتّطبيقي، وهو ما يستحيل معه بناء خصوصية عربية نقدية يمكن أن يشار إليها بالبنان. وفي هذا السياق نجد مقاربة الباحث عبدالعزيز حمودة وبالتحديد في كتابه الموسوم بـ"المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية" بما هو قائم على تبني النظرية العربية (التراثية) باعتبارها الأساس التي تقوم عليه جل التّظييرات الغربية من: حداثة بنيوية، وتفكيكية، نجده يرسم من خلال استعراضه لقضايا نقدية كانت مثار اهتمام النقاد القدماء صورة لبديل نقدي

(١) النقد المنهجي عند العرب، ص ٦.

(٢) نقد خطاب الحداثة في مرجعيات التّظيير العربي، قراءة في تجربة الدكتور عبدالعزيز حمودة: "المرايا المقعرة، المرايا المقعرة، الخروج من التّيه"، ص ١٨٠.

عربي. والتساؤلات التي تطرح نفسها هي، إلى أي حد استطاع الباحث عبدالعزيز حمودة أن يحقق التوفيق بين المبادئ التي تقوم عليها النظريات النقدية المعاصرة وبين أفكار الجاحظ؟ وما سبيله في إحداث هذا التوفيق في إطار تخليق الأصالة والمعاصرة كما انتهى إلى ذلك بنفسه؟.

ينطلق الباحث من طرح مفاده أن الحياة العربية الأدبية كانت لمدة أربعة قرون أو خمسة تموج بالتيارات اللغوية والنقدية؛ ولو تمت قراءة ذلك التراث بالكيفية المطلوبة لقمنا بتطوير نظرية نقدية عربية؛ ومن ثم فهو يرد القول الخاطئ بعجز العقل العربي واللغة العربية عن تطوير نظرية.

سنقف في هذا السياق على بعض الأمثلة الدالة على نموذجية هذا البديل الذي اقترحه الباحث؛ ويمكن أن نبين بأن جهود حمودة التأسيسية لنموذج بديل عملية شاقة، وأكثر صعوبة من نقد النموذج الحداثي. ويُعذر حمودة إن أخطأ أو فشل في ذلك، لأنها مهمة لا يمكن إنجازها إلا من خلال تضافر جهود جماعية متكاملة تتم على مستويات عدة من خلال الرصد والتصنيف والنقد التراكمي حتى تتحدد الأنماط العامة الجديدة التي تتم مراكمة المعلومات في إطارها، وحتى تتحدد الملامح الأساسية للنموذج البديل.

في سياق حديثه عن نظرية النظم بوصفها الخطاب المؤسس للنظرية النقدية كان لزاماً على الباحث كما أقر هو بذلك، أن يقف أمام دلالة اللغة بمنطق النقد القديم؛ فقد استبطن الباحث من قول الجاحظ: «قال بعض جهاذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور العباد المتصورة في أذهانهم والمختلجة في نفوسهم مستورة خفية وبعيد وحشية ومحجوبة مكنونة وموجودة في معنى معدومة لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه وحاجة أخيه وخليطه ولا معنى شريكه والمعاون له

على أموره وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه، وإنما تحيا تلك المعاني في نكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها... وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح كانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجع»^(١).

إنّ هذا النصّ النقديّ يحتمل القراءة العصريّة، ورغم أنّه قد صرح بأنّه لن ينطق النصّ بما ليس فيه، فقد سعى إلى أن يربط بين مفهوم الدلالة عند الجاحظ والمفهوم اللسانيّ المعاصر^(٢)، ولم يراع في هذه النقطة المعطيات التاريخيّة التي لا تجيز المقارنة بين نص ينتمي إلى القرن الهجري الثالث ومفهوم الدلالة اللسانيّ الذي صاغه دو سوسير في القرن العشرين، كما أنّه لم يستحضر الجانب المعرفي في إنتاج المفاهيم وخلفياتها الفكرية؛ فمفهوم الدلالة عند الجاحظ لا يمكن فصله عن إشكاليّة اللفظ والمعنى، في حين أنّ هذه الإشكاليّة تكاد تكون غائبة عن أذهان اللسانيين المعاصرين الذين اشتغلوا بإشكال التّواصل أكثر من غيره.

وتعليقاً على قراءة حمودة لنص الجاحظ السابق يذهب الباحث صلاح الدين زرال إلى أنّ عبدالعزيز حمودة: «حين يصل في قراءته للتراث العربي وتأسيس شرعيته فلا يقرأه داخل بيته، بل نجده في كثير من الأحيان يقدم وصفاً معجمياً لغوياً لمفردات التراث... إن المتأمل لهذا التعليق (يقصد قراءة حمودة لنص الجاحظ) يستنتج أموراً كثيرة، أولها أن هذا المفهوم كما أورده في تعليقه قد جُرد من لباسه التّأصيلي؛ إذ كيف نفسر قول الجاحظ بعيداً عن خلفياته المعرفية، التي عادت للجاحظ الطريق للنظر في المعنى بهذا المفهوم، وثانيهما أن اكتشاف شطري العلامة من الباحث قد تمّ بفصل نصّ الجاحظ عن باقي نصوصه، وليس

(١) البيان والتبيين، ١ / ٩٠.

(٢) ينظر: المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، ص ٢٢٢.

هذا فحسب، بل وقد فصل بين الشقّ الأول من النصّ والشقّ الثاني رغم أنهما متكاملان، وثالثهما أنه إذا افترضنا أن تأسيس شرعية التراث تكون بمقابلتها بنظيراتها في المعرفة الغربية، فالأولى أن يكون تعريف الجاحظ هذا قريباً من مفهوم القصدية الذي أرساه الدرس اللساني التداولي في الثقافة الغربية على يد سيرل وأستين اللذين يعتقدان أنه لا يمكن أن تفهم الحالات الدماغية التي ليست بشعورية بوصفها حالات عقلية أو ذهنية إلا بقدر ما نفهمها بوصفها قادرة، من حيث المبدأ على التسبب بحالات شعورية... فالحالة العقلية اللاشعورية - حتى تكون لا شعورية - هي شيء من النوع الذي يمكن أن يصير شعورياً... إذن المعاني القائمة في صدور العباد وأذهانهم تبين العلاقة الاطرادية بين الدال والمدلول فعلاً، لكن الجاحظ - منهجياً على الأقل - قصد أمراً آخر، أي إن البنية اللغوية لم تكن هدفه، وإنما هي مدخل ضروري لأي مفهوم نقدي؛ ذلك أنه أكد بأن تلك المعاني موجودة في حالة لا شعورية (بمعنى معدومة) أو خفية مستورة وحين تنتزل إلى حيّز الشعور يحدث التواصل إن إيجاباً أو سلباً، لأن الإنسان كما عبّر عنه الجاحظ، لا يعرف ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره ثم تتحكم القصدية وفق مقام معين في تحديد معالم الاتصال وعلى هذا تتأسس مقولة مقتضى الحال عند الجاحظ»^(١).

عطفاً على تأويلات الباحث صلاح الدين زرال نجد أنّ نصّ الجاحظ السابق، كما بدا لنا، يبين أنّ مفهوم البيان بصيغته العامة؛ ليس رهين جنس الدليل ونوع العلامة، والمهمّ - كما يفهم من نصّ الجاحظ - هو الانتقال بالمعنى من حال الاختزان والبرهان الصّامت إلى حال تفضي بالمستدل إلى حقيقتها ويتمثلها بفكره.

(١) النظرية النقدية العربية: مغالطة الشرعية ووهم التفاصيل، ص ١٨.

ونستطيع أن نؤكد أن نص الجاحظ السابق- بخلاف السياق الذي نزل فيه حمودة- يؤسس لبيان يهتم بالغايات لا بالوسائل ويتحدد بالوظيفة لا بالبنية أو الشكل مما جعله خلواً من كل أبعاد فنيّة وبلاغية، لا همّ لصاحبه إلا الوقوف على الوسائل التي تضمن التواصل بين أفراد المجموعة لقضاء الحاجات وبلوغ المآرب(*).

يرى الباحث علي حرب أن قراءة عبدالعزیز حمودة التّطابقية-بتعبيره- لا تحقق سوى إثبات السّبق للعرب وهي لم تستطع الوفاء به؛ لأنّها «قراءة اختزالية رجعية للتّراث النّقديّ نتيجتها أن نكرر ما سبق أن عرفناه أو أن نصادر على ما توصل غيرنا إلى معرفته»^(١). وهي لم تقف عند هذا الحدّ بل تجاوزته إلى التّعاضّي عما ابتكره أو صاغه المحدثون في الحقول والمجالات المعرفية المتنوعة وهذا ما جعل مقارناته ليست متينة من حيث الابتكار والإبداع، «سوى كونها تعبّر عن وعي مأزوم أو تشكل رداً على الغربيين أو على المستشرقين، لكي تثبت لهم بأنّه كان لنا (عقل ناضج) أو (غير متخلف) وهذا هدر للجهد. ذلك أنّ الحضارة العربيّة تصدّرت واجهة الإنتاج الفكريّ والعلميّ لقرون طوال بقدر ما شكّلت رافداً

(*) وقولنا "خلوه من البعد الفني" لا يعني انفصاله عن نظرية الجاحظ اللغوية والبلاغية العامة؛ فالركيزة الأصولية التي تدعّم هذا المعنى الأول وهي الفهم والإفهام ستبقى قاسماً مشتركاً أعظم بين كل مستويات التعبير وطرقه، على أساسها تضبط جلّ خصائصه، عاديّاً كان أو فنيّاً، ثم إنّ البيان باللغة والقول لصبود: «في حاجة لتأدية أصناف المعاني إلى التوسّل بوجه البيان الأخرى وهو ما يفسّر الأهميّة الكبرى التي تحتلها "الإشارة" كنهج في التعبير البليغ في نطاق نظريته الأدبية والجماليّة» التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قراءة، ص ١٤٨.

(١) هكذا أقرأ ما بعد التفكيك، ص ١٣٣.

من روافد الحضارة الحديثة. ومحاولة إثبات ذلك الآن يصدر عن عقدة دونية هي الوجه الآخر للعملية الاستشراقية»^(١).

ويمكن القول تالياً إن الباحث، وهو يناقش نصّ الجاحظ، ذكر دالين متناقضين؛ وذلك حينما صرح بأن منهجه في المقاربة يعتمد على المزج بين ما جاء في هذا النصّ وبين نصوص الجاحظ الأخرى، يقول: «لكنّ النصّ أيضاً، خاصة إذا ربطنا بين ما جاء فيه وبعض مقولات الجاحظ الأخرى...»^(٢). وغير بعيد عن سياق هذه المقولة يذكر الباحث بل ويعترف أنّه ناقش هذا النصّ «في عزلة عن نصوص أخرى للجاحظ»^(٣).

أما على المستوى الإجرائي فتبرّر انتقائية الباحث بصورة جلية؛ وذلك حينما لجأ إلى التعامل مع نصوص جاحظية بعينها دون أخرى، والحقيقة أنّ الإجراء الانتقائي للباحث تعدّى إلى انتقاء آخر من خلال اختياره ستة أركان أساسية لقيام نظرية أدبية عربية بديلة؛ بيد أنّ المتأمل للأركان الستة التي ذكرها الباحث يلحظ أنّه لا يمكن لهذه الأركان بأيّ صورة من الصور أن تشكّل أسساً بقدر ما هي تجسيد لـ «قضايا تتغير وتتجدد وقد تختفي وفق الحاجة إليها ضمن قضية واحدة تشملها وتحتويها، هي قضية اللفظ والمعنى»^(٤).

وتبعاً لهذا التصور فقد رأى الباحث عبدالعزيز حمودة أنّ قول الجاحظ يمثل «أشهر تعريف مبكر للغة كأداة اتصال»^(٥)، معتبراً عبارة الجاحظ «المعاني القائمة

(١) هكذا أقرأ ما بعد التفكيك، ص ١٣٤.

(٢) المرابا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، ص ٢٢٢.

(٣) السابق نفسه، ص ٢٢٤.

(٤) نقد خطاب الحداثة في مرجعيات التنظير العربي، ص ١٨٠.

(٥) المرابا المقعرة، ص ٢٢٥.

في صدور العباد المتصورة في أذهانهم والمختلجة في نفوسهم مستورة خفية.. "تعريفاً مبكراً للعلاقة بين شطري العلامة الدال والمدلول من منظور حديث «المدلول الذي يتحدث عنه الجاحظ - في رأي حمودة - هنا فكرة، أو مفهوم بمعنى أنّ الدال لا يشير إلى الشيء الحسي بل إلى فكرته أو مفهومه... فقد سبق للجاحظ أن قدم تعريفاً لفعل دلّ في الجزء نفسه من الكتاب نفسه قال فيه "ومعنى دلّ الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتاً، وأشار إليه وإن كان ساكناً، وهذا القول شائع في جميع اللغات ومتفق عليه مع إفراط الاختلافات»^(١).

ثم إنّ الجاحظ - يضيف الباحث - «يستخدم قبل نهاية السطور لفظة "الدلالة" فلا غرابة إذن في الحديث عن الدال والمدلول»^(٢)؛ وكأنّ الباحث من خلال هذا الطرح/ الزبط أراد أن يُبين أنّ العقل العربي - والجاحظ مكون هام فيه - قد نجح في تقديم مكوناتٍ عصرية، تقف على قدم المساواة في بعد النظرة والتّركيب والعمق مع منتجات العقل الحديث.

عظفاً على هذه المقاربة يستبطن الباحث حمودة أيضاً نظرية التّواصل اللغويّ التي أتى بها سوسير وجاكوبسون (Roman Jakobson)، ويجعلها إطاراً مرجعياً في قراءته لهذا النّص، فقد عدّ الجاحظ من خلال النّص السابق يقدّم تعريفاً عربياً مبكراً للغة باعتبارها أداة اتصال - كما مرّ بنا، ويتحدث عن الرّسالة والمرسل والمستقبل، بمفرداتٍ عربيّة قديمة؛ يقول: «الرّسالة هي "المعاني القائمة في صدور العباد" أما المرسل "العباد" وهو الفرد الإنسان في عزلته وهو ينشد الاتصال، أما المستقبل/ المتلقّي، فهو الإنسان الآخر في عزلته "الذي لا يعرف ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه..."، أما الشّفرة: فهي اللغة التي بها تحيا المعاني

(١) البيان والتبيين، ص ٨١/١.

(٢) ينظر: المرايا المقعرة، ص ٢٢٣.

الخافية في صدر المرسل»^(١) وهكذا، تحليل قراءة حمودة إلى المخطط الاتصالي الذي وصفه رومان ياكبسون^(*). في مقالته الشهيرة «علم اللغة الشعرية^(**)»^(٢) هذا الاتصال الذي جمعه في ستة عناصر وهي: «المتكلم والسّامع والوسط أو قناة الاتصال والشّفرة الانفعاليّة والإقناعيّة والتّعاطفيّة واللغويّة الشّارحة والمرجعيّة والشّعريّة»^(٣).

وواضح ارتباط قراءة عبدالعزيز حمودة لهذا النص بحقل الشعرية؛ بمعنى أن قراءة الباحث لنص الجاحظ تحمل بين حناياها نظرة تنسب نظرية التوصيل لدى الجاحظ إلى ميدان الشعرية وهو يوزع عدداً من عناصر نظرية التوصيل على نص الجاحظ هذا:

(١) المرايا المقعرة، ص ٢٢٣.

(*) رومان ياكبسون، ولد بموسكو سنة ١٨٩٦، واهتم منذ سنواته الأولى باللغة واللهجات والفولكلور فاطلع على أعمال سوسير وهوسيرل، وفي سنة ١٩١٥ أسس بمعية طلاب سنة "النادي اللساني بموسكو"، وعنه تولدت مدرسة الشكليين الروس، وفي سنة ١٩٢٠، أسهم في تأسيس "النادي اللساني ببراغ" سنة ١٩٢٠، وفي خضمّ هذه الحقبة تبلورت أهم المنطلقات المبدئية في علاقة الدراسة الآتية بالدراسة الزمانية لدى جاكبسون، وفي سنة ١٩٣٣ انتقل إلى مدينة برنو فدرس بجامعة مازاريك وبلور نظريته في الخصائص الصوتية الوظيفية،....، تُرجم لرومان جاكبسون: قضايا الشعرية، ترجمة: محمد، الولي ومبارك حنوز، المعرفة الأدبية، دار توفال للنشر ١٩٨٨، ومحاضرات في الصوت والمعنى، ترجمة: حسن ناظم، على حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٤م. وقد كان له «فضل السبق في توظيف نظرية التواصل للتقدم بالأبحاث الشعرية والأسلوبية والخروج بها من المأزق الذي تردت فيه لتحديد أدبية الأدب» التفكير البلاغي عند العرب، ص ١٦٧.

(**) يقصد بمصطلح الشعرية كل ما يجعل الرسالة اللغوية عملاً فنياً، أو كل ما يميز الفن اللغوي ويجعله يختلف عن غيره من الفنون الأخرى، ينظر: النظرية الأدبية ومصطلحاتها الحديثة، دار طيبة للنشر والتجهيزات العلمية، ٢٠٠٤، ص ١٢٥.

(٢) نظرية التأويل: الخطاب وفائض المعنى، ص ٥٦.

(٣) السابق نفسه، ص ٥٦.

فالرّسالة ← المعاني القائمة في صدور العباد.

المرسل ← (العباد) والفرد أو الإنسان.

المرسل إليه ← الإنسان (الذي لا يعرف ضمير صاحبه لا حاجة أخيه).

الشفرة ← اللغة التي هي: (المعاني الخافية في صدر المرسل).

فهل هذه المقاربة تمتّ بصلة إلى نظرية التّوصيل عند ياكوبسن؟! لضبط متانة التأويل وتحديد قيمة المقاربة يجدر بنا ابتداء، أن نفحص نظرية التّوصيل. يقول ياكوبسن: «إنّ المرسل يوجّه رسالة إلى المرسل إليه، ولكي تكون الرّسالة فاعلة فإنّها تقتضي بادئ ذي بدء سياقاً تحيل عليه (وهو ما يدعى أيضاً (المرجع) باصطلاح غامض نسبياً) سياقاً قابلاً لأن يدركه المرسل إليه، وهذا إما أن يكون لفظياً وقابلاً لأن يكون كذلك، وتقتضي الرّسالة، بعد ذلك، سنناً مشتركاً، كلياً أو جزئياً بين المرسل والمرسل إليه أو بعبارة أخرى بين المسنن ومفكّك الرّسالة، وتقتضي الرّسالة أخيراً اتصالاً أي قناة فيزيقيّة وربطاً نفسياً بين المرسل والمرسل إليه، اتصالاً يسمح لها بإقامة التّواصل والحفاظ عليه»^(١)، ولكل عنصر من عناصر الاتصال اللغويّ وظيفة محدودة، فوظيفة المرسل هي (الوظيفة الانفعاليّة) ووظيفة الرّسالة هي (الشّعريّة) ووظيفة الشّفرة أو السنن هي (اللغة الواصفة) أو (ما وراء اللغة) ووظيفة المرسل إليه (الإفهاميّة) ووظيفة السّياق هي (المرجعيّة) ووظيفة القناة (الانتباهيّة)، وتهتم الشّعريّة بدراسة الوظيفة الشّعريّة؛ لأنّها تؤكد سيادة الرّسالة وتشديدها على نفسها، وتحدد الوظيفة الشّعريّة بسقوط محور الاختيار العموديّ على محور التّأليف الأفقيّ^(٢).

(١) ينظر: اللسانيات ونظرية التّواصل - رومان جاكوبسن نموذجاً، ص ٣٨ و ٤٦-٥٨.

(٢) ينظر: السابق نفسه، ص ٣٧-٣٨ و ٤٦-٥٨.

إن المتمعن في نص ياكوبسن يلمس أن هناك بوناً بين كلام ياكوبسن الواضح لنظرية التّوصيل ومعيّار تحديد الوظيفة ومجال اشتغال الشّعريّة عليها وكلام الجاحظ المؤول، فما علاقة المعاني القائمة في صدور العباد والمعاني الخفية في صدر المرسل، بنظرية التّوصيل التي مجالها الاتصال اللغويّ، فعناصر الاتصال عند جاكوبسن والوظائف ليست أشياء خارجة عن منطق اللغة تدرك في الواقع بل هي بنى نصيّة قابلة للوصف والدراسة. ونص الجاحظ لا يناقش طرح الشّعريّة بهذا الشكل.

إنّ البون بين نص الجاحظ السابق ومقولات ياكوبسون لا تعني أنّ الجاحظ لم يتناول في أسيفة أخرى الخطاب اللغويّ من زاوية كونه عملية تواصل، يستوجب؛ قيامها حداً أدنى من الأطراف لا يقل عن ثلاثة: المتكلم والسامع والكلام، وفي هذا السّياق وقف الباحث حمادي صمود على «عمق التّناقض الذي تعكسه مؤلفاته بين دفاعه عن الكتابة والكتاب، والبنية التّقافيّة المهيمنة التي اضطرته إلى أن يعتمد على المشافهة في تأصيل نظريّته البلاغيّة رغم موقفه المبدئيّ الرافض لها»^(١).

(١) التفكير البلاغي عند العرب ٢٧٠. وإن كنا لا نوافق الباحث حمادي صمود من كون الجاحظ متناقضاً (بين دفاعه عن الكتابة تارة وعن المشافهة تارة أخرى) إذ لا نعتقد أنّ رسالة الجاحظ في ذمّ الكتاب دليل على انحياز ما للشّفهية؛ فهي ليست دليلاً قاطعاً على مطلق معاداة الكتابة واستبعادها، لتناقضها مع نصوص أخرى للجاحظ، ذلك أن المقصود بالذمّ في تلك الرسالة ليس الكتابة في حدّ ذاتها بوصفها أداة اهتدى إليها الفكر الإنساني لحفظ الكلام وتقييده، بل -كما يقول إبراهيم صحراوي «الحرفة التي تتخذ هذه الأداة مجالاً للنشاط، أي صناعة الكتابة بمعنى ممارسة الخطّ والإنشاء والتحرير. فالكتاب في معظمهم -أنذ- ليسوا أصحاب الكلام أو مؤلفيه، إنما يُملى عليهم النص أو تلقى إليهم الفكرة من أصحابها... وما قد يرجح هذا الاحتمال ما يرد من تناقض في فقرة من فقرات الرسالة نفسها، وهو يصف ظاهر الكتاب المختلف عن باطنهم، ويشير إلى خفتهم وعدم تثبتهم في العلم، إذ لا يستندون فيه إلى مكتوب» السرد العربي القديم، الأنواع والوظائف، والبنيات، ص ٢٠٠.

كان على الباحث عبدالعزيز حمودة أن يبحث في مدونة الجاحظ عن الرابطة بين هذه الأطراف، المتمثلة في وظائف أبرزها صمود في: الوظيفة الإفهامية، والوظيفة الخطابية والوظيفة الشعرية، وقد رأى صمود أن الوظيفة الإفهامية تقوم من البقية مقام الأصل؛ «إذ لا يتصور الجاحظ خطاباً لغوياً، مهما كان مستواه، لا يكون الفهم والإفهام قاعدته. وغاية هذه الوظائف جميعاً السامع، وهذا مظهر من مظاهر الجدوى»^(١).

إن النزعة الاستدرجية قد أفضت بعبدالعزيز حمودة إلى انتهاك قواعد التأويل؛ ولعل خلل هذه "القراءة" يظهر أول ما يظهر في القضاء على التوازن الذي من المفروض أن يسود أطراف القراءة الثلاثة: القارئ والنص والسياق، وفي هذا المعنى يقول الباحث صلاح فضل: «إن التماس المفاهيم العلمية الجديدة في التجليات القديمة خطأ فادح منهجياً؛ لأنها مرتبطة بالبنية المعرفية ذاتها»^(٢).

ونتبنى، في هذا المقام، الفهم الذي أسسه الباحث مصطفى الكيلاني حيث يرى أن قراءة التراث النقدي والبلاغي العربي ظلت رهينة الانتقاء والاستدراج، إذ يقول: «وهكذا تظل قراءة التراث النقدي عند جلّ النزعات الحدائرية رهينة الانتقاء والتجميع، تشريح فكر الغير... عبر ما تقوله، فيتقاص الموجد الفاعل في غمرة المفقود المتسع وينضم الوثوق القديم الذي ألفناه في المنتصف الأول من هذا القرن إلى وثوق جديد ينقد الظواهر السائدة ولا ينفذ إلى قيعان الذات، يدعي الانفصال عن السائد لتبديد كثافة الزكود ويعجز عن الانخراط في حركة التاريخ والمجتمع. فإذا الوضعية (الحدائرية) الرافضة بجنون للحظة العصبية تؤسس إيديولوجيا الفردانية لا غير وتكرس مفاهيم غيبية جديدة. ولكن المطلق في هذه المرة يتحول

(١) التفكير البلاغي عند العرب، ص ٢٧٠.

(٢) بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ١١١.

من أصولية توفق بين الثقافتين العربية والغربية إلى إقصاء خفي لروح الذات وتبريز للحضور الغربي دون إهمال- التراث- الواجهة، كي يسلم الحداثيون الجدد من تهمة التكر للذات»^(١).

إن حذف أحد الأطراف يخل بالقراءة ويفرغها من أي معنى. وهذا ما حصل بالضبط في مقارنة عبدالعزيز حمودة ، إذ أصبح القارئ/ الناقد يتعامل مع النص وفق طموح معين كامن في لا شعور الدارس إذا صح أن نستعمل عبارة جورج طرابيشي^(٢)، وأدى هذا إلى غياب الأسيقة الثقافية والاجتماعية للمقروء، وإلى حضور باهت ومحتشم للنص، وإلى سيادة القارئ بكل همومه المعاصرة في عملية القراءة.

وهكذا، تحيل مقارنة حمودة إلى طرح يفهم ضمناً وهو؛ لماذا لا نتعرض لأطاريح الجاحظ بالتعديل والتفسير والإضافة مثلما حدث لأراء سوسير الذي رغم الإضافات والتعديلات التي أضيفت لأطاريحه، رغم ذلك لم تتعرض نظريته اللغوية للنسف أو إلى إبطال الوجود؟، فطرح الباحث وفق هذه الخلفية المعرفية/ الابدستيمية يرتبط بأن ما قدمه الباحث السويسري دي سوسير ماثوث في ثنايا التراث اللغوي والبلاغي العربي.

وقد كان على الباحث، في تقديرنا، أن ينتقل من المباهاة المؤسسية بالجاحظ في حضرة دي سوسير إلى الفهم الموضوعي العميق والتاريخي لنصوصه ونصوص دي سوسير، في علاقاتها المتباينة، وأنساقها المتغايرة، بوعي نقدي لا يتضاد عاطفياً، بل يتماسك إجرائياً، ويتأسس منهجياً في سعيه لإنتاج معرفة جديدة

(١) وجود النص، ص ١٠٨.

(٢) ينظر: مذبح التراث في الثقافة العربية المعاصرة، ص ١٥٥.

(لا أيديولوجيا جديدة) بالتراث، فقد تكون أدوات إنتاج معرفتنا الجديدة بالتراث ليست من صنعنا تماماً، ولكننا يمكن أن نمتلكها تماماً، بالفحص الدقيق لسلامتها والمراجعة المستمرة لأصولها، والانتباه لمغزى ما يقوله عبدالقاهر الجرجاني «واعلم أنك لا تشفي الغلة، ولا تنتهي ثلج اليقين حتى تتجاوز حد العلم بالشيء مجملاً إلى العلم به مفصلاً، حتى لا يقنعك إلا النظر في زواياه، والتغلغل في مكانه، وحتى تكون كمن تتبع الماء حتى عرف منبعه، وانتهى في البحث عن جوهر العود الذي يصنع فيه إلى أن يعرف منبعه ومجرى عروق الشجر الذي هو منه»^(١).

وبغض النظر عما قاله الجاحظ، فإن ادعاء السبق إلى إبداع الأفكار والنصيرات من خلال قراءات انتقائية، لا يقصد إليها أصحابها ليس بالأمر العلمي النافع، ثم إنه سلاح ذو حدين، فهو حجة علينا وعلى من سبقنا وليس حجة على من أتى بتلك النظريات واستفاد منها. وقد استدرك الباحث استدراكاً طريفاً؛ حين نبه إلى أن نص الجاحظ السابق «يتحدث عن اللغة من منظور كونها لغة إخبار" أو تفاهم بالدرجة الأولى ومن ثم فالدلالة محددة (denotative) وليست متعددة الإيحاءات (connotative)»^(٢).

ويبدو أن عبارة الجاحظ الأخيرة «وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح كانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجع»^(٣) هي التي حملت الباحث على أن ينزل النص ويوجهه هذه الوجهة/ الاستدراكية.

وهو الاستدراك نفسه الذي وقف عليه الجابري في كتابه "بنية العقل العربي" حينما بين أن الجاحظ/ المتكلم لم يكن معنياً بقضية "الفهم"، فهم كلام العرب

(١) قراءة التراث النقدي، ص ٩.

(٢) المرليا المقعرة، ص ٢٢٤.

(٣) البيان والقبين، ص ٩٠/١.

وحسب، بل لقد كان مهتماً أيضاً، ولربّما في الدّرجة الأولى - كما يقول الجابري -
«بقضية "الإفهام"، إفهام السامع وإقناعه وقمع المجادل وإفحامه»^(١).

وفي سياق آخر تقدم طروحات الجاحظ - حسب الباحث حمودة- رؤية شديدة
المعاصرة، ومن ثمّ فهي ليست بعيدة عن أقاويل الفلاسفة الألمان من ظاهرتين
وتأويليتين ثمّ أصحاب التّفكيّ والتّفكيك من بعدهم «فالمفاهيم والأفكار في حالة
مستورة خفيّة بعيدة محجوبة مكنونة في نفوس أصحابها وصدورهم وخواطرهم
(المرسلين) "موجودة في معنى معدومة" أي إنّها في حالة اللامعنى...ولهذا كان
من المنطقيّ دون تفلسف - يضيف الباحث - أو تحليل نفسيّ لا حاجة لنا به أن
ينتقل الجاحظ في خطوته التّاليّة إلى "إنّما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها
وإخبارهم لها وإخبارهم عنها في استعمالهم إياها" بمعنى أنّها "تكتسب معناها عند
التّعبير عنها باللّغة"...ولا يدركها المتلقّي أو المستقبل هو الآخر إلا داخل اللّغة
وعند وعيه بها لغويّاً»^(٢).

وقد أصاب حمودة في جوانب من كلامه هذا، إلا أنّ ما ليس بريئاً هو اعتباره
العامل الزمنيّ محدداً وحيداً للاختلاف بين النّمودجين اللغويين العربيّ والغربيّ،
وفي هذا سكوت عن عوامل حضاريّة وأسيقة ثقافيّة أهمّ بكثير، وقد نحا حمودة هذا
المنحى كي يبرر نسبة كثير من المنجزات الحقيقيّة التي أتى بها النّمودج اللغويّ
إلى اللغويين العرب؛ فلا يخفى علينا - بأيّ حال من الأحوال - اختلاف المناخ
الفلسفيّ الذي تبحر فيه فلسفة دريدا (Jacques Derrida) عن الثّرية الكلاميّة
الإسلاميّة التي نبتت فيها بلاغة الجاحظ.

(١) بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربيّة، ص ٢٥.

(٢) المرليّا المقفّرة، ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

وفق هذا الفهم أيضاً لست أقول إنَّ النقد العربيَّ المعاصر عليه أن يهجر كل مقارنة أو مقارنة بين بعض مقولات النقد الأدبيَّ العربيَّ القديم ونظريات النقد الحديث، فلا ينكر عاقل وجود ما كان يسميه الباحث أحمد العلوي في كتابه (الطبيعة والتَّمثال) بـ «التَّرادف النَّظريَّ» بين التَّقافات والنَّظريَّات، وإنَّما الذي يُقرر في هذا السياق هو ضرورة استكناه المقولات النقدية والبلاغية والجمالية التَّراثية في أصلاتها أولاً واستكشاف مقدراتها؛ بناءً على مكوناتها الذاتية وكفايتها في التفسير والتحليل لا بناءً على «اقترابها» من مفهوم جديد أو حديث (أو تجري به أسنة نظريات طازجة في الغرب)، هذا مع التنبه إلى ما يصاحب تلقي هذه النَّظريَّات من انتقائية وتسطيح واشتغال بالمضامين أكثر من الآليات كما هي آفة الفكر العربيَّ عامة أتى بها التَّمودج اللغويَّ إلى اللغويين العرب.

وفي سياق تبيانه للركن الثاني (الكلام، اللغة) رأى الباحث في قوله الجاحظ «وتأتي الدلالة الصوتية بوصفها آلة للفظ فهي الجوهر الذي يقوم به النقطيع وبه يوجد التأليف أي لا يمكن أن يتحقق كلام في أي شكل من الأشكال أو مستوى من المستويات في النَّثر أو الشَّعر، إلا بظهور الصوت ولن تكون الحروف كلاماً إلا بالنقطيع والتأليف. وحسن الإشارة باليد والرأس فهناك تعاون وتكامل بين الجانب الصوتي والجانب الحركي في الإشارة فتمام حسن البيان باللسان مع الذي يكون بالإشارة هو جماع الدلالة الحقَّة»^(١).

(١) البيان والتبيين، ص ٧٨/١.

رأى أنّ عبارات هذا النصّ «لا تختلف كثيراً عما يقول به علماء اللغة المحدثون»^(١)، وقد ذهب إلى حدّ أبعد حينما اعتبر أنّ الجاحظ يمسّ في إيجاز جميع الجوانب التي تثير الجدل حول ثنائية اللغة/ الكلام في الدراسات اللغوية، فالجاحظ، والقول لعبدالعزیز حمودة، قد ركز على العلاقة بين العلامة الصوتية والدلالة باعتبار الأولى شرطاً لتحقيق الثانية، فالدلالة الصوتية هي آلة اللفظ أي الدلالة في منشئها. تتحقق في اللفظ منطوقاً أو متلفظاً به ولهذا لا يمكن - حسب الباحث - أن يتحقق كلام في أي شكل من الأشكال إلا بظهور الصوت أي بالتعبير عنه صوتياً، فالجاحظ قد أشار بطرحه - في تقدير الباحث حمودة - إلى مبحث قيميّ حديث مرتبط بنظرية الاتصال «وهو القول إنّ نظام التوصيل ونظرية الاتصال لا تعني الاقتصار على العلامات اللغوية متلفظة أو مكتوبة، فالعلامات قد تكون غير لغوية بالمعنى المحدود فقد تكون إشارة باليد، أو إيماء بالرأس أو حركة بالجسم أو تغييراً بقسمات الوجه أو لحظة صمت أو نوع زبي»^(٢).

وبهذه المقاربة/ التأويل يطرح الباحث سؤالاً استتكارياً؛ أراد من خلاله أن يقرر أنّ مفهوم الجاحظ للكلام هنا - باعتباره أصواتاً كثيرة - لا يختلف عن مفهوم الكلام عند علماء اللغة من حيث الجوهر؛ فأفكار الجاحظ حسب الباحث «حملت جنيناً مؤكداً كان من الممكن أن نرعاها نحن لنمكنه من الوصول إلى مرحلة النضج والاكتمال»^(٣). واضح من قراءة حمودة لهذا النصّ المبالغة في تحميل نص

(١) المرابا المقعرة، ص ٢٦٨.

(٢) السابق نفسه، ص ٢٦٣.

(٣) السابق نفسه، ص ٢٦٤.

الجاحظ (شحنة تحميليّة)؛ بمعنى أنّه تعامل معه من خلال خلفيات أخرى تتحيز إلى نموذج مغاير، ومن ثمّ فقد قرأ النّص بعيون معاصرة حملته ما لا يحتمل، أو قولته(*) ما لم يقل؛ ولا ندري هل تحدث الجاحظ في هذا النّص عن دلالة الصمت(**) ونوع الزي، كما ذهب إلى ذلك الباحث؟ صحيح أنّ مفهوم التّوصيل قد تطوّر وخصوصاً مع رولان بارت Barthes Roland غير أنّه في تقديرنا لا يجب أن نحمل النّص أكثر مما يحتمل. وقد أورد الباحث نصّاً آخر للجاحظ حاول أن يُنزله المنزلة التكميليّة لشقّي ثنائيّة اللغة/ الكلام، ونص الجاحظ على النحو الآتي: «والدّلالة بالخط تمثل جانباً في عملية الكشف والبيان: فالقلم أحد اللسانين بل هو أبقى أثراً وأوسع انتشاراً؛ ذلك بأنّ اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشّاهد والغائب، والكتاب يقرأ بكل مكان ويدرس في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه ولا يجاوزه إلى غيره»^(١).

حاول الباحث أن يقرن هذا النّص بالجدل والمقارنة الحاصلة بين الكلام واللسان وذلك «فيما يتعلق بوضع كل من المرسل والمستقبل؛ فالمرسل والمستقبل في حالة الكلام يشتركان في الوجود الزماني والمكاني، فالمتكلم يرسل رسالته إلى

(*) التّقول عند الباحث كريم الخفاجي هو التّحميل الدلالي الفاض عن حد النص وحاجته، وقد رأينا هذه الظاهرة طاغية على مسارات أكثر الدراسات المعاصرة للتراث النقدي والبلاغي العربي.. ينظر: التراث النقدي العربي والتّقول الحدائي المعاصر، (المقدمة) وينظر، أيضاً: ص ١٧-٢٦.

(**) وإن كنا نقدر أن الجاحظ قد خصّ ثنائيّة الصمت/ النطق في غير هذا السياق باهتمام كبير من ذلك رسالة عنوانها: تفضيل النطق على الصمت، ولم تخل آثاره الأخرى من إشارات إلى الموضوع، لعلّ أهمها ما ورد في البيان والتبيين حيث نجد باباً في الصمت ١/١٩٤، وما بعدها. ولعل أحسن ما يمثل نزعة الجاحظ التوفيقية قوله الذي يبدو زيدة رأيه في الموضوع: «وليس الصمت كله أفضل من الكلام كله ولا الكلام كله أفضل من السكوت، بل قد علمنا أن عامة الكلام أفضل من عامة السكوت» البيان والتبيين، ١/١٧١.

(١) البيان والتبيين، ١/٧٩-٨٠.

مستقبل يشترك معه في الزمان والمكان»^(١) وكان الباحث من خلال عقده هذه المقارنات أراد أن يثبت الوعي المبكر عند الجاحظ «بكل ما تمثله الثنائية من احتمالات للجدل الذي انشغل به فكر القرن العشرين، فإلى جانب أن الكتابة بعكس الكلام أبقى أثراً، أي لا تختفي مع غياب المرسل الأول للرسالة، يشير الجاحظ إلى أن القلم مطلق على القريب الحاضر الذي حل محل المستقبل الأول الذي أصبح في القراءة الأخيرة للرسالة المكتوبة غائباً. وهكذا يتعدّد المتلقون بتعدد عمليات قراءة النص بينما يتوقف عدد متلقي الرسالة الكلامية عند متلق واحد، وكان غياب الرسالة والمرسل والمستقبل في حالة الكلام يتحول إلى حضور متكرر للرسالة والمستقبل في حالة اللغة المكتوبة»^(٢)، وبهذه التّزيلات التي تحمل بين حناياها الكثير من العجب والإعجاب حاول الباحث أن يدلّل على أن أطاريح الجاحظ/ وغيره بما هي جزء من المنظومة العقلية العربية لم تكن متخلفة «وكلّ ما حدث أننا في انبهارنا بإنجازات العقل الغربيّ وضعنا إنجازات البلاغة العربية أمام مرايا مقعرة صغرت من حجمها وقللت من شأنها»^(٣)؛ فمناطق اللقاء بين أفكار الجاحظ/ القديمة زمانياً والأطاريح الحديثة أكثر من مناطق التّباعد «بل إن القديم العربيّ - في تقدير حمودة - قد سجل عند أكثر من محطة سبقاً لا شك في نسبه للقديم العربيّ»^(٤).

ورغم أن ما قدّمه قد يحمل بين حناياه بعض الإفادات (تبين الآراء الحديثة للمتقف العربيّ)، إلا أننا نرى أن مثل هذا النوع من المقاربة لا يفيد في إنتاج

(١) المرآيا المقعرة، ص ٢٦٤.

(٢) السابق نفسه، ص ٢٦٥.

(٣) السابق نفسه، ص ٤٨١.

(٤) السابق نفسه، ص ٤٩١.

نظرية لغوية عربية، وإنما يزكي منجزات اللسانيات الغربية الحديثة، ويجعل منها إطاراً ومنطقاً للتفكير يحد من الرؤية العميقة التي تستحضر خصوصيات النموذج اللغوي العربي ومميزاته، ولما كان ذلك كذلك فإن ما يؤخذ على الباحث هو أنه لم يكن بوسعها أن يضع يده على كيفية الحوار المقترح مع نصوص الجاحظ، كما اندرجت كثير من أفكاره في سياق النقد السجالي فلم يستطع «اقتراح صيغة نظرية بديلة عن النظريات الغربية التي رفض هو وغيره من النقاد الانسحاق خلف تخومها؛ وذلك ليس بسبب تعلق المسألة هنا بالدعوة إلى قطيعة مع الفكر الغربي وثقافته، بل بسبب تعلقها بعجز العقل العربي الحديث عن تمثل عناصر ثقافته أفضل تمثيل، ومن ثم وضع النظريات والمفاهيم القادرة على توظيف هذه الثقافة، ووضع قوانينها ووسائل تحليلها»^(١)، فخليق بنا أن نتعلم من القدامى طريقة في التفكير، أي طريقة في إنتاج الفكرة؛ لأن النتيجة المأساوية لشرعية النظرية القديمة التراثية، أو النظرية الحدائثة الغربية، هي أننا في الحالين مستهلكون لمعرفة، غير قادرين على إنتاجها.

وفي هذا السياق شدد "غادامير" على أن القراءة المعاصرة يجب أن تكون في الإطار التاريخي للمقروء لا بعيدة عنه، يقول في سياق فحصه لآفاق القراءة بأنها (أي آفاق القراءة) تتواجد «..عند الإشارة إلى مطالبة الوعي التاريخي بروية الماضي في ضوءه هو، وليس في ضوء معاييرنا وأهوائنا المعاصرة، بل في داخل أفقه التاريخي»^(٢).

وهكذا، انطلقت قراءة الباحث عبدالعزيز حمودة من "المتن الجاحظي"، لتمارس عليه نوعاً من التهميش، حيث جعل الباحث منه ذريعة لرفض المناهج

(١) نقد خطاب الحدائثة في مرجعيات التنظير العربي، ص ١٨٠.

(٢) المرآة المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، ص ٢٢٤.

النقدية الغربية، بمعنى أنّ أطاريح الجاحظ وفق هذا الفهم أصبحت أداة للحطّ من شأن قيم الحداثة. وهكذا نزل الباحث أقاويل الجاحظ منزلة الوسيلة/الواسطة؛ الغاية منها الانحياز لمعسكر أعداء الحداثة.

إنّ القراءة الاستراتيجية التي يملئها حمودة إنّما هي ممارسة نبعت من موجّهات خارجية مسبقة، ومن قراءات مؤدلجة بقناع أنّ النص لا يحمل في ذاته دلالة جاهزة ونهائية بل هو فضاء دلاليّ مفتوح، بيد أنّ القراءة «التي تعلل حاجة النصّ إلى التفسير في خارج النصّ لا من ذاته، هي قراءة لا تفسر ولا تقرأ، والأحرى القول إنّها تحجب وتزيّف»^(١). ويعني ذلك أنّ المقارنة ما بين معنيين- قديم وحديث- قد تستلزم أحياناً التفريط بمبدأ الموازنة لحساب أحدهما على الآخر، وينبني على ذلك التغييب، أو الغياب لخصوصية السمات العامة والخاصة للنصّ التي يخالف بها غيره.

ينتج مما تقدم؛ أنّ هناك بوناً كبيراً بين الأطاريح النقدية الجاحظية والنظريات النقدية الحديثة من حيث المعاينة النقدية المنهجية للنصوص الأدبية المعاصرة؛ وذلك لأمرين هما: الأمر الأول يتعلق بتبدل الأجواء الفكرية لمهمة النقد والناقد ووظيفته في مباشرة النصوص المعاصرة، وقصور النظرة القديمة لمفهوم النقد والناقد والنصّ بما يكون إطاراً نظرياً موحداً يمكن أن نسميه (النظرية النقدية العربية القديمة)، فضلاً عن هذا: لماذا يعزف النقاد عن توظيف المفاهيم الجاحظية- التي يرى حمودة أنّ لها فضل السبق- في نقد النصوص الأدبية المعاصرة وتحليلها؟ أما الأمر الثاني فيرتبط بتخلخل علاقة النصّ برؤى الناقد المتغيرة من آن إلى آن في عصرنا الحاضر بدءاً من (المقتربات الخارجية) في دراسة النصوص وانتهاء ب(المقتربات الداخلية). إذ لم تستقر إلى الآن هذه العلاقة تبعاً لتبدل الوعي بأهمية تفسير العلاقات. لذا فإنّ ما كان ليس بأفضل مما يكون

(١) نقد الحقيقة، ص ١٥.

أو ما سيكون؛ إذ يمكن الاكتفاء بما هو موجود في السّاحة العربيّة من مناهج وتيارات غربيّة وهي كثيرة وتفي عن حاجتنا في المعالجة والنّظر إلى النّصوص الأدبيّة المعاصرة مع التسليم بأنّ اختراقات هذه المناهج تتم عندما لا يسلم النّاقّد بسطوتها المطلقة عليه ومحاولة مزاجتها بروى النّاقّد الخاصّة في ميدان الاشتغال عليها، فقد يكون هذا حافظاً للتّجاوز - الجزئيّ - بإنتاج الأنموذج النّقديّ الجديد من خلال النّطبيق المبتكر والواعي بخصوصيّة النّص وفردية تلقّي التجربة الأدبيّة في ذات النّاقّد. فنقطة الانطلاق - إذاً - ينبغي لها أن تكون من الحاضر - وإن كان متخلفاً - فالمستهلك الفكريّ الموجود لدينا اليوم يسدّ زوايا النّظر للإبداع الأدبيّ والنّقديّ.

وهكذا فعملية استدرّاج أقاويل الجاحظ وربطها بالأقاويل المعاصرة ينبغي أن ترتبط بنقد النّقافة الوافدة، عطفاً على استبدال معطيات تلك النّقافة بمعطيات نابغة من قيم حضاريّة ذاتيّة. مما يجعل تأصيل أطاريح الجاحظ يتحدّد بوصفه عملية إنتاج حضاريّ تنتقد وتقوم، أو بدقة أكبر عملية إعادة إنتاج حضاريّ، تكون بديلاً للتكيف والتّمثّل اللذين لا يعدوان أن يكونا نوعاً من مواعمة التّراث لكي ينسجم مع متطلبات النّقافة الوافدة^(١).

لا تبعد قراءة الباحث شكري المبخوت كثيراً عن الأفق المعرفي/ الاستدرّاجي لمقاربة حمودة حيث نجده في كتابه الموسوم بـ"جماليّة الألفة، النّص ومتقبله في التّراث النّقديّ" يؤصل لمفهوم (القارئ الضّمنيّ) و(أفق الانتظار) في التّراث النّقديّ العربيّ^(*) مغيباً النسق الفكريّ والاعتزاليّ لآراء الجاحظ، فهو لم يأت بنص

(١) ينظر: استقبال الآخر - الغرب في النقد العربي الحديث، ص ٢٥٤.

(*) للباحثة السورية سميرة سلامي بحث بعنوان: "إرهاصات نظرية التلقي في أدب الجاحظ" تتحو فيه المنحى نفسه الذي سلكه المبخوت، ينظر: مجلة التراث العربي العدد ١٠٦ السنة السابعة والعشرون، نيسان ٢٠٠٧م - ربيع الآخر ١٤٢٨هـ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢١٤-٢٢٧.

واحد صريح يثبت وجود مفهوم القارئ الضمني^(١)، أو مفهوم أفق الانتظار، ومن ثم فهو يستشهد بمجموعة من النصوص بدت بعيدة عن المقصود بالقارئ الضمني ضمن مقولات نظرية التلقي^(*)؛ وهو يتساءل ثم يجيب قائلاً: «ولكن ما دور المتقبل الضمني في نطاق هذه الآلية المعقدة التي يصورها الجاحظ وغيره من البيانيين؟ لا شك أن الغفلة عن القارئ لحظة الكتابة قد تدفع بالمبدع إلى الاعتناء بما يمكن أن يكون عليه القول فيسرف في التزييق والتزخرف وينجذب إلى ما في اللغة (الغفل) من إجراءات تجعله يضرب في فيافيها يستجلي مجاهلها ويسير أغوارها... ولعلّ الخوف مرّده ما يمكن أن يؤدي إليه الإبداع من غموض والتباس يقطع حبل الوصل بين القارئ والنص لهذا ينتصب (المتقبل الضمني) ليحدّ من غلواء المبدع مطالباً بحق (القارئ الصريح) في الفهم»^(٢).

وبدلاً شكري المبخوت على وجود (المتقبل الضمني) في نص الجاحظ: «فللكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن قدر الاحتمال ودعا إلى الاستتقال والملا، فذلك الفاضل والهذر، وهو الخطل وهو الإسهاب»^(٣). فالمتقبل الضمني عند شكري المبخوت هو بمنزلة المعيار الضمني الذي يحدّد بلاغة الكلام

(١) ينظر: التراث النقدي العربي والتفويل الحدائث المعاصر، ص ٢٠٣-٢٠٤.

(*) جاءت نظرية التلقي الألمانية رداً على الاتجاهات النقدية، التي كانت سائدة، والتي ركّز بعضها على مبدع العمل الأدبي، وركّز بعضها الآخر على النص، فأهملوا، بذلك العنصر الثالث الهام من عناصر العملية الإبداعية، وهو القارئ أو المتلقي، ومن ثم نادى رائداها، هانز روبرت يابوس، وفولفجانج إيرز، بالانتقال في الدراسة، من العلاقة بين الكاتب ونصّه، إلى العلاقة بين القارئ والنص.

(٢) جماليّة الألفة، ص ١٨.

(٣) البيان والتبيين، ١/٩٩.

وسننه التي ينبغي أن يسير عليها من أجل مراعاة حال القارئ الصريح^(١). وقد استحضر الباحث أيضاً ما أورده الجاحظ حول ما قاله بشر بن المعتمر في صحيفته من ضرورة مراعاة تناسب أقدار المعاني مع أقدار المستمعين وبين أقدار المستمعين وأقدار الحالات «فيجعل لكل طبقة في ذلك مقاماً حتى يقسم أقدار الكلام على المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على الحالات»^(٢). فيرى المبخوت أن اشتراطات التناسب هنا تفترض حضور (المتقبل الضمني) فيها بوصفه حداً يضبط العلاقة بين خصائص القول الأدبي وكيفية أدائه وإيصاله إلى المتقبل.

بيد أن المتأمل لصحيفة بشر بن المعتمر يلحظ أنها لا تتشاجر مع مقولات المتقبل الضمني، بقدر ما بينت الطرائق التي يتبعها صانع النص الأدبي وما يجب أن يكون عليه الأدب في حقيقته المثلى.

ولعلنا لا نجافي الصواب إذا اعتبرنا أن الباحث شكري المبخوت يتكلف تأويل Sur-intepretation (القارئ الضمني) بجعله معياراً لبلاغة الكلام لدى الجاحظ وغيره من البيانين، فهو يتجاهل حقيقة بدهية لا نخالها تخفى عليه، وهي أن دلالة نص الجاحظ لا تنصرف إلى تخيل متلق في ذهن المبدع في أثناء إنتاجه لمراعاة تقبله، وليس جعل المتلقي ضمناً داخل الخطاب كما هو لدى آيزر؛ فمفهوم القارئ الضمني يتحدد بكونه بنية نصية «تتوقع حضور متلق ما دون أن تحده بالضرورة»^(٣) تتوسط بين المؤلف والقارئ الصريح أو الحقيقي ليطمأه معها

(١) ينظر: جمالية الألفة، ص ١٩ و ٢١ و ٢٦-٢٧ و ٢٩-٣٠.

(٢) البيان والتبيين، ١/١٣٨-١٣٩.

(٣) فعل القراءة- نظرية جمالية التجاوب في الأدب، ص ٣٠، وينظر: روبرت هولب، نظرية التلقي،

الأخير، فتعمل على جذبته من خلال التخييل أي تخيل التجارب النصية ذاتياً والدخول في ألقها. فمدار اهتمام آيزر هو القارئ^(١) لا المبدع؛ إذ لا شأن له بالأخير، فهو يعمل على ضبط عملية تفاعل القارئ الحقيقي مع النص من خلال وجود القارئ الضمني في الخطاب الأدبي^(٢) من خلال شكله وتوجيهاته وأسلوبه لتحقيق التواصل مع القارئ الحقيقي.

ولذلك فمفهوم القارئ الضمني ليس مجرداً من أية تعلقات داخل منظومة آيزر في التلقي، بل هو يرتبط بضبط أنماط استجابة المتلقي داخل الخطاب من خلال مجموعة من الأسس التي ترتبط بالمتلقي الضمني وهي (السجل) و(الاستراتيجية) و(مستويات المعنى) و(مواقع اللاتحديد) و(الفجوات) و(الفراغات)^(٣)، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن قيمة التلقي وفاعلية القارئ مع النص تصبح مصدراً لقيمة الأثر الأدبي نفسه^(٤)، بل هي تعتمد عليه لدى آيزر لا بكشف المعنى بل بإعادة بناء النص^(٥).

المفهوم، يكون للقارئ الضمني في نظر آيزر مظهران مترابطان: الأول ذو معنى تجريدي يتبدى في صورة نمطية مثالية، تحضر في جميع النصوص التي تنتمي إلى حقبة فنية داخل ثقافة ما، في حين يكون الثاني مجسداً في قارئ كفاء له وجود فعلي؛ ويملك مقدرة على التفاعل.

(١) ينظر: المعنى الأدبي من الظاهرية إلى التفكيكية ٦٣، والأصول المعرفية لنظرية التلقي، ص ١٦٣.

(٢) ينظر: المعنى الأدبي من الظاهرية إلى التفكيكية، ص ٦٢ و ٦٦.

(٣) ينظر: الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ص ١٥٣-١٥٨، وفعل القراءة، ص ٤٥-٨٢، ونظرية التلقي، ص ٢١١-٢٢٥، والمعنى الأدبي من الظاهرية إلى التفكيكية، ص ٤٦-٤٧، ونقد استجابة القارئ من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية، ص ١١٨-١٣٢.

(٤) ينظر: نقد استجابة القارئ من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية، ص ٢٤-٢٧.

(٥) ينظر: السابق نفسه، ص ٢٤-٢٧.

وهكذا، فلو استحضر الباحث شكري المبخوت الخلفيات المعرفية لنظرية التلقي، فهماً/ استيعاباً بوصفها نقلة في مجال الاهتمام، أو بوصفها توجيهاً عاماً للانتباه إلى محور القارئ وجمهور المتلقين لانتضحت له جملة من العناصر، التي تبين البون بين أطاريح الجاحظ ونظرية التلقي في هذا المجال.

ويصدق على مقارنة الباحث شكري المبخوت قول رحمن غركان مبرزاً تقويل النقاد المعاصرين لنصوص التراث: «هذا أمر عائد في جذوره إلى حرية القراءة والتأويل، فقد صار بعض الدارسين خشية اتهامهم بالانقطاع المعرفي عن التراث يسعون إلى تقويل التراث ما يريدون، والبناء على هذا التقويل. وهذا النمط التأويلي في قراءة الوعي التراثي، قاد إلى ظهور دعوات غاية في الغرابة، ومصطلحات حديثة عند النقاد»^(١).

والحق أن وعي الجاحظ كان عالياً، ومتساقاً مع خصوصية لغته، وهو ليس به حاجة إلى (عصرنة) مفتعلة ليكون حقيقاً بالدرس. ولكن المبخوت، ومن دون استحضار خصوصية التعبير النقدي الجاحظي ومصطلحاته الفنية، قاد رؤى الجاحظ النقدية إلى ما يناسب مفهومات القارئ الضمني. وعالج نصوصه بما يكرس أطروحاته الفكرية والنقدية.

هذا المنحى الذي تحفل به دراسة المبخوت، قاد النص الجاحظي إلى تقويله مقولات حدائية قسراً، بالتدليس حيناً، وبالاجتزاء المخل حيناً آخر، ونعجب كيف واشج شكري المبخوت بين نصوص الجاحظ و(القارئ الضمني) و(أفق الانتظار) الذي لا يرتهن أو يقبل الاتصال بمواشجته تلك؟! فهل حقاً الانتقادات التي اجتلبها شكري المبخوت من المدونة الجاحظية/ النص التراثي البلاغي تتكفل ببناء هيكل

(١) مقومات عمود الشعر الأسلوبية في النظرية والتطبيق، ص ١٥.

شامخ لنظرية القراءة بمستوياتها النظرية ومفاهيمها المعاصرة - عند العرب قديماً؟!

وتبعاً لهذا التصور؛ فقد جهر الباحث شكري المبخوت منذ البدء بإجرائه المتمثل في دفع النصوص التراثية إلى القول بمضامين التوجهات النقدية المعاصرة يقول: «أرأينا أن نستكشف ذاكرتنا بأن نستدعي التراث فينا فنحاوره ونزهف السمع إليه فإن نطق أنصتنا وإن لمَّح دفعناه إلى التصريح وإن سكت تساءلنا عن سبب سكوته... وقد دفعنا هذا الهدف إلى اعتبار النصوص النقدية التي ارتكزنا عليها نصاً واحداً، فلم نعن غالباً بنوعية مشاغل هذا أو ذلك من اللغويين أو البلاغيين أو النقاد أو الفلاسفة. ولم نر في جلّ الأحيين للفروق التاريخية أثراً يدعو إلى تتبعها؛ مما خوّل لنا عملياً انتهاك حرمتي الاختصاص المعرفي والتعاقب الزمني. وقد أتينا هذا الصنيع لإيماننا بأن اختلاف الاختصاص لا ينفي وحدة الإشكالية وأن تباين العصور لا يمسّ نوعياً أصول رؤية القدامى للأدب»^(١).

لقد أطنب الباحث شكري المبخوت في تحليل مقولات التلقي عند الجاحظ مفترضاً أنّ خطاباته تلك تقرب فهمات نظرية التلقي الحديثة إلى النفس العربية المعاصرة تقريباً حميمياً. وبغياب استراتيجيّة معرفيّة متينة كانت الحصيلة أنّ القارئ يزداد معرفة بالفكر الجاحظي وهذا أمر جميل دون أن يحسّ بضرورة عبور مركب العلم الحديث للوصول إلى جزر ذلك التراث/ الجاحظ وبراريه، فإن أراد دخول قلاعه فليس مفاتيحها بيد ياوس ولا هي بيد أيزر.

ويبدو أنّ هذا الأفق المنهجي في استدراج أطاريح الجاحظ وتقويلها ينطوي على خطرين مقوضين لمعالم التراث النقدي والبلاغي، هما:

(١) جمالية الألفة، ص ٨-٩.

أولاً: إن وحدة الإشكالية المفترضة تمارس دوراً في صهر الاختصاصات المعرفية، ومن ثم في طمس معالم الاختلافات الكمية والنوعية لموضوع الإشكالية المدروسة.

ثانياً: في تجاوز الثعاقب الزمني ردم لشغرات خصوصية التغير الثقافي والتنوع الفكري مما ينجم عنه طمر نمو حركة الإشكالية زمنياً، وهذا يعني أن شكري المبخوت يعالج إشكالية (التلقي) من منطلق (الثبات) المعرفي والزمني المطلق في دراسة هذه الإشكالية.

إن ما ينبغي أن نبقي على ذكر منه هو أن أخطر ما قد تتعرض له نصوص الجاحظ من التأويلات هو ذلك الاستدراج الذي تمارسه عليها النظرية الغربية، ومن ثم فقد رأينا كيف أن المبخوت بدأ بالبحث عن أصل نظرية التلقي في ثنايا النصوص الجاحظية، ومن هنا انتهى تأويل الباحث إلى أن الجاحظ كان له فضل السبق والريادة في صياغة مقولات التلقي وتقريرها؛ مما يجعل عملية تأويله ليست منصفة، أو عادلة لكلا الطرفين.

وقد تجلّى مسار/ أفق القراءة الاستدرجية بين تضاعيف مصنفات قراء الجاحظ فمنهم - تمثيلاً - من حاول ربط الفكر الجاحظي بمسألة الواقعية في الأدب، ومن هؤلاء الباحث محمد كرد علي في "أمراء البيان"، وشوقي ضيف في "الفن ومذاهبه في النثر العربي"، وعبدالحكيم بلبع في "النثر الفني وأثر الجاحظ فيه"، ووديعة طه النجم في "الجاحظ والحاضرة العباسية" وغيرهم.

يقول الباحث عبدالحكيم بلبع: «الجاحظ كان خالق هذا الاتجاه الواقعي، وموجهه في النثر الفني... وزعماء المدرسة الواقعية في أوروبا، لم يصنعوا شيئاً

أكثر مما صنعه الجاحظ قبلهم»^(١)؛ ولا يكتفي هذا الباحث بالربط بين الفكر الجاحظي والخلفيات المعرفية للمذهب الواقعي بل حاول عقد مقارنة بين آراء الجاحظ وأسلوبه في الإضحاك، وآراء "هنري برجسون"، ومن ثم انتهى إلى القول: «إذا كان "برجسون" قد وضع هذه النظريات في "سيكولوجية الضحك والمضحك، فإن الجاحظ قد طبق هذه النظريات، واهتدى إليها قبله»^(٢). أما الباحث محمد كرد علي، وبمنطق الأفق الاستراتيجي فقد حاول أن ينزل مقولات الجاحظ ويربطها بطروحات ديكارت منتهياً إلى القول: «فكأن الفيلسوف ديكارت، في القرن السابع عشر، قرأ الجاحظ، وعرف فلسفته في هذا الشأن، ونغمتها في هذا المعنى متشابهة، كأن الواحدة متممة للأخرى، أو الأخرى أخذت من الأولى»^(٣)، ومنهم أيضاً الباحث محمود الزبداوي، الذي يرى في أقاويل الجاحظ تأكيداً لأصالة هذا المنهج في العقلية العربية، - من خلال سبق الجاحظ إليه. - يقول: «ولعله - وهو الأديب - من أسبق العلماء إلى أدق المناهج في البحث، وهو منهج "الشك طريق اليقين" المعزور إلى ديكارت... فكلام الجاحظ دليل واضح على نهجه العلمي، وإحلاله الشك المحل الأول، بغية الوصول إلى اليقين القائم على التجربة والتعليل، وإعمال الفكر واستنباط القواعد، وهو لعمرى منهج في البحث دقيق، وفي العقلية العربية أصيل وقديم، وإن ألبسه الناس ثوباً من الحداثة، وأكثروا من الصخب حول من ينسب إليه من علماء العصر الحديث»^(٤).

(١) النشر الفني وأثر الجاحظ فيه، ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٢) السابق نفسه، ص ٢٦٦.

(٣) أمراء البيان، ص ٣٩٦.

(٤) التيارات والمذاهب الفنية في العصر العباسي، ٢/ ٤٧٦.

كان من الضروريّ إذن أن يحوّل قراء الجاحظ وفق هذا المسار وجهة قصدهم المنهجيّ؛ بأن يتمّ البحث في أطاريح الجاحظ عما بوسعها أن تمثل إضافة على مستوى النظريّة الكليّة لكي يتمّ تقديم ثمراته على الصّعيد الإنسانيّ من حيث هي عطاء عربيّ إسلاميّ أصيل من حق الإنسانية أن تتطلع إليه.

إنّ مدار الاعتراض المنهجيّ على مسار آفاق القراءات الاستدراجيّة لا يحمل بين طياته - قطعاً - الاعتراض على منزع الحداثة في مشاريع هؤلاء، ولا هو متضمن نقض مقولة القراءة بما هي نمط من المعالجات التي توجه طبيعة الالتقاء مع النّص الجاحظيّ، غير أنّه ينشد تأسيس مبدأ الاستكشاف الذاتيّ الذي يتسلّح فيه النّاقد بسلاح الحداثة فيلج التّراث، مستخرجاً خصوصيّاته في تشكيل نظريّ متشاجر، وحده كفيّل بأن يفضي إلى وضع مقولات من القراءة الذاتيّة، فلا يطعن التّراث الجاحظيّ في الحداثة، ولا تتجنّى الحداثة على التّراث.

وعلى الجملة فلكي تكون القراءة مقبولة يجب عليها أن تلتزم بما يمكن أن نسميه بقاعدة التماسك الداخليّ أي إنّ موضوعيّة النّقد لا تقوم في اختيار مفتاح القراءة أو في انتقاء زاوية التّأويل، وإنّما في تطبيق نموذج التّأويل الذي يختاره النّاقد تطبيقاً صارماً على كلّ النّص المقروء.

وقد صاغ الباحث حسن مصطفى سحلول ذلك في ثلاث قواعد كبرى إن تمسك بها التّأويل كان مقبولاً. «يجب أن يكون من الممكن تطبيق شبكة التّأويل أو نمودجه على مجموع العمل الأدبيّ وليس على بعض مقاطعه وحسب، ويجب أن تلتزم شبكة التّأويل هذه بالمنطق الرّمزيّ كما ظهر من خلال علوم التّحليل النّفسيّ. ويجب كذلك أن ينحو نموذج التّأويل دائماً الاتجاه نفسه. وبكلمة أخرى فإنّ التّأويل يقياس بمقدار "صحته". أي ليس المقصود أن نستخلص من العمل الأدبيّ هذه

الحقيقة أو تلك. ولكن المطلوب أن نتفحصه على ضوء "لغة" أخرى كلغة التحليل البنيوي أو لغة التحليل الواقعي أو الرمزي الخ...»^(١) وإلى مبدأ التماسك الداخلي الذي أقره الباحث حسن مصطفى سطلول هذا، ينبغي علينا أن نضيف مبدأ التماسك الخارجي. فليس للقراءة أن تخالف شيئاً من المعطيات الموضوعية التي نعرفها عن النص وظروف تأليفه أو حياة الكاتب وعصره أو غير ذلك.

والحال هذه؛ فليس لنا مثلاً حين نقرأ الجاحظ ونؤول كتبه أن نتجاهل أنه كان معتزلياً، وأنه عاصر المحنة التي قادها أصحابه حول موضوع خلق القرآن... إلا أنه يجب التأكيد على أن دراسة "الجزئيات" عند الجاحظ، وتنظيم "التفاصيل" التي تملأ كتبه حسب أنواعها أو منطوق استحضارها في النص تساعدنا بفضل مقاربات متلاحقة على فهم شامل لمقولات الجاحظ... وفي هذا يقول الباحث جابر عصفور: «ومن ذا الذي يستطيع أن يفصل نصوص الجاحظ عن سياقها الاعتزالي... أو يفصل التضاد بين ابن قتيبة والجاحظ عن التضاد بين النقل والعقل، حيث لا يقتصر الأمر على اندماج النص في نسق فكري أوسع، بل يمتد ليشمل علاقات التشابه والتضاد الذي تصل هذا النسق بغيره من الأنساق»^(٢).

وهكذا، فقد حاولت هذه المقاربة تعميق القلق المعرفي، والدعوة إلى السعي الحثيث من أجل المزيد من التفكير في فتح أبواب جديدة للقراءة الأدبية والنقدية لا تزال غير مفتوحة، فكما ثبت أن النص الجاحظي لا تحدّه الحدود، وسيظلّ الإبداع في شأنه مفتوحاً؛ فكذلك ما يكتب من حوله يجب أن يظلّ مفتوحاً، وهو تحليله وقراءته وتأويله.

(١) نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها، ص ٢٨.

(٢) قراءة التراث النقدي، ص ٤٢.

وبالإجمال فواقع الدراسات الجاحظية العربية متصل بواقع الدراسات النقدية في الأدب العربي الحديث، وهذا الواقع مرتبط بحال ثقافة تتنازعها أفكار ومواقف متناقضة، بعضها يرتمي في أحضان الفكر التقليدي، وبعضها يستعير من الآخر كل شيء، ولم يقع جدل عميق لنتهي إلى بديل مناسب يُتفق بشأنه بشكل عام، ومن الطبيعي أن تظهر تجليات ذلك في النقد، ومنه الدراسات الجاحظية.

المصادر والمراجع

١. الأبعاد الكلامية والفلسفية في الفكر البلاغي والنقدي عند الجاحظ: عبدالحكيم راضي، ط٣، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٦.
٢. الأصول المعرفية لنظرية التلقي: ناظم عودة خضر، دار الشروق، عمان، الأردن، ط١، ١٩٩٧.
٣. أمراء البيان: محمد كرد علي، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧.
٤. استقبال الآخر - الغرب في النقد العربي الحديث: سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، وبيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤.
٥. إرهابات نظرية التلقي في أدب الجاحظ: سميرة سلامي، مجلة التراث العربي، العدد ١٠٦، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، السنة السابعة والعشرون، نيسان ٢٠٠٧ - ربيع الآخر، ١٤٢٧هـ.
٦. البرهان في علوم القرآن: الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ١٩٥٧.
٧. بلاغة الخطاب وعلم النص: صلاح فضل، مطابع الوطن، الكويت، (سلسلة عالم المعرفة، ١٦٤)، ط١، ١٩٩٢.
٨. البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها: محمد العمري، دار إفريقيا الشرق، ٢٠٠٢.

٩. البيان والتبيين: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، ج ١، المطبعة التجارية، القاهرة، ١٩٤٧.
١٠. بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية: محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ٩، ٢٠٠٩.
١١. التيارات والمذاهب الفنية في العصر العباسي (٢): محمود الريداوي، دمشق، مطبعة الإنشاء، ١٩٨١-١٩٨٢.
١٢. التراث النقدي العربي والتفويل الحدائث المعاصر: أحمد رحيم كريم الخفاجي، رسالة دكتوراه فلسفة في اللغة العربية/ أدب، مخطوط (وقد طُبعت ببغداد)، جامعة بابل، كلية التربية، إشراف قيس حمزة الخفاجي، نوقشت سنة ٢٠٠٩.
١٣. التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قراءة: حمادي صمود، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٨١.
١٤. التفكير اللساني في الحضارة العربية: المسدي عبدالسلام، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ط ١، ١٩٨١.
١٥. جمالية الألفة، النص ومقبله في التراث النقدي: شكري المبخوت، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس، ط ١، ١٩٩٣.
١٦. نظرية التأويل - الخطاب وفائض المعنى: ريكور بول، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، دت.
١٧. السرد العربي القديم، الأنواع والوظائف: إبراهيم، صحراوي، والبنيات، منشورات الاختلاف، ط ١، ٢٠٠٨.

١٨. فعل القراءة- نظرية جمالية التجاوب في الأدب: فولغانغ آيزر، تر: حميد لحمداني ود.الجلالي الكدية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٤.
١٩. قراءة التراث النقدي: جابر عصفور، مؤسسة عييال للدراسات والنشر، قبرص، ط١، ١٩٩١.
٢٠. قضايا الشعرية: رومان جاكوبسن، تر: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال، المغرب، ط١، ١٩٨٨.
٢١. قاموس، مصطلحات النقد الأدبي المعاصر: سمير سعد، حجازي، دار الأفاق العربية، ط١، ٢٠٠١.
٢٢. محاورات مع النثر العربي: مصطفى ناصف، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢١٨، شباط، ١٩٩٧.
٢٣. المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك: عبدالعزيز حمودة، عالم المعرفة، مطابع الوطن، الكويت.
٢٤. المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، عالم المعرفة: عبدالعزيز حمودة، مطابع الوطن، الكويت، ٢٠٠١.
٢٥. المعنى الأدبي من الظاهرية إلى التفكيكية: وليم راي، تر: يوثيل يوسف عزيز، دار المأمون، بغداد، ط١، ١٩٨٧.
٢٦. مقومات عمود الشعر- الأسلوبية في النظرية والتطبيق: رحمن غركان، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ٢٠٠٤.

٢٧. مذبحه التراث في الثقافة العربية المعاصرة: طرابيشي جورج، دار الساقى، بيروت، لبنان، ١٩٩٣.
٢٨. اللسانيات ونظرية التواصل - رومان جاكوبسون نموذجاً: عبدالقادر الغزالي، دار الحوار، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠٠٣.
٢٩. النشر الفني وأثر الجاحظ فيه: عبدالحكيم بلبع، القاهرة - مطبعة الرسالة - طبعة عام ١٩٥٥.
٣٠. النقد المنهجي عند العرب: محمد، مندور، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٩٦.
٣١. نظرية التلقي - مقدمة نقدية: روبرت هولب، تر: عز الدين إسماعيل، النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية، ط١، ١٩٩٤.
٣٢. نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها: سطلول حسن مصطفى، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١.
٣٣. نقد خطاب الحداثة في مرجعيات التنظير العربي، قراءة في تجربة الدكتور عبدالعزيز حمودة: "المرايا المحدبة، المرايا المقعرة، الخروج من التيه" نموذجاً: لطفي فكري محمد الجودي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١.
٣٤. نقد الحقيقة: علي حرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، والدار البيضاء، المغرب، ط٣، ٢٠٠٥.

٣٥. نقد استجابة القارئ من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية: جين ب. تومبكنز،
تر: حسن ناظم وعلي حاكم، مر: محمد جواد حسن الموسوي، المجلس
الأعلى للثقافة، مصر، ط١، ١٩٩٩.
٣٦. الناقد العربي المعاصر والموروث النقدي: حسام الخطيب (من بحوث
المؤتمر العام الخامس عشر للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب في
بغداد)، مطابع دار الثورة، بغداد، ١٩٨٦.
٣٧. النظرية النقدية العربية، مغالطة الشرعية ووهم التأصيل: صلاح الدين،
زرال، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلة دورية علمية محكمة،
العدد ١٣، ٢٠٠١.
٣٨. النظرية الأدبية ومصطلحاتها الحديثة: سمير سعد، حجازي، دار طيبة
للنشر والتجهيزات العلمية، ٢٠٠٤.
٣٩. هكذا أقرأ ما بعد التفكيك: علي حرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،
ط١، ٢٠٠٥.
٤٠. وجود النص - نص الوجود: مصطفى الكيلاني، مطبعة تونس، قرطاج،
تونس، ط١، د.ت.

ما لم ينشر من

شعر السراج البغداديّ

(٤١٧ أو ٤١٨ هـ - ٥٠٠ هـ)

أ. د. عبدالرزاق حويزي

كلية الآداب، جامعة الطائف

لا تزالُ في التُّراثِ الشَّعريِّ العربيِّ حاجةٌ ماسَّةٌ إلى التَّنقيبِ عن نَفائِسهِ، والكشْفِ عنها، للإفادَةِ مِنْهَا على جميعِ المستوياتِ، وتوظيفِ مُعطياتِها في النهوضِ بحياتِنَا التَّقافيَّةِ العامَّةِ لمواكِبَةِ عَصْرِ المَعْلوماتِيَّةِ؛ ومِن ثَمَّ يَظْهَرُ دَوْرُ التُّراثِ في تَشْيِيدِ صِرْحِ تَقَاةِ هَذَا العَصْرِ.

والحقيقةُ أنَّه لا تزالُ في الرِّوايا خَبايا كثيرةٌ مِنْ كنوزِ هَذَا التُّراثِ في أَرْجاءِ المعمورةِ، وليسَ بصَحِيحٍ ما يَنبَادِرُ إلى أَدْهانِ بَعْضِ البَاحِثِينَ مِنْ أَنَّ مُعْظَمَ التُّراثِ العربيِّ قَدْ تَمَّ الكَشْفُ عنه، وَأَنَّ كُلَّ ما هو ذاتُ قيمةٍ مِنْه قَدْ سَبَقَ نَشْرُه. وأظنُّ أَنَّ السَّعيَ الحثيثَ وراءَ مَخْطُوطاتِ هَذَا التُّراثِ في سائرِ المَكْتَباتِ مِنْ شأنِهِ أَنْ يَرْفِدُنَا بِنفائِسٍ لَمَّا يَتَوَصَّلُ إليها بعد.

وأثناءُ تَنقِيبي عن مجاهيلِ المَخْطُوطاتِ التي لم تَرَ النُّورَ حتَّى الآنَ لجمِعِ أشعارِ بَعْضِ الشُّعراءِ وَقَفْتُ على مَخْطُوطٍ، عُنوانُه: "عيون الأخبار"، وبمطالعتِهِ وَجَدْتُهُ يَحْتَوِي على مادَّةٍ أدبيَّةٍ تَخْدُمُ الحياةَ الأدبيَّةَ في فَتْرَةِ حَيَويَّةِ من تاريخِ الأدبِ العربيِّ، وهي القرنُ الخامسُ الهجريُّ، وزادَ اهْتِمَامِي بهذا المَخْطُوطِ إدْرَكي أنَّ هذه الفَتْرَةَ ما تزالُ مَظْلُومَةً حتَّى الآنَ، إذ قُفِدَتْ مُعْظَمُ المَصادرِ التي تَنصَّبُ أَدبُها، أو قُلَّ لم يُنْشَرِ مِنْها إلا القليلُ، وأبرزُ مَصادِرِها: دُميَّةُ القَصْرِ، ويوميَّاتُ أديبٍ، وخريدةُ القَصْرِ وجريدةُ العَصْرِ، وما نُشِرَ مِنْ أدبِ هذه الفَتْرَةِ لا يَتَواعَمُ أبداً وموهبةً

الأدباء، وإبداعاتهم شعراً ونثراً، وكثرتهم في الوطن العربي، لذا بات لدي إحساس قوي أن تاريخ الأدب العربي في تلك الفترة يفتقر إلى الكشف عن كل ورقة مخطوطة تتضمن مادة أدبية، وعن كل نص أدبي، شعرياً كان أو نثرياً، وعن كل مخطوط تد عن أعين الباحثين، وشط عن أيدي الدارسين، ومن هنا أتى اهتمامي بهذا المخطوط النفيس، فكرست له جهدي ووقتي، عساني أقدم ما يحمل في طياته ما أظنه مفيداً، فكتبتُ معرفاً به وبقيمته وبمولفه، وحققتُ شطراً منه، وأتمنى على الله - سبحانه وتعالى - أن يبسر أمر نشره.

أما عن مخطوط "عيون الأخبار"، وهو المصدر الأساس لهذه الصفحات والمعتمد في تسطيرها فهو محفوظ في مكتبة توبنجن، ألمانيا، تحت رقم ٦٩ (١)، ومنه صورة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، تحت رقم (٢٠٣٦ أدب)، وعليها الاعتماد هنا، ولم ينسب في فهرس معهد المخطوطات لصاحبه بسبب ما ناله من اختلال ترتيب أوراقه، ومن أسقاط كثيرة، طالت صفحة العنوان وغيرها، وقد اكتشفت مؤلفه، وأثبت الأدلة على عزوه له، وأوضحت ماهية المخطوط، وموضوعه، ومنهجه، وكشفت عن أهميته، وحققت نوصاً شعرية منه، واعتمدت عليه في صنعة بعض الدواوين المفقودة، وأوضحت أن عنوانه الثام هو "عيون الأخبار" وغرر الحكايات والأشعار المستخرجة من سائر الأصقاع والأمصار، أما عن مؤلفه الذي كتب مخطوطه هذا بنفسه فهو "محمد بن علي بن محمد بن محمد ابن علي، القاضي، أبو البركات الأنصاري، الموصلي، الشافعي ٥٣٠ - ٦٠٠ هـ"، وأما عن الموضوع الأساس للمخطوط فظاهر أنه يضم من بدايته أخباراً، وشأها المؤلف بالحكم الرشيدة، والنصائح الحانية، وطرزها بالقصص المشتملة على العظات والعبر المستخلصة من حكايات الصالحين بهدف التأثير على القراء،

(١) رفع مؤخرًا على الشبكة العنكبوتية في الرابط الآتي: <http://majles.alukah.net/t126324>

والدَّعْوَةُ إِلَى تَذْكِيرِهِمْ بِحَقَارَةِ الدُّنْيَا، وَضَالَّةَ مَتَاعِهَا، وَقَصْرَ أَجَالِهَا، وَحَثُّهُمْ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالتَّزَامِ التَّقْوَى، وَإِعْدَادِ الزَّادِ لِيَوْمِ الْمِيْعَادِ، وَقَدْ عَزَّرَ كُلَّ هَذَا بِالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْكَرِيمَةِ، وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ، وَالْأَشْعَارِ الْعَرَبِيَّةِ، وَسَاقَهُ مَدْعُومًا بِالْأَسَانِيدِ فِي رِوَايَةِ كُلِّ خَبْرٍ، أَوْ قِصَّةٍ، أَوْ نُتْفَةٍ شِعْرِيَّةٍ، وَهَذِهِ الْأَخْبَارُ وَالْقِصَصُ وَالْأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ - فِي مُجْمَلِهَا - رَوَاهَا عَنْ عُلَمَاءِ النُّقَاهُمْ فِي رِحَالَتِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ فِي شَتَّى أَقْطَارِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ آنَذَاكَ.

ويعودُ الباحثُ ليقولَ: إِنَّ مَخْطُوطًا مِثْلَ هَذَا يَجْمَعُ بَيْنَ الدِّينِ وَالْأَدَبِ وَالشَّعْرِ وَالْأَعْلَامِ وَالتَّارِيخِ لَا تَنْكُرُ قِيَمَتَهُ بَيْنَ كِتَابِ التَّرَاثِ، فَقَدْ أُعْطِيَ عَلَى الْمَسْتَوَى التَّارِيخِيِّ وَصَفًا دَقِيقًا لَتَجَوَابِ مُؤَلِّفِهِ بَيْنَ الْمُدُنِ وَالْقُرَى وَالْأَقَالِيمِ، وَحِرْصِهِ عَلَى الرِّوَايَةِ عَنِ الْجَمِّ الْغَفِيرِ مِنَ الْمَشَايخِ وَالشُّعْرَاءِ، وَيَضَعُ أَمَامَ الْقَارِئِ صُورَةً نَاصِعَةً مِنْ صُورِ إِصْرَارِ أَجْدَادِنَا عَلَى بَدَلِ كُلِّ نَفِيسٍ مِنْ أَجْلِ الرِّحْلَةِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ.

والمخطوطُ بهذا النهج يُبَادِرُ إِلَى الْأَذْهَانِ كِتَابَ "مُعْجَمِ السَّفَرِ" الَّذِي أَلْفَهُ أَبُو طَاهِرِ السَّلْفِيِّ ت ٥٧٦ هـ، فبَيْنَهُمَا تَشَابُهٌ وَاضِحٌ، وَثَمَّةٌ تَشَابُهٌ أَيْضًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ كُتُبِ الشُّيُوخِ بِعَامَّةٍ، مِثْلَ كِتَابِ "شِيُوخِ ابْنِ عَسَاكِرَ ت ٥٧١ هـ"، وَكِتَابِ "الْغُنْيَةِ: فَهْرَسْتِ شِيُوخِ الْقَاضِي عِيَّاضَ ت ٥٤٤ هـ"، وَ"مَشِيخَةُ ابْنِ الْجَوْزِيِّ ت ٥٩٧ هـ"، وَ"بِرْنَامِجِ شِيُوخِ الرَّعِينِيِّ، عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ الْإِسْبِيلِيِّ ت ٦٦٦ هـ"، وَ"مَشِيخَةُ شَرَفِ الدِّينِ الْيُونِينِيِّ ت ٧٠١ هـ"، وَ"مُعْجَمِ شِيُوخِ الذَّهَبِيِّ ت ٧٤٨ هـ"، وَ"مَشِيخَةُ الْمِرَاغِيِّ، الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدَ ت ٨١٦ هـ"، وَهَذَا فِي حَدِّ ذَاتِهِ يَمْتَلُّ ظَاهِرَةً تَسْتَحِقُّ الدِّرَاسَةَ فِي مَنَهْجِ الْبَحْثِ وَالتَّأْلِيفِ بِدَايَةِ مِنَ الْقَرْنِ السَّادِسِ الْهَجْرِيِّ وَمَا بَعْدَهُ، كَمَا يُبَادِرُ إِلَى الْأَذْهَانِ الْكُتُبَ الْمَعْرُوفَةَ بِالْأَرْبَعِينَاتِ، وَقَدْ جَمَعَهَا عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، مِنْهُمْ الْمَوْرُخُ الشَّهِيرُ "ابْنُ عَسَاكِرَ"، الَّذِي جَمَعَ فِي كِتَابِهِ: "الْأَرْبَعِينَ الْبِلْدَانِيَّةَ" أَرْبَعِينَ حَدِيثًا، عَنْ أَرْبَعِينَ شَيْخًا فِي أَرْبَعِينَ مَدِينَةٍ، لِأَرْبَعِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ^(١)، وَأَكَادُ أَجْزَمُ

(١) نشر الباحث سهل العواد حصراً لهذه الأربعينيات الحديثة في مجلة عالم الكتب السعودية، مج ١٨، ٦٤، ١٩٩٧م، واستدرك عليه الباحث عبدالصمد الخشاب في المجلة ذاتها مج ٢٠، ٢٤، ١٩٩٩م.

أن "محمدًا الموصلي" اختار من مخطوطه هذا مادة كتابه الآخر المعروف بالأربعين حديثًا التي رواها عن أربعين شيخًا في أربعين مدينة^(١).

وقد تضمن هذا المخطوط أبياتًا لبعض الشعراء^(٢)، منهم: "السراج البغدادي" الذي ضاع اسمه من هذا الكتاب بسقوط صفحات من المخطوط، وقد ضمن مؤلف هذا المخطوط مؤلفه بعض مقطعات السراج، اكتشفت أنها من شعره، وقد شككت مادة شعرية، لا يستهان بها في إلقاء الضوء على شاعرية هذا الشاعر الذي عاش في القرن الخامس الهجري، وهذه المادة الشعرية كانت وراء تسطير هذه الصفحات.

وهناك مادة شعرية أخرى وفيرة "للسراج البغدادي"، حفظتها لنا بعض المصادر، يأتي في مقدمتها كتابه الموسوم بـ"مصارع العشاق"، وقد حدث هذه المادة ببعض الباحثين الفضلاء - من قبل - إلى الاهتمام بشعر هذا الشاعر جمعًا ودراسة، وقد تجرد لهذه المهمة الدكتور الفاضل: "عادل نصيف كتاب العزاوي" - جزاه الله خيرًا على ما قدم من جهده ووقته -، ونشر محاولته في مجموع لطيف، وقع في (١٤٤) صفحة، وقد مضى على عمله أكثر من عشرين عامًا، ظهرت في أثنائها بعض المصادر المطبوعة التي ربما تُرْفِدُ عمله بمادة جديدة، وتمثل حافزًا لإعادة النظر في إبداع هذا الأديب والحكم على نتاجه وشاعريته، وقد أصدر الدكتور "عادل نصيف كتاب العزاوي" عمله في كتاب عنوانه: "شعر السراج البغدادي"، طبع في بغداد عام ١٩٩٠م، وضم - كما جاء في مقدمته - (٤٥٧) بيتًا، موزعة على (٩١) مقطوعة وقصيدة، منها (٢١)

(١) هذا تعريف موجز بالمخطوط وبمصنّفه، وللتنوع ينظر ما نشرته في مجلة الأحمديّة، دبي ع٢٧، ٢٠١٢م تحت عنوان: "مخطوط عيون الأخبار: بحث في تحقيق نسبه، وماهية، وتحقيق مختارات منه".

(٢) صنعت اعتمادًا عليه بعض الدواوين المفقودة.

مقطعة، وردت في مقدمة كتاب "مصارع العشاق" ص ٦ - ١٠، وهي الأشعار التي صدرَ بها السراج البغداديُّ كُلُّ بابٍ من أبواب كتابه المصارع كما ورد في بدايته.

وقد وَقَفْتُ في بعضِ المصادرِ المطبوعَةِ والمخطوطَةِ عَلَى مَادَّةٍ شِعْرِيَّةٍ جَدِيدَةٍ، لَيْسَتْ قَلِيلَةً؛ بَلْغَتْ (٣٤) مَا بَيْنَ قَصِيدَةٍ وَمَقْطَعَةٍ وَتُنْفَةِ خَالِصَةِ النُّسْبَةِ لِلشَّاعِرِ، ضَمَّتْ (٢٣٨) بَيْتًا؛ لَذَا فَهِيَ حَرِيَّةٌ بِالْإِضَافَةِ، رَأَيْتُ إِثْبَاتَهَا هُنَا لِتَكُونَ نِتْمَةً لِلدِّيَوَانِ، لَعَلَّهَا تَفِيدُ الْبَاحِثِينَ، وَالتَّرَاثَ الشَّعْرِيَّ فِي القَرْنِ الخَامِسِ الهِجْرِيِّ.

وَيَبْتَوُّ "السراج البغدادي" مكانةً مرموقةً في الحياة الثقافية والإبداعية، أفصحَ عنها الأَدْفَوِيُّ (ت ٧٤٨هـ) في كتابه الموسوم بـ"البدر السافر عن أنس المسافر" في سياقِ التَّرْجَمَةِ التي أَوْرَدَهَا لَهُ، وَأَقْنَطِفُ مِنْهَا مَا يُفْصِحُ عَنْ تِلْكَ المَكَانَةِ نَظْرًا لِمَا احتوى عليه هذا الكتابُ من حقائقٍ ربَّما لا نجدُها في سِوَاهِ. قال "الأَدْفَوِيُّ":
عن السراج: "كان مُقْرَبًا، محدثًا، فقيهاً، لُغَوِيًّا، أَدِيبًا"^(١).

ونقلَ الأَدْفَوِيُّ عن "أبي طاهر السلفي ت ٥٧٦ هـ" قال: "وقرأت عليه ديوانَ أبي فراسٍ، وكان يرويه، وكان شَخْصًا كامِلًا لأدواتِ الفِضْلِ، كاملَ العِقلِ، يَنُوبُ عَنِ الأَيْمَةِ فِي كِلِّ العِلْمِ، وله قولٌ انفردَ به، ولم يخالف فيه لما أَوْضَحَهُ مِنَ الدَّلَائِلِ، وَأَبَانَتِهِ مِنَ الفَضَائِلِ"^(٢).

أما عن وفاته فقد وردَ في المصدرِ عَيْنِهِ حَقَائِقُ بِشَأْنِ تَحْدِيدِهَا، ففيه تواريخٌ مُتَعَدِّدَةٌ، هي: (٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢)، وفي الدِّيَوَانِ أَنَّهُ تُوفِّيَ عامَ (٥٠٠ هـ)^(٣).

(١) البدر السافر عن أنس المسافر، ٢٢٦/١.

(٢) السابق، ٢٢٨/١.

(٣) ينظر في السراج وأدبه وكتابه مصارع العشاق البحث الموسوم بـ"ابن السراج البغدادي ونظرات في تراثه الأدبي" لعلي محمد طلب، مجلة كلية اللغة العربية بأسبوط، ع ٤، ٩٨٤ م، وينظر البحث

والنَّاطِرُ فِي مَصَادِرِ الْأَشْعَارِ التَّالِيَةِ يَلْحَظُ أَنَّ مَعْظَمَهَا مُنْقَطٌ مِنْ مَخْطُوطِ "عِيون الأخبار"، وفيه طمسٌ لكثيرٍ مِنَ الصَّفَحَاتِ وَالكَلِمَاتِ، وَسُقُوطٌ كَثِيرٌ مِنَ الصَّفَحَاتِ مِنْ أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ وَوَسْطِهِ، وَقَدْ لَحِقَ السَّقْطُ مَا يَخُصُّ أَوَّلَ تَرْجَمَةِ "السَّرَاجِ البَغْدَادِي"، فَقَدْ وَرَدَتْ فِي المَخْطُوطِ صَفَحَاتٌ عَدَّةٌ مِنْ ص ٣٦ - ٤٢، وَكُلُّهَا مُقَطَّعَاتٌ شِعْرِيَّةٌ مُتتَالِيَةٌ، أَوَّلُ هَذِهِ المَقْطَّعَاتِ دَالِيَّةٌ، هِيَ:

[من المتقارب]

- | | |
|--|--|
| ١- دَعِ الدَّمْعَ بِالْوَكْفِ يُبْلِي الخُدُودَا | فَإِنَّ الأَجْبَةَ أَضْحَوَا خُمُودَا ^(١) |
| ٢- دَعَا بِهِم هَاتِفُ الحَادِثَاتِ | فَبَدَّلَهُم بِالقُصُورِ اللُّهُودَا |
| ٣- دَنَتْ مِنْهُم نُوبٌ لِلرَّذَى | فَأَفْنَتْ ضَعِيفَهُم وَالشَّهِيدَا |
| ٤- دُمُوعٌ يُكْفِكِفُهُنَّ الأَسَى | عَلَيْهِم غِرَارٌ ثُرُوي الصَّعِيدَا ^(٢) |
| ٥- دُجَاهُهُمْ وَصُبُّهُمْ وَاجِدٌ | وَقَدْ مَرَّقَ الدُّودُ مِنْهُم جُودَا |

وهذه المقطوعة وما بعدها من مقطوعاتٍ غيرٍ معزوةٍ لشاعرٍ بعينه في هذا المخطوط، وبالبحثٍ عنها وجدتها معزوةً في معجم الأديباء ٧٧٩، والبدرد السافر عن أنس المسافر ٢٢٧/١ للسراج البغدادي، وبالرجوع إلى ديوانه ص ٦٩ وجدتها فيه.

ولما كانت سائر المقطعات التالية لهذه المقطعة في ص ٣٦ - ٤٢ معطوفةً عليها بقول المؤلف: "وقال"، أدركتُ أن تَرْجَمَةَ السَّرَاجِ البَغْدَادِي سَاقِطَةٌ مِنَ المَخْطُوطِ وَأَنَّ المَقْطَّعَاتِ المَذْكُورَةَ إِثْرُ الدَالِيَّةِ السَّابِقَةِ هِيَ لَهُ، وَأَكَّدَ هَذَا أَنَّ قَوَافِي

الموسوم بتظرات في كتاب مصارع العشاق" لعدنان محمد أحمد، مجلة التراث العربي، دمشق، ص ١١٧ - ١٣٠، ع ٧٣، ١٩٩٨ م.

(١) وكفت العينُ الدَّمْعُ: وكفت العينُ بالدَّمْعِ: أسالته. معجم اللغة العربية المعاصرة (وكف) ٣/٤٨٩. (٢) ككف الدَّمْعُ: مسحه مرّةً بعد مرّةٍ ليَجِفَّ. معجم اللغة العربية المعاصرة (ككف) ٣/١٩٤٥، والصعيد: وجه الأرض. معجم اللغة العربية المعاصرة (صعد) ٢/١٢٩٦.

المقطّعاتِ في المخطوطِ مُرتَّبَةٌ عَلَى حُرُوفِ الهجاءِ مِنَ الألفِ إِلَى الياءِ، ولم يبقَ مِنْهَا إِلاّ مِنْ حَرْفِ الدّالِ إِلَى الياءِ، وَقَدْ أُوْرَدَها مُؤَلَّفُ المخطوطِ على أَبوابٍ، وَقَدَّمْ لِكُلِّ مَقْطَعَةٍ بَعْنوانٍ: "باب"، ثم يذكرُ رَوِيّ القافيةِ، وهذا يذكِّرنا بما فَعَلَهُ "السَّرْجِ البَغْدادِي" نَفْسَهُ في مَقْدِمةِ كَلِّ بابٍ مِنْ أَبوابِ كتابه: "مصارعُ العشاق" ممّا يَقْرَبُ احتمالَ كَوْنِ هذه المَقْطَعاتِ مُقَدِّماتٍ لِأَبوابِ أَحَدِ مُؤَلِّفاتِهِ المفقودةِ، ثم إنَّ موضوعَ المَقْطَعاتِ واحدٌ، وهو ذِكْرُ الموتِ، والنَّدَمُ على التَّقْرِيطِ في جَنبِ اللهِ، والتَّكْيِيرُ في المصيرِ، والخوفُ مِنَ اللهِ - سبحانه وتعالى - والتَّوبَةُ إِلَيْهِ.

يُضَافُ إِلَى هذا أَنَّهُ أُوْرَدَها في صِورةِ مَقْطَعاتِ خُماسِيَّةٍ، كَلِّ مَقْطَعَةٍ في خَمسةِ أَبياتٍ، مَبْدِوءَةٌ كَلِّها بِحَرْفٍ وَمُنْتَهِيَةٌ بِالْحَرْفِ نَفْسِهِ، مع ترتيبِ المَقْطَعاتِ وَفْقَ تَرْتِيبِ حُرُوفِ المعجمِ، وَجاءتِ المَقْطَعاتِ على وَزْنِ الخَفيْفِ إِلا القليلَ مِنْها، ولا يَمكِنُ عَدُّ هَذِهِ المَقْطَعاتِ مِنَ المَحْمَساتِ، التي كانَ لها الأثرُ الواضِحُ مع المَسْمَطاتِ في نِشأةِ الموشحاتِ كما يَذْهَبُ بعضُ النقادِ، لأنَّ المَحْمَساتِ تَتكوَّنُ مِنْ خَمسةِ أَشْطُرٍ، لا مِنْ خَمسةِ أَبياتٍ كما هو الحالُ هنا.

ويطوّلُ بنا الأمرُ إذا رُحِنّا نَدْرُسُ الشُّعْرَ المَدْرَجَ هنا، وَرَبِّمّا خَرَجْتَ بنا الدِّراسةَ عَن حُدُودِ عُنوانِها، ثمَّ إِنّها في تلكَ الحَالةِ سَتَكُونُ ظالِمَةً للشَّاعِرِ لأنّنا سَنَدْرُسُ بعضَ شِعْرِهِ، وليسَ كُلهُ، وحسبُ هذا البَحْثِ - وهو ما قَصَدَ إِلَيْهِ - أَنَّهُ أَضَافَ مَجموعَةً طَيِّبَةً مِنَ الأبياتِ التي لم تَكُنْ في مُتَناوِلِ الدّارِسِينَ، وَهِيَ الفُرْصَةُ المِواتِيَّةُ لِإِعادَةِ النَّظْرِ في حَصيلَةِ شِعْرِيَّةٍ لم تَكُنْ مَعْهُودَةً مِنْ قَبْلِ، وَمِنْ ثَمَّ اِكْتِشافُ بعضِ الظّواهرِ التي أُشيرُ إِلَيْها هنا في إيجازٍ، لِنَكُونُ مَفاتيحَ لِدراسةِ شِعْرِهِ فيما بعدَ.

ويأتي في مُقدِّمةِ هذه الظّواهرِ بَراعةُ "السَّرْجِ البَغْدادِي" في نَظْمِ الشُّعْرِ التَّعليمِيّ، فقد نَظَّمَ بعضَ المَثُورِ العِلْمِيَّةِ؛ مِنْها - على سبيلِ المِثالِ - نَظْمُ شَرَحِ

مُخْتَصِرِ الْخِرَقِيِّ، وَنَظْمُ مَنَاسِكِ الْحَجِّ (١)، وَتَوَيَّدُ هَذَا أَرْجُوذُتُهُ الْمُحَقَّقَةُ هُنَا فِي نِظَائِرِ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ حَيْثُ عَدَدُ آيَاتِهَا.

وَمِمَّا يُلْفِتُ النَّظَرَ فِي شِعْرِهِ أَنَّهُ سَارَ فِي الرِّكْبِ الَّذِي سَارَ فِيهِ شِعْرَاءُ عَصْرِهِ، مِنْ حَيْثُ الشَّغْفُ بِالتَّكْلِيفِ فِي نَظْمِ الشَّعْرِ، وَالْحَرَصُ عَلَى التَّلَاعِبِ بِالأَلْفَاظِ عَلَى حِسَابِ الْمَضْمُونِ وَالتَّجْرِبَةِ الشَّعْرِيَّةِ، وَخَيْرُ دَلِيلٍ عَلَى هَذَا تِلْكَ الْمُقَطَّعَاتُ الْخَمَاسِيَّةُ الَّتِي رَتَّبَهَا وَفَقَّ حُرُوفَ الْمُعْجَمِ، وَبَدَأَ آيَاتِ كُلِّ مُقَطَّعَةٍ بِبَيْتٍ، وَجَعَلَهُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ رَوِيًّا لِأَيَّاتِ الْمُقَطَّعَةِ .

وَلَا يَخْفَى مَا فِي هَذَا الْمَنْهَجِ مِنْ تَجْدِيدٍ، وَلَكِنَّهُ تَجْدِيدٌ ابْتَعَدَ بِالشَّعْرِ وَقَوْلِهِ:

طَوَّتِ الأَرْبُعُونَ وَالعَشْرُ عُمُرِي حِينَ وَافَيْتَنِي - كَطَيِّ البِسَاطِ

وَلَا أَعْنِي بِهَذَا التَّقْلِيلِ مِنْ شَأْنِ نَظْمِ هَذِهِ الْمُقَطَّعَاتِ، فَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْقَيْدِ الَّذِي قَيْدَ بِهِ نَفْسَهُ فَرَكِبَ الْقَوَافِي الصَّعْبَةَ حِينًا، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ افْتَتَحَ آيَاتَهُ بِدَايَةِ وَاحِدَةٍ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ، لَا يَقِلُّ صَعُوبَةً عَنْ قَوَافِيهِ الصَّعْبَةِ، وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ كَبَّلَ

(١) المدخل المفصل لمذهب الإمام أحمد وتخرجات الأصحاب ٢/٧٠٠، ص ٨٤٤، ص ١٠٢٤، ص ٦٩٣ وغيرها من الصفحات: ل بكر أبي زيد، دار العاصمة، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي، جدة، ط١، ١٤١٧هـ.

(٢) الفودان: جانباً الرأس. انظر أساس البلاغة ٢/٣٩، والقنير: قال الزمخشري: "من المجاز: لاخ به القنير: أوائل الشئيب". أساس البلاغة ٢/٥١، الكافور: شجر من الفصيلة الغارية يتخذ منه مادة شفافة بلورية الشكل، يميل لونها إلى الأبيض، رائحتها عطرية وطعمها مر، وهو أصناف كثيرة (ج) كوافير. المعجم الوسيط (كفر)، ص ٧٩٢.

طاقته الشعرية باستيفاء المعنى في خمسة أبيات. وعلى الرغم من كل هذه القيود فقد أجاد الشاعر في عددٍ من مقطعاته تلك، حيث طرق بعض المعاني التي تحمّل الإنسان على الرعب من حساب اليوم الآخر، ومن ثم يهروا إلى التوبة، ويلجأ إلى الله - عزّ وجل - ويسأل أمره ويسأل وجهه إليه وهو محسن.

وعلى كل حال فإنّ حظّ الشاعرية في هذه المقطعات أوفر منها في الأرجوزة التي توارث منها العاطفة تمامًا، ومن ثم لا تعدو عن كونها نظمًا صرْفًا، أما المقطعات فالعاطفة فيها تترواح بين الترييب والترهيب، والخوف، والرجاء، والندم على التفريط في جنب الله - سبحانه وتعالى - وهذا التنوع ناتج عن تنوع المضمون وتباينه من مقطعة لأخرى، فهذه المقطعات كما قلتُ نظّمها الشاعر في التوبة، والتضرع إلى الله، والخشوع إليه، والإقرار بما اقترفت يده، والخوف من أهوال القبور، وحساب يوم الدين، وهو في كلّ هذا يستحضّر الصور التي تُثير فينا الرعب، وتبثُّ فينا الخوف، وتحملنا على الاستقامة والالتزام والحرص على مراعاة حدود الله، ومن صورته المفزعة صورة الإنسان وهو يُدفن في قبره، ويهال التراب على وجهه، ثم يبدأ الحساب والعذاب بسؤال الملكين. ومنها صورة اكتظاظ النار بالعصاة والجنّة، وبين هذه المقطعات الزهدية، وتلك الأرجوزة التعليمية في هذا البحث يقفُ القارئ على بعض المقطعات الشعرية ذات المضامين المتنوعة، ففيها المدح، والغزل، والشكوى من مصائب الدنيا، والتعظيم لرواة الحديث الشريف، وتبرئة الإمام الشافعي من التشيع، وتعظيم منزلة الإمام مالك بن أنس، وشعره في معظم هذه المقطعات يقف موقفاً وسطاً بين الشعر الجيد والرديء.

وأما لغته في الأشعار الآتية فهي في مجملها فصحةٌ خاليةٌ من اللحن ومن الألفاظ الأعجمية، وأسلوبه مستقيمٌ، بعيد عن التعقيد، ولم يكثر فيه التقديم والتأخير والحذف، ولا غرابةً في هذا، فقد كان الشاعر على درجة من التمكن من ناصية البيان، والدلالات الغريبة وغير الغريبة لمفردات المعجم العربي ممّا حفّزه إلى التزامه بما لا يلزم في صدور أبياته وأعجازها، وعدد الأبيات، وموضوعها، بيد أن هذا الالتزام قد حدا به في قليل من الأحيان - مراعاة منه لاستقامة الوزن - إلى

توظيف بعض الألفاظ الغريبة بجوار ألفاظ غير غريبة، فتَوَارَى الانسجام بين الألفاظ، من ذلك^(١):

دُرُونِي أُرُوْ (قُبُورُهُمْ) بِدَمْعِي وَإِنْ كَانَ قَلْبِي وَقِيدًا
ذِمَامُ الْحَوَادِثِ بِئْسَ الذَّمَامُ فَكُنْ مِنْ فَجَائِعِهَا مُسْتَعِيدًا

فكلمة "وقيدا" مختلفة عن بقية كلمات البيت التي لا تفتقر في الوقوف على معانيها إلى معاجم اللغة، وكذلك يلحظ عدم الدقة في التعبير في قول الشاعر: "ذمام الحوادث" بالذال، والذمام هنا بمعنى العهود، فهل على الإنسان الاستعاذة من عهود الحوادث أو من الحوادث نفسها؟، لا شك أن التعبير الدقيق يتطلب الاستعاذة من الحوادث نفسها، وثمة أمثلة أخرى في هذا المجموع، أوجدها الالتزام بهذا التكلف، وهو الحرص على توحيد حرف القافية ليكون أول حرف في أبيات المقطعة، وأكثر ما ظهر هذا النشاط في أوائل الأبيات، وفي قوافيها التي جاءت في أحيان قليلة جدًا إما غير متمكنة كما في قول الشاعر^(٢):

وَيْحَ نَفْسِي أَمَا لَهَا الدَّهْرُ مِنْ سَكْ رِ دُؤُوبٍ قَدْ أَثَقَّلْتَنِي صَحْوُ؟

وإما غريبة مثل كلمة "الدلاص" في قوله^(٣):

صَاحَ مَنْ تَرَمَهُ الْمُنُونُ بِسَهْمٍ لَيْسَ تُنْجِيهِ سَابِغَاتُ الدَّلَاصِ

وقد جاء بها الشاعر مراعاة لحرف الصاد المتكرر في أوائل أبيات مقطعته، ومن ثم جاءت كلمة القافية وكأنها ليست من جنس بقية أبيات البيت.

(١) المقطعة (١).

(٢) المقطعة (١٨).

(٣) المقطعة (٦).

وتعذبُ كلماتُ القوافي عندما يكونُ رويُّ هذه الكلمات من القوافي الدَّالِّ،
كما في المقطعة السَّينِيَّة ذات المِطْلَع^(١):

سَلْ دِيَارًا عَفَا عَلَيْهَا الدَّرُوسُ أَيْنَ وَلَّتْ أَقْمَارَهَا وَالشُّمُوسُ؟

يُخْلَصُ من هذا أنَّ مثلَ هذا التَّكْلِفِ تَرَكَ في المِقطَعَاتِ أثرًا سَلْبِيًّا مِتْنَوَعًا ما
بين تَوْظِيفِ كَلِمَاتٍ غَرِيبَةٍ في أَسْلُوبٍ سَهْلٍ، أو قَوَافٍ قَلْقَةٍ، أو تَوْظِيفِ أَلْفَاظٍ أَقْلَ
في خِدمَةِ المَعْنَى دَلَالِيًّا عن غَيْرِهَا، كما في قولِ الشَّاعِرِ^(٢):

عُدْ بِعَفْوٍ عَلَيَّ يَا رَبِّ وَارْحَمْ نَاطِرًا مَا لَه - حِدَارًا - هُجُوع

فَنَلْحِظُ التَّعْبِيرَ بِالفِعْلِ "عَدَ" ونَقُولُ: أَفْضَلُ مِنْهُ في التَّعْبِيرِ، وَأَدَقُّ مِنْهُ في
المَعْنَى اسْتِعْمَالَ الفِعْلِ (جُدَ)، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ مُرَغِّمٌ عَلَى اسْتِعْمَالِهِ مِرَاعَاةً لِحَرْفِ
العَيْنِ المِلْتَزِمِ بِهِ في بَدَايَةِ الأَبْيَاتِ وَفِي قَوَافِيهَا.

ومن الأثر السَّلبِي لهذا التَّكْلِفِ لِحُجُوءِ الشَّاعِرِ إِلَى اسْتِعْمَالِ الضَّرُورَاتِ
الشَّعْرِيَّةِ مِثْلَ تَسْهِيلِ الهَمْزَةِ في كَلِمَةِ "جَاشِي" في قَوْلِهِ^(٣):

شُعْلُ النَّارِ فِي فُؤَادِي وَذِكْرِي عَفْوَ رَبِّي مِمَّا يُسَكِّنُ جَاشِي
وتكرر هذا التَّسْهِيلُ في قَوْلِهِ^(٤):

وَدَّعَ اللَّمَّةَ السَّوَادُ وَوَأَقَا نِي مَشِيْبٌ لَه بِفُودِي ضَوْ

(١) المِقطَعَةُ (٤).

(٢) المِقطَعَةُ (١٠).

(٣) المِقطَعَةُ (٥).

(٤) المِقطَعَةُ (١٨)، وَيَنْظُرُ أَيْضًا البَيْتَ الثَّانِي مِنَ المِقطَعَةِ رَقْمَ (٢٩).

وقوله^(١):

هَيَّجَتْ نَارَ قَلْبِهِ زَفَرَاتٌ نَضِجَتْ مِنْ وَقُودِهَا أَحْشَاءُ

ومن هذه الضَّرُورَاتِ صرفُ الشَّاعرِ ما لا ينصرفُ مراعاةً للوزن في كلمة "نظائر"
في قوله^(٢):

تِسْعٌ وَعَشْرٌ وَكَذَلِكَ الْعَلَقُ نَظَائِرٌ فِي أَيِّهِنَّ تَتَّقِقُ
لِلنَّشِيرِاحِ فِي الْقُرْآنِ أَرْبَعٌ نَظَائِرٌ وَالْحَقُّ لَيْسَ يُدْفَعُ

ويبدو أنه لم يكن يعبأ بقواعد علم العروض عناية، يدلُّ على هذا قوله^(٣):

مُدَّتِي تَقْضِي وَعُمْرِي وَالـ مَمُوتٌ وَالبَعْتُ وَالصَّرَاطُ أَمَامِي
مُنْكَرًا لَسْتُ مُنْكَرًا أَنَّهُ سَائِلِي عَن شَرَائِعِ الإِسْلَامِ
مَا جَوَابِي لَهُ إِذَا لَمْ يُنَبِّتْ حُجَّتِي مُحْيِي العِظَامِ الرَّمَامِ
مَسَّنِي الضُّرُّ يَا إِلَهِي فَكُنْ أُنْ تَ طَبِيبِي مِنْ مُوبِقِ الأَثَامِ
مَلَّنِي عَائِدِي وَقَلِّ طَعَامِي وَشَرَابِي لَمَّا أَطْلُ حِمَامِي

فيلحظ أنَّ العروضَ في جميع الأبيات تامةً ما عدا عروض البيتين: ١، ٢،
فهي محذوفة فيهما.

وقد امتدَّ أثرُ التَّكَلُّفِ إلى أبعد من هذا، حيث ساق الشَّاعرُ إلى الأخطاء في
التعبير، والركاكة في النظم^(٤)، والتكرار اللفظي والمعنوي أحيانًا، كما في قوله^(١):

(١) المقطعة (١٩).

(٢) الأرجوزة (٣٤)، البيتان ٦٢، ٦٣.

(٣) المقطعة (١٦).

(٤) تظهر هذه المآخذ في صورة أوضح في بعض أبيات من الأرجوزة، فهي - فضلاً عن كونها نظمًا
صرفًا - لا تخلو من لهلة النَّسج، واضطراب النظم، وضعف الصياغة، وتكرار لفظي دون داع

كَدَّرَ الْمَوْتَ عَيْشَ مَنْ عَزَفَ الْمَوَ تَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَمْلاكِ
كَفَّنُ يَنْبَعُ ابْنِ آدَمَ مِنْ دُنَى يَاهُ إِنْ كُنْتَ تَعْرِفِي دُنْيَاكَ
كَفَّنُ غَيْرُ طَائِلٍ وَحَنُوطُ وَيَعُودُ الْحَزِينُ عَنْهُ الْبَاكِي

فإذا قُبِلَ من الشَّاعر تعبيرُهُ عن تكديرِ الموتِ حياةَ الملوكِ، فهل يقبلُ منه ما ذهب إليه من أنه يُكَدَّرُ عَيْشَ الأنبياءِ؟ أحسب أن لا. وفي البيتِ الثَّاني ضرورة نحوية، حيث حُدفت نون الفعل "تعرفين" دون مسوِّغٍ مراعاةً لاستقامة الوزن، وقد ألجأ التزام الشَّاعر بما لا يلزمُ تكرر كلمة "كفن" في صدر هذا البيت والبيتِ الثَّاني له.

أما تكرر المعاني في هذه المقطعات الوعظية فظاهر في بعض المواضع، منها قوله^(٢):

ضَمَّ ضَيْقُ اللَّحُودِ مَنْ ضَاقَ طُولُ الـ أَرْضٍ مِنْ عَظَمِ جَيْشِهِ وَالْعَرَضُ
فَهَذَا الْمَعْنَى مُكْرَرٌ فِي قَوْلِهِ^(٣):

قِفْ بِنَلْكَ الرُّسُومِ سَلْ أَيْنَ مَنْ ضَا قِتْ قَدِيمًا بِجَيْشِهِ الْأَفَاقُ؟

ليس إلا لإكمال الوزن، ووقع الإيطاء في البيت (٦٤)، حيث كررت كلمة القافية في البيت (٥٩). ممَّا حدا بنا إلى الإمساك عن التَّعرض لها مكتفين بهذا التتويه، وقد التزم الشَّاعر في أولها إضافة إلى رصد سور القرآن الكريم التي تتفق في عدد آياتها إلى بيان المكي والمدني منها. ولعله رأى في هذا عبئًا عليه فتخلى عنه بعد عدة أبيات.

(١) المقطعة (١٤).

(٢) المقطعة (٧).

(٣) المقطعة (١٣).

ولا يعدُّمُ القارئُ في هذه المجموعةِ الشعريَّةِ المتنوّعةِ في مضامينها ما بينَ نَصائحَ حانيَّةٍ، وابتهالاتٍ ضارعةٍ، ومناجياتٍ خاشعةٍ، وتوسلاتٍ خاضعةٍ، ومدائحَ لبعضِ عليَّةِ القومِ، وثناءٍ على العلماءِ، وروايةِ الحديثِ الشَّريفِ، وقواعدَ علميَّةٍ. لا يعدُّمُ القارئُ الوقوفَ على بعضِ الأساليبِ الجيِّدةِ التي أضفى عليها الشَّاعرُ أماراتِ الجلالِ بالاقْتباسِ من القرآنِ الكريمِ^(١)، ولا يعدُّمُ أيضًا الوقوفَ على بعضِ المحسناتِ البديعيَّةِ، والحقُّ أنها قليلةٌ جدًّا، ومنها قوله^(٢):

يَا أَيُّهَا الْبَاكِي عَلَى مَيِّتِ	أَقْصِرْ غَدًا يَتَّبِعُهُ الْحَيُّ
يَهْلِكُ مَنْ فِي أَرْضِنَا وَالسَّمَاءِ	وَاتِ وَيَبْقَى الْمَلِكُ الْحَيُّ
يَمُرُّ زَكَبٌ بِدِيَارِ خَلَّتْ	يَسْأَلُهَا أَيَّنَ غَدًا الْحَيُّ؟
يَرُومُ يَبْقَى جَاهِلٌ بَعْدَمَا	أُودِتْ عَلَى غِرَّتْهَا طَيُّ!
يَبْسُطُ أَمَالًا أَخُو غَفْلَةٍ	وَلِلْمَنَايَا بِالرِّدَى طَيُّ

فيُلاحظُ تكرارَ كلمةِ القافيةِ في الأبياتِ الثلاثةِ الأولى، وكذلك في البيتينِ الأخيرينِ، فكلمةُ "الحيِّ" في البيتِ الأوَّلِ يُقصدُ بها الإنسانُ على قيدِ الحياة، ويُقصدُ بها في البيتِ الثاني اللهُ - سبحانه وتعالى - الحيُّ القيُّومُ، ويُقصدُ بها في البيتِ الثالثِ جماعةُ القومِ، أما كلمةُ "طي" المكررةُ في البيتينِ: الرابعِ والخامسِ فهي في البيتِ الرابعِ بمعنى قبيلةِ "طي"، ومعناها في البيتِ الخامسِ الإطباقُ، واستعملَ الشَّاعرُ كلمةَ الطَّيِّ على سبيلِ المجازِ، وكأنَّ الموتَ يطوي صفحةَ الإنسانِ، ويخفيها من كتابِ الدُّنيا. ونظرَ الشَّاعرُ في هذا البيتِ إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ

(١) أوضحت بعض مواضعه في هوامش تحقيق الأشعار.

(٢) المقطعة (٢١).

كَطَيِّ السَّجْلِ لِنَكْتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١﴾. ولا يخفى ما في هذه الأبيات من تكلفِ الصنعة البديعية.

وقد اتبعتُ منهجًا في إيراد هذه الأشعار يتلخّص في الآتي:

١- بدأتُ أولاً بإثباتِ المقطعات الواردة في مخطوط "عيون الأخبار" لورودها فيه مرتبةً على حروف الهجاء، وهي ترد من رقم (١ - ٢١) هنا، ثم أوردتُ إثرها ما ورد في المصادر المختلفة مرتبًا إياه على الحروف الهجائية، وأخرتُ الأرجوزة في نهاية هذا البحث.

٢- أفصحتُ عن وزن كلِّ ما أوردته هنا من نُثفٍ ومقطعاتٍ وقصائد.

٣- شرحتُ بعضَ الألفاظ التي يصعب معناها على القارئ غير المتخصّص.

٤- خرّجتُ الأشعار وأثبتتُ مصادرها وفروق رواياتِ بعض ألفاظها إن وُجدت.

٥- رقمتُ المقطعات والأبيات تسهيلًا على الباحث المتابع.

٦- ضبطتُ الألفاظ تسهيلًا على القارئ.

٧- أضفتُ إلى الديوان المنشور بعضَ الرّواياتِ والتّخرجاتِ والفوائد الجديدة اعتمادًا على مصادرها.

٨- حققتُ الأرجوزة على نسختين مخطوطتين، إحداها كاملة، والأخرى ناقصة، وعلى نسخة ثالثة مطبوعة، نال منها التحريفُ في كتاب جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام ص ٦١٣ - ٦١٨، أما المخطوطة الأولى فهي مصورة مكتبة معهد البحوث العلميّة بجامعة أم القرى برقم (١١٤٣) علوم قرآن، عن مخطوطة مكتبة البلدية بالإسكندرية المرقمة (١٣٩٩)، وهي في أربع صفحات، وأما الثّانية فهي مخطوطة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية المرقمة (٢٦٣٧) علوم القرآن الكريم، وهي في ثلاث صفحات.

(١) سورة الأنبياء، الآية (١٠٤).

أولاً: شعر السراج البغدادي في مخطوط "عيون الأخبار"^(١):

(١) باب الذال^(٢): [من المتقارب]

- ١- دَمَمْتُ حَيَاتِي مِنْ بَعْدِهِمْ
٢- دَرُونِي أَرُوْ (فَبُورَهُمْ)
٣- ذِمَامُ الْحَوَادِثِ بِئْسَ الذَّمَامُ
٤- ذَوَى عُصْنُ شَرْخِ الشَّبَابِ النَّضِيرِ
٥- ذُدِ النَّفْسَ عَن غَيْهَا رُبَّمَا
- حِفَاظًا وَعِفَتْ الشَّرَابَ الَّذِيذًا
بِدَمْعِي وَإِنْ كَانَ قَلْبِي وَقِيدًا^(٣)
فَكُنْ مِنْ فَجَائِعِهَا مُسْتَعِيدًا^(٤)
وَقَدْ أَصْبَحَ الْحَبْلُ مِنْهُ جَذِيدًا^(٥)
وَجَدْتُ إِلَى الْخُلْدِ يَوْمًا نُفُودًا^(٦)

(٢) باب الراء^(٧): [من الخفيف]

- (١) اقتصررت في ترقيم المقطعات على الشعر المستدرَك فقط من هذا المخطوط.
(٢) التخرِيج: مخطوط عيون الأخبار، ص ٣٦.
(٣) ورد صدر البيت الثاني هكذا: "أروي أجدانهم"، وربما كان الصواب ما أثبتته.
(٤) الزمام: العهد والأمان. معجم اللغة العربية المعاصرة (ذمم) ٨٢١/١.
(٥) شَرْخُ الشَّبَابِ: أوله ونَصَارَتُهُ وَقُوَّتُهُ. ينظر تاج العروس (شرح) ٢٨٠/٧، وجذيدًا: أي مقطوعًا. انظر تاج العروس (جند) ٣٨٢/٩.
(٦) وقيدًا: أي مُوجَعًا تَالِفًا. انظر تاج العروس (وقد) ٤٩٦/٩.
(٧) التخرِيج: مخطوط عيون الأخبار، ص ٣٦.

- ١- رَمَتِ الْأَرْبَعُونَ قَوْدِيَهُ مِنْهَا
 ٢- رَاعَهُ شَيْبُهُ وَقَكَرَ فَاَسْتَو
 ٣- رَاجَعْتُهُ حُلُومُهُ يَوْمَ وَاَفَى
 ٤- رَفَضَ اللَّهُوَ وَالتَّصَابِي لَمَّا
 ٥- رَفَعْتَ نَحْوَهُ الْمَنِيَّةُ طَرْفًا
- بِيَّيَاضٍ كَأَنَّه الْكَافُورُ^(١)
 لَى عَلَيْهِ الْأَسَى وَوَلَّى السُّرُورُ
 وَقَلَاهُ نَدِيمُهُ وَالْعَشِيرُ
 عَمَّ صُدْغِيهِ وَالْعِدَارَ الْقَتِيرُ
 أَبَدًا بِالرَّدَى إِلَيْهِ تُشِيرُ

[من الخفيف]

(٣) باب الزَّاي^(٢):

- ١- زَقَرَاتٌ تَعْتَادُنِي كُلَّ يَوْمٍ
 ٢- زَادَ هَمِّي لَمَّا رَأَيْتُ رِمَاحًا
 ٣- زُرَّ عِرَاصَ الْجَبَانِ وَاهْتَفَّ بِسُكَا
 ٤- زُوْدُوا مِنْ دُنْيَاهُمْ خِرْفًا تَب
 ٥- زُعَ عَنِ الْعَيِّ نَفْسَكَ الْيَوْمَ وَاعْلَمْ
- وَهُمْ يَوْمٌ تَوُورُ جِسْمِي أَرَا^(٣)
 لِلرَّدَى تُوسِعُ الْبَرِيَّةَ وَخَرَا
 نِ الثَّرَى هَلْ تُحِسُّ لِلْقَوْمِ رِكْرَا؟^(٤)
 لَى وَكَمْ حَزَّرُوا حَرِيرًا وَقَرَا^(٥)
 أَنْ كَلًّا بَفَعْلِهِ سَوَفَ يُجْرَى^(٦)

(١) الفودان: جانباً الرأس. انظر أساس البلاغة ٣٩/٢، والقنير: قال الزمخشري: "من المجاز: لاح به القنير: أوائل الشئب". أساس البلاغة ٥١/٢، الكافور: شجر من الفصيلة الغارية يتخذ منه مادة شفافة بلورية الشكل يميل لونها إلى البياض، رائحتها عطرية، وطعمها مر، وهو أصناف كثيرة (ج) كوافير. المعجم الوسيط (كفر)، ص ٧٩٢.

(٢) في الأصل: باب الزاء. التخريج: المقطعة في مخطوط عيون الأخبار، ص ٣٦-٣٧.

(٣) "الأز: أزا وأزيراً وأزارة تحرك واضطرب وصوت من شدة الحركة أو الغليان يقال أز الرعد والقدر والطائرة والنار أزا وأزيراً أجبها والقدر وبها جعلها تنز من الغليان، والشئ هزه وحركه شديداً وفلأنا أغراه وهيجه، وفي التنزيل العزيز: ﴿إِذْ نُنزِّلْنَا السَّيِّطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزَهُمْ أَرَا﴾ وَبَيْنَهُمَا أَعْرَى". المعجم الوسيط (أز)، ص ١٦.

(٤) "العرصه: كلُّ بقعة بين الدور واسعة، ليس فيها بناء، سُميت بذلك لاعتراض الصبيان فيها". تاج العروس ٢٩/١٨، و"الركز: الصوت الخفي والجس". تاج العروس (ركز) ١٥٩/١٥، نظر الشاعر في عجز هذا البيت إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا﴾. سورة مريم، الآية (٩٨). و"القر: الحرير على الحال التي يكون عليها عندما يستخرج من الصلجة، ودود القر: دود الحرير". المعجم الوسيط، ص ٧٣٣.

(٥) "القر: الحرير على الحال التي يكون عليها عندما يستخرج من الصلجة، ودود القر: دود الحرير". المعجم الوسيط، ص ٧٣٣.

(٦) زع: ائتمن وادفع. معجم اللغة العربية المعاصرة (وزع) ٣/٤٤٣١.

(٤) باب السنين^(١):

[من الخفيف]

أَيْنَ وَلَّتْ أَقْمَارُهَا وَالشَّمْسُ؟
وَحَدَاهَا النَّسْبُ بِيحٍ وَالنَّقْدِيسُ
طَالَ مِنْهُ النَّوَاءُ وَالنَّعْرِيسُ^(٢)
— هُمْ فَيَسِيَانُ وَغَدُهُمْ وَالرَّيْسُ
مَا صَفَتْ فِي رُجَاةٍ خَنْدَرِيسُ^(٣)

[من الخفيف]

ضَاقَ فِيهَا عَلَيَّ أَمْرٌ مَعَاشِي
أَنَا فِيهَا مُشَمَّرٌ نُوْ أَنْكِمَاشِ
فَدُمُوعِي لَهْنٌ فَرَطُ رَشَاشِ^(٥)
عَفُو رَيْي مِمَّا يُسَكِّنُ جَاشِي^(٦)
زَةَ لَا مَنظَرٌ وَحُسْنُ رِيَاشِ^(٧)

[من الخفيف]

لَيْسَ تُنْجِيهِ سَابِغَاتِ الدَّلَاصِ^(٩)
نَ فَأَخْلَى مِنْهُمْ رَحِيبُ الْعِرَاصِ
فَحَسَاهَا مِنْهُمْ مُطِيعٌ وَعَاصِ
فَاتِيكَ بِالْقَنِيصِ وَالْقَنَاصِ
سِي وَأَجْرِي الدُّمُوعَ ذَكَرُ الْقِصَاصِ

١- سَلَّ دِيَارًا عَفَا عَلَيْهَا الدَّرُوسُ
٢- سَبَّرْتَهُمْ إِلَى النَّرَى ضُمُّرُ خَيْلٍ
٣- سَفَّرَ مَا لَهُ انْقِصَاءٌ وَسَفَّرَ
٤- سَاوَتِ الْأَرْضُ بَيْنَهُمْ حِينَ ضَمَّتْ
٥- سَوَّفَ أَبْكَيَهُمْ دِمَاءً وَدَمْعًا

(٥) باب الشنين^(٤):

١- شَعَلْتَنِي عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ دُنْيَا
٢- شَطْرُ عَمْرِي قَدْ انْقَضَى وَذُنُوبِي
٣- شَابَ رَأْسِي وَلَمْ يَشِبْ لِي جِرْصٌ
٤- شُعَلُ النَّارِ فِي فَوَادِي وَذِكْرِي
٥- شَرَفَ الْمَرْءَ طَاعَةُ اللَّهِ ذِي الْعِزِّ

(٦) باب الصاد^(٨):

١- صَاحٍ مَنْ تَرَمَهُ الْمَثُونُ بِسَهْمٍ
٢- صَاحٍ دَاعِي الرَّدَى بِأَبْنَاءِ سَاسَا
٣- صَرَفَتْ كَأْسَهَا حَوَايِثُ دَهْرٍ
٤- صَرَفُ دَهْرٍ يَكُرُّ فِي كُلِّ يَوْمٍ
٥- صَاعَدَ الْفُكْرَ فِي الْقِيَامَةِ أَنْفَا

(١) التخریج: مخطوط عيون الأخبار، ص ٣٧.
(٢) التعریر: التعریر: أن یسیر النهار كله ویُنزل أول الليل، وقيل: هو النزول في المعهد، أي حين كان من لیلٍ أو نهار. تاج العروس ٢٤٩/١٦.
(٣) الخندريس: الخمر القديمة مشققة من الخندرية. تاج العروس (خندرس) ٦/١٦.
(٤) التخریج: مخطوط عيون الأخبار، ص ٣٧.
(٥) رشاش: أي انهمار. انظر: تاج العروس ٢١٨/٦.
(٦) سهل الشاعر همزة جاشي ضرورة.
(٧) الرياش: اللباس الفاخر والأثاث والمال والخصب والمعاش والحالة الجميلة. المعجم الوسيط، ص ٣٨٥.
(٨) التخریج: مخطوط عيون الأخبار، ص ٣٧.
(٩) الدلاص: أي الدروع الملساء. ينظر معجم العين ٩٩/٧.

(٧) باب الضاد^(١):

[من الخفيف]

- ١- ضَوْءٌ فَجَرِ الْمَشِيبِ لَمَّا تَبَدَّى
 - ٢- ضِيقَتْ دَرْعًا لَمَّا رَأَيْتُ خِيولًا
 - ٣- ضَلَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ ذُو خُلُودٍ
 - ٤- ضَعَفْتُ مِحْنَتِي عَشِيَّةً أَبْصَرَ
 - ٥- ضَمَّ ضَيْقُ اللَّحُودِ مَنْ ضَاقَ طَوْلُ الـ
- بِعَذَارِي وَلَى الشَّبَابِ الْعَضُّ
مِنْهُ شَهْبًا لَهَا بِرَأْسِي رَكُضٌ
وَلِأَيْدِي الْمَأُونِ بَسْطٌ وَقَبْضٌ^(٢)
تُ وَجُوهًا وَهَنَّ لِلأَرْضِ أَرْضُ^(٣)
أَرْضٍ مِنْ عَظْمٍ جِيْشِهِ وَالْعَرْضُ

(٨) باب الطاء^(٤):

[من الخفيف]

- ١- طَوَّتِ الأَرْبِعُونَ وَالْعَشْرُ عُمُرِي
 - ٢- طَرَقْتَنِي حَوَادِثُ حَنَاتِ الصُّلَى
 - ٣- طَافَ بِي طَائِفٌ مِنَ الْفِكْرِ فِي يَوْمِ
 - ٤- طَارَ نَوْمِي لَهُ قَبِيْتُ أَرَاعِي
 - ٥- طَامَعًا فِي الصَّبَاحِ كَيْمَا أَدَاوِي
- حِينَ وَإِفِينَنِي - كَطَيِّ السِّطَاطِ
بَب وَبَدَلْنَنِي الْحَنَا مِنْ شَطَاطِي^(٥)
م مَعَادِي وَفِي جَوَازِ الصَّرَاطِ
أَنْجَمَ الْفَرْقَدِينَ وَالْأَشْرَاطِ^(٦)
فَكْرًا قَدْ (قَطَّعَن) مَتِي نِيَاطِي^(٧)

(٩) باب الظاء^(٨):

[من الخفيف]

- ١- ظَنَّ قَوْمٌ بِرَبِّهِمْ ظَنَّ سَوْءٍ
 - ٢- ظَلَمَ الْجَاعِلُونَ لِلَّهِ نِدَاً
- جَلَّ رَبُّ عَنِ الْعِبَادِ حَفِيظٌ^(١)
وَلَهُمْ فِي عَدِّ عَذَابٍ غَلِيظٌ

(١) التخریج: مخطوط عيون الأخبار، ص ٣٨.

(٢) في الأصل: ظل من ظن.

(٣) ضعفت: زادت. معجم اللغة العربية المعاصرة (ضعف) ١٣٦١/٢.

(٤) التخریج: مخطوط عيون الأخبار، ص ٣٨.

(٥) الشطاط: الطول واعتدال القامة، وقيل: حُسن القوام. لسان العرب (شطط)، ص ٢٢٦٣.

(٦) الأشرط: نجمان من الحمل، ويجاورهما كوكب صغير، والعرب تسميها الأشرط مجتمعمة. ينظر تاج العروس (شرط) ٤٠٦/١٩.

(٧) "النِّيَاطُ: عِرْقٌ غَلِيظٌ، نِيِطٌ بِهِ الْقَلْبُ، أَيْ غَلَّقَ إِلَى الْوَتِينِ، فَإِذَا قُطِعَ مَاتَ صَاحِبُهُ". تاج العروس (نوط) ١٥٦/٢٠، وقد ورد البيت الأخير هكذا: "قطن مني"، ولعل هذا من قبيل التحريف.

(٨) التخریج: مخطوط عيون الأخبار، ص ٣٨.

- ٣- ظَلُّ فِكْرِي يَجُولُ فِيهِمْ وَلَكِنْ
 ٤- ظَلُّ عَفْوِ الْإِلَهِ يَرْفَعُ مَنْ قَدْ
 ٥- ظَفِرَ الْأَوْلِيَاءُ بِالْخُلْدِ فِي عَدُوِّ
- من السَّعَادَاتِ وَالشَّقَاءِ حُظُّوَظٌ^(٢)
 رِكَ لَيْسَ الْمَدِيحُ وَالنَّقْدُ رِيظُ
 نِ وَاللَّبَابِ^(٣) بِالرَّحَامِ كَظِيظُ

(١٠) باب العين^(٤):

[من الخفيف]

- ١- عَادَ مَنْ شَيَّعَ الْفَقِيدَ وَغَايَا
 ٢- عَمَّرُوا مِنْهُ بَرَزْحًا مَا لَهُ فِيهِ
 ٣- عَجَبٌ لَامِرٌ يُخَوِّفُ بِالْأَنَا
 ٤- عَظُمَتْ حَسْرَةُ الْمُفْرَطِ فِي الطَّاءِ
 ٥- عُدَّ بِعَفْوِ عَلِيٍّ يَا رَبِّ وَارْحَمْ
- ثُ جُمُوعِ الْمُشْتَعِينَ الرَّجُوعُ
 هِ سِيوَى صَالِحِ الْفَعَالِ ضَجِيعُ
 رٍ وَتَرَقَّا لِمُقَلَّتِيهِ دُمُوعُ
 عَةٍ إِذْ قَارَزَ بِالنُّوَابِ الْمُطِيعُ
 نَاطِرًا مَا لَهُ - حِدَارًا - هُجُوعُ^(٥)

(١١) باب الغين^(٦):

[من الخفيف]

- ١- غَدَرَ الدَّمْعُ بِي فَقَلْتُ لَهُ: ابلغ
 ٢- غَرَّنِي حِلْمٌ خَالِقِي عَنْ خَطَايَا
 ٣- غَمَّرْتَنِي حَوَادِثٌ وَبَدَنْتَ مِنْ
 ٤- غَادَرْتُ قَسَا الْإِيَادِي مَيْتًا
 ٥- غَافِرَ الذَّنْبِ تُبِّ عَلِيٍّ فَقَلْبِي
- أَيْهَا الدَّمْعُ كَلَّمَا أَنْتَ بِالْغِ
 ي وَأَصْفَيْتَ لِلْعَدُوِّ النَّزَاعُ
 نِي صُرُوفٌ لَمْ تُفَنِّ مِنْهَا السُّوَابِغُ^(٧)
 وَامرأ القيس أهلكت والنوابغ^(١)
 من سيوى حبك العشية فارغ

(١) نظر الشاعر في صدر البيت الأول إلى قوله تعالى: ﴿وَيَعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتُ الظَّالِمَاتُ بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. سورة الفتح، الآية (٦).

(٢) في الأصل: حظوظ، وهو تصحيف.

(٣) يقصد الشاعر بالباب أحد أبواب النار السبعة، فأهل التقوى والصلاح في الجنة ينعمون، وأهل الفسق والفجور مكذبون في أبواب النار.

(٤) التخريج: مخطوط عيون الأخبار، ص ٣٩، والشاعر يتعجب في البيت الثالث من أمر المرء الذي يبكي أثناء مصيبة الموت من خشية الله ثم ينسى هذا سريعاً، ويعود لسابق عهده في حب الدنيا والحرص عليها، وإلا فما وجه العجب من الشاعر!؟

(٥) الهجوع: النوم. المعجم الوسيط (هجع)، ص ٩٧٣.

(٦) التخريج: مخطوط عيون الأخبار، ص ٣٩.

(٧) الشرح: لم تُفَنِّ مِنْهَا السُّوَابِغُ: أي لم تُؤَخَّرْ مِنْهَا المصائب الكبرى.

(١٢) باب الفاء (٢):

[من الخفيف]

قَنَعُوا مِن دُنْيَاهُمْ بِالطَّقِيفِ
مَنْ رَأَوْهُ فِيهَا عَلَى الْمَعْرُوفِ
رِحَابًا جَمًّا وَطَوَّلَ وَقُوفِ
يَا حِذَارَ التُّوْبِيخِ وَالنَّعْيِيفِ
لَيْلِ عَطَى عَلَيْهِ فَرُطٌ وَجِيفِ (٣)

١- فَازَ بِالْخُلْدِ فِي الْجَنَانِ أَنْاسٌ
٢- فَارْقُوا الْمُتَكْرَاتِ مِنْهَا وَحَضَّوْا
٣- فَهَمُّوا أَنْ لِلخَلَائِقِ فِي الْحَشِّ
٤- فَتَحَلَّوْا بِطَاعَةِ اللَّهِ فِي الدُّنْيِ
٥- فَلَقَلْبِ الْوَلِيِّ مِنْهُمْ إِذَا مَا ل-

(١٣) باب القاف (٤):

[من الخفيف]

مَ فَشَمَّرَ وَحَانَ مِنْكَ الْفِرَاقُ
لِ كَمَا قُسِّمَتْ لَهُمْ أَرْزَاقُ
قَبْتُ قَدِيمًا بِجَيْشِهِ الْآقَاقُ؟
فَقَلَامُهُ مَجْلِسٌ وَرَوَاقُ (٥)
تَ وَلَمْ يَتْرُكِ الْمَعَاصِي خَلَاقُ (٦)

١- قَدْ نَعَاكَ الْمَشِيْبُ إِنْ كُنْتَ ذَا فَهْ
٢- قُسِّمَتْ لِلْأَتَامِ مُدَّةٌ أَجَا
٣- قِفْ بِتِلْكَ الرُّسُومِ سَلْ أَيْنَ مَنْ ضَا
٤- قَادَهُ قَائِدُ الْمَنِيَّةِ كُرْمَا
٥- قَسَمًا لَيْسَ لَامِرِي عَرَفَ الْمُو

(١٤) باب الكاف (٧):

[من الخفيف]

(١) قُسَّ الإيادي: هو قس بن ساعدة، خطيب العرب المشهور في العصر الجاهلي، وأمرؤ القيس: أشهر شعراء العرب في العصر الجاهلي، والنوابغ: هم شعراء مشهورون، كل واحد منهم، عرف بالنابغة، فمهم النابغة الذبياني، والنابغة الجعدي، والنابغة الشيباني.

(٢) التخريج: مخطوط عيون الأخبار، ص ٣٩.

(٣) الوجيف: اضطراب القلب. ينظر تاج العروس (وجف) ٤٤٦/٢٤.

(٤) التخريج: مخطوط عيون الأخبار، ص ٣٩ - ٤٠.

(٥) في الأصل: مجلس، وهو تصحيف.

(٦) "الخلأق كسحاب: الخط، والنصيب الوافر من الخير والصلاح، يقال: لا خلأق له، أي: لا رغبة له في الخير، ولا صلاح في الدين". تاج العروس (خلق) ٢٥٧/٢٥.

(٧) التخريج: مخطوط عيون الأخبار، ص ٤٠.

رِ غَرُورٍ تَعَدُّ مِنْ أَعْدَاكِ؟
بِ عَلِيْقًا لِلْمَوْتِ فِي إِشْرَاكِ (١)
تَ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَمْلَاكِ (٢)
بِيَاهِ إِنْ كُنْتَ تَعْرِفِي دُنْيَاكِ (٣)
وَيَعُودُ الْحَزِينُ عَنْهُ الْبَاكِ (٤)

١- كَيْفَ يَا نَفْسُ تَزُكْنِينَ إِلَى دَا
٢- كُلُّ يَوْمٍ تَشِيْعِينَ إِلَى التُّرُ
٣- كَدَّرَ الْمَوْتُ عَيْشَ مَنْ عَرَفَ الْمَو
٤- كَفَّنُ يَتَّبَعُ ابْنَ آدَمَ مِنْ دُنَى
٥- كَفَّنُ غَيْرُ طَائِلٍ وَحَنُوطُ

[من الخفيف]

(١٥) باب اللام (٥):

- (١) العليق: النفيس من كل شيء يتعلّق به القلب. المعجم الوسيط (علق)، ص ٦٢٢.
- (٢) الأملاك: جمع ملك. كون الموت يكدر عيش الملوك فهذا مقبول من الشاعر، أما أن يكدر عيش الأنبياء فهذا ما لا يقبل من الشاعر، واضح أن إيغال الشاعر بتكلف الصياغة جاء على حساب صحة المعاني ودقتها.
- (٣) كذا ورد الفعل المضارع في عجز البيت الرابع محذوف النون دون مسوغ، وهذا من الضرائر الشعرية القبيحة التي لا يقاس عليها، حيث حذف حرف من الكلمة تشبيهاً بالترخيم. ينظر ضرورة الشعر، ص ١١٤، وضرائر الشعر، ص ١٤٢.
- (٤) الحنوط والحناط كصبور وكتاب: كلُّ طيبٍ يُحْلَطُ لِلْمَيِّتِ خَاصَّةً، قَالَهُ اللَّيْثُ، وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: "لِأَكْفَانِ الْمَوْتَى وَأَجْسَامِهِمْ مِنْ دَرِيْزَةٍ أَوْ مَسْكٍ أَوْ عَنَبٍ أَوْ كَافُورٍ وَغَيْرِهِ مِنْ قَصَبٍ هِنْدِيٍّ أَوْ صَنْدَلٍ مَدْفُوقٍ، مُسْتَقٌ مِنْ حَنْطِ الرَّمْتِ، إِذَا أَحْنَطَ كَانَ لَوْنُهُ أَبْيَضَ بِضْرِبٍ إِلَى الصُّفْرَةِ، وَلَهُ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ". تاج العروس ٢١٧/١٩.
- (٥) التخريج: مخطوط عيون الأخبار، ص ٤٠.

ودموعَ على الخُدودِ همُولٌ^(١)!
 بسهامٍ لها المنايا نُصُولُ
 لَأ^(٢) ولم تَعْتَصِمِ عَلَيْهِ الوُغُولُ
 مَنُجُ كَاسَاتِ أَهْلِهَا رَنجَبِيلُ^(٣)
 غَرَّرَ قَدْرَانَتُهُمْ وَخُجُولُ^(٤)

١- لِي فُوَادٌ مِمَّا يَجُنُّ عَيْلٌ
 ٢- لَسْتُ أَدْرِي وَالْحَادِثَاتُ رَوَامٌ
 ٣- لَمْ يَدَعُ رَيْبَهُنَّ لِيُنَّا وَلَا صِلَا
 ٤- لِحَجِيمِ أَسَاقٍ أَمْ لِحِنَانٍ
 ٥- لَهُمْ مِنْ أَثَارِ طَهْرٍ وَغَسَلٍ

[من الخفيف]

(١٦) باب الميم^(٥):

موتٌ والبُعْثُ والصَّرَاطُ أَمَامِي
 سَائِلِي عَن شَرَائِعِ الإِسْلَامِ^(١)
 حُجَّتِي مُحْيِي^(٢) العِظَامِ الرَّمَامِ
 تَ طَيِّبِي مِّن مَّوْبِقِ^(٣) الأَثَامِ
 وَشَرَابِي لَمَّا أَطَلَّ حِمَامِي^(٤)

١- مَدَّتِي تَقْضِي وَعُمْرِي وَالـ
 ٢- مُنْكَرًا لَسْتُ مُنْكَرًا أَنَّهُ
 ٣- مَا جَوَابِي لَهُ إِذَا لَمْ يُنْبِتْ
 ٤- مَسْنِي الضَّرُّ يَا إِلَهِي فَكُنْ أُنْ
 ٥- مَلْنِي عَائِدِي وَقَلِّ طَعَامِي

[من]

(١٧) باب النون^(١٠):

[الوافر]

- (١) يَجُنُّ: يستر. تاج العروس (جنن) ٣٤/٣٦٥.
 (٢) الصَّل: الحَيَّة من أحيث الحَيَات وَقَالُوا: هُوَ صِلَ أَصْلَالٌ إِذَا كَانَ دَاهِيَةً خَبِيثًا. المعجم الوسيط، ص ٥٢١.
 (٣) نظر الشاعر إلى قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَتْ مِرْجُهَا رَنَجَبِيلًا﴾. سورة الإنسان، الآية (١٧).
 (٤) الحَجُول: البياض من أثر الضوء. ينظر تاج العروس (حجل) ٢٨/٢٨٢.
 (٥) التَخْرِيج: مخطوط عيون الأخبار، ص ٤٠ - ٤١.
 (٦) المقصود بكلمة "منكر" الأولى في البيت الثاني ملك القبر، أما كلمة منكر الثانية فهي اسم فاعل من الإنكار.
 (٧) في حاشية المخطوط رواية أخرى، هي: مُنْشِر.
 (٨) مَوْبِق: مُهْلِك. معجم اللغة العربية المعاصرة (ويق) ٣/٢٣٩٣.
 (٩) أَطَلَّ الرَّجُلُ عَلَى الشَّيْءِ يَطْلُ إِطْلَالًا: إِذَا أَشْرَفَ عَلَيْهِ. إِصْلَاحُ الْمَنْطِقِ، ص ٢٣٣. ويلحظ أن العروض في جميع الأبيات تامة ما عدا عروض البيتين: ١، ٢ فهي محذوفة فيهما.
 (١٠) التَخْرِيج: مخطوط عيون الأخبار، ص ٤١.

- ١- نَعَى نَفْسِي إِلَيَّ وَمِيزُ شَيْبٍ
- ٢- نَظَرْتُ بَعَيْنٍ مُعْتَبِرٍ إِلَى مَا
- ٣- نَعِيمٍ دَائِمٍ فِي ظِلِّ عَيْشٍ
- ٤- نَمَارِقُهُمْ مُصَافِّةٌ عَلَيْهَا
- ٥- نَجَابَتُهُمْ مِنَ الْيَاقُوتِ صِيغَتْ

(١٨) باب الواو (٢):

- تَجَلَّى مِنْ سَنَاءِ الْمَفْرُوقَانِ
- أَعْدُّ لِيذِي التَّوْرِعِ فِي الْجَنَانِ (١)
- عَلَى التَّخْلِيدِ فِي دَارِ الْأَمَانِ
- تَكَاؤُهُمْ مَعَ الْخُورِ الْحِسَانِ
- تَطْيِرُ بِهِمْ إِلَى أَعْلَى مَكَانِ

[من الخفيف]

- رَ دُنُوبٍ قَدْ أَثَقَلْتَنِي صَحْرًا؟
- وَلَطَى إِنْ عَصَتْ وَمَا دَاكَ لَهْوُ
- نِي مَشِيْبٍ لَهُ بِفُودَيَّ ضَوْ (٣)
- وَاعْتَرَانِي بَعْدَ التَّيَقُّظِ سَهْوُ
- قَ وَفِيمَا قَضَيْتَ مُرًّا وَحَلْوُ

[من الخفيف]

- عَارِفٌ مَا لَهُ إِلَهٌ سِوَاهُ
- هُ دُنُو الْحَمَامِ كَيْمَا يَرَاهُ
- نَضِجَتْ مِنْ وَقُودِهَا أَحْشَاهُ (٥)
- رَبُّهُ فِي ظِلَامِهِ وَدَجَاهُ
- نَبِ يَارَبِّ عَمْدَهُ وَخَطَاهُ (٦)

[من الخفيف]

- ١- وَيَحِ نَفْسِي أَمَا لَهَا الدَّهْرُ مِنْ سُدِّ
- ٢- وَرِدَتْ جِنَّةَ الْبَقَا إِنْ أَطَاعَتْ
- ٣- وَدَعَّ اللَّمَّةَ السَّوَادُ وَوَأَفَا
- ٤- وَحَنَّتْ مَنِّي الْخُطُوبُ قَتَاتِي
- ٥- وَسَبَعَتْ يَا رَحِيمَ رَحْمَتِكَ الْخَلْدُ

(١٩) باب الهاء (٤):

- ١- هَامٌ وَجَدًا بَرَّهَ فِي الْبَرَازِي
- ٢- هَمَّةٌ لَاشْتِيَاقِهِ رُؤْيَا اللَّيْلِ
- ٣- هَجَّجَتْ نَارَ قَلْبِهِ رَقَرَاتٌ
- ٤- هَجَّجَ الْعَافِلُونَ وَهُوَ يُنَاجِي
- ٥- هَبْ إِلَهِي لِعَبْدِكَ الْخَاطِي الْمُدُّ

(٢٠) باب اللام والألف (٧):

(١) ورد البيت الثاني هكذا: "نظرت بينهن"، وهو مضطرب، ولعل الصواب ما تم إثباته.

(٢) التخریج: خطوط عيون الأخبار، ص ٤١.

(٣) اللمة: الشعر المجاوز شحمة الأذن. تاج العروس ٤٣٨/٣٣، وضو: أي ضوء، أهمل الشاعر الهمزة ضرورة.

(٤) التخریج: مخطوط عيون الأخبار، ص ٤١.

(٥) أهمل الشاعر همزة (أحشاؤه) ضرورة.

(٦) هجع: نام. ينظر تاج العروس (هجع) ٣٨٤/٢٢، وفي البيت الخامس نوسل ودعاء من الشاعر لله - سبحانه وتعالى - أن يعفو عما اقترفه على سبيل الخطأ العمد وغيره، ولا يؤاخذه بذنب ما اقترفه،

كما قال عبدالرحيم البرعي، ديوانه ١١:

يَأْتِيهِ مَعْتَذِرًا فَيَقْبَلُ عَذْرَهُ
كَرَمًا وَيَغْفِرُ عَمْدَهُ وَخَطَاهُ

(٧) التخریج: مخطوط عيون الأخبار، ص ٤٢.

- ١- لآح شيب بمفرقي يتلألا
 - ٢- لآذ بالفكر في القيامة قلبي
 - ٣- لا وزب العباد لا خلث عن طأ
 - ٤- لا تلم هاربا إلى الله خوفا
 - ٥- لا تظنن ما حبيت بخلا
- (٢١) باب الياء (٣):

- ١- يا أيها الباكي على ميت
- ٢- يهلك من في أرضنا والسما
- ٣- يمر ركب بديار خلث
- ٤- يروم يبقى جاهل بعدما
- ٥- يبسط آمالا أخو غفلة

وتولى عني الشباب فزلا
 وذكرت النيران والأغلا لا
 عة ربي ولو بقيت (رتالا)^(١)
 من ذنوب قد أوتقته^(٢) خبالا
 فك سوءا سبحانه وتعالى
 [من السريع]

أقصر غدا يتبعه الحى^(٤)
 وات ويبقى المليك الحى
 يسألها أين غدا الحى؟
 أودت على غرتها طي!
 وللمنايا بالزدى طي

ثانياً: شعر السراج البغدادي في المصادر الأخرى

- (١) قافية البيت الثالث مطموسة في المخطوط، ولم تظهر منها سوى الأحرف الثلاثة الأخيرة، واقترحت كلمة مناسبة لمعنى البيت، و"الزئل: حُسُنُ تَنَاسُقِ الشَّيْءِ، وَاتِّظَامِهِ عَلَى اسْتِقَامَةٍ، وَأَيْضًا: بَيَاضُ الْأَسْنَانِ، وَكَثْرَةُ مَائِهَا". تاج العروس (رتل) ٣٢/٢٩، أي لن أحول عن طاعة ربي حتى لو امتد بي الزمن وبقيت شاباً.
- (٢) أوتقته: أهلكته. معجم اللغة العربية المعاصرة (ويق) ٢٣٩٣/٣.
- (٣) التخريج: مخطوط عيون الأخبار، ص ٤٢.
- (٤) يرجع في دراسة هذه المقطعة إلى مقدمة هذا البحث.

(٢٢) وقال^(١) يمدح عين الدولة ابن أبي عقيل^(٢) قاضي صور: [من الكامل]

- ١- يا هندُ هلْ وصلَ فيرْتَقِبُ
 - ٢- أمْ هلْ لهْجَرِكِ والقَلَى أَمْدُ
 - ٣- أنْسَيْتِ مَوْفَقَنَا بِذِي سَلِمِ
 - ٤- وَحَدِيثِنَا وَالِدَهُرُ غَافِلُهُ
 - ٥- تُنْسِي وَتُصْبِحُ فِي بُلْهَيْتِهِ
 - ٦- لَمَّا هَجَرْتِ بَعَثْتِ طَيْفَ كَرَى
 - ٧- طَيْفٌ أَلَمَ بِنَا فَرَوَدْنَا
 - ٨- وَأَصَانَتِنَا وَالِدَارُ نَارِحَةٌ
 - ٩- وَمَطْلَنَاتِنَا ظُلْمًا دِيُونُ هَوَى
 - ١٠- دَعُ عَنكَ هِنْدَ فَقَدْ أَغَارَ عَلَيَّ
 - ١١- فَاقْصِدْ بِمَدْحِكَ مَا جَدَا يَدُهُ
 - ١٢- مَلْغًا يُقْبَلُ عِنْدَ رُؤَيْتِهِ
 - ١٣- عَتَبُوهُ فِي إِسْرَافِهِ كَرَمًا
- إِنْ كَانَ يُحْفَظُ فِي الْهَوَى سَبَبُ
إِتْيِي وَحَبْلُ رِضَاكَ مِنْقُضِبُ
أَيَّامَ أَثْوَابِ الصَّابَا فُشْبُ^(٣)
عَنَّا الْحَوَادِثُ مِنْهُ وَالنُّوْبُ
مِنْ عَيْشِنَا وَوُشَانُنَا غُيْبُ^(٤)
مَا فِي زِيَارَتِهِ لَنَا أَرْبُ
زُورَ الرَّيَّازَةِ وَهُوَ مُحْتَجَّبُ
وَهَجَرْتِنَا وَدِيَارِنَا صُفْبُ
(جَلْبُ) فَأَمْرُكَ كَأَلِهِ عَجَبُ^(٥)
فَوَدَيْكَ عَسْكَرُ شَيْبِكَ اللَّجْبُ
تُعْنِي إِذَا مَا ضَانَّتِ السُّحْبُ
فِي دَسْتِهِ عِوَضَ الْيَدِ الْعَتْبُ^(٦)
وَلَوْ أَنَّهُمْ عَقَلُوا لَمَا عَتَبُوا^(٧)

(١) التخریج: تاریخ دمشق ٢٣٤/٥٥.

(٢) ابن أبي عقيل: عبدالله بن علي بن عياض بن أحمد بن أيوب بن أبي عقيل أبو محمد بن أبي الحسن الصوري القاضي، عين الدولة، سمع أبا الحسين بن جميع وأبا مسعود صالح بن أحمد وأبا الحسين علي ابن الحسين المرفق الطرسوسي وأبا محمد الحسين بن محمد بن أحمد بن جميع، قدم دمشق، وحدث بها، وروى عنه أبو بكر الخطيب وخرَّج له الفوائد، وكان من أهل السنة والخير، توفي عام (٤٥٠ هـ) تاريخ دمشق ٧١/٣١ - ٧٣. ومدحه السراج بالمقطوعة رقم (٨٠) في ديوانه.

(٣) "نو سلم: واد ينحدر على الذنائب، والذنائب: في أرض بني البكاء على طريق البصرة إلى مكة". معجم البلدان ٢٤٠/٣.

(٤) يُقَالُ: هُوَ فِي بُلْهَيْتِهِ مِنْ عَيْشِهِ، أَي فِي سَعَةِ وَرَخَاءٍ، وَكَذَلِكَ فِي رِفْهَيْتِهِ. جمهرة اللغة (باب فُعْلَيْتِهِ) ١٢٤٤/٣.

(٥) وورد هذا البيت هكذا: "حلت"، ولعل الصواب: "جلبت" أي عظمت.

(٦) الندست: صدر المجلس وندست الوزارة منصبها. المعجم الوسيط (ندست)، ص ٢٨٢، والعوّض: كُُلُّ مَا أُعْطِيَتْهُ مِنْ شَيْءٍ فَكَانَ خَلْفًا. تاج العروس (عوّض) ٤٤٩/١٨.

(٧) ورد هذا البيت هكذا: "في أسفاره"، وأخذت بالرواية المذكورة في الهامش.

تَنَجَّمَلُ الْأَشْعَارُ وَالخُطْبُ
عَهْدِي وَحَرَكَ نَحْوَهَا سَبَبُ^(١)
عَنْ أَنْ تَجِدَّهَا لَكَ الْكُتُبُ
فَوْقَ السَّمَاءِ لِمَجْدِهِ الطُّبُ^(٢)
رَجُلًا فَأَعْيَا عَبْدَكَ الطَّلِبُ
أَمْوَالُهُ فِي الْجُودِ تُنْتَهَبُ
أَبْدًا وَفِيهَا يَذْهَبُ الذَّهَبُ
لَوْ أَنَّ عَاذِلَهُ عَلَيْهِ أَبُ

١٤- مِنْ مَعْشَرٍ بَجْمِيلٍ فِعْلُهُمْ
١٥- قَدْ زُرْتُ (بَغْدَادًا وَ) حَالَ بِهَا
١٦- وَهِيَ الَّتِي أُغْنَتْكَ شُهْرَتُهَا
١٧- دَارُ الْمُلُوكِ وَكُلَّ مَنْ ضَرَبَتْ
١٨- وَطَلَبْتَ يَا نَفْسِي بِهَا مَثَلًا
١٩- فَرَجَعْتُ أُدْرَجِي إِلَى مَلِكِ
٢٠- فِي الْمَكْرَمَاتِ بَعْضُ قِصَّتِهِ
٢١- هَيْهَاتَ تَسْمَعُ فِي النَّدَى عَذْلًا

[من الخفيف]

وقال^(٣):

سِينُ نَحْوًا وَلَا لَهْ آلَاتُ
مِنْ شَعِيرٍ بِرَأْسِهِ مِخْلَاتُ

١- مَثَلُ الطَّلِبِ الْحَدِيثِ وَلَا يُدْ
٢- كَحِمَارٍ قَدْ عَاقَتْ لَيْسَ فِيهَا

[من البسيط]

(٢٣) وقال من قصيدة^(٤):

دَمَاءُ أَهْلِ الْهَوَى مَطْلُولَةٌ
هَدْرٌ

لَا تَطْلُبُوا بدم العشاق طائفة

(١) ورد هذا البيت هكذا: "بغداد أو"، وهو غير مستقيم، وورد البيت الثامن عشر فيه هكذا: "وطلبت مثلك يا نفس بها"، وجاء في الهامش إيضاح على كلمة: "طلبت"، هذا نصه: "كتبت فوق الكلام بين السطرين بالأصل وجاءت اللفظة في "ز": بعد قوله: "رجلاً" وقد كتبت أيضاً فوق الكلام فيها". قلت: حاولت تصحيحه قدر الإمكان.

(٢) الطنب: حبل يشد به الخباء والسرادق ونحوهما. المعجم الوسيط (طنب)، ص ٥٦٧.

(٣) التخريج: فتح المغيب بشرح ألفية الحديث للعراقي ١٦٤/٣.

(٤) التخريج: مصارع العشاق ١١٠/١.

(٢٤) وقال^(١):

[من مجزوء الكامل]

— فِي أَلْيِ النَّزَاهَةِ وَالطَّهَارَةِ
لَأَشَدَّ مِنْ ثَقُلِ الْحِجَارَةِ

١- قَسَمًا بِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ
٢- إِنَّ الْحَدِيثَ أَعْيَدُهُ

(٢٥) وقال^(٢):

[من البسيط]

أَضْحَى وَأَهْلُوهُ فِي الدُّنْيَا مَقَالِيَسًا
عَدَا إِذَا أَحْشَرَ النَّاسَ الْقَرَادِيَسَا^(٣)

١- مَنْ كَانَ حِرْفَتَهُ كَتَبُ الْحَدِيثِ فَقَدْ
٢- لَكُنْ عَاقِبَةَ الْإِفْلَاسِ مَنَزْلَهُمْ

(٢٦) وقال^(٤):

[السريع]

وَكَانَ مَطْوِيًّا عَلَيْهِ الْحَشَا
أَبْصَرْتُ رِجْعًا مِنْهُمْ مُوحِشًا
سَقَاهُ مِنْ رِيقِهِ فَأَنْتَشَى
يَجْدِبُهُ الرِّدْفُ إِذَا مَا مَشَى^(٥)
فُضَّائَةٌ لَا يَقْبَلُونَ الرُّشَى

١- دَمَعِي بِمَكْتُومِ غَرَامِي وَشَى
٣- يَنْهَلْ دَمَعِي سَاجِمًا كُلَّمَا
٤- صَادَ فُؤَادِي فِي الْهَوَى شَادِنٌ
٥- أَبْصَرْتُهُ يَوْمَ شَعَانِيهِ
٦- أَشَدُّ شَيْءٍ فِي الْهَوَى أَنَّهُ

(١) التخریج: أدب الإملاء والاستملاء، ص ٨٠.

ألى: اسم موصول يستعمل لجمع المذكر والمؤنث، قال أبو ذؤيب الهذلي ديوانه، ص ١٩٢:

وَتُبْلِى الْأَلَى يَسْتَلِيمُونَ عَلَى الْأَلَى تَرَاهُنَّ يَوْمَ الزَّوْعِ كَالْحِدْرِ الْقُبْلِ

ينظر: النحو المصفى، ص ١٦٩.

(٢) التخریج: منتقى من السفينة البغدادية للسلفي، ص ٥٣.

(٣) الفراديس: هي البساتين، ومراده فردوس الجنة. هامش مصدر التخریج.

(٤) التخریج: مصارع العشاق ٢/١٧٦.

(٥) "الشعانيين: عيد مسيحي يقع يوم الأحد السابق لعيد الفصح، يحتفل فيه بذكرى دخول السيد المسيح

بيت المقدس". المعجم الوسيط (شعن)، ص ٤٨٥.

(٢٧) وقال يرد على من زعم أن في الشافعي تشييعاً^(١): [من الكامل]

- ١- لا دُرُّ نَرِّ معاشِرٍ لم يحفظُوا
 - ٢- زَعَمُوا بَأَنِّ الشَّافِعِيِّ مُحَمَّداً
 - ٣- مُتَرَفِّضٌ إِذْ قَالَ فِي بَيْتٍ لَهُ:
 - ٤- مَا قَالَهُ إِلَّا بِشَرْطٍ وَاضِحٍ
 - ٥- "إِنْ كَانَ رَفُضًا حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ
 - ٦- وَبِهِ يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ فَهَلْ تَرَى
 - ٧- يَا مَنْ رَمَاهُ بِيَدْعَةٍ فِي بَيْنِهِ
- غَيْبَ الْأُئِمَّةِ عَاجِزٍ أَوْ نَاهِضٍ
جَادَتْ نَرَاهُ بِمِصْرَ مُزْنَةً عَارِضٍ
"فَلْيَشْهَدْ التَّقْلَانَ أَنِّي رَافِضِي"
لَأُولِي النَّهْيِ وَالذِّينَ لَيْسَ بَعَامِضٍ
فَلْيَشْهَدْ التَّقْلَانَ أَنِّي رَافِضِي"
عَيْنٌ لَأَلِ مُحَمَّدٍ مِنْ بَاغِضٍ
لَا زَالَ جِسْمُكَ حَلْفَ حُمَى نَافِضٍ

(٢٨) وقال في مالك بن أنس (ت ١٩٩هـ)^(٢):

[من الطويل]

- ١- سَقَى جَدًّا ضَمَّ البَقِيعَ لِمَالِكٍ
 - ٢- إِمَامٍ مَوْطَاهُ الَّذِي طَبَّقَتْ بِهِ
 - ٣- أَقَامَ بِهِ شَرَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
 - ٤- لَهُ سَنَدٌ عَالٍ صَحِيحٌ وَهَيْبَةٌ
 - ٥- وَأَصْحَابُ صِدْقٍ كُلُّهُمْ عِلْمٌ فَسَلُّ
 - ٦- وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا ابْنُ إِدْرِيسَ وَحَدَه
- مِنَ الْمُزْنِ مِرْعَادُ السَّحَابِ مِبْرَاقُ
أَقَالِيمٍ فِي الدُّنْيَا فِسَاحٌ وَأَفَاقُ^(٣)
لَهُ حَدْرٌ مِنْ أَنْ يُضَامَ وَإِشْفَاقُ
فَلَكَ لِمَنْ مِنْهُ حِينَ يَرُويهِ إِطْرَاقُ
بِهِمْ إِنَّهُمْ إِنْ أَنْتَ سَاعَلْتِ حُدَاقُ
كَفَاهُ، أَلَا إِنَّ السَّعَادَةَ أَرْزَاقُ

(١) التخریج: أعيان العصر ٣/٣٢٥ - ٣٢٦، وعجز البيت الثالث، والبيت الخامس للشافعي في أعيان العصر ضمن مقطوعة ذكرت في، ٣/٣٢٤.

(٢) التخریج: وفيات الأعيان ٤/١٣٨، والوفاي بالوفيات ٤٣/٢٥، ومرآة الجنان ١/٢٩٢ - ٢٩٣.

الرواية: ورد البيت الأول في الوفاي بالوفيات برواية: "مرعاد الجوانب"، وورد البيت السادس فيه برواية: "ولم يكن إلا".

(٣) موطاه: أي موطاه، وهو كتاب مشهور في المذهب المالكي، ألفه الإمام مالك، وسهل الشاعر الهمزة ضرورة.

(٢٩) وقال^(١):

[من السريع]

لَا تَقْلَبُ الْعَالَمَ مِنْ شَرْكِهَا
فَدَلْنَا الْعِلْمَ عَلَى تَرْكِهَا

١- أَفْ لَدُنْيَا أَفْسَمَتْ أَهَهَا
٢- لَهَا طَلَبْنَا الْعِلْمَ فِيمَا مَضَى

(٣٠) وقال^(٢):

[من الرمل]

لَوْ أُبِيحَتْ لِي وَكَأْسِي فَمَهُ
مَدٌّ مِنْ سِبْثِ الدُّجَى مُظْلَمُهُ
كُلُّ مَنْ أَبْصَرَهُ يَرْحَمُهُ
فَعَسَى عَنَّا بَكُمْ يَحْشَمُهُ^(٣)
إِذْ رَمَى صَائِئَةً أَسْمَهُ:
دَمٌ مَنْ لَيْسَ حَالًا دُمَهُ؟
شَايِنٌ أَعْوَزَنِي مَرْهَمُهُ^(٤)

١- يَا غَزَالًا حَمَزَتِي رِيْقْتُهُ
٢- مَا عَلَى طَيْفِكَ لَوْ زَارَ إِذْ
٣- أَتَرَى مَا أَنْ أَنْ تَرْحَمَ مَنْ
٤- عَاتِبُوهُ الْيَوْمَ فِي سَفْكِ دَمِي
٥- ثُمَّ قُولُوا لِلَّذِي لَمْ يُحْطِنِي
٦- أَحَلَّ لَكَ فِي شَرْعِ الْهَوَى
٧- بِي جِرْحٌ فِي فُوَادِي مَنْ هَوَى

(٣١) وقال من أول قصيدة^(٥):

[من الوافر]

عَشِيَّةً فَوَضَّعْتَ تِلْكَ الْخِيَامَ
وَلَوْ لَمْ يُؤْتِرُوا قَتْلِي أَقَامُوا
وَقَدْ أَلْقَى مَرَايِيهِ الظَّلَامَ
كَوَأَمِنْ لَيْسَ يَبْرَحُهَا التَّمَامَ
لَنَا كَأْسٌ وَرِيْقْتُهُ مُدَامَ
بِعَيْنِكَ هَلْ تَطِيشُ لَهُ سِهَامًا؟

١- قَفِي أَحْبِرْكَ مَا صَنَعَ الْعَرَامَ
٢- لَقَدْ قَتَلَ الْهَوَى بِي يَوْمَ سَارُوا
٣- سَرَوْا وَاللَّيْلُ فِي ثَوْبِي حِدَادِ
٤- وَقَدْ هَتَكُوا الْأَكْلَةَ عَنْ بُدُورِ
٥- وَفِي الْأَحْدَاغِ نُو لَعَسٍ لِمَاهُ
٦- رَمَى - وَقَلُّونَا الْأَعْرَاضُ - فَاَنْظُرْ

(١) التخریج: من السفينة البغدادية للسلفي، ص ٥٧.

(٢) التخریج: القصيدة في جزء الحلوى، ص ٢٧ - ٢٨، والأبيات ٤ - ٧ في مصارع العشاق ١/١٨.

(٣) ورد هذا البيت في جزء الحلوى برواية: "عَتَبَكُمْ يَحْسَمُهُ".

(٤) المَرْهَمُ: طِلَاءٌ لِيَنْ يَطْلَى بِهِ الْجُرْحُ، وَهُوَ أَلْبِنٌ مَا يَكُونُ مِنَ الدَّوَاءِ. تاج العروس (رهم) ٣٢/٢٩٧.

(٥) التخریج: مصارع العشاق ١/٢٨٨ - ٢٨٩، ولعلها تابعة للمقطوعة رقم (٦٥)، ص ١٠٧ - ١٠٨ في الديوان.

"الكَلَّةُ: سِتْرَةٌ لِلنِّسَاءِ فِي جَانِبِ الْخِيْمَةِ". أساس البلاغة (قرم) ٢/٧٢، و"الْحُدُوجُ، وَالْأَحْدَاغُ، وَالْحَدَائِجُ: مَرَاكِبُ النِّسَاءِ، وَاحِدُهَا حِدْجٌ وَحِدَاجَةٌ". تاج العروس (حدج) ٥/٤٦٩، ونقل الزبيدي في تاج العروس (لعرس) ١٦/٤٨٠ عن الجوهری: "وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: اللَّعْسُ: لَوْنٌ الشَّقَّةِ إِذَا كَانَتْ تَضْرِبُ إِلَى السَّوَادِ قَلِيلًا، وَذَلِكَ مِمَّا يُسْتَمْلَحُ، يُقَالُ: شَقَّةٌ لِعَسَاءٌ".

(٣٢) وقال^(١):

[من المنسرح]

- ١- لم يكفكم أخذ قلبه سلْبًا حَتَّى أَخَذْتُمْ عَنْ طَرْفِهِ وَسَنَةً
٢- كم ليلةٍ باتَ للغَرامِ وكم يومٍ وشهرٍ ما نامَهُ وَسَنَةً؟

(٣٣) ثالثًا: منظومة السَّرَّاجِ البَغْدَادِيّ فِي نَظَائِرِ سُورِ الْقُرْآنِ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

صلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم، وبعد:

وجدتُ بخطَّ إسماعيل بن عمر بن أحمد القرشيّ الأندلسيّ^(٢) - رحمه الله - ما هذا مثاله، أخبرنا الشيخ الإمام العالم الأوحد مجد الدّين سيد الخطباء أبو الفضل عبدالله بن أحمد بن محمّد بن عبدالقاهر الطُوسيّ^(٣) - رضي الله عنه - قراءة عليه بالموصل وأنا أسمع، قال: أنبأنا الشيخ الإمام أبو محمّد جعفر بن أحمد الحسين السَّرَّاجِ - رحمه الله - في صفر سنة اثنتين وتسعين وأربعمئة^(٤)، قال رحمه الله تعالى^(٥):

- (١) التّخريج: لمح الملح، ص ٨٧٨، وانظر ما بهامشه من مصادر.
(٢) إسماعيل بن عمر بن أحمد القرشيّ الأندلسي: "يكنى: أبا الطاهر، قدم الأندلس عند الأربعين والأربعمئة، وأخذ بقرطبة عن أبي عبدالله بن عتاب، وأبي عمر بن القطان. وأخذ بالمريّة عن أبي إسحاق بن وردون. وثوّقيّ في نحو الخمس والسبعين وأربعمئة". الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ١/١٦٣.
(٣) أبو الفضل عبدالله بن أحمد بن محمد بن عبدالقاهر الطوسي: نزيل الموصل وخطيبها، ت ٥٨٧هـ، عالم فاضل، وأديب معروف، له شعر، أخذ عن كبار الشيوخ في عصره، وتفرد بأكثر مسموعاته، قصد العلماء من الأقطار المختلفة. الوافي بالوفيات ٣٦/١٧.
(٤) وردت هذه الديباجة مختصرة في نسخة مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية هكذا: "قال الشيخ الإمام العالم اللغوي أبو محمد جعفر بن أحمد الحسين السراج البغدادي القارئ رحمه الله".
(٥) الأرجوزة كاملة في مصورة مكتبة معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى برقم (١١٤٣) علوم قرآن، عن مخطوطة مكتبة البلدية بالإسكندرية المرقمة (١٣٩٩)، وورد منها ثلاثون بيتًا في مخطوطة مكتبة جمعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (٢٦٣٧) علوم قرآن، ووردت ناقصة ثلاثة أبيات، ومحرفة في بعض المواضع في كتاب جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام، ص ٦١٣ - ٦١٨، والبيتان ١٥، ١٦ له في نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار ٤٥/١، وفي هامشه إشارة إلى وجود صورة من الأرجوزة في مكتبة معهد البحوث العلمية، جامعة أم القرى، والأرجوزة مرفوعة اعتمادًا على جمهرة الإسلام في الرابط الآتي:
<http://www.tafsir.net/vb/tafsir9347>

وقد عَقَد الإمام "ابن الجوزي ت ٥٩٧ هـ" في كتابه فنون الألفان ص ٣٢٨ - ٣٣٠ بابًا تحت عنوان: "ذكر القرائن من السور في العدد على مذهب أهل الكوفة"، وهو المذهب الذي اعتمده "السراج" في نظمه هذه الأروجة قبل ابن الجوزي، ولأهمية ما ذكره الأخير واتصاله بالقصيدة أثبتته هنا بنصه، وقد سار ابن الجوزي في رصد السور المتماثلة في عدد الآيات وفق ترتيب "السراج"، مما يؤكد اطلاعه على المنظومة وشرحه إيّاها، قال "ابن الجوزي":

- الفاتحة: سبع آيات، ومثلها الماعون.
- الأنفال: خمس وسبعون، ومثلها الزمر.
- يوسف: مئة وإحدى عشرة، ومثلها بنو إسرائيل (سبحان الذي أسرى).
- إبراهيم: اثنتان وخمسون، ومثلها نون والحاقة.
- الحج: ثمان وسبعون، ومثلها الرحمن عز وجل.
- القصص: ثمان وثمانون، ومثلها ص.
- الروم: ستون، ومثلها الذاريات.
- السجدة: ثلاثون، ومثلها الملك والفجر.
- سبأ: أربع وخمسون، ومثلها المصاييح وهي "حَم فصلت".
- فاطر: خمس وأربعون، ومثلها ق.
- الفتح: تسع وعشرون، ومثلها الحديد والتكوير.
- الحجرات: ثمان عشرة، ومثلها التغابن.
- المجادلة: اثنتان وعشرون، ومثلها البروج.
- الجمعة: إحدى عشرة، ومثلها المنافقون والضحى والعاديات والقارعة.
- الطلاق: اثنتا عشرة آية، ومثلها المتحرم.
- نوح: ثمان وعشرون، ومثلها الجن.
- المزمّل: عشرون، ومثلها البلد.
- القيامة: أربعون، ومثلها عم.
- الانفطار: تسع عشرة، ومثلها سبح، والعلق.
- ألم نشرح: ثمان، ومثلها النّين، ولم يكن، والزلزلة، والتكاثر.
- القدر: خمس، ومثلها الفيل، وتيت، والفلق.
- سورة العصر: ثلاث آيات، ومثلها الكوثر، والنصر.
- قريش: أربع آيات، ومثلها الإخلاص.
- سورة الكافرون: ست، ومثلها الناس.

فيكون جملة الأخوات على مذهب الكوفيين إحدى وستين سورة. والأخوات على مذهب البصريين أربع وستون، وعلى مذهب المكيين خمس وستون. وإذا أردت معرفة ذلك نظرت، في الباب الذي قبله في عدد السور فاستخرجته وغيره من مذاهب المدنيين والشاميين وغيرهم. فلم نر التطويل بذكر ذلك، وإنما ذكرنا الكوفي، لأنه المعتمد عليه من الأعداد". انتهى كلام ابن الجوزي رحمه الله. وينظر الرابط الآتي :

<http://www.alukah.net/sharia/0/57876/#ixzz2yDUYGdcx>

[من الرجز]

من حمده فما يزال منعمًا
 المتسمى أحسن الأسماء
 ما هبت الريح شمالاً وصَبَاً^(١)
 ووعد^(٢) الجأة كلُّ مسلم^(٣)
 على النبيين الكرام البررة
 خاتمهم ومن له الخوض غداً
 بأفضل الصلاة والسلام^(٤)
 من المهاجرين والأنصار
 فإنهم كواكب الجنان
 عن سؤرٍ متفقات الآي
 وإنني أوجب^(٥) حق من قصد
 مختصراً ذلك دون المُتَّفِقِ^(٦)
 لأنني أجمل ما أحمل
 إحدى وستون^(٧) بلا تباين
 فاستعذ^(٨) الله من الوسواس

١- الحمد لله على ما ألهمنا
 ٢- منزل القطر من السماء
 ٣- أحمدُه حمداً كثيراً طيباً
 ٤- كما هدى إلى طريق قويم
 ٥- ثم صلاة ربنا والمغفرة
 ٦- وخص من بينهم محمداً
 ٧- صاحب شرع ملة الإسلام
 ٨- وآله وصحبه الأخيار
 ٩- وتابعي الأصحاب بالإحسان
 ١٠- سألتني يا أوحى القراء
 ١١- تماثلت آياتهن في العدد
 ١٢- رسمت أن أنظم منها المتفق
 ١٣- والسَّمْع والطاعة لست أبخل
 ١٤- جملة ما فيه من القران
 ١٥- أولهن الحمد حتى الناس

(١) سقط هذا البيت من جمهرة الإسلام ذات النشر والنظام.

(٢) وعد: من الوعد، وهو ما يقطعه الملزم على نفسه وينفذه، ويكون في الخير والشر. ينظر تاج العروس (وعد) ٣٠٧/٩.

(٣) سقط هذا البيت من جمهرة الإسلام ذات النشر والنظام.

(٤) سقط هذا البيت من جمهرة الإسلام ذات النشر والنظام.

(٥) في جمهرة الإسلام ذات النشر والنظام: "أوجب".

(٦) ورد البيت محرفاً في جمهرة الإسلام ذات النشر والنظام هكذا: "وشمت ... مختصر".

(٧) هذا على مذهب الكوفيين في عدد نظائر سور القرآن من حيث عدد آيات كل سورة كما قال ابن الجوزي في نسه السابق.

(٨) في جمهرة الإسلام ذات النشر والنظام: "واستعذ".

١٦- وما عَدَدْتُ الْعَدَدَ الْكُوفِيًّا
١٧- فَإِنَّهُمْ مُحْتَفُونَ فِي الْعَدَدِ

لَيْسَ الْمَدِينِيُّ^(١) وَلَا الْبَصْرِيُّ^(٢)
فَأَفْنَعُ بِمَا نَظَّمْتُ يَا أَحَا الرَّشَدِ

نظيرتان

١٨- فَسُورَةُ الْحَمْدِ لَهَا نَظِيرَةٌ
١٩- كِلَاهُمَا إِذَا عَدَدْتَ سَبْعُ
﴿أَرَأَيْتَ﴾^(٣) إِنْ أَنْتَ قَرَأْتَ السُّورَةَ
وَلَيْسَ لِلْحَقِّ الْيَقِينِ دَفْعُ

(١) "ما" في أول البيت اسم موصول بمعنى الذي، والمدني: نسبة إلى المدينة المنورة، ويجوز في النسبة إليها أن يقال: "المدني" بالإضافة إلى المدني. ينظر الأنساب للسمعاني ٢٠٢/١١، والبصري نسبة إلى البصرة.

(٢) قال الشيخ "عبدالرحمن جبريل" في أنواع العدّ المعتمدة لآيات القرآن الكريم في الرابط الآتي:
"ذكر شيخنا علي النحاس يحفظه الله ما يلي: الوارد عن القراء في عدد آيات القرآن الكريم ستة أنواع هي:
العدّ المدني الأول: وهو ما رواه نافع عن شيخه أبي جعفر وشيخه شببة بن نصح، وهو عندهم (٦٢١٧)
آية، وهو ما نقله أهل الكوفة عن أهل المدينة دون تحديد أحد منهم.

العدّ المدني الأخير: وهو ما رواه إسماعيل بن جعفر عن أبي جعفر وعن شببة بن نصح، والعدد على طريقتهم (٦٢١٤) آية، وهو المعتمد عند أهل المغرب في رواية ورش عن نافع.

العدّ المكي: وهو ما رواه الإمام الداني عن ابن كثير، وأسنده إلى مجاهد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب رضي الله عنهم، وهم عن رسول الله (ص)، وعدد الآيات عندهم (٦٢١٠) آيات.

العدّ البصري: وهو ما يرويه عطاء بن يسار وعاصم الجحدري، ونُسب إلى أيوب المتوكل، وعدّ أي القرآن عندهم (٦٢١٤) آية، ويؤخذ به لأبي عمرو ويعقوب، ويلاحظ أنه موافق للعدّ المدني الأخير.

العدّ الدمشقي: ويقال الشامي، وهو ما يرويه يحيى الذماري عن ابن عامر، ويُنسب إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعدد الآي فيه (٦٢٢٦) آية، ومن أنواع العدّ الشامي العدّ الحمصي وقد أهمله الشاطبي تبعاً للداني.

العدّ الكوفي: وهو ما يرويه حمزة وسفيان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعدد أي القرآن عندهم (٦٢٣٦) آية، وهو الذي عليه المصحف الكوفي المنتشر في معظم الأمصار الإسلامية هذه الأيام."

(٣) مثلتها في العدد سورة الماعون. التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالذِّينِ﴾. ينظر نص ابن الجوزي السابق. وقد اقتصر في وضع القوسين المزهرين، حيث يلجأ الشاعر إلى تسمية السورة بدياتها دون اسمها المعروف.

نظيرتان

- ٢٠- وَإِنَّ آيَ سُورَةِ الْأَنْفَالِ
٢١- وَأُخْتَهَا ﴿تَنْزِيلٌ﴾ أَعْنِي الزُّمَرَا
٢٢- كِلَاهُمَا نُزُولُهُ بَيْنَهُ رَبِّ
- خَمْسٌ وَسَبْعُونَ بِإِلَّا إِشْكَالٍ
إِنْ كُنْتَ قَارِئًا تَعُدُّ (١) السُّورَا
وَيُثْرِبُ فَهِيَ مَدِينَةُ الْأَبِيِّ (٢)

نظيرتان

- ٢٣- وَيُوسُفُفَ كَأُخْتِهَا (٣) ﴿سُبْحَانَ﴾ (٤)
٢٤- تَزِيدُ فَوْقَ مِئَةِ إِحْدَى عَشْرَ
٢٥- كِلَاهُمَا بِمَكَّةَ نُزُولُهُ
- وَكُلُّ عِلْمٍ أَصْلُهُ التُّزَانُ
قَدْ عَدَّهَا مِنْ قَبْلُ مَنْ عَدَّ السُّورَ
دُونَكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا أَقُولُهُ

ثلاث نظائر

- ٢٦- وَسُورَةُ الْخَالِيلِ إِبْرَاهِيمَ
٢٧- خَمْسُونَ آيَةً وَأَيَّتَانِ (٥)
٢٨- سُورَةُ ﴿نُونٍ﴾ وَهِيَ غَيْرُ شَاقَّةٍ (٦)
٢٩- وَهَذِهِ الثَّلَاثُ مَكِّيَّاتٌ
- عَلَيْهِ مِمَّا أَفْضَلَ التَّسْلِيمِ
إِنَّ هِيَ عُذَّتْ وَلَهَا أُخْتَانِ
وَالسُّورَةُ الْمَذْكُورُ فِيهَا الْحَاقَّةُ
فِيهِنَّ قَدْ تَسَاوَتْ الْآيَاتُ

(١) في جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام: "قارنا ... بعد"، وورد في نسخة البلدية هكذا: "يعد".

(٢) جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام بعدها: "صلى الله عليه وسلم".

(٣) في جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام: "وأختها"، وفي نسخة الرياض: "فاختها".

(٤) هي سورة سبحان سورة الإسراء.

(٥) في جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام "واشتان".

(٦) أي أن سورة القلم هذه سهلة الاستظهار والحفظ.

نظيرتان

٣٠- والحجُّ لم تَنْقُصْ عَنِ الرَّحْمَنِ سَبْعُونَ^(١) تَأْتِي بَعْدَهَا ثَمَانِ

نظيرتان

٣١- وَالسُّورَةُ الْمَذْكُورُ فِيهَا الْقِصَصُ^(٢) فَأَخْتُهَا^(٣) صَادًّا بِهَا تُخَصِّصُ

٣٢- هَذِي ثَمَانُونَ عَلَى ثَمَانٍ وَمِثْلُهَا الْأُخْرَى عَلَى بَيَانٍ

نظيرتان

٣٣- وَسُورَةُ^(٤) الرُّومِ وَلَيْسَ لَعْوًا قَوْلِي أَخْبَثُ ﴿الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾^(٥)

٣٤- سِتُّونَ سِتُّونَ إِذَا مَا عُدَّتْ آيَاتُهَا قَدْ أَنْزَلْتِ^(٦) بِمَكَّةَ

ثلاث نظائر

٣٥- وَسُورَةُ السَّجْدَةِ لَا أَشْكُ وَالسُّورَةُ الْمَذْكُورُ فِيهَا الْمُلْكُ^(٧)

٣٦- وَسُورَةُ الْفَجْرِ سِوَاءَ فِي الْعَدَدِ إِذَا عَدَدْتِ آيَهُنَّ مِنْ مُجْتَهِدٍ

٣٧- كُلُّ ثَلَاثُونَ ثَلَاثُونَ سِوَا فَاتَّبِعِ الْحَقَّ وَدَعِ أَهْلَ الْهَوَى

(١) في جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام: "سبعون"، وهو خطأ. وإلى آخر هذا البيت تنتهي نسخة الرياض.

(٢) ربما يتوهم أنها غير سورة "القصص" مثل سورة هود، أو يوسف، أو الشعراء، وغيرها من السور، ولكن المقصود بها سورة القصص.

(٣) في جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام: "وأختها".

(٤) في مخطوطة بلدية الإسكندرية: "والسورة الروم".

(٥) ألجا الوزن الشاعر إلى ترك الواو قبل كلمة الذاريات.

(٦) ورد البيت في جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام محرراً ومضطرباً هكذا: "آياتها نزلتنا".

(٧) وردت كلمة "الملك" في بعض السورة، مثل سورة غافر في قوله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟﴾، ولكن المقصود هنا سورة "الملك" المبدوءة بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٣٨- أنزلت السجدة والفجر معاً
٣٩- وسورة المأثور في المدينة

نظيرتان

بمكة ومكة أم القرى
نزلها وحولها السكينة

٤٠- (سبا)^(١) وسجدة الحواميم^(٢)
٤١- كلاهما إذا عدت خمسون

أختان والأعمال بالحوائم
وأربع إذ صح ما تعدون

نظيرتان

٤٢- وإن أخت سورة الملائكة^(٣)
٤٣- خمس وأربعون كل واحد

سورة قاف السورة المباركة
ما هذه عن^(٤) هذه بزائده

ثلاث نظائر

٤٤- والفتح والحديد والتكوير
٤٥- تسع وعشرون سواء فانظر

نظائر يا أيها النحر^(٥)
في عدد الكوفي وأسأل تخبر

نظيرتان

٤٦- والحجرات أختها التعانين
٤٧- كلاهما عدد ثمانين عشرة

في الآي إن ميّزت القرآن
وإن في القرآن كل العبرة

(١) في المخطوط: "وسبا"، ولا يستقيم الوزن إلا بحذف الواو، وتسهيل الهمزة.

(٢) سجدة الحواميم: أي سورة فصلت. ينظر نص ابن الجوزي السابق، ومما يجدر التنبيه عليه أن تفعيلة العروض ليست موافقة لتفعيلة لضرب.

(٣) سورة الملائكة المذكورة في هذا البيت هي سورة فاطر. ينظر نص ابن الجوزي السابق.

(٤) في جمهرة الإسلام ذات النشر والنظام: "من هذه".

(٥) ورد البيت محرفاً في جمهرة الإسلام ذات النشر والنظام هكذا: "بأيها التحير".

نظيرتان

نَظِيرَةٌ لِلنَّبَأِ الشَّرِيفَةِ
تَعْدُ أَرْبَعِينَ أَرْبَعِينَ

٤٨- وَسُورَةُ الْقِيَامَةِ الْمَخْرُوفَةِ
٤٩- كِلَاهُمَا فَاسْتَمِعِ الْيَقِينَا

نظيرتان

مِثْلُ الْبُرُوجِ فَاتَرَكَ الْمَجَادِلَةَ^(١)
وَالسُّورَتَانِ عُدَّتَا أُخْتَانِ^(٢)

٥٠- وَإِنَّ آيَةَ سُورَةِ الْمَجَادِلَةِ
٥١- عِشْرُونَ عِشْرُونَ وَأَيَّتَانِ

نظيرتان

أُخْتَانِ وَاللَّهُ بِمَا عَلِيمٌ
وَمِثْلَهَا الْأُخْرَى وَمَنْ يَسْأَلْ يُقَدْ

٥٢- وَسُورَةُ الطَّلَاقِ وَالنَّحْرِيمِ
٥٣- هَذِي اثْنَتَا عَشْرَةَ آيَةً عَدَدٌ

خمس نظائر

فَعَدُّهَا إِنْ شِئْتِ أَلْفَ مَرَّةٍ
هَذَا الَّذِي فِي عَدِّهِنَّ اتَّصَحَا^(٣)
وَأَلَيْسَ فِيهَا^(٤) ذِكْرُ مَا مَنَازَعَهُ

٥٤- وَسُورَةُ الْجُمُعَةِ إِحْدَى عَشْرَةَ
٥٥- وَمِثْلَهَا الْمُنَافِقُونَ وَالضُّحَى
٥٦- وَالْعَادِيَاتُ مِثْلَهَا وَالْقَارِعَةُ

نظيرتان

عِشْرُونَ تَأْتِي بَعْدَهَا ثَمَانِ

٥٧- وَنُوحٌ وَالْجِنُّ نَظِيرَتَانِ

(١) في جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام: "المخادلة".

(٢) في جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام: "عشرون واثنتان... عددان"، وفي مخطوط مكتبة البلدية:
"سورتان عددان".

(٣) في جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام: "أنصحا".

(٤) في جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام: "فيها".

نظيرتان

- ٥٨- وَإِنْ قَرَأْتَ سُورَةَ الْمُزَّمِّلِ
٥٩- وَجَدْتَهَا إِذَا تَحَرَّرَ الْعَدَدُ
٦٠- عَشْرُونَ عَشْرُونَ بِلا زِيَادَة
ثُمَّ عَدَدَتْ أَيُّهَا فِي مَهَلٍ
قَدْ وَافَقَتْ آيَاتُهَا آيَ الْبَلَدِ^(١)
إِنْ كُنْتَ مِنْ يَطْلُبُ الْإِفَادَة

ثلاث نظائر

- ٦١- وَالانْفِطَارُ فَهِيَ^(٢) أَخْتُ «سَبَّحَ»^(٣)
٦٢- تِسْعٌ وَعَشْرٌ وَكَذَلِكَ الْعَلْقُ
وَلَسْتُ بِالشَّارِحِ مَا لَا يُشْرَحُ^(٤)
نَظَائِرٌ فِي أَيُّهَا تَتَوَقَّعُ^(٥)

خمس نظائر

- ٦٣- لِلانْتِزَاحِ فِي الْقُرْآنِ أَرْبَعُ
٦٤- فَسُورَةُ التَّيْنِ لَهَا نَظِيرَةٌ
٦٥- وَسُورَةُ الزُّلْزَالِ وَالتَّكْوِينِ
٦٦- آيَاتُ كُلِّ سُورَةٍ ثَمَانِ
نَظَائِرٌ وَالْحَقُّ لَيْسَ يُدْفَعُ^(٦)
و«لَمْ يَكُنْ»^(٧) إِذَا عَدَدْتَ السُّورَةَ
وَلَيْسَ فِيهَا قُلُوبٌ تُشَاجِرُ
وَقَدْ أَبْنَيْتُ غَايَةَ الْبَيَانِ

(١) في مخطوط مكتبة البلدية: "تجزم".

(٢) في مخطوط الرياض: "هي".

(٣) هي سورة الأعلى. ينظر هامش فنون الألفان في علوم القرآن، ص ٣٢٩.

(٤) شرح الناظم ما لا يشرح في هذه المنظومة كما في قوله: "بمكة ومكة أم القرى"، وقوله: "وتترب فهي مدينة النبي".

(٥) ورد البيت محرفاً في جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام هكذا: "وعشرون كذاك ... أيهن ينفق"، والعدد هنا غير مطابق لعدد الآيات في هذه السور.

(٦) في جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام: "والانتشراح".

(٧) ورد البيت محرفاً في جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام هكذا: "في أيها"، والمقصود ب«لم يكن» سورة البينة، نظر الشاعر إلى بدايتها.

أربع نظائر

- ٦٧- والقَدْرُ وَالْفَيْلُ وَ﴿تَبَّتْ﴾ وَالْفَالِقُ
٦٨- لَيْسَ تَزِيدُ سُورَةٌ عَلَى خَمْسٍ
نَظَائِرُ آيَاتِهِنَّ^(١) تَتَّفِقُ^(٢)
فَهَلْ تَرَى فِيهَا ذَكَرْتُ^(٣) مِنْ لَبْسٍ؟

ثلاث نظائر

- ٦٩- وَالْعَصْرُ وَالكَوْثُرُ وَالنُّصْرُ فَقَدْ
٤٠- ثَلَاثُ آيَاتٍ بِإِلَافٍ
تَوَافَقَتْ آيَاتُهُنَّ فِي الْعَدَدِ
وَقَدْ أَقْدَتْ غَايَةَ الْإِقَادَةِ

نظيرتان

- ٧١- وَسُورَةُ الـ﴿إِلَافِ﴾ وَالْإِخْلَاصِ
٧٢- أَرْبَعُ آيَاتٍ سَوَاءً عَدَدًا
أُخْتَانِ مَا الطَّائِعُ مِثْلُ الْعَاصِي^(٤)
فَاكْشِفْ عَنِ الشَّيْءِ وَدَعْ مَنْ قَلَّدَا

نظيرتان

- ٧٣- وَالْكَافِرُونَ فَهِيَ أَخْتُ النَّاسِ
كَلَاهُمَا سِتُّ بِإِلَافٍ

(١) في جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام: "وَأَيُّهُنَّ".

(٢) في هذا البيت إبطاء، حيث كررت كلمة القافية خلال سبعة أبيات بلفظها ومعناها.

(٣) في جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام: "فِيْمَا أَقُولُ".

(٤) سورة إيلاف هي سورة قريش، ويدايتها: ﴿إِلَافٍ قَرِيْشٍ﴾، وألجأ الشاعر الوزن إلى قوله: "الإيلاف".

نجزت والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وأله وصحبه وسلّم تسليماً
نظم الشيخ الإمام العالم أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج رحمه الله.
﴿رب هب لي من لدنك﴾^(١) رحمة ومغفرة وعلماً، ﴿إنك أنت الوهاب﴾^(٢).

ترجمة هذه القصيدة: كتابٌ فيه نظائر القرآن العظيم، تصنيفُ الشيخ الإمام
العالم أبي محمد جعفر بن أحمد الحسين السراج البغدادي - رحمه الله - رواية
الشيخ الإمام العالم الأوحى مجد الدين أبي الفضل عبدالله بن أحمد بن محمد ابن
عبدالقاهر الطوسي الخطيب عنه رواية إسماعيل بن عمر بن أحمد القرشي
الأندلسي عنه، منقول من مشيخة بن عبدالدائم^(٣).

(١) سورة آل عمران، الآية (٣٨).

(٢) سورة آل عمران، الآية (٨).

(٣) "مشيخة بن عبدالدائم: كتاب فيه أسماء شيوخه، كسائر كتب المشايخ، وهو منشور بتحقيق الأستاذ إبراهيم صالح في دار البشائر، دمشق، عام ١٩٩٧م، وابن عبدالدائم هو ابن نعمة (٥٧٥ - ٦٦٨هـ) أحمد بن عبدالدائم ابن نعمة المقدسي، أبو العباس، زين الدين: نسّاخ، من شيوخ الحنابلة، عالم بالحديث". الأعلام ١/١٤٥.

ما نسب إليه خطأ

(٣٤) ونُسب إليه وليس له^(١): [من المتقارب]

- ١- إذا كان يؤذيك حرُّ المصيدِ فِ يَبْسِ الخريفِ وبردُ الشتاءِ
٢- ويُلْهِيكَ طيبَ زمانِ الربيدِ عِ فأخذك للعلمِ قلُّ لي: متى؟

(٣٥) ونسب السَّراجُ البغداديّ لنفسه وليس له^(٢): [من الطويل]

- ١- أسألتُ أتَى الدَّمعِ فَوْقَ أسيلِ وَمَأَلْتُ لظِلِّ بِالعِرَاقِ ظَيلِ

ومنها:

- ٢- أسَرْتُ أَخَانًا بِالخِدَاعِ وَإِنَّهُ يُعَدُّ إِذَا اشْتَدَّ الوَعَى بِقَبيلِ
٣- فَإِنْ تُطْلِقِيهِ تَرْتَجِي شُكْرَ قَوْمِهِ وَإِنْ تُقْتَلِيهِ تُوَخِّذِي بِقَتيلِ
٤- وَإِنْ عَاشَ لَأَقَى ذَلَّةً وَاحْتِيَاةً وَقَفَاةً عَزِيزًا لِاحْيَاةِ ذَليلِ

تخرجات وروايات وفوائد جديدة:

- يضاف لمؤلفات السراج البغدادي المذكورة في مقدمة الديوان كتاب: "منتخب الفوائد الصحاح العوالي"، تخرّيج: أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، بتحقيق أبي همام محمد بن علي الصومعي البيضاني، وصدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م عن دار الاستقامة بالقاهرة، وتقع في مئتين، وتسع صفحات.

(١) البيهقي له في مرآة الزمان / ٤٧٤، وهما لابن فارس في والمنتحل، ص ٢٤٩، ومعجم الأدباء ص ٤١٤، والوافي بالوفيات ٢٨٠/٧.

(٢) التخرّيج: مصارع العشاق ٣٠٢/١، والغريب في الأمر أن السراج نسبها لنفسه في كتابه هذا في حين أن الأبيات لأبي العلاء المعري في شروح سقط الزند، ص ١٠٤١ - ١٠٤٤، وورد البيت الثالث فيه برواية: "ملكي شكر".

- رقم (٧) في غداء الألباب في شرح منظومة الآداب ٤١٨/١.
- ورد في مقدمة الديوان، ص ٨ ما نصه: "كما أن مصادر دراسته جميعها لم تشر إلى وجود ديوان وإنما تكتفي بالقول: وكان له شعر جيد غير أنني أستنتج من خلال المقطوعات التي حصلت عليها أن له قصائد فقدت، وربما كانت مجموعة في ديوان شعر ضاع مع الأيام". وأقول: هناك ما يؤكد هذا الافتراض، وهو ما ورد في مرآة الزمان ٤٧٣/٢، حيث قال مؤلفه: "وله ديوان شعر".
- رقم (٢٠) له في أسواق الأشواق الورقة ١٢٥ / ٢.
- القصيدة رقم (٢٢)، ص ٧٥ في مصارع العشاق ٢٤٠/١ ما عدا البيت الرابع.
- المقطوعة رقم (٢٩)، ص ٧٩ - ٨٠ له في مرآة الزمان ٤٧٣/٢، وورد البيت الخامس فيه برواية: "فكابر".
- النتفة رقم (٣١)، ص ٨٢ له في لمح الملح، ص ٥٧٩، والدر الفريد ٦٨/١، ومرآة الزمان ٤٧٤/٢، ورواية البيت الأول في لمح الملح هي: "يطربهم"، وروايته في الدر الفريد هي: "الدار حلولا... فيها"، ورواية البيت الثاني في لمح الملح هي: "فكم بينه".
- النتفة رقم (٣٣)، ص ٨٢ له في البدر السافر ٢٢٦/١.
- النتفة رقم (٣٤)، ص ٨٣ له في البدر السافر ٢٢٧/١.
- المقطعة رقم (٥٢)، ص ٩٦ له في مرآة الزمان ٤٧٣/٢، والبيت الرابع فيه برواية: "والقلب خلوا"، وورد البيت الأخير فيه هكذا: "من ما وصلهم".

- المقطوعة رقم (٥٩)، ص ١٠٣ له في مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن
١٠١/٢، ورواية البيت الأول فيه هي:

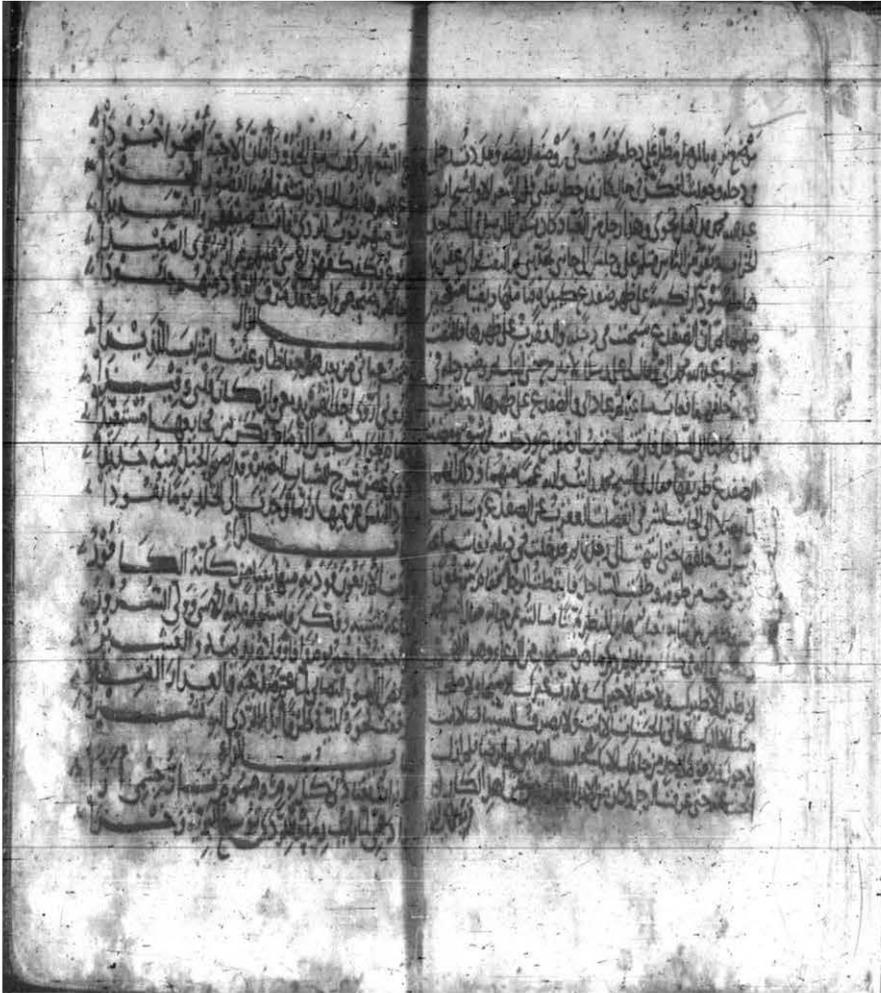
بين الحطيم وزمزم والركن والحجر المقبل

وروايته في الديوان هي:

بين الحطيم وزمزم والحجر والحجر المقبل

- النتفة رقم (٨٣)، ص ١٢٠ له في منتقى من السفينة البغدادية للسلفي ٥٨،
ومرأة الزمان ٤٧٤/٢، وقد سقط منه الجار والمجرور (فيه) من صدر
الشطر الثاني، ويوضع في ديباجتها: "وقال في أصحاب الحديث" كما وردت
في هذا المصدر.

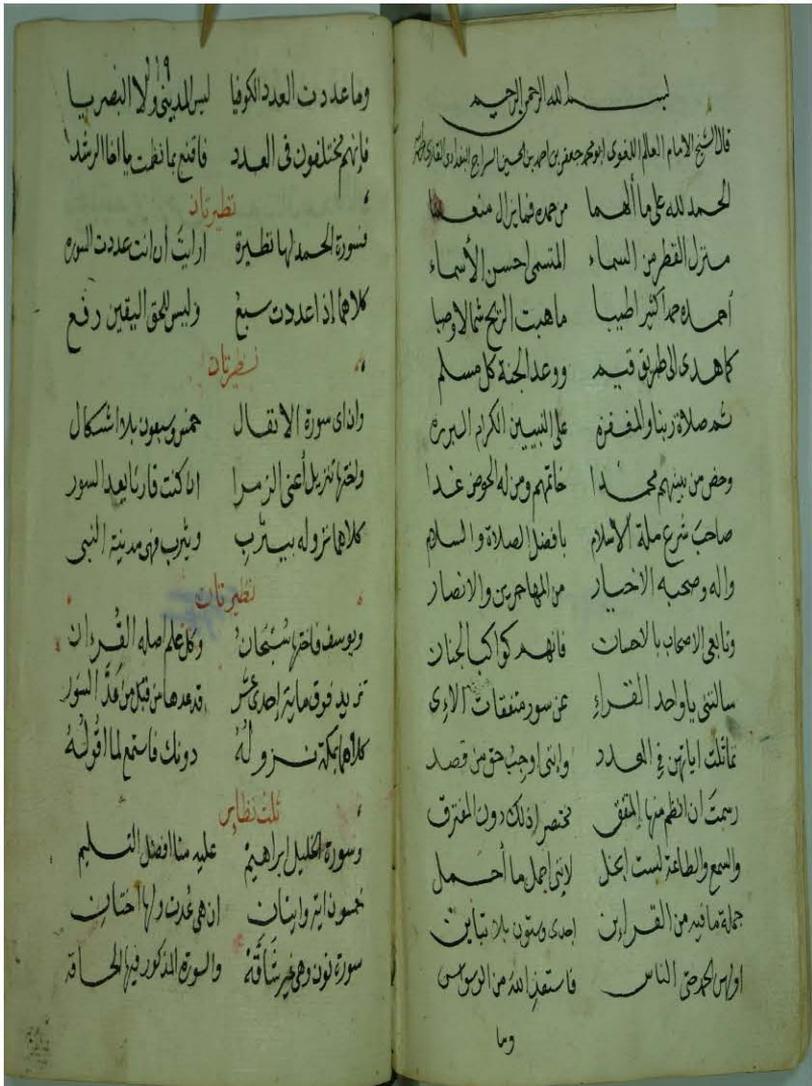
- خدم المحقق الديوان بسبعة فهارس ليس من بينها فهرس للمصادر
والمراجع.



صورة الصفحتين ٣٥، ٣٦ من مخطوط عيون الأخبار، وفيهما المقطعة الذالية المنسوبة للسراج البغدادي في معجم الأدباء، ص ٧٧٩، ومخطوط البدر السافر عن أنس المسافر، ص ١٢٢٧، والمثبتة في ديوانه، ص ٦٩، وعن طريقها اكتشفت بقية شعره الملتقط من هذا المخطوط.



صورة الورقة الأولى من أرجوزة السور المثققات الآي، مخطوطة مكتبة البلدية بالإسكندرية، رقم (١٣٩٩)، ومنها مصورة في مكتبة معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى برقم (١١٤٣) علوم قرآن، وعليها كان الاعتماد في التحقيق.



صورة الورقة الأولى من أرجوزة السُّور المَثَقَّات الآي، مخطوطة مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، رقم (٢٦٣٧) علوم القرآن الكريم.

المصادر

- ١- أدب الإملاء والاستملاء: لعبدالكريم بن محمد السمعاني (ت ٥٦٢ هـ)، تحقيق: ماكس فايسفايلر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ.
- ٢- أساس البلاغة: للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، تحقيق: محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٣- أسواق الأشواق في مصارع العشاق: لإبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٥٥٨ هـ)، مخطوط بمكتبة الإسكوريال، رقم (٤٦٨).
- ٤- إصلاح المنطق: لابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ)، تحقيق: عبدالسلام هارون، وأحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر.
- ٥- الأعلام: لخير الدين الزركلي (ت ١٣٩٦ هـ)، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.
- ٦- أعيان العصر وأعوان النصر: للصفدي (ت ٧٦٤ هـ)، تحقيق: علي أبي زيد، وآخرين، دار الفكر، بيروت، دمشق، ط١، ١٩٩٨م.
- ٧- الأنساب: لعبدالكريم السمعاني، ج ١١، أشرف على هذا الجزء وضبطه: رياض مراد، مطبع الحافظ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٩٨٤م.
- ٨- البدر السافر عن أنس المسافر: للأدفي (ت ٧٤٨ هـ)، تحقيق: محمد فتحي، ط١، ١٩٩٧م.
- ٩- تاج العروس من جواهر القاموس: للزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ)، تحقيق: ليف من المحققين، سلسلة التراث العربي، الكويت، سنوات متباعدة.
- ١٠- تاريخ دمشق: لابن عساكر (ت ٥٧١ هـ)، دراسة وتحقيق: عمر العمروي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٧م.

- ١١- جزء الحلوى، وهو جزء فيه أخبار وحكايات وأشعار: لمحمد بن عبدالله البندنجي، المعروف بابن عُجَيْفَة (ت ٦٢٥هـ)، تخريج ابن النجار (ت ٦٤٣هـ)، ويليه جزء فيه أربعة أحاديث مروية عن النبي - صلى الله عليه وسلم - لنصر بن إبراهيم المقدسي (ت ٤٩٠هـ)، باعثناء: محمد التكلة، دار البشائر الإسلامية، ط ١، ٢٠١٢م.
- ١٢- جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام: للشَّيْزُرِيِّ (ت ٦٢٢هـ)، تحقيق: محمد إبراهيم حُور، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٥م.
- ١٣- جمهرة اللغة: لابن دريد الأزدي (ت ٣٢١هـ)، رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.
- ١٤- ديوان أبي ذؤيب الهذلي، تحقيق وشرح: أنطونيوس بطرس، دار صادر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م.
- ١٥- ديوان السراج البغدادي (ت ٥٠١هـ)، جمع ودراسة: عادل العزاوي، مطبعة العاني، بغداد، ط ١، ١٩٩٠م.
- ١٦- ديوان عبدالرحيم البرعي (ت ٨٠٣هـ)، طبعه حسن الرشدي وغيره، ١٢٨٦هـ.
- ١٧- ابن السراج البغدادي ونظرات في تراثه الأدبي: لعلي محمد طلب، مجلة كلية اللغة العربية، أسيوط، ٤٤، ١٩٨٤م.
- ١٨- شروح سقط الزند: للتبريزي، والبطلِّيوسِيّ، والخوارزمي على ديوان أبي العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ)، تحقيق: لجنة من المحققين بإشراف د. طه حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.
- ١٩- الصلّة في تاريخ أئمّة الأندلس: لابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ)، تحقيق: بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ٢٠١٠م.

- ٢٠- ضرائر الشعر: لابن عصفور الإشبيلي (ت٦٦٩هـ)، تحقيق: السيد إبراهيم محمّد، دار الأندلس، ط١، ١٩٨٠م.
- ٢١- ضرورة الشعر: لأبي سعيد السيرافي (ت٣٦٨هـ)، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
- ٢٢- العين: للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
- ٢٣- عيون الأخبار وُغُرِّ الحكاياتِ والأشعارِ المستخرجة من سائر الأصقاع والأمصّار: لمجهول، أثبت أنه لمحمد بن علي بن محمد الأنصاري الموصلي (ت٦٠٠هـ)، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم (٢٠٣٦) أدب.
- ٢٤- غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب: لمحمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (ت١١٨٨هـ) مؤسسة قرطبة، مصر، ط٢، ١٩٩٣م.
- ٢٥- فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي: لمحمد بن عبدالرحمن السخاوي (ت٩٠٢هـ)، تحقيق: علي حسين علي، مكتبة السنة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
- ٢٦- فنون الأفتان في عيون علوم القرآن: لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، حققه وأكمل فوائده: حسن ضياء الدين عتر، دار البشائر، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
- ٢٧- لسان العرب: لابن منظور (ت٧١١هـ)، تحقيق: عبدالله الكبير، وآخرين، مصر، ١٤٠١هـ.
- ٢٨- لمح الملح: للحظيري (ت٥٦٨هـ)، تحقيق: يحيى عبدالعظيم، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ٢٠٠٧م.

- ٢٩- مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن: لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم، دار الراية، الرياض، ط ١، ١٩٩٥م.
- ٣٠- المدخل المفصل لمذهب الإمام أحمد وتخرجات الأصحاب: ليكر أبي زيد، دار العاصمة، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي، جدة، ط ١، ١٤١٧هـ.
- ٣١- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في ما يعتبر من حوادث الزمان: لليافعي (ت ٧٦٨هـ)، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.
- ٣٢- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: لسبط بن الجوزي (ت ٦٥٤هـ)، تحقيق: مسفر الغامدي، جامعة أم القرى، ١٩٨٧م.
- ٣٣- مصارع العشاق: للسراج البغدادي (ت ٥٠٠هـ)، بعناية: كرم البستاني، دار صادر، بيروت.
- ٣٤- معجم الأدياء: لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٣م.
- ٣٥- معجم البلدان: لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط ٢، ١٩٩٥م.
- ٣٦- معجم اللغة العربية المعاصرة: أحمد مختار عمر (ت ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٨م.
- ٣٧- المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، طبعة دار الشروق، القاهرة، ط ٤، ٢٠٠٤م.
- ٣٨- المنتحل: لأبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، صححه: أحمد أبو علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

- ٣٩- منتقى من السفينة البغدادية: لأبي طاهر السلفي، أحمد بن محمد (ت ٥٧٦هـ)، تحقيق: أبي عبد الباري رضا، مكتبة ودار ابن حزم، الرياض (طبع مع قصيدة من إنشاء السلفي)، ط ١، ٢٠٠٣ م.
- ٤٠- النحو المصفى: محمد عيد، مطبعة دار نشر الثقافة، ١٩٧٥ م.
- ٤١- نظرات في كتاب مصارع العشاق: لعنان محمد أحمد، مجلة التراث العربي، دمشق، ٧٣ع، ١٩٩٨ م.
- ٤٢- نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار : حاشية السيوطي (ت ٩١١هـ) على تفسير البيضاوي، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، ٢٠٠٥ م.
- ٤٣- الوافي بالوفيات: لصالح الدين الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: نخبة من المحققين، دار نشر فرانز شتاينر، شتوتجارت، نشر على سنوات متعددة.
- ٤٤- وفيات الأعيان: لابن خلكان (ت ٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- ٤٥- رابطان إلكترونيان:

<http://www.tafsir.net/vb/tafsir9347/>

<http://www.alukah.net/sharia/0/57876/#ixzz2yDUYGdcx>

شعر سعد بن ناشب (ت ١١٠هـ / ٧٢٨م):
تقديم وجمع وتحقيق

حامد كساب عياط

أستاذ مشارك - قسم اللغة العربية

جامعة اليرموك

ملخص

يهدف البحث إلى جمع شعر الشاعر سعد بن ناشب، وتحقيقه، وتخريجه من مصادره، وإخراجه على شكل ديوان مرتب على حروف الهجاء، وإلى التقديم له بمقدمة، ومدخل، ودراسة. وقد تحدثت في المقدمة عن البحث من حيث فكرته وهدفه ومنهجه. وفي المدخل تحدثت عن قلة العناية بالشاعر وشعره في المصادر العربية القديمة وفي الدراسات المعاصرة، اللتين لم تشيرا إليه إلا بالماعات مختصرة أو بإشارات سريعة. وقد اجتهدت في صنع ترجمة للشاعر، توسعت فيها قياساً بالترجمات التي أوردها المصنفون العرب القدماء والدارسون المعاصرون، على قلتها في الحالتين. كما نبّهت في البحث على قلة شعر الشاعر، واقتصاره على موضوع الحماسة دون غيره، أتبع ذلك بدراسة مختصرة تضيء بعض جوانب هذا الشعر من الناحيتين الموضوعية والفنية. ثم رتبت الشعر على حروف الهجاء في قسم خاص من البحث، أتبع ذلك الخاتمة، وتبناً بأسماء المصادر والمراجع مرتباً على حروف الهجاء.

المقدمة:

يعود اهتمامي بالشاعر سعد بن ناشب وبشعره إلى مطلع الثمانينات من القرن الماضي، فقد تبهت له ولشعره من خلال دراستي لأحد مساقات برنامج الماجستير التي درستها آنذاك، ولحظت حينها أن المادة الشعرية والأخبارية عنه قليلة في المصادر العربية المطبوعة، كما لحظت عدم وجود ديوان له أو مجموع شعري يضم أشعاره ويقدمها إلى القراء بين دفتي مطبوع يسهل عليهم أمر الرجوع إليها والإفادة منها عند الحاجة، فاهتمت من حينها بهذا الشاعر المجهول وبتقصي أشعاره وأخباره في المصادر العربية التي كانت تظهر تباعاً. ولكن الأمر ظل مجرد اهتمام وحسب، تمنع قلّة المعلومات عنه من تجسيدها في عمل أكاديمي معقول. وقد لحظت أثناء تلك الفترة أن شعر الشاعر - على قلّته - له طبيعة خاصة، ونكهة خاصة راجعتان إلى خصوصية تجارب الشاعر الحياتية التي عاشها في البصرة وصحرائها في تلك الفترة المبكرة من التاريخ العربي الإسلامي، وإلى تجاربه الشعرية وما تتضمنه من حالات نفسية، يجب التنبه لها، والاهتمام بها، عند دراسة شعره.

وسأقوم في البحث - إن شاء الله - بالتقديم لشعر الشاعر من خلال مدخلٍ أشير فيه إلى قلّة عناية المصنفين العرب القدماء والدارسين المعاصرين بالشاعر وشعره، وسأستعرض الجهود القليلة التي قام بها بعضهم من باب الإشارة إليها من جهة، ومن باب تقييمها من جهة أخرى. كما سأعرّف بالشاعر، من خلال ترجمة أصنعها له مما سأجمعه من معلومات وأخبار متفرقة في المصادر العربية، ومما يمكن استخلاصه من شعره، خاصة وأن بعض أشعاره قد قالها في ظروف حياتية شخصية خاصة، أو في مناسبات قبلية تتعلق بقومه الأقربين، ما سيفيدنا في الإضاءة على بعض جوانب حياته المجهولة. كما سأنبه على قلّة شعره وسبب ذلك، وعلى اقتصار هذا الشعر على غرض الحماسة وحده. كما سأقوم بجمع شعر

الشاعر، وتحقيقه، وضبطه، وتخريجه من مصادره المختلفة. وسأقدم كذلك لشعره بدراسة قصيرة تضيء بعض جوانبه الموضوعية والفنية، تاركاً أمر التوسّع فيها لمن يرغب في ذلك لاحقاً. وسأذكر أسماء المصادر والمراجع التي أفدت منها في البحث في هوامش صفحاته بشكل مختصر، كي لا يتضخّم حجمه، تاركاً تفصيلها البيبليوغرافي إلى ثبّت المصادر والمراجع، الذي رتبته حسب أسماء الكتب على حروف الهجاء.

إن هذا البحث معني بالتعريف بشاعر مقلّ، لم يشتهر عند نقاد الشعر في عصره - ولا في العصور اللاحقة - إلا ببيت أو بيتين؛ لم يتنبّه إليه أحد قبل أبي تمام، فقد اختار له قصيدة ومقطوعتين، ووصل عدد أبيات القصيدة اثني عشر بيتاً. إن هذا الجهد العلمي المتواضع يهدف إلى توفير أرضية صالحة قد تدفع بباحثين آخرين إلى استكمال هذا الجهد وتتبع أشعار الشاعر وأخباره بشكل أكبر، من خلال مصادر قد تظهر لاحقاً، أو من خلال أخرى قد يكون فاتني أمر الإحاطة بها، ما قد يساعد على دراسة شعره بشكل أوسع في إطار الظروف التاريخية التي عاشها، أو من خلال التركيز على شعره، ودراسته في إطاره الموضوعي والفني اللذين عالجننا بعض جوانبهما في هذه الدراسة.

وتأتي أهمية شعر سعد بن ناشب إضافة إلى ما قدمنا؛ من كون قائله أحد شعراء عصور الاحتجاج اللغوي، فقد عاش الشاعر في البصرة وصحرائها في النصف الثاني من القرن الأول الهجري ومطلع القرن الثاني الهجري أيام الدولة المروانية.

المدخل:

لم يُعرف لسعد بن ناشب ديوان شعر لدى قداماء رواة الشعر العربي، ولم تشر مصادر التراث العربي إلى شيء من ذلك. وعلى الرغم من ظهور الشاعر في فترة مبكرة من تاريخ الشعر العربي أنّ أحداً لم يعن بشعره قبل اختيار أبي تمام

(ت ٢٣١هـ) بعض شعره في حماسته، فهو أول من أشار إليه من القدماء، حيث أظهر عناية فائقة بالشعراء المقلين والمجهولين، "ممن ليس لهم في الغالب دواوين ... فاختار لهم نصيباً وافراً من الشعر يقلُّ عنه بكثير ما اختاره للشعراء اللامعين، ولعله أدرك أن شعر البارزين المشهورين من الشعراء مستقصى بين أيدي الناس، تفرضه مكانتهم ومنزلتهم، أما شعر المقلين فهو مغمور مجهول؛ على الرغم مما ينطوي عليه من روائع"^(١).

ومن الغريب أن ابن جنِّي (ت ٣٩٢هـ) لم يشر إلى سعد بن ناشب، ولم يفسر معنى اسمه، فيما فسره من معاني أسماء شعراء الحماسة في كتابه "المبهج في تفسير أسماء شعراء ديوان الحماسة"، فقد فسر معاني أسماء من كانت أسماؤهم تحتل القول فيها^(٢)، ويبدو أنه لم ير أن اسم سعد يحتاج إلى تفسير على الرغم من احتوائه على اسم ناشب الذي يمكن تفسيره والقول فيه. ومن الغريب أيضاً أن ميمون بن المبارك (ت ٥٨٩هـ) لم يشر إليه ولا إلى شعره في "منتهى الطلب من أشعار العرب"، على الرغم من سعة كتابه وشموله، واختياره لأكثر من ألف قصيدة لشعراء عصور الاحتجاج من جاهليين ومخضرمين وإسلاميين، كثيرين ومقلين، ويبدو أن المانع هو أن معظم شعره كان مقطوعات لا قصائد. في حين أشارت بعض المصادر العربية القليلة التي جاءت بعد أبي تمام إلى سعد بن ناشب وشعره إشارات جزئية مقتضبة: فقد ذكره شراح حماسة أبي تمام باعتباره جزءاً منها، كالمرزوقي (ت ٤٢١هـ)، وأبي العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ)، والأعلم الشنتمري (ت ٤٧٦هـ)، والتبريزي (ت ٥٠٥هـ)، والجواليقي (ت ٥٤٠هـ) وغيرهم من شراح الحماسة الآخرين، كما ذكره بعض أصحاب الحماسات اللاحقة، وبعض كتب الأدب والنحو، التي اختار مصنفوها من أشعاره، أو أشاروا فيها إلى بعض أخباره.

(١) حماسة أبي تمام، تحقيق: عسيلان، ج ١، ص ٤٥، معجم شعراء الحماسة، ص ١.

(٢) المبهج في تفسير أسماء شعراء ديوان الحماسة، ص ٢٠.

ومتلماً كانت عناية الرواة والمصنفين العرب القدماء بسعد بن ناشب وشعره قليلة؛ فقد كانت عناية الباحثين في تاريخ الشعر العربي من العرب المعاصرين أو المستشرقين به وشعره قليلة هي الأخرى، فقد كانت اهتماماتهم ودراساتهم - في أغلبها - منصبة على الشعراء الكبار اللامعين، والمشهورين الكثيرين، وقد نجد لهم العذر في هذا الإحجام عن سعد وشعره، فقد تكون قلة المعلومات عنه، وقلة شعره المنشور؛ هما السبب في ذلك. بل إن المؤرخين المعاصرين للشعر العربي والدارسين الذين درسوا عصر الشاعر في كتب مستقلة لم يشيروا إليه: فلم يشر إليه كارل بروكلمان في كتابه "تاريخ الأدب العربي"^(١)، ولم يشر إليه ولا إلى شعره كذلك أحمد كمال زكي في كتابه "الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري" لا من قريب ولا من بعيد، على الرغم من شمول فترة دراسته كامل الفترة التي عاش فيها الشاعر. ومع أن الباحث أجاد في الحديث عن البصرة مكاناً وسكاناً وتكويناً فكرياً وعلمياً، وعلى الرغم من استعراضه الأدب نثراً وشعراً فيها في فترة دراسته؛ إلا أنه ركز على القرن الهجري الثاني وعلى الأدب العباسي خاصة أكثر من عنايته بالقرن الهجري الأول، فتحدث عن بعض الناثين وبعض الشعراء ممن يمتون إليها بصلة، كابن المقفع وبنار بن برد وأبي نواس حديثاً موسعاً.

وكذلك لم يشر عون شريف قاسم إلى سعد بن ناشب وشعره، ولم يعن بما قاله الشاعر من شعر وجهه إلى بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري^(٢)؛ وذلك في كتابه "شعراء البصرة في العصر الأموي: دراسة في السياسة والاجتماع"،

(١) راجع: تاريخ الشعر العربي، ج ١، وقد يكون عذر بروكلمان في عدم ذكره سعد بن ناشب وشعره أنه لم يعثر على مخطوطة لديوانه أو من يشير إلى ذلك ليذكره في كتابه أو ملحقه.

(٢) تولى شرطة البصرة عام ١٠٩هـ، في إمارة خالد بن عبدالله القسري - والي العراقين لهشام بن عبدالملك بين عامي ١٠٥هـ - ١٢٠هـ، ثم جمع له خالد الصلاة والقضاء والشرطة، وبعد ذلك جعله نائباً له على إمارتها منذ سنة ١٠٩هـ، حتى عزل هشام خالداً عام ١٢٠هـ، وعزل معه عماله، ومنهم بلال بن أبي بردة، وعين يوسف بن عمر الثقفي والياً على البصرة بدلاً منه. وكان بلال ظلوماً، ما يبالي ما صنع في الحكم، ولم يكن مرضياً من الناس، قال مالك بن دينار لما ولي بلال بن أبي بردة: يا لك من أمة هلكت ضياعاً ولي أمرها بلال!، تاريخ خليفة بن خياط، ص ٣٥١، ٣٥٨، ٣٦١، أخبار القضاة، ج ٢، ص ٣٦-٣٧، تاريخ الطبري، ج ٧، ص ٥٣، ١٤٢، ١٥٣-١٥٤.

الذي عالج فيه موضوعات عديدة ذات صلة، منها علاقة الشعراء بالولاية في البصرة^(١)، وكأنه لم تكن لسعد بن ناشب علاقة ببلال! وهو صاحب شرطتها ثم قاضيتها وواليها بعد ذلك، وهو الذي أكثر من توعده وقومه! كما سنرى في شعره لاحقاً.

ولكننا لم نعدم بعض الكتب المعاصرة التي أشارت إلى الشاعر وشعره بشكل مقتضب - مثلها في ذلك مثل الإشارات التي وردت عنهما في المصادر العربية القديمة - فقد أشارت إليه بعض كتب الأدب العربي المعنية بالعصور الأولى من تاريخ الشعر العربي المؤلفة في القرن العشرين والقرن الحالي، وذلك من خلال عنايتهم بكتاب حماسة أبي تمام، ومن ذلك كتاب: "أسرار الحماسة" لسيد علي المرصفي (ت ٩٣٢م)، وبعض كتب تراجم الشعراء المختصرة المعنية بالعصور الشعرية العربية الأولى ومنها العصر الأموي، ك: "موسوعة شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي" لعبد عون الروضان، و"موسوعة الأدب والأدباء العرب في روائعهم: الجزء الثالث: العصر الإسلامي والأموي" لإميل بديع يعقوب، و"معجم الشعراء المخضرمين والأمويين" لعزيزة فؤال مريدن، و"معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي" لعفيف عبدالرحمن. كما أشار إلى الشاعر بعض كتب تراجم الشعراء العرب العامة، ك "معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م"، لكامل سلمان الجبوري، وبعض كتب التراجم العامة، ككتاب "الأعلام"، لخير الدين الزركلي (ت ٩٧٦م)، وغيرهما مما ليس هنا مجال حصره. ومن اللافت للانتباه إشارة أوردها عبدالمنعم أحمد صالح محقق ديوان الحماسة برواية الجواليقي ذكر فيها أن نوري حمودي القيسي قد جمع شعر سعد ابن ناشب^(٢)، ولكنه لم يفصل شيئاً في هذه الإشارة، فلم يذكر العنوان المحدد لعمل

(١) راجع فصل: "الشعراء والولاية"، في كتاب "شعراء البصرة في العصر الأموي"، ص ١٧٣ - ٢٠٥.

(٢) ديوان الحماسة، رواية الجواليقي، ص ٣٤، حاشية رقم (١).

القيسي، ولا ببلوغرافية نشره، ولا المصدر الذي أخذ منه معلومته. وقد بحثت عن هذه الإشارة في كثير من المجالات والكتب فلم أجد شيئاً، وسألت عدداً من المختصين فأفادوا أنهم لم يسمعوا بذلك، ولكنني وجدت عبر الشبكة العنكبوتية من يذكر أن العمل منشور في مجلة معهد المخطوطات العربية، الصادرة سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، المجلد (١٨)، الجزء الأول، فعدت إليها، فإذا البحث المنشور فيها للمحقق نوري حمودي القيسي هو: "شعر الشمردل اليربوعي: دراسة وتحقيق"^(١)، وليس شعر سعد بن ناشب المازني كما ذكر عبدالمنعم أحمد صالح. وقد وجدت مقالة لعزالدين البدوي النجار^(٢) نشرها عام ١٩٩٠ بمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، عني فيها ببعض أخبار الشاعر ونسبه وأشعاره، وحاول البتّ في أمر صحتها، وسمّى مقالته "تحقيقات في اللغة والأدب العربية ١"، وكما نلاحظ فقد أعطى عنوان مقاله رقم (١) ليؤسس لسلسلة تحقيقات على النمط نفسه في شعر شعراء آخرين^(٣)، وبالفعل فقد تحدث في العام التالي ١٩٩١، المجلد (٦٦)، العدد (٤) عن أبي نواس وأشعاره، وهو الشاعر الذي حَقَّق ديوانه مستشرقون وعرب في زمن مبكر، ونُشر في طبعات عديدة، وقد سار الباحث فيه على المنهج نفسه الذي سار عليه في مقالته الأولى عن سعد بن ناشب. وقد قسم النجار مقالته عن سعد بن ناشب إلى قسمين: الأول - جعله تحقيقات في شعر الشاعر تشمل موضوعات اللغة والأدب والعربية^(٤)، والثاني - خصصه لما اكتنف شعره وأخباره وأشعاره من أوهام^(٥). واللافت أن الباحث النجار على الرغم مما قدم من جهد في

(١) مجلة معهد المخطوطات العربية، السنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، المجلد (١٨)، الجزء الأول، ص ٢٦٥-٣٣٠.

(٢) تحقيقات في اللغة والأدب والعربية ١، ص ٦٦٠.

(٣) تحقيقات في اللغة والأدب والعربية ٢، ص ٢٢٨-٢٣٩.

(٤) تحقيقات في اللغة والأدب والعربية ١، ص ٦٦٠.

(٥) السابق نفسه، ص ٦٧٦.

مقالته قد ظلَّ مصرّاً على رفضه فكرة تحقيق شعر الشاعر، مرجئاً العناية بذلك إلى حين ظهور مخطوطة ديوانه^(١)، وأضاف أنّ معلومات مقاله ترجع إلى فترة مبكرة من حياته العلمية تتيف على ربع قرن من تاريخ نشرها^(٢)، حيث "ندّ عني أشياء كأنني كنت رأيتها لسعد فيما عبر، ثم أعياني أن أهتدي إلى مواضعها الآن"^(٣). وظل النجار يؤكد أنه لن يصنع في شعر سعد وأخباره أكثر مما صنع في مقاله، وعلّل ذلك بقوله: "إنني ربما تركت طائفة من ذلك كما جاءت لقلّة وسائلي في التأدي فيها إلى ما أحب، ولضيق الزمان عن أن يتسع لأقصى ما يرجوه لبحثه باحث متتبع، وعلى أنني أخشى ألا أكون فرداً في ذلك، وأن يكون بعض ما توقفت فيه من أمر سعد داخلاً في قطعة ضخمة من التراث؛ تحقيق ما فيها ممتع الآن... لضعف المادة المتاحة، وقلّة غنائها في تخلص ما يروم المحقق تخليصه مما يتعرض له، راجياً... أن يكشف التتبع بأكثر مما فعلت"^(٤). ثم تحدث في القسم الثاني من مقاله عن الأوهام التي تتعلّق بأخبار تنسب إلى سعد بن ناشب، تقصّأها ما وسعه الجهد، وخلص إلى ما يستطيع أن يرتاح إليه فيها. ولكنه ظل يرفض فكرة تحقيق شعر سعد بن ناشب في الوقت الراهن، حرصاً منه على الظفر بقدر أكبر منه من خلال مخطوطة ديوانه التي يأمل أن تظهر لاحقاً، وهذا ما سيرسم صورة أوضح عنه وعن شعره.

وقد كان جهد النجار في مقاله جيداً، ولكنه قصّر هدفه فيها على أغراض محددة من حياة الشاعر وأخباره وأشعاره، وكان هدفه تحقيق الصحة فيها من عدمها، يقول: "وأنا أذكر من أمر سعد: نسباً وخبراً وشعرأ، لا على جهة

(١) تحقيقات في اللغة والأدب والعربية ١، ص ٦٦١.

(٢) نشرها سنة ١٩٩٠، تحقيقات في اللغة والأدب والعربية ١، ص ٦٦١.

(٣) تحقيقات في اللغة والأدب والعربية ١، ص ٦٦١، هامش الباحث رقم (١).

(٤) تحقيقات في اللغة والأدب والعربية ١، ص ٦٦٠-٦٦١.

الاستقصاء له، إذ كنت أرمي إلى غرضٍ غيره، أثبتّه هنا بأسره: تقييداً له، وتوطئة لما أحاوله من تحقيق ما وقع فيه مما يحتاج إلى تحقيق"^(١)؛ ويؤكد أن ما قام به من عمل في مقاله لا يتعدى التحقيقات المنفرقة في "اللغة والأدب والعربية"^(٢)، وما وقع في بعضها من أوهام وإشكالات؛ إلى تحقيق كامل لما ظهر من شعر سعد وأخباره.

ولكنني أرى ما لم يره الباحث النجار في أمر تحقيق شعر سعد بن ناشب؛ فقد ظهر بعد فترة جمعه مادة مقاله ونشرها؛ العديّد من المصادر العربية التي يتضمن بعضها قدراً من أخبار سعد بن ناشب وأشعاره، التي تتيح جمع ما يساعد على رسم بعض جوانب من صورته الكلية شخصياً وشعرياً، وأرى كذلك أنه قد حان الوقت لإخراج شعر سعد بن ناشب - على قلّته - في مطبوع يوضع بين أيدي القراء يفيدون منه، وما لا يدرك كُله لا يُترك جُله. وهذا ما أُنذب نفسي له في هذا البحث، وبذلك فإنني أقدم ما قد يضيء بعض الجوانب من حياته وأخباره وأشعاره، منتظراً مع غيري ظهور مخطوط لديوان الشاعر، فيُحقق حينها، ويُشر شعره كاملاً، ويلتحق الشاعر بعدها بشعراء عصره من أصحاب الدواوين المحققة المنشورة^(٣)، وتكتمل عندها صورة سعد بن ناشب الشعرية، ويكون جهدي حينها مقدمة لذلك الجهد المنتظر.

(١) تحقيقات في اللغة والأدب والعربية، ص ٦٦١.

(٢) السابق نفسه، ص ٦٦٠.

(٣) جلّ الشعراء المعاصرين لسعد بن ناشب لهم دواوين أو مجاميع شعرية منشورة، كتوبة بن الحمير (ت ٨٥هـ)، وليلى الأخيلية (ت ٨٥هـ)، والأخطل (ت ٩٠هـ)، والراعي النميري (ت ٩٠هـ)، ووضاح اليمن (ت ٩٠هـ)، وعمر بن أبي ربيعة (ت ٩٣هـ)، وعبدالله بن همام السلولي (ت ١٠٠هـ)، وكثير عزة (ت ١٠٥هـ)، وثابت قننة (ت ١١٠هـ)، وجريز (ت ١١٠هـ)، والفرزدق (ت ١١٠هـ)، وذو الرمة (ت ١١٧هـ)، وسكينة بنت الحسين (ت ١١٧هـ)، والطرماح بن حكيم (ت ١٢٥هـ)، والوليد بن يزيد (ت ١٢٦هـ)، ويزيد بن الطثيرة (ت ١٢٦هـ)، وابن الدمينة (ت ١٣٠هـ)، ونصر بن سيار (ت ١٣١هـ)، وغيرهم كثير ليس هنا مجال حصرهم وإحصائهم.

ترجمته:

سعد، بفتح السين المهملة، وسكون العين المهملة، ابن ناشب، بكسر الشين المعجمة^(١)، ابن معاذ بن جعدة بن ثابت بن زرارة بن ربيعة بن يسار بن رازم بن مازن^(٢)، العنبري^(٣)، من بني مازن بن مالك بن عمرو بن تميم^(٤). وقد خلط ابن قتيبة في كتابه "الشعر والشعراء"^(٥) في اسمه، وفي ونسبه وأخباره، وتبعه أبو عبيد البكري^(٦) في هذا الخلط من بعده.

هذا اسم الشاعر ونسبه، أما نعوته وصفاته فكثيرة^(٧)، وكلها تشير إلى فنكه، وحدته، واعتداده بنفسه^(٨)، فقد ذكر المبرد ما يشير إلى مثل ذلك في معرض تعليقه على بيت شعر لأعرابي يمدح فيه معاصره سوار بن عبدالله (ت ٢٢٨هـ)^(٩)، يقول فيه^(١٠):

وأوقفُ عند الأمر ما لم يَضِحْ له وأمضي إذا ما شكَّ من كان ماضياً

-
- (١) الحيوان، ج ٦، ص ٢٤٣، نهاية الأرب، ص ٤١٣. خزنة الأدب، ج ٨، ص ١٤١، ١٤٥.
 - (٢) الشعر والشعراء، ج ٢، ص ٧٠٠، جمهرة أنساب العرب، ص ٢١٢.
 - (٣) الشعر والشعراء، ج ٢، ص ٦٩٦.
 - (٤) نهاية الأرب، ص ٤١٣.
 - (٥) الشعر والشعراء، ج ٢، ص ٦٩٦.
 - (٦) سمط اللاكي، ج ٢، ص ٧٩٢.
 - (٧) مثل هذه النعوت والتسميات عرفها الشعر العربي، فوجدنا تسمياتٍ مثل: ذؤبان العرب وشذاذهم، كالسليك ابن السلكة، وأغربة الشعراء، أي سودهم، وعبيد الشعر، أي محكوه، ومعيدو النظر فيه مرة بعد مرة.
 - (٨) كانت تميم معتدة بنفسها كثيراً، واعتدادها هذا جعلها تتسم بالشدة والغلظة في المحسوس من أمور حياتها، وقد يكون سعد أخذ هذه الشدة من قبيلته التي عرفت بمثل هذه الشدة، وهذه الحدة.
 - (٩) أبو عبدالله سوار بن عبدالله بن سوار بن عبدالله بن قدامة التميمي العنبري البصري، الإمام العلامة القاضي، وكان من فحول الشعراء فصيحاً مفوهاً، له شعر رقيق، كان هو وأبوه وجدته من قضاة البصرة، توفي عام ٢٤٥هـ، سير أعلام النبلاء، ج ١١، ص ٥٤٣-٢٤٤.
 - (١٠) الكامل في اللغة والأدب، ج ١، ص ٢٠٦.

فَعَقَّبَ المبرد على البيت معترضاً على منهج صاحبه في الحياة، قائلاً: "قالذي يُحْمَدُ إمضاء ما تبين رشده، فأما الإقدام على الغرر، وركوب الأمر على الخطر؛ فليس بمحمود عند ذوي الأبواب. وقد يتحسنُ بمثله الفتاك"^(١)، وتنتي بأبيات لسعد ابن ناشب تشبه في معناها معنى بيت ذلك الأعرابي، وتشير إلى اتصافه بالفتاك والحدّة، وإلى اتخاذه لهما منهجاً له في حياته، يقول^(٢):

إذا همّ ألقى بين عينيهِ عَزْمَهُ وَنَكَبَ عن ذِكْرِ الحوادثِ جانباً
ولم يستشر في أمره غير نفسه ولم يرضَ إلّا قائمَ السيفِ صاحباً

بل إن ابن حزم ليصفه بأنه من فتاك بني تميم بالبصرة^(٣)، ومما يجدر ذكره أن التاريخ العربي قد عرف مثل هؤلاء الفتاك في الجاهلية^(٤)، والإسلام^(٥).

ويظهر أن سعداً كان من الشعراء الفرسان المعدودين^(٦) في مازن، قبيلته القريبة، وهو كذلك من قادة قومه وسراتهم عامة، فقد مثل بين يدي بلال بن أبي بردة والي البصرة وصاحب شرطتها المذكور آنفاً، وكان قدم إليه في وفد من قومه

(١) الكامل في اللغة والأدب، ج ١.

(٢) السابق نفسه.

(٣) جمهرة أنساب العرب، ص ٢١٢.

(٤) من فتاك الجاهلية: الحارث بن ظالم، وعبدالرحمن بن قيس، وثابت شراً، وفاتك الأسدي وغيرهم، المحبر، ص ١٩٢-٢١٢، محاضرات الأدباء، ج ٣، ص ٣٦٩.

(٥) من الفتاك في الإسلام: قران بن يسار الفقعسي، ومالك بن الربيع المازني، والقتال الكلابي، وعبدالله خازم السلمي، وعبدالله بن سيرة الحرشي، وغيرهم، المحبر، ص ٢١٢-٢٣٢. وتبدو حادثة سعد بن ناشب مع البصري الذي ضربه بالسيف شبيهة بقصة القتال الكلابي، فقد أحب العالية بنت عبيدالله، من بنات عمومتها وذكرها في شعره، فزوجت من أحد أشرف الحي، فتولع القتال بها، وظل يذكرها في شعره، ويذورها خفية، فنهاه أخوها زياد بن عبيدالله وهدده بالقتل إن هو عاد إلى ذلك، فلم يرتدع، فبصر به زياد فاستل سيفه ليقنته، فهرب، وزياد يتبعه، وهو يناشده الله والرحم، فلم يكف، وبينما هما في ذلك وجد القتال في طريقه رمحاً مركزاً فالنقطة وقضى به على زياد، فطورد بدمه، وظل متخفياً عن مروان بن الحكم والي المدينة، وهو يجد في طلبه، حتى وضع الجوائز لمن يدل عليه، فظفر به وأودعه السجن، ثم إنه فر من سجنه، وعاد إلى سابق عهده من الفتك. ديوان القتال الكلابي، ص ١٨-٢٣.

(٦) ذكر الراغب الأصفهاني أن أبا عبيدة عدّ فرسان العرب المجمع على شجاعتهم، فذكر منهم: دريد ابن الصمة، وعنزة، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، وعامر بن الطفيل، وعباس بن مرداس، وعروة ابن الورد وغيرهم، محاضرات الراغب الأصفهاني، ج ٣، ص ٣٦٩.

وقد جنت جماعة منهم جنابة، وكان بلال قد أخافهم وتوعدهم، فخطبه سعد نيابة عنهم، معترضاً على توعد إياهم، وموضحاً له الأمر الذي قدموا إليه من أجله، فقال له بلال بعد استيفائه مقالته: ليس كل ما يقوله السلطان يفعله يا سعد^(١)؛ ما يشير إلى مكانته بين قومه وجاهة وفروسية، وإلا فكيف له أن يطلب من قومه التقديم والترشيح لو لم يكن من وجهائهم المعترين وفرسانهم المعدودين؟! يقول:

فَيَا لِرِزَامٍ رَشَّحُوا بِي مُقَدِّمًا إِلَى الْمَوْتِ خَوَاضًا إِلَيْهِ الْكَتَائِبُ

ومما لا شك فيه أن هناك فرقا بين فتاك القبيلة وفرسانها، فالفتاك أغلبهم أصحاب جنابات تستوجب الملاحقة والاقتصاص، أما الشعراء الفرسان فليسوا مثل هؤلاء جناة مطاردين، لا من السلطة ولا من القبيلة، بل هم مقدرون محترمون لديهما، لاتصافهم بالفروسية والشجاعة^(٢).

كما وُصف سعد بن ناشب بأنه من شياطين العرب^(٣)، بل إن الخُصري ليجعله من شياطين الأنس^(٤) عامة؛ لشدته وحدته وفتكه، ويذكر فيه قول معاصره دعلج بن الحكم^(٥)، مشيراً إلى ذلك، يقول^(٦):

(١) أخبار القضاة، ج ٢، ص ٤٠.

(٢) يبدو أن حال سعد بن ناشب تشبه حال اللصوص المطاردين بعدما ضرب البصري، وفر إثر ذلك خوفاً من السلطة وعقابها، ولكنه لم يكن كذلك، وكما يبدو فإن ابن حزم قد وصفه بالفتاك، وألحقه بالفتك في ضوء هذه الحادثة.

(٣) المحبر، ص ١٩٢، سمط اللائي، ج ٢، ص ٧٩٢، والشيطان هو القوي المتمرد، دائرة المعارف الإسلامية، مادة (شيطان)، وقد وصف مرة بن خليف الفهمي الجديلي (ت ٧٥ ق.هـ) بأنه من شياطين العرب وفرسانهم، وهو قريب تأبط شراً، المحبر، ص ١٩٢.

(٤) زهر الآداب، ج ١، ص ٢٥٩-٢٦٠.

(٥) لم أجد ترجمة لدعلج في المصادر العربية، ولم يترجم له عبدالسلام هارون محقق كتاب "الحيوان"، عند ورود اسمه، ج ٦، ص ٢٤٣، ويبدو أنه لم يجد معلومات عنه في المصادر العربية، وذكره الراغب الأصفهاني باسم دعلج الحكم، وابن الحكم، ولكن محقق الكتاب رياض عبدالحميد مراد لم يترجم له أيضاً، محاضرات الأدباء، ج ٤، ص ٦٠٩.

(٦) الحيوان، ج ٦، ص ٢٤٣، الشعر والشعراء، ج ٢، ص ٦٩٦، زهر الآداب، ج ١، ص ٢٦٠، خزنة الأدب، ج ٨، ص ١٤١، ١٤٣.

وكيف يفيقُ الدهرَ سعدُ بنُ ناشبٍ وشيطانُهُ عندَ الأهلةِ يُصرعُ

ولم يعرف عن سعد بن ناشب أنه كان من اللصوص أصحاب الغارات، الذين يغيرون على النعم والغنم والقوافل، ولا صلوكاً خارجاً على القبيلة أو رافضاً لأعرافها وعاداتها؛ وإن كانت حياته بعدما أصاب من دم في البصرة تبدو كحياة لص من لصوص عصره، أو صلوكاً من صعاليكه، ولكنه ليس كذلك، إنه رجل يتصف بالطموح، ويتمتع بكل الأسباب المؤهلة للقيادة، وبصفات الشجاعة والإباء والعزم، ولكنه في الوقت نفسه مرتكب لجناية وقع فيها بسبب شدته وحدته، حيث أصاب دماً جعله يتوارى عن أنظار السلطة التي تطلبه، ما جعله دائم الخوف من إلقاء القبض عليه، ومعاقبته.

ولم يبدُ من شعر سعد بن ناشب أو أخباره ما يشير إلى حمّله فكر أي فرقة من الفرق الكثيرة التي ظهرت في زمانه، ولم يعرف عنه أنه تبع أي حزب سياسي من تلك الأحزاب الكثيرة التي كثرت في تلك الفترة، فلم يكن علوياً ولا زبيرياً ولا منتمياً إلى فرقة، كأن يكون خارجياً أو متشيعاً... إلخ، وإنما كان بدوياً يتمثل أخلاق القبيلة وعاداتها وأعرافها، حماسياً معتداً بنفسه، خارجاً على سلطة الدولة لطلبها إياه بجناية اقترفها عرضاً بسبب حدته وشدته، غير متوطنة نفسه على قبول مثل هذه السلطة، مثلما هي نفوس كثير من أبناء القبائل العربية آنذاك، الذين لما يألفوا بعد فكرة الانصياع لسلطة مركزية، ومن هنا جاء وصفه بأنه من مرده العرب^(١)، أي الخارجين من أبناء القبائل العربية البدوية على سلطة الدولة، المتمردين عليها، الملتجئين إلى الصحراء فراراً من سطوتها وعقابها. ويلحظ بشكل عام أن مهمة الأمراء في البصرة لم تكن بالسهلة في هذه الفترة^(٢)، لجموح المتبدين من الأعراب

(١) التذكرة السعدية، ص ١٩.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، مادة (البصرة).

فيها، ولتمسكهم بعاداتهم القبلية، ولاختلاط القبائل بعضها ببعض، ولاختلاط العرب بالأجناس الأخرى غير العربية، ولاختلاف لغات هذه الأجناس وثقافتها في هذا الزمان المبكر من تاريخ الدولة الإسلامية^(١)، وقد أوجد هذا بلبله لم تكن القبائل العربية تعرفها قبل ذلك، فعملت الدولة على تشديد سلطتها على هذه المنطقة، وذلك من خلال توزيع العطاء^(٢)، وتجييش الجيوش، والاختيار للمناصب العامة، وتعيين العرفاء^(٣) وما إلى ذلك من أمور إدارية؛ مما أضعف سلطة القبائل فيها. وما يجدر ذكره أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قد لاحظ مبكراً الطبيعة المتمردة لأهل هذا المصر؛ فأوصى أبا موسى الأشعري؛ وقد بعثه قاضياً لها؛ بضرورة التنبه إلى ذلك، قائلاً له: "إني أبعثك إلى أرض قد باض بها الشيطان وفرخ، فالزم ما تعرف، ولا تستبدل فيستبدل الله بك"^(٤). وقد تعامل الأمراء فيما بعد مع كل ذلك بكثير من سبل الضبط، حتى يتمكنوا من بسط سيطرة الدولة على البصرة، إضافة إلى استخدام السياسة والمال اللذين أشرنا إليهما آنفاً فقد عملت الدولة على تقديم بعض القبائل على بعض، فقدموا القبائل اليمنية، واعتمدوا عليها، وعادوا القبائل المضرية، وكادوا لها، إلا في أوقات الشدة والضيق، فإنهم كانوا يستعينون بها، ويقطعون الموائيق لها بأن لا يعودوا إلى سياستهم^(٥) السابقة فيها. كما لم يكن الخلفاء يتخذون أمراء البصرة من قبائلها ليطيعهم الناس بسهولة ورضاً، وإنما كانوا سلطة مفروضة عليهم من خارج قبائلهم ومنطقتهم، بقصد إخضاعهم وخضد شوكتهم^(٦)، ومن هنا كان الخروج على هؤلاء الأمراء كثيراً

(١) البيان والتبيين، ج ١، ص ١٨-٢٠.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٤٩، شعراء البصرة، ص ٤٠.

(٣) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٤٩.

(٤) السابق نفسه، ص ٧٠.

(٥) الشعراء الصعاليك، ص ٧٣.

(٦) دائرة المعارف الإسلامية، مادة (البصرة).

مألوفاً. ولما كان أمراء البصرة من خارجها يحاولون السيطرة على الأوضاع فقد لجأوا إلى البطش والتهديد والوعيد والسجن، وغير ذلك من صنوف القهر الأخرى.

إن الاضطراب ليكتنف حياة الشاعر سعد بن ناشب من كل جانب، فشرطة بلال بن أبي بردة تتهدده وتتوعده وقومه، وتجد في طلبه للقبض عليه ومعاقبته، والبصرة بشكل عام تموج بأبناء مختلف القبائل العربية المختلطة، يساكنهم فيها أجناس أخرى غير عربية كالزط والسبابجة^(١) والفرس. والقبائل الكبيرة لم تعد بكامل نفوذها لتوفر لأبنائها الحماية والأمان اللذين كانت توفرهما لهم سابقاً، بل إن السلطة المركزية قد قسمت البصرة^(٢) إلى أخماس^(٣)، يسكن كل خمس - في الغالب - خليط من أبناء القبائل العربية المختلفة أو بطونها^(٤) بقصد تفريق القبيلة الواحدة وإضعاف قوة ترابطها، مما يؤدي إلى إضعاف قوتها ونفوذها. وجعلت على كل خمس من هذه الأخماس عريفاً حُددت مسؤولياته الإدارية والأمنية والمالية^(٥)، وكثرت فيها السكك التي نسب بعضها إلى مالكيها^(٦)، وبعضها إلى ساكنيها، بل إننا لنجد بعض المقابر على أسماء القبائل، فهذه مقبرة بني مازن، وهذه مقبرة بني

(١) تاريخ الطبري، ج ١، ص ٤٦٦، دائرة المعارف الإسلامية، مادة (البصرة).

(٢) كانت أخماس البصرة كالاتي: خمس تميم، وهو جنوب غرب البصرة، وفيهم بنو العنبر، وخمس بكر، ويقع شمال غرب البصرة وشمال غربها، وخمس عبدالقيس، ويقع عند نهر معقل ودار الرزق شرق البصرة، وخمس أهل العالية، وهم أهل الحجاز، من كبار أصحاب المناصب من قريش وقيس وغيرهما، ومنازلهم تمتد إلى الجنوب الشرقي من البصرة، وخمس الأزدي، وهم جنوب غربي البصرة، أقرب إلى وادي العقيق، راجع: تاريخ الطبري، ج ١، ص ٤٦٦ وما بعدها، الحياة الأدبية في البصرة، ص ٦٩، شعراء البصرة، ص ١٨.

(٣) شعراء البصرة، ص ٢٢، خطط البصرة ومنطقتها، ص ٥١.

(٤) شعراء البصرة، ص ١٨.

(٥) وقد أُنيط بالعرفاء توزيع العطاء، إضافة إلى وظائف أخرى مشابهة، خطط البصرة ومنطقتها، ص ٥١.

(٦) معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٤ - ٤٣٥.

حصن^(١). ولم يعد للقبيلة العربية الكبيرة مكان إقامة واحد، وإنما أمكنة كثيرة متفرقة، وأصبحنا نجد مناطق معينة تسكنها بطون بعض القبائل، في حين تسكن بعض بطونها الأخرى في مناطق أخرى من المدينة، كل ذلك بغرض التقليل من سلطتها، والتخفيف من سيادة الروح القبلية بين أبنائها في هذا المصر، ولتسهيل شأن ضبطه إدارياً وأمنياً ومالياً وما إلى ذلك من شؤون أخرى. وقد يكون عدم ذكر سعد بن ناشب تيمناً - قبيلته الكبيرة - في شعره واكتفاؤه بذكر بعض بطونها القريبة كرزام ومازن راجعاً إلى نجاح الدولة الأموية في سياستها الهادفة إلى إضعاف سلطة القبيلة الكبيرة، وإظهار سلطة الدولة المركزية بدلاً عنها. وقد بلغت قوة الأمراء الذين يمثلون سلطة الدولة المركزية، وقوة أجهزتهم الأمنية والإدارية والمالية مرتبة لم يعد فيها لدى الناس قدرة على نقد سياستهم التي يتبعونها، ولا نقد سياسة الدولة عامة، ولا التعبير عن مواقفهم كأفراد أو جماعات؛ إلا من خلال الخروج عليهم، وإظهار عصيانهم لهم، والهروب من وجه سلطتهم، أو من خلال ثورات جماعية كبيرة على سياسة الدولة العامة كلها، وقد تبدى ذلك في ثورات كثيرة قام بها الخوارج والزبيرية والشيعية وغيرهم^(٢).

قلّة شعر سعد بن ناشب:

لم يُعرف لسعد بن ناشب ديوان شعر عند القدماء كما ذكرنا، كما لم يعرف له شعر كثير على السنة الرواة أو في كتب مصادر التراث العربي، عدا قصيدتين وأربع مقطوعات أخرى مبنوثة في بعض المصادر العربية أولها حماسة أبي تمام. ولم يزد شعر سعد بن ناشب الذي استطعت جمعه من المصادر العربية على اثنتين وثلاثين بيتاً^(٣)، فهل كان سبب قلّة شعره هو قصْرُه على موضوع الحماسة دون

(١) تاريخ الطبري، ج ١، ص ٤٦٦.

(٢) شعراء البصرة، ص ٤٢.

(٣) نُسبت إلى الشاعر بعض الأبيات الشعرية ألحقتها بالبحث وبينت عدم صحّة هذه النسبة من خلال

المصادر.

غيره من الموضوعات الشعرية الأخرى؟ أو أن سبب ذلك هو قلة نتاجه الشعري أصلاً؛ ما دفع بأبي تمام إلى الاختيار له في حماسته تطبيقاً لمنهجه فيها الذي يقوم على الاختيار للمقلين والمغمورين؟

ولنا أن نسأل: ما المصادر التي اختار منها أبو تمام الأشعار التي جمعها في حماسته، ومنها أشعار سعد بن ناشب؟ إن أبا تمام لم يذكر مصادره التي أخذ منها أشعار حماسته، فهل هي كتب مدونة وجدها في مكتبة صديقه أبي الوفا بن سلمة، وقد حصره فيها تلج همدان عائداً من خراسان، بعد مدحه عبد الله بن طاهر عامل المأمون عليها؟^(١)، يذكر البديعي أن خزائن مكتبة أبي الوفا بن سلمة كانت تضم دواوين العرب وغيرها، فتفرغ أبو تمام لها وطالها واختار منها كتاب الحماسة^(٢)، ومثل هذا ذهب إليه المرصفي، حيث أنزله أبو الوفا "دار كتبه، فاختر منها ما استجاد من شعر العرب الأقدمين والمحدثين"^(٣)، بل إن التبريزي ليجعل أبا تمام يختار من كتب مكتبة أبي الوفا بن سلمة أربعة كتب أخرى غير كتاب الحماسة^(٤). ولكن ما هي هذه الكتب التي اختار منها هذه الأشعار إن كان قد اختار من كتب مدونة؟ فإذا عرفناها عرفنا الأشعار التي استنتهاها من شعر سعد ابن ناشب، بل إننا قد نعرف منها أشعاره في الموضوعات الأخرى إن كانت له أشعار أخرى في غير موضوع الحماسة. هل يمكن أن يكون أبو تمام قد اختار لسعد بن ناشب كما لغيره من الشعراء الذين اختار لهم في حماسته كلها من ذاكرته؟^(٥)، هل ذلك بمستبعد وهو الأديب الذي اشتهر بسعة حفظه وبنصحه

(١) وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٨٥، هبة الأيام، ص ١٥٢.

(٢) هبة الأيام، ص ١٥٢، أسرار الحماسة، ج ١، ص ح.

(٣) أسرار الحماسة، ج ١، ص ح.

(٤) شرح التبريزي، ج ١، ص ١١، تاريخ الأدب العربي، ج ١، ص ٧٣.

(٥) يذكر المرزباني أن أبا تمام كان يختار لشعراء الحماسة من ذاكرته، غير أنه لم يختار من أشعار هؤلاء إلا الأقل جودة، وأنه قد استبقى جيد شعرهم ولم يظهره ليكون ذخيرة لسرقته بحيث لا يكتشفها النقاد الذين لا يعرفون مصادرها!! الموشح، ص ٢٨١، وربما كان هذا الرأي الغريب تحاملاً من المرزباني على أبي تمام.

تلاميذه بحفظ الشعر وتمثله؟ ليكون ذخيرة لهم تساعد على إبداع أشعارهم الخاصة، ولنا في نصيحته للبحثري خير مثال على ذلك.

إننا لا نستطيع أن نجزم بقلة شعر سعد بن ناشب، فقد يظهر ما ينفي هذا التوقع بظهور ديوانه المفترض المخطوط، أو بظهور مصادر عربية جديدة تضيف شعراً جديداً إلى ما هو مذكور منه في المصادر العربية المنشورة حتى الآن، بحيث يكفي لرسم صورة أوضح لتجربته الشعرية، ولكن لا بدّ من التنبّه إلى أن اختيار أبي تمام له في حماسته قد يقطع علينا مثل هذا التوقع، فمنهجه في الحماسة كما ذكرنا يقوم على الاختيار للمقلين والمنسيين والمغمورين، ما قد يعني أن شعر سعد بن ناشب قليل بالفعل، أو على الأقل ليس بكثير، ومن هنا تأتي قناعاتي الخاصة بضرورة جمع ما ظهر من شعره في المصادر العربية المنشورة حتى الآن، وتقديمه بين دفتي مطبوع يمكن للقراء والباحثين الرجوع إليه، والإفادة منه على قلته، فيبدو أن احتمال ظهور مخطوط لديوان سعد بن ناشب هو احتمال ضعيف.

ولكن هل يستبعد كذلك أن يكون شعر سعد بن ناشب قد أودت به عواذي الزمان الكثيرة التي مرت بالشاعر إبان حياته من مثل هدم بلال بن أبي بردة داره بالبصرة وإحراقها، أو مرّت بشعره بعد مماته، فضاع فيها أكثره، مثلما ضاع غيره من مصادر التراث العربي عامة؟

اقتصار شعر سعد بن ناشب على الحماسة:

إن القصيدة أو المقطوعة الشعرية في أي غرض شعري هي تجربة شعرية واحدة، كما أنها في الوقت ذاته تجربة نفسية واحدة وقت إبداعها، ومن المفروغ منه أن مثل هذه التجربة لا تعبر عن حياة الشاعر النفسية كاملة كونها جزءاً منها وليست كلاً لها، ولكن لا بدّ من القول: إنّ تجارب الشاعر الشعرية والنفسية إذا كانت تسير على وتيرة واحدة، أو تعبر عن حالات نفسية متشابهة فإن الأمر حينها قد يدعو إلى التساؤل، وقد يحتاج إلى التفسير. ويجدر بنا أن نتساءل بالفعل

عن سبب انحصار شعر سعد بن ناشب في غرض الحماسة وحده في تجارب شعرية ونفسية متشابهة تقريباً، فهل كان الشاعر قد قصر شعره على غرض شعري وافق في نفسه هوى فاتبعه؟ أو أنه كانت له تجارب شعرية في أغراض شعرية أخرى إضافة إلى غرض الحماسة؟ ولكن شعره فيها ضاع كما تساءلنا آنفاً، ولم يسلم منه إلا ما اختاره أبو تمام منه في حماسته، أو ما وصلنا من باقي شعره بوساطة بعض مصادر أخرى غير الحماسة؟

إن فكرة التخصص في غرض شعري واحد عند الشعراء ليست أمراً مقصوراً على سعد بن ناشب، فنحن لا نعدم من الشعراء العرب من فعل ذلك، كرابعة العدوية (ت ١٨٠هـ)^(١)، التي قصرت شعرها على الشعر الصوفي والعشق الإلهي، والعباس بن الأحنف (ت ١٩٢هـ)^(٢)، الذي لم يقل في غير الغزل. وما من شك فإن الطباع النفسية لهذين الشاعرين، والظروف الحياتية المحيطة بهما قد أثرت فيهما فقالا ما قالاه من شعر بتأثيرهما، وبالقياس فهل من المحتمل أن تكون الظروف الحياتية المتوترة التي عاشها الشاعر، وطبيعة نفسيته المأزومة هما ما دعواه إلى الاقتصار في شعره على غرض الحماسة وحده؛ وذلك دفاعاً عن النفس أمام هذه الظروف الحياتية الصعبة التي كان يعيشها الشاعر، وأمام هذه الحالات النفسية التي كان يعانيها بسببها؟

دراسة في شعر سعد بن ناشب:

أولاً- الجانب الموضوعي:

الحماسة باب من أبواب الشعر العربي، قال فيه الشعراء العرب القدماء، واختار منه أصحاب المختارات، وما زال الشعراء العرب المعاصرون يقولون فيه، فهو غرض شعري عام يصلح أن يكون موضوعاً أو غرضاً شعرياً في العصر

(١) عن شعر رابعة العدوية راجع كتابي: شهيدة العشق الإلهي: رابعة العدوية. والخاشعة العابدة: رابعة العدوية.

(٢) راجع: ديوان العباس بن الأحنف.

الحديث مثلما كان في العصور السابقة. ومما لا شك فيه فإن للشعر دواعٍ داخلية، ومحرضاتٍ خارجية، تدفع إلى قوله في الأبواب المختلفة بشكل عام، ومن ذلك باب الحماسة، فالمنافرات، والصراعات، والتحريض على الحروب، والدعوة إلى تحمّل مكارهها، والفخر بالقبيلة، وهجاء أعدائها، والاعتداد بالذات؛ من أهم دواعيها. فالشاعر قد يحتمس على خوض الحرب، سواء أوجّه شعره إلى قبيلته أم ناجى به نفسه، يحضّها على الصبر والتحدي وخوض المصاعب. إن ما مارسه بلال بن أبي بردة على سعد بن ناشب وقومه هو حرب عليه وعليهم، فرآه الشاعر تحدياً شخصياً له؛ ما أوجد في نفسه جيشاناً عبّر عنه بقول شعري حماسي؛ ينتصر فيه لنفسه المهددة، وتحدياً لقبيلته التي تعرضت للتهديد والوعيد، وما عبّر عنه من توغّل في الصحراء وفرار من وجه السلطة؛ طلباً للأمان المادي، والأمان النفسي بما قد يوفّره جو الصحراء البعيد عنها من ظروف يمكن أن تساعد على التركيز في ذاته، وما قد يشعره بها بشكل أكبر بعد أن كاد يذهلُ عنها، بل قد تدفعه هذه الذات إلى الفخر والاعتزاز، والإشادة بهمتها وشجاعتها، وإلى الرغبة في تسويدها على القبيلة بغرض قيادتها، لما يحس فيها من الطموح والتأهيل، وارتفاع الروح المعنوية، حتى أننا لنجد سعد بن ناشب يقول مخاطباً قومه وقد أحسّ في نفسه مزيداً من الأهلية والكفاءة:

فَيَا الرِّزَامِ رَشَّحُوا بِي مُقَدِّمًا إِلَى المَوْتِ خَوَاضًا إِلَيْهِ الكِتَابِ!

كما نجده يهجو قبيلة الوحيد المتحالفة مع قبيلة تيم اللات، التي كانت تتهدد قبيلته فيما يبدو وكأنه صراع بين بطون قبيلة تميم الكبيرة، لقبيلة الوحيد تتهدد مازناً برجال تيم اللات وليس برجالها، ما يشير إلى جنبها، وإلى احتياجها إلى مَنْ يدافع عنها، كما أنها تتهددها "من جديد"، وهذه إشارة أخرى إلى صفة الجبن، فهم يكررون التهديد دون أن يفعلوا شيئاً. ثم لنتنبه إلى أن الهجاء موجه إلى الوحيد وإلى

تيم اللات معاً؛ فهو يحتقر الوحيد لجبنها، فلا يخاطبهم مباشرة، وإنما من خلال تيم اللات، التي يزدريها هي أيضاً للومها وذلتها:

أتيم اللات ما بال الوحيد تققع في التهدد من جديد
وتوعد مازناً بكم وأنتم محلّ الذلّ واللوم التليد

إن الفخر بالقبيلة من أكبر دواعي شعر الحماسة عند الشعراء، كما أن هجاء أعدائها من دواعيه الكبيرة أيضاً، وقد يجمع الشاعر بين الفخر بالقبيلة وهجاء أعدائها في القصيدة أو المقطوعة الشعرية الواحدة، فتزيد الحماسة لديه ولدى قبيلته، فنجد سعد بن ناشب يفتخر بقبيلته، ويهجو قبيلة بني بكر بن وائل، إنه لم يذكر اسم قبيلته تميم أو رزام أو مازن فيها بشكل صريح، ولكنه أشار إليها بوساطة ضمير الجمع الـ "نا" في "أسيافنا"، و"سللناها" الدالّ على قبيلته، مقابل ضمير الجمع في "هويتم" الدالّ على قبيلة بني بكر بن وائل التي يذكرها الشاعر باسمها الصريح، محذراً إياها من إغواء الشيطان لها بدخولها الحرب مع قبيلته المُجَرَّبِ بأسها لديهم، والتي ظلّت آثار سيوف رجالها ظاهرة في هاماتهم جُداً وطرائق، كما كانت تلك الرؤوس أعماداً تُعمد فيها:

وإنّ أسيافنا بيضٌ مهنّدة بُثِرَ لآثارها في هامكمُ جُددُ
وإن هويتم سللناها وقد غمّدت يوماً وهام بني بكر لها غمُدُ

كما قد تكون المرأة - سواء أكانت أمّاً أم زوجة أم غيرها - من دواعي شعر الحماسة، تلوم الشاعر على منهج حياته، أو تتذمر من تصرفاته، أو من منهجه في التصرف، أو تستغرب حديثه، وأخذة الأمور كلها بالبأس والشدة، فيرد سعد على لومها وتذمرها واستغرابها بأن ذلك منهج حياة لديه لا يمكنه أن يحد عنه، فهو مقتنع به، وبنجاعته في التعامل مع الآخرين، ممن لا يستجيبون إلا بالتعامل معهم بهذه الطريقة:

نَفَّذْنِي فِيمَا تَرَى مِنْ شَرَّاسَتِي وَشَدَّةِ نَفْسِي أَمْ سَعِدَ وَمَا تَرِي
فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا حَلَا لِيُفْقَى عَلَى حَالٍ أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ
وَفِي اللَّيْنِ ضَعْفٌ وَالشَّرَاسَةُ هَيْبَةٌ وَمَنْ لَمْ يُهَبَّ يُحْمَلْ عَلَى مَرْكَبٍ وَعَرِي

والملاحظ أن شعر سعد بن ناشب يحمل قيماً متنوعة، تتوزع بين قيم جاهلية في معظمها، وإسلامية في أقلها: فالقسوة، والأخذ بمنهج الحياة القائم على القهر، وحدة الطبع، واستعمال الألفاظ التي تحمل مثل هذه المعاني؛ كلها تشير إلى مثل هذه القيم الجاهلية: فهو يقسو ويتجبر في تعامله مع الآخرين، حتى إنه عندما يريد أن يغيّر الأمور إلى ما يراه صحيحاً فإنه لا يأتي ذلك بلطف أو ملاينة، وإنما بقسوة وفظاظة، فيعدل مِيلَ الرؤوس بالقوة، بل إنه ليخطمها مثلما تخطم رؤوس الدواب المذلّة:

أَقِيمُ صَغَا ذِي الْمِيلِ حَتَّى أَرُدَّهُ وَأُخْطِمُهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَى الْقَدْرِ

ويبدو أن تقدير سعد بن ناشب للقوة هو طبع جبل عليه، إضافة إلى أنه قد يكون اكتسبه من طبيعة قبيلته المعروفة بشدتها وحدثها، أو أنه حمله كأثر من آثار ظروفه القاسية التي عاشها في البصرة وصحرائها، فاقتنع أنه لا يستطيع العيش في هذه الحياة الصعبة إلا الأقوى والأشرس، فهي لهما دون غيرهما. إن الشاعر يؤمن بمنطق القوة، لا بقوة الحق والمنطق، وهو يقدم الشدة في التعامل على لطف المعشر والتفاهم. وهو يؤمن أيضاً أن من "لم يُهَبَّ يحمل على مركب وعر"، وكأنه يدعو الناس إلى إبداء سوء النية المسبقة في التعامل مع الآخرين، بل إنه ليدعو إلى أن يظلم المرء غيره حتى يهاب جانبه فلا يظلم، وهذا أقرب إلى المفهوم الجاهلي الذي أشاد به الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى عندما رأى أن "من لا يظلم الناس يظلم"^(١). إن سعداً يرى أن القوة هي التي تمنح الإنسان الهيبة،

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٧٧.

فتحميه من عدوان الآخرين وأذاهم، وهو بوساطتها يصنع عالمه الخاص الذي لا يمكن له أن يعيش في غيره، فينبذ اللين منه، بل إنه ليراه ضعفاً مَعِيْباً يَجْرَى الآخرين عليه. إنَّه يرى أَنَّ القوة والشدة - وليس الإقناع والحوار - هما ما يرتب بهما عالمه الخاص. ويلجّ الشاعر على هذه الفكرة فيرى بالمقابل أن الرجل إنَّ حَسُنَتْ أخلاقه وطابَتْ بدا للناس ضعيفاً، غير مرهوب الجانب، حتى إنه ليرى "على حال أمرٍ من الصبر"، فليكن بناء على ذلك شرساً، قاسياً، ويرسم صورة مهيبة لنفسه في نفوس الآخرين، تردعهم عن التعدي عليه، وتمنعهم من تجاوز الحدود إليه، وهو بذلك لا يبتعد عن مفهوم زهير بن أبي سلمى نفسه الذي يوسّعه بشكل أكبر في موضع آخر من شعره^(١)، فيدعو المرء إلى عدم التسامح مع غيره، وإلى الإثخان في الآخرين، والإسراع في عقابهم إن تجاوزوا الحدود. ولم يستطع سعد بن ناشب أن يتخلص من هذا الفهم الجاهلي للقوة، فلم يعمل على ربطها بالحق أو بالعدل مثلاً، ولم يستطع أن يرسم لها صورة جميلة تقرّبها من النفوس، ولم يستطع أن يرى في اللين غير الضعف، وفي الشراسة - وإن كانت ظلماً - غير الهيبة:

وفي اللينِ ضَعْفٌ والشراسةُ هَيْبَةٌ وَمَنْ لَمْ يُهَبِّ يُحْمَلْ عَلَى مَرْكَبٍ وَعَرِ

ولتأكيد الشاعر هذه المعاني المجردة التي يؤمن بها، والتي يتضمنها شعره، والتي تُعَلِّي من شأن القوة، وتدعو إلى الإقدام، وإلى تَقَحُّم أهوال الحروب وتحمل ويلاتها؛ فقد كان سعد متقدماً، مقداماً، غير آبه بالموت، بل إنه لخَوَاض - بصيغة

(١) يرسم زهير بن أبي سلمى الصورة النموذجية التي يفضلها في تعامل المرء مع غيره، فيرى أن الإنسان الأئموذج هو الذي ينتصر لنفسه بعنف وبسرعة، وإنه المعتدي على الآخرين، الظالم لغيره وإن لم يبدأ بظلم:

جريء، متى يُظلم يُعاقِبُ بظلمِهِ سريعاً، وآلَا يُبَدِّ بِالظلمِ؛ يَظلمُ

ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٧٣.

المبالغة - "إليه الكرايبا"، لا يختبئ وقومُه عن المعارك، ولا ينكلون عنها، وإنما يخوضون غمارها، ويتقحمون نارها، ويصطلون أوارها، وهم كما يقول: بارزون بها إذا ما عَقَّها بنوها، أو تجافى عنها فرسانها، وكما نلاحظ فقد أبدع الشاعر في تجميل صورة الحرب وأهوالها، من خلال إلباسها أثواباً جميلة اقتبسها من بعض صور آيات القرآن الكريم، التي تدعو إلى البر بالوالدين والإحسان إليهما، فاستعار صورة بر الأبناء بأهمهم وقد بلغت الكبر: فهم يرعونها ويبرونها ولا يجفونها. كما يشير الشاعر في سياق المعنى نفسه إلى رفضه وقومُه للقوة الغاشمة التي تجلب الضيم والاهتضام، مفتخراً بهم، ومؤكداً أنهم شجعان لا يخشون الموت في المعارك، ولا يختبئون عنه، وإنما يبرزون إليه مناجزين، غير ناكسين ولا خائفين، مفيداً هذه الصورة من صورة البيئة التي يعيش فيها الشاعر وقومه، فالأقوياء لا يسكنون المنخفض من الأرض، خوفاً من الأعداء، وإنما هم بارزون، طلاعوا أنجد وثنايا، ظاهرون لا يخشون عدواً:

فإنما إذا ما الحربُ أَلَقَتْ قِنَاعَهَا بها حينَ يجفوها بثؤها لأبراز
ولسنا بمُخْتَلِّينَ دار هَضِيمَةٍ مخافة موتٍ إن بنا نَبَتْ الدار

ونجد الشاعر يطلب في شعره إلى بلال بن أبي بردة - طلب الند إلى الند- أن لا يتعدى حدود السلطة المخولة إليه، فلا يستعبد الناس بها، مؤكداً أنه وقومه لم يخرجوا على سلطته، ولم يشقوا عصا طاعته، ولم يتجاوزوا الحدود المتعارف عليها في سياسة الدولة، وإلا فإن استمر في التعدي؛ فإنه وقومه مضطرون إلى أحد أمرين محتومين: فإما الخروج على سلطته والثورة عليه، وإما الخضوع لخطرتة، وهذا الأمر عارٌ يرفضه، ولا يرضاه قومه:

ولا تُوعِدْنَا يا بلالُ فإننا وإن نحنُ لم نشقُقْ عصا الدِّينِ أحرار
ولا تحمَلْنَا بعدَ سَمْعٍ وطاعةٍ على غايةٍ فيها الشَّقَاقُ أو العار

وتبدو في البيتين السابقين قيمة إسلامية طيبة هي قيمة السمع والطاعة لأولي الأمر، وعدم الخروج عليهم، ما رعوا الحدود، واهتموا بمصالح الرعية. وهناك قيم إسلامية أخرى في شعر سعد بن ناشب، كالإيمان بقضاء الله وقدره، فهو يُقَدِّم غير هَيَاب، ليغسل عن نفسه العار - الذي لحقه بفراره من وجه سلطة بلال بن أبي بردة - وليجلب قضاءً الله عليه مقابل ذلك "ما كان جالباً". ويؤكد الشاعر لبلال أنه وقومه سادة "أحرار"، وهذه قيمة إسلامية إضافة إلى أنها قيمة إنسانية، ألحَّ عليها الإسلام، وطبقها المسلمون، ورحم الله عمر بن الخطاب الذي يقول: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!"، موجهاً قوله لعمر بن العاص وابنه وقد استدعاها من مصر ليقصَّ للقبطي الذي جاءه مشتكياً، وقد لطمه ابن عمرو ظلماً وغطرسة.

إن كل ذلك التغطرس الذي أبداه بلال بن أبي بردة تجاه الشاعر وقومه قد أوجد لديه تحدياً مقابلاً، واعتداداً كبيراً بالنفس، جعله يشعر بالندية له، فقد ذكر الشاعر هذا التواعد أربع مرات في شعره، مرتين منها في مطلع مقطوعتين من مقطوعاته، ما يعني إلحاح هذا الأمر عليه، فهو مُحَنَّق من غطرسته، وخائف كذلك من توعده وملاحقته، ومن احتمال إلقاء القبض عليه، والاقتصاص منه، ولكنه مع ذلك يشعر بالقوة أمامه، وبإمكان تحديه عندما يترك البصرة ويلجأ إلى الصحراء؛ ما يجعله يحس أمامه بالندية التي أشرنا إليها آنفاً كما لو كان أميراً مثله بيده قوة وصولجان. إنه بخروجه إلى الصحراء من جهة، ويقول الشعر الحماسي من جهة أخرى يشعر بالقوة؛ يحاول أن يعيد إلى نفسه بعض التوازن المفقود أمام تهديد السلطة له:

ولا تَوَعِدَنِي بِالْأَمِيرِ فَإِنِّي إِذَا مَا جَعَلْتُ الْمِصْرَ (١) خَلْفِي أَمِيرُ
وَإِنِّي عَلَى الْأَمْرِ الْمَهِيْبِ إِذَا الْفَتَى ثَنَى هَمَّهُ عَمَّا يَرِيدُ جَسُورُ

(١) ومثاه المِصْران، وهما البصرة والكوفة، وهو هنا يقصد البصرة، معجم البلدان، ج ٥، ص ١٣٧.

ويبدو أن ظهور فردية الشاعر في شعره قد ساعد على اختفاء شخصية قبيلته الكبيرة منه، كما قلل من ظهور شخصية القبيلة الصغيرة فيه أيضاً. وقد ساعد في اختفاء القبيلة من شعره كذلك سياسة الدولة الأموية في تعاملها مع القبائل، وهذا ما أشرنا إليه سابقاً. وكما رأينا فإن قصيدته "سأغسل عني العار بالسيف" ترسم صورة واضحة لشخصيته المتصفة بالفردية وبالاعتداد بالنفس: "سأغسل عني، وأذهل عن داري، وأجعل هدمها لعرضي حاجباً، ويصغر في عيني تلاميذي إذا انثنت يميني بإدراك الذي كنت طالباً، لا يبالي العواقبا، أخو غمرات، فإن تعذليني تعذلي بي مرزاً"، "كريم نثا الإعسار، مشترك اليسر"، إلى آخر هذه الجمل والعبارات الشعرية التي ترسم صورته المتميزة بصفة الفردية والاعتداد بالنفس والتحدي، والتي تظهره بصورة بطل فردي يتحدى المصاعب وحيداً.

إن عنفوان شخصية سعد بن ناشب البادي في شعره، واقتصار شعره على موضوع الحماسة دون غيره، وظهور اعتداده بنفسه فيه واضح جلي؛ ما كان له الأثر الكبير في نفوس كثير من المتلقين له قديماً وحديثاً، فاختار كثير من أصحاب الحماسات من شعره كما رأينا، وغني عن القول: إن الاختيار موقف معبر عن رؤية خاصة، دالة على موقف مقتنع برؤية الشاعر الذي أبدع هذا الشعر الحماسي المختار، وبالمعاني التي يحملها هذا الشعر الذي اختاروه.

ومتلما كان لشخصية الشاعر المتصفة بالأنفة والتحدي، ولتجربته الشعرية المتميزة من أثر في نفوس المصنفين القدماء الذين اختاروا له؛ فقد كان للشاعر وتجربته أثرهما في إبداع بعض الشعراء العرب المعاصرين شعراً جاء من وحي سيرة الشاعر وتأثير شعره الحماسي فيهم، فكان لهم أعمال، تستلهم صورة سيف سعد: غاسل العار، وطالب الأقدار، وتكبر في الشاعر شجاعته، وتحديه صاحب السلطة الذي اعتدى عليه بغيرسته، وبهدم داره، ومن هذه الإبداعات قصيدة

"العزف على سيف سعد بن ناشب" للشاعر صالح هُواري^(١)، التي استلهم روحها من روح سعد بن ناشب المتحدية، التي بدت في قصيدته "سأغسل عني العار بالسيف". ومن ذلك أيضاً رسالة فدوى طوقان "إلى فاروق شوشة"^(٢) التي تحمل قصيدة سعد بن ناشب نفسها، تشكو إليه فيها احتلال الصهاينة أرض فلسطين، وهدمهم بيوت أهلها، وتدعوهم من خلالها إلى الصمود في أرضهم وبيوتهم، وإلى إظهار روح التحدي للمحتل المتعطرس، مثلما كانت روح سعد تتحدى غطرسة بلال بن أبي بردة.

ثانياً - الجانب الفني:

كانت اختيارات أبي تمام في حماسته مقطوعات قصيرة، ولا ندري هل قلل أبو تمام أشعار المقطوعات فاختارها من قصائد أطول؟ أو أنه اختارها من أشعارهم مقطوعات قصيرة أصلاً، ومن ذلك ما اختاره من مقطوعات شعر سعد بن ناشب؟ قد يكون سبب قصر مقطوعات شعر سعد - إضافة إلى منهج أبي تمام في حماسته - أنه يقولها بنت الساعة، دون أن يستعد لها، ودون أن يعيد فيها النظر بعد قولها. ثم إن موضوع الحماسة لدى الشاعر يكاد يكون موضوعاً ذاتياً، وتجربة خاصة لا توجه إلى الآخرين في الغالب، وكأن الشاعر عندما يقولها يوجهها إلى نفسه أولاً ثم إلى قومه الأقربين بعد ذلك دون أن يشعر بحاجة إلى تطويلها أو إعادة النظر فيها، فهي نفثة مصدر في مواقف صعبة، وحالات مأزومة، وتجارب حياتية قاسية لا يمكن التقديم لها بالطلل أو الغزل وما إلى ذلك مما تحتاجه موضوعات المدح والهجاء والثناء وغيرها من الموضوعات التقليدية

(١) شاعر فلسطيني يقيم في سوريا، مولود سنة ١٩٣٨ في بلدة سمخ، فاز مرات عدة بجائزة الشعر

الأولى في الجمهورية العربية السورية، واتحاد الكتاب العرب للسنوات ١٩٦٣، ١٩٦٧، ١٩٧٨.

(٢) من شعر المقاومة: الفدائي والأرض، فاروق شوشة، مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت، السنة

٢٠٠٢ شهر ١٢، العدد ٥٢٩، (أبواب ثابتة، جمال العربية).

الأخرى. وقد يعود سبب ذلك إلى ظرف الشاعر الصعب، فهو مطارِد، موغل في الصحراء في أحيان كثيرة، وهذا ما لا يتيح له المجال لقول قصائد طويلة، محتاجة إلى التأمل وإعادة النظر فيها قبل قولها.

ولا بد من ملاحظة أن بعض مقطوعات شعر سعد بن ناشب تشعرك أنها مقتطعة من سياق شعري أطول، حيث تبدو بعض معانيها جزئية محددة، ولا يعقل أنها وردت منقطعة مفردة وحدها، وبهذا الشكل المفاجئ، دون أن تكون قد وردت في سياق كلي أوسع، بعض جزئياته تسبقها، وبعضها الأخرى تلحقها. ثم إن بعض المفردات التي تبدأ بها بعض هذه المقطوعات مسبوقة بحروف عطف، أو أدوات ربط أخرى؛ ما قد يشير إلى أن هناك شعراً يتقدم عليها، مثال ذلك:

ولا توعِدني بالأمير فإنني إذا ما جعلت المصر خلفي أميرُ

وهناك مثال آخر لبيت شعري يرد في أول مقطوعة أخرى يبدأ بالفاء العائدة على ما قبلها؛ يؤكد فيه الشاعر شدة بأس قومه، ويذكر أعداءه بهزيمتهم أمامهم، وهذا قد يشير إلى أن هناك شعراً يقل أو يكثر يسبقها:

فإن أسيافنا بيض مهتدة بُنرُ لآثارها في هامكُم جُدُدُ

وقد تميزت قصيدتا سعد بن ناشب ومقطوعاته بالوحدة الموضوعية، فكل قصيدة أو مقطوعة شعرية هي تجربة شعرية تحمل موضوعاً شعرياً واحداً، لم تخرج إلى موضوع آخر، وهي بذلك تختلف عن القصائد التي تبنى من أجزاء متعددة. وهي كذلك متلاحمة مترابطة تبدو فيها الوحدة العضوية أو القران بين أبيات الشعر فيها يأخذ بعضها برقاب بعض؛ مما يوفر الانسيابية في القصيدة، والتماسك بين أبياتها.

ولا بد من الإشارة إلى أن الشخصوس الذين ظهروا في شعر سعد بن ناشب قد تمحوروا حول شخصيته، التي ظهرت بشكل متضخم، متصفة بالفردية، التي

تصل إلى حد الانفراد، فقد أكثر الشاعر من الاعتداد الشديد بنفسه، وقد ظهر ذلك من خلال استعماله المفردات التي تشير إلى فرديته، سواء على مستوى الإكثار من مفردات الفعل المفرد، "سأغسل، إذا همّ لم تُردع عزيمة همه، وأذهل، وأجعل، تفندني، لا توعدني، لا تعذليني، أو على مستوى مفردات الأسماء المضافة إلى مضاف إليه الكثيرة هي أيضاً: "داري، تراث كريم، أخي عزمات، عزمه، أمره، نفسي، تصميم السريجي". لقد ظهرت هذه الشخصية بأشكال متعددة، تحدث الشاعر فيها عن نفسه مفتخراً ومتحدياً بصيغة الضمير المفرد المتصل: "واني، تعذليني"، وأحياناً بصيغة ضمير الجمع الـ "نا"، في "واننا، لا توعدنا"، "وان نحن لم نشقق عصا الدين أحرار". لقد تمثلت شخصيته في شعره بأشكال عديدة، فهو الضمير المتكلم الفردي، الذي يعدد ميزات شخصيته وصفاتها، وهو الضمير المستتر، والضمير المتصل، كما ظهرت شخصيته موصوفة بأحسن الصفات: فهو الجواد المرزأ بماله، والكريم نثا الإعسار، المشترك اليسر، وقد عبر الشاعر عن بذله ماله بصورة شعرية جيدة، فهو يتكلم ببذله للآخرين، أو يشترك مع غيره فيه، وهو المتعطف في الوقت نفسه إذا افتقر، فلا يشرك في فقره معه أحداً.

ولكننا لا نعدم ظهور شخصيات أخرى مهمة في شعر سعد بن ناشب، كشخصية بلال ابن أبي بردة التي ظلت تؤرقه سلطتها وتهديداتها، فأظهرها في شعره بصورة سلبية، فقد أكثر من نكرها مهددةً له متوعدة. ويبدو أن طبيعة شخصية سعد بن ناشب المتحدية قد استثارها شخصية بلال المتغترسة.

كما ظهرت في شعر سعد بن ناشب شخصية المرأة التي تلومه على شراسة خلقه، وعلى شدته في تعامله مع الآخرين، فبين لها علة اختياره هذا النمط من الشخصية، وهذا المنهج من التعامل مع الناس، ما أشرنا إليه سابقاً.

وتبدو لغة شعر سعد بن ناشب سهلة واضحة، إلا ألفاظاً قليلة تتطلب الرجوع إلى المعاجم، كـ: "اشمعلت، وصغا، والمِصر، ونثا، والسريجي، والإثر".

ومع أنّ لغة الشاعر تتصف بالسهولة إلا أن واحداً من أبيات شعره قد اختير شاهداً نحويّاً على إعمال اسم الفاعل^(١)، فنصب "الكتائب" بـ "خَوَاض" على أنها مفعول به، يقول:

فِيالرِّزَامِ رَشُّحُوا بِي مُقَدِّمًا إِلَى الْمَوْتِ خَوَاضًا إِلَيْهِ الْكَتَائِبَا

كما رأى النحاة في بيت شعري آخر له شاهداً ومثالاً على إعمال اسم الفاعل أيضاً في القصيدة نفسها، يقول سعد بن ناشب:

سَأغْسِلُ عَنِّي الْعَارَ بِالسَّيْفِ جَالِبًا عَلَيَّ قِضَاءَ اللَّهِ مَا كَانَ جَالِبَا

ولا غرابة في هذا اختيار النحاة شواهدَ شعرية من شعره، فهو شاعر متقدم في الزمان، يعيش في البصرة وباديتها في القرن الأول من قرون الاحتجاج اللغوي. واللافت في شعر سعد بن ناشب هو كثرة الجملة الفعلية، وهذا ما قد يوحي بأثر ظرفه الحياتي الخاص في الجانب الفني في شعره إضافة إلى الجانب الموضوعي الذي أشرنا إليه سابقاً، فهو دائم الحركة أمام شرطة بلال بن أبي بردة وعبونه، مضطرب في الصحراء خوفاً من إلقاءهم القبض عليه، وهو مضطرب النفس جراء ذلك كله. وقد أحصيتُ الأبيات الشعرية التي تبدأ بجملة فعلية في شعره فوجدت أن ستة وعشرين بيتاً من مجموع أبيات شعره البالغة اثنين وثلاثين بيتاً تبدأ بجملة فعلية مباشرة أو مؤولة، وهذا ما وقر للشعر سرعة الإيقاع، التي تعبر عن نفس الشاعر المستثارة، وهو ما يتناسب مع الهدف الذي يرمي إليه موضوع الحماسة، من شحذ للنفس وتحفيزها، أو إلى التعبير عن أحاسيسها المشحونة.

(١) خزنة الأدب، ج ٨، ص ١٤٠، وشرح الشواهد الشعرية في أمّهات الكتب النحوية، ج ١، ص ٩٨.

والناظر في شعر سعد بن ناشب يجد أن أساليب جُمليّة متعدّدة قد وردت فيه، فجاء أسلوب النداء بصيغة الاستغاثة: "فياألرزام رشحوا بي مقدما" دالاً على شدة الرغبة في استجابة المنادين من رزام لتحقيق ما يطلبه الشاعر من ترشيحهم له قائداً، ويبدو إلهام الشاعر في هذا النداء الاستغاثي واضحاً من خلال إتيان أسلوب الأمر: "رشحوا"، الذي يتطلّب الموافقة. كما ظهر أيضاً أسلوب الشرط بأدوات متعدّدة في شعره: "فإن تهدموا بالعدر داري، فإنها تراث كريم"، "إذا همّ، لم تردع عزيمة همّه"، "إذا همّ، ألقى بين عينيه عزمه"، "إذا ما الحرب ألفت قناعها، بها حين يجفوها بنوها لأبرار". كما ظهر فيه أيضاً أسلوب الاستفهام الإنكاري المقترن بأسلوب النداء:

أَتَيْمِ اللَّاتِ، مَا بِالْوَاحِدِ تَقَعُّعُ فِي التَّهْدِدِ مِنْ جَدِيدٍ!؟

ولا بد من الإشارة إلى أن شعر سعد بن ناشب لا يخلو من الصور الشعرية الجميلة على الرغم من قربه من التقرير والمباشرة، كتصويره لإقدام قومه في المعارك وعدم نكولهم عنها بصورة الأبناء البارين بأهم في كبرها وشيبتها. وتصويره تقويمه صغا ذي الميل كما لو كان حداداً يقوم معوجّ الحديد. وتشبيهه خصمه يخطمه بالدابة المحتاجة إلى خظام تقاد به. ولكن بالمقابل لا بد من القول إن أكثر شعر سعد بن ناشب هو شعر مباشر، خاصة مقطوعته الطويلة "سأغسل عني العار" التي بدا فيها التحميس عالياً، فجاء شعر الشاعر معتمداً على الخطاب المباشر، والإيقاع السريع، ولكن مقلداً من التأمل والخيال، وقد بدت هذه الصفة في أغلب شعره.

وفي الجانب الموسيقي استعمل الشاعر ثلاثة أبحر شعرية في قصيدتيه ومقطوعاته الست، وهي الطويل أربع مرات، والبسيط، والوافر، مرة لكلٍ منهما، وهي بحور تتصف بالاتساع الموسيقي، تقع أصواتها بين (٤٨) و(٣٨) صوتاً؛ ما

ساعد على استيعاب الشعور المضطرب الذي تحسه نفس الشاعر في أبيات شعره، وعلى التعبير عن هذا الشعور بوساطتها.

منهج التحقيق:

هناك بعض الاختلاف بين روايات بعض المصادر العربية التي وردت فيها أشعار سعد بن ناشب، وقد يعود سبب ذلك إلى أن بعض هذه المصادر التي وردت فيها هذه الأشعار ينقل من مصادر مختلفة عن مصادر بعضها الآخر، يضاف إلى ذلك أن هذه المصادر قد صنفت في عصور مختلفة متباعدة، تعدد فيها المصنفون، والنسّاخ، وتطاول العهد بهم عن زمان تصنيف المصادر الأولى التي ذكرت هذا الشعر، فكثرت الاختلافات بين روايات هذه المصادر، وكثرت فيها احتمالات القراءة، وتعددت فيها وجوه التصحيف والتحريف، والحذف في المفردات والزيادة فيها، بل إن ذلك قد طال الأبيات الشعرية نفسها، فحذف بعضها، وزيدت أخرى، واختلف ترتيبها في المقطوعة الواحدة من مصدر إلى آخر. وتعرض بعض مصادر هذه الأشعار إلى عوادي الزمان المختلفة، ما ذهب ببعض مفردات الشعر فيها، بل ببعض أبياتها، الأمر الذي جعل بعض المصنفين وبعض النسّاخ يجتهدون في توقع المفقود منها، ووضع بدائل لها؛ فكانوا يصيبون في ذلك أحياناً، ويخطئون أحياناً أخرى.

وسأذكر اختلاف الروايات في الشعر في حواشي الصفحات، اعتماداً على المصادر - بسبب غياب مخطوط ديوانه - بحيث أجعل النص في المصدر الأسبق تاريخ وفاة مصنفه نصاً أما للقصيدة أو المقطوعة الشعرية التي أحققها، وروايات النصوص نفسها في المصادر الأخرى التالية وفيات مصنفها - السابق فاللاحق - نصوصاً مقارنة، مرتباً إياها في حواشي صفحات البحث، وفي تخريج الأشعار كذلك حسب تواريخ وفيات مصنفها، الأسبق فالذي يليه؛ إلا إذا كانت رواية المصدر اللاحق المقارن أقرب إلى القراءة الأوجه، عند ذلك أثبتتها وإن تأخر

تاريخ وفاة مصنف مصدرها. وسأشرح ما قد يحتاج إلى شرح من مفردات وردت في شعر الشاعر. وسأرتب القصيدتين والمقطوعات على القوافي حسب حروف الهجاء، بحيث يأخذ شعر الشاعر في البحث شكل الديوان؛ ما يسهل الرجوع إليه والإفادة منه.

لقد بذلت غاية جهدي في هذا البحث لإظهار شعر سعد بن ناشب على أقرب صورة قاله عليها، مفيداً من مقارنة نصوص شعره في المصادر المختلفة بعضها ببعض، ومن الأخبار التي صحّت عنه وعن شعره فيها، ومن ترجيح قراءة على أخرى لوجهتها، ولقربها من الذوق السليم.

شعر سعد بن ناشب

(١)

قال سعد بن ناشب، وكان قد أصاب دماً بالبصرة، حيث ضرب رجلاً فيها، ففر، فتعقبه مسؤول شرطتها بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، فلم يعثر عليه، فهدم داره بالبصرة، وأحرقها^(١)، فقال سعد يعتذر عن فراره، ويهدد من هدم داره:

[الطويل]

- ١- سأغسلُ عتي العازَ بالسيفِ جالباً عليّ قضاء^(٢) الله ما كانَ جالباً
 ٢- وأذهلُ عن داري وأجعلُ هذمها لعرضي من باقي المذمة^(٣) حاجباً
 ٣- ويصغرُ في عيني تلادي إذا انتشت يميني بإدراكِ الذي كنتُ طالباً
 ٤- فإن^(٤) تَهدموا بالغدرِ داري^(٥) فأثما تراث^(٦) كريم لا يخاف^(٧) العواقباً
 ٥- أخی^(٨) عزمات^(٩) لا يريذ^(١٠) على الذي^(١١) يهْمُ به^(١٢) من مُقطِّع^(١٣) الأمرِ صاحباً
 ٦- إذا همَّ لم تُردِّعْ عزيمةً همَّه ولم يأتِ ما يأتي من الأمرِ هائباً

(١) خزنة الأدب، ج ٨، ص ١٤١.

(٢) الشعر والشعراء، ج ٢، ص ٦٩٦، شرح ديوان حماسة أبي تمام المنسوب لأبي العلاء، ج ١، ص ٦٤، دلائل الإعجاز، ص ٢٢٠، فصل المقال، ص ١٧٤، وهي بالنصب مفعول به، أما بالرفع، فهي فاعل لاسم الفاعل "جالباً".

(٣) شرح حماسة أبي تمام، للشنتمري، ص ١١٣، زهر الأكم، ج ١، ص ٢٣٧، "المثلة".

(٤) كتاب الحماسة، للشنتمري، ج ١، ص ٦١، "وان".

(٥) عيون الأخبار، ج ١، ص ١٨٨، الكامل في اللغة والأدب، ج ١، ص ٢٠٦، أخبار القضاة، ج ٢، ص ٤٠، جمهرة أنساب العرب، ص ٢١٢، زهر الآداب، ج ٤، ص ٢٦٠، جمع الجواهر، ص ٩٧، يرد صدر البيت في المصادر السابقة بقراءة أخرى: "عليكم بداري فاهدموها فإنها".

(٦) أخبار القضاة، ج ٢، ص ٤٠، "بلاد".

(٧) ديوان الحماسة برواية الجواليقي، ص ٣٥، شرح ديوان حماسة أبي تمام المنسوب لأبي العلاء، ج ١، ص ٦٥، شرح ديوان الحماسة، للتبريزي، ج ١، ص ٥٨، والتذكرة السعدية، ص ٢٠، وخزانة الأدب، ج ٨، ص ١٤١، "لا يبالي"، زهر الآداب، ج ١، ص ٢٦٠، "ما يبالي"، أخبار القضاة، ج ٢، ص ٤٠، "لا يراعي".

(٨) الشعر والشعراء، ج ٢، ص ٦٩٦، "أخا"، ديوان الحماسة برواية الجواليقي، ص ٣٥، شرح ديوان حماسة أبي تمام المنسوب لأبي العلاء، ج ١، ص ٦٥، وفي خزنة الأدب، ج ٨، ص ١٤٣، "أخو".

(٩) الشعر والشعراء، ج ٢، ص ٦٩٦، ديوان الحماسة برواية الجواليقي، ص ٣٥، شرح ديوان الحماسة، للتبريزي، ج ١، ص ٥٩، زهر الآداب، ص ٦٨٣، خزنة الأدب، ج ٨، ص ١٤٣، أسرار الحماسة، ج ١، ص ١٣، "غمرات".

(١٠) الأمالي، ج ٢، ص ١٧٥، "يزيد"، شرح نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٧٨، "يطيع".

(١١) الشعر والشعراء، ج ٢، ص ٦٩٦، "التي".

(١٢) السابق نفسه، ص ٦٩٦، "بها".

(١٣) الأمالي، ج ٢، ص ١٧٥، التذكرة السعدية، ص ٢٠، "مقطِّع".

- ٧ - فَيَا لِرِزَامٍ! رَشَّحُوا^(١) بِي مُقَدِّمًا إلى الموتِ خَوَاضاً إِلَيْهِ^(٢) الكتائب^(٣)
- ٨ - إِذَا هُمْ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَرْمَهُ وَنَكَّبَ^(٤) عَنْ ذِكْرِ الْحَوَادِثِ^(٥) جانباً^(٦)
- ٩ - فَأَكْرَمَ بِهِ مَنْ صَاحِبٍ إِنْ نَدَبْتَهُ وَأَكْرَمَ بِهِ مَنْ طَالِبِ الْوَتْرِ طَالِباً^(٧)
- ١٠ - وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِي أَمْرِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ^(٨) وَلَمْ يَرْضَ إِلَّا قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِباً^(٩)

(١) قال ابن بري: "مقدماً" منصوب "رشحوا"، على تقدير حذف موصوف رشحوا بي رجلاً مقدماً، وأصل الترشيح التهيئة، يقال: رُشِّح فلان للأمر أي رُئِيَ له وأهل، ويقال: رُشِّح فلان للخلافة، أي هيئ لها، لسان العرب، مادة (رشح).

(٢) خزانة الأدب، ج ٨، ص ١٤١، "إليها".

(٣) لسان العرب، مادة (كرب)، خزانة الأدب، ج ٣، ص ١٤١، "الكرائيا"، شرح نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٧٨، "السياسيا".

(٤) العقد الفريد، ج ٢، ص ٣١٢، "وأضرب".

(٥) ديوان الحماسة برواية الجواليقي، ص ٣٥، شرح ديوان حماسة أبي تمام المنسوب لأبي العلاء، ج ١، ص ٦٦، زهر الآداب، ج ١، ص ٢٦٠، كتاب الحماسة، للشنتمري، ج ١، ص ٦٢، جمع الجواهر، ص ٩٧، شرح ديوان الحماسة، التبريزي، ج ١، ص ٦٠، التذكرة الحمدونية، ج ٢، ص ٤٣٤، خزانة الأدب، ج ٨، ص ١٤٣، زهر الأكم، ص ٢٣٨، مجموعة المعاني، ج ١، ص ١٠٣، "العواقب".

(٦) أورد ثعلب البيت في: قواعد الشعر، ص ٤٥، كما أورده كذلك الأشباه والنظائر، ج ٢، ص ٩٨، وأورد أبو عبيد القاسم بن سلام هذا البيت والبيت الأول كأحسن ما قيل في الشعر في علو الهمة، الأمثال، ص ١١٧. والبيتان الثامن والعاشر في غرر الخصائص الواضحة، ص ٤١٣. وأورده ابن عريشاه في عجائب المقذور في نوائب تيمور، ص ٣٩. وأورد اليوسي البيت بقراءة مختلفة "إذا همّ الفتى بين عينيه همّه... ونكّب عن ذكر العواقب جانباً"، زهر الأكم، ج ١، ص ٢٣٨، والرواية ذاتها أوردها دون نسبة أبو العباس الناصري السلوي في الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى، ج ١، ص ٤٢٧.

(٧) أورد ثعلب البيت والذي يليه في قواعد الشعر، ص ٤٥، ولم ينسبهما وإنما قال: "وكقول الآخر" وأورد البيتين: "إذا همّ"، و "فأكرم"، ولم يرد البيت الثاني في غير هذا المصدر، "وأكرم به من صاحب" يقصد الشاعر بذلك نفسه، وهو كذلك طالب الوتر من بلال بن أبي بردة، والوتر، الثار، لسان العرب، مادة (وتر).

- ١١- فلا تُوعِدُونِي بِالْأَمِيرِ (٣) فَإِنَّ لِي جَنَانًا لِأَكْنَافِ الْمَخَافِ رَاكِبًا
١٢- وَقَلْبًا أَبْيَا لَا يُرَوِّعُ جَأْشُهُ إِذَا الشَّرَّ (٤) أَبَدَى بِالنَّهَارِ الْكَوَاكِبَا

(١) ديوان الحماسة برواية الجواليقي، ص ٣٥، العقد الفريد، ج ٢، ص ٣١٢، شرح ديوان حماسة أبي تمام المنسوب لأبي العلاء، ج ١، ص ٦٦، شرح حماسة أبي تمام للشنتمري، ص ١١٥، شرح ديوان الحماسة، التبريزي، ج ١، ص ٦٠، التذكرة الحمدونية، ج ٢، ص ٤٣٤، شرح نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٧٨، التذكرة السعدية، ص ٢٠، خزانة الأدب، ج ٨، ص ١٤٤، زهر الأكم، ج ١، ص ٢٣٨، مجموعة المعاني، مجلد ١، ص ١٠٣، "ولم يستشر في أمره غير نفسه". في حين يأخذ عسيلان، محقق الحماسة، ص ٧٠ بقراءة: "ولم يستشر في رأيه أمر غيره، وقد تكون قراءة: "ولم يستشر في أمره غير نفسه" أفضل منها. ولم تأخذ بقراءة المصدر الأول "الحماسة، تحقيق عسيلان"، لوجاهة قراءة المصادر اللاحقة التي أثبتتها في النص. والاستشارة هي طلب الرأي للإفادة منه عندما تحار الحلوم، وتختلط الأمور على العقول، ويعلق ابن عبد البر على موضوع الاستبداد بالرأي فيقول: إنه مذموم عند جماعة الحكماء، والمشورة محمودة عند غاية الحكماء، ولا أعلم أحداً رضي الاستبداد وحده إلا رجل واحد مفتون، مخادع لمن يطلب عنده لذته فيرقب غرته، أو رجل فأنك يحاول حين الغفلة، ويترصّد الفرصة، وكلا الرجلين فاسق مائق، مثال أولهما قول عمر بن أبي ربيعة، يخاطب من يخدعه:

ليت هذا أنجزت ما تعدّ
واسبتبت مرة واحدة
وشفت أنفسنا مما تجدّ
إنما العاجز من لا يستبدّ

ومثال الثاني قول سعد بن ناشب:

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه
ولم يستشر في رأيه غير نفسه
ونكب عن ذكر العواقب جانباً
ولم يرض إلا قائم السيف صاحباً

بهجة المجالس، ج ٢ من القسم الأول ص ٤٥٩، كما يرى ابن عاشور أن حب الاستبداد وكراهية سماع ما يخالف الهوى هما ما يُلهيان الناس عن الاستشارة، ويرى أن ذلك من انحراف الطباع، وليس من أصل الفطرة، تفسير التحرير والتتوير، ج ٣، ص ٢٧٠.

(٢) الأبيات الأول حتى الثامن والبيت العاشر في الحماسة المغربية، ج ١، ص ٦١٨-٦١٩.

(٣) الأمير هو بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري المذكورة ترجمته في هامش الصفحة (٦) من هذا البحث.

(٤) يعني المعركة.

التخريج:

الشعر والشعراء، ج ٢، ص ٦٩٦، ولم يذكر ابن قتيبة من المقطوعة إلا سبعة أبيات بترتيب مختلف عن ترتيب "الحماسة، عسيلان" التي اعتمدها كأصل، ولم يورد الأبيات الثاني والرابع والحادي عشر والثاني عشر. عيون الأخبار، ج ١، ص ١٨٧-١٨٨، وقد أورد ابن قتيبة تسعة أبيات من المقطوعة ولكنه لم يورد البيت التاسع والحادي عشر والثاني عشر. الكامل في اللغة والأدب، ج ١، ص ٢٠٦، ولم يذكر المبرد سوى الأبيات الرابع - بقراءة مختلفة كما أسلفنا - والثامن والعاشر. وذكر ثعلب في قواعد الشعر، ص ٤٥ البيتين الثامن والتاسع غير منسوبين، الزهرة، ج ٢، ص ٦٨٢-٦٨٣، ولم يورد محمد بن داوود الأصبهاني سوى الأبيات الأول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والثامن. أخبار القضاة، ج ٢، ص ٣٦-٣٧، ٤٠. الأمثال، ص ١١٧، ولم يورد أبو عبيد القاسم بن سلام سوى البيتين الثامن والأول على التوالي. الأمالي، ج ٢، ص ١٧٥، ولم يورد أبو علي القالي إلا الأبيات الخامس حتى التاسع. ولم يذكر الأشباه والنظائر ج ٢، ص ٩٨ سوى البيت الثامن. التنبيه على شرح مشكلات الحماسة، ص ٤٤-٤٦ ذكر ابن جنّي الأبيات الأول والثالث - الذي لم يذكر من صدره إلا آخره "إذا انثنت" - والسابع والثامن والعاشر. المنصف في نقد الشعر، ج ١، ص ٦٠٨، ولم يذكر التنيسي إلا البيت الثامن. شرح ديوان الحماسة. للمرزوقي، ج ١، ص ٦٧-٧٤. العقد الفريد، ج ٢، ص ٣١٢، ولم يرو ابن عبد ربه إلا أربعة أبيات هي: الرابع والثامن والعاشر والأول على التوالي. المختار من شعر بشار، ص ١٠١، ولم يورد البرقي إلا الأبيات الخامس والسادس والعاشر. شرح ديوان حماسة أبي تمام المنسوب لأبي العلاء، ج ١، ص ٦٤-٦٦. زهر الآداب، ج ١، ص ٢٦٠، ولا يذكر الحصري من المقطوعة إلا خمسة أبيات بترتيب مختلف عن ترتيب حماسة أبي تمام، عسيلان، بدأها بالبيت الرابع فالسادس فالعاشر فالأول فالثالث على

التوالي. جَمَع الجواهر، ص ٩٧، ولم يرو الحصري فيه سوى الأبيات الرابع والثامن
والعاشر. دلائل الإعجاز، ص ٢٢٠، ولم يذكر الجرجاني سوى البيت الأول. بهجة
المجالس، ج ٢ القسم الأول ص ٤٥٩، وقد أورد ابن عبد البر البيتين الثامن
والعاشر. فصل المقال، ص ١٧٤، ولم يذكر البكري فيه إلا الأبيات الثامن والأول
والعاشر على التوالي. شرح حماسة أبي تمام للشنتمري، ج ١، ص ١١٣-١١٥.
كتاب الحماسة للشنتمري، ج ١، ص ٦٠-٦٢. سمط اللآلي، ج ٢، ص ٧٩٣-٧٩٤.
وقد أورد الأبيات الأول والثاني والرابع والخامس والثامن من المقطوعة ولكن
بترتيب مختلف. شرح ديوان الحماسة للتبريزي، ج ١، ص ٥٧-٦٠. ولم تذكر
التذكرة الحمدونية، ج ٢، ص ٤٣٤ إلا البيتين السادس والعاشر. وذكرت الحماسة
المغربية، ج ١، ص ٦١٨-٦١٩ الأبيات الأول حتى الثامن والعاشر. شرح نهج
البلاغة، ج ٣، ص ٢٧٨ باختلاف في ترتيب الأبيات. الجامع لأحكام القرآن، ج ٤،
ص ٢٥٢، وقد ورد فيه البيتان الثامن والعاشر. غرر الخصائص الواضحة،
ص ٤١٣، أورد البيتين الثامن والعاشر. التذكرة السعدية، ص ١٩-٢٠. عجائب
المقدور في نوائب تيمور، ص ٣٩. خزنة الأدب، ج ٨، ص ١٤١، ص ١٤٥، وجعل
البغدادي القصيدة في أحد عشر بيتاً، وقد أفاض في التعليق النحوي على أبيات
القصيدة. زهر الأكم، ج ١، ص ٢٣٧-٢٣٨، ولم يورد اليوسي إلا الأبيات الأول
والثاني والثالث والثامن والعاشر على التوالي. وأورد المرصفي في أسرار الحماسة،
ج ١، ص ١٣-١٤ الأبيات الأول حتى الثامن والعاشر، وأورد في هامش
الصفحة ١٤ من كتابه البيتين الحادي عشر والثاني عشر. مجموعة المعاني، ج ١،
ص ١٠٣، ولم يرد من أبيات المقطوعة في هذا المصدر إلا البيتين الثامن
والعاشر.

(٢)

قال سعد بن ناشب المازني يفخر بقبيلته على قبيلة بكر بن وائل:

[البسيط]

١- وَإِنْ^(١) أَسْيَافُنَا بِيضٌ مَهْدَةٌ بُنُرٌ لَأَثَارِهَا^(٢) فِي هَامِكُمْ جُدْدُ^(٣)

٢- وَإِنْ هَوَيْتُمْ^(٤) سَلْنَاهَا وَقَدْ^(٥) غُمِدَتْ^(٦) يَوْمًا^(٧) وَهَامُ بَنِي بَكْرِ لَهَا غُمْدُ^(٨)

التخريج:

الزهرة، ج ٢، ص ٦٨٣. الموازنة ج ١، ص ١٣٠. ديوان المعاني، ج ٢، ص ٥١. التذكرة السعدية، ص ٨٢.

(١) ديوان المعاني، ص ٥١، "فإن".

(٢) هذه القراءة من الزهرة، ج ٢، ص ٦٨٣، أما بقية المصادر فتذكر "عتق وأثاركم". وما أثبتناه هو أكثر ملائمة للسياق.

(٣) جُدْد، جمع جُدَّة، وهي الطريقة يخالف لونها لون ما يليها. وَجَدَد هو الطريق الواضح المسفر. جُدْد، جمع جديد، آثار جدد، أي غير مُخْلَقَة، المحتسب في تبين شواذ القراءات والإيضاح عنها، ج ٢، ص ١٩٩-٢٠٠.

(٤) الموازنة، ج ١، ص ١٣٠:

فإن هزنتم سلناها وقد غنيت دهرًا وهام بني بكر لها غمد

والهوي، السقوط ومنها الهاوية، أي جهنم، والهوي، الخطأ، لسان العرب، مادة (هوي).

والمعنيان واردان، فالشاعر يحذر بكرًا من الوقوع في الخطأ بمحاربة قومه، أو هو يهددهم بأنهم سيقعون في هاوية كهواية جهنم إن هم أقدموا على حرب قومه.

(٥) ديوان المعاني، ج ٢، ص ٥١، "فما".

(٦) الزهرة، ج ٢، ص ٦٨٣ "عبرت"، التذكرة السعدية، ص ٨٢، "عبرت".

(٧) ديوان المعاني، ج ٢، ص ٥١، "إلّا".

(٨) التذكرة السعدية، ص ٨٢، "عمد".

وقال سعد بن ناشب يهجو قبيلة الوحيد التميمية، التي تتهدد قبيلته مازن، ويهجو معها حليفها قبيلة تيم اللات من بني بكر بن وائل:

[الوافر]

- ١- أتيَمَ اللَّاتِ (١) ما بِالِ الْوَحِيدِ (٢) تَقْعَعُ (٣) فِي التَّهْدُدِ مِنْ جَدِيدٍ؟ (٤)
 ٢- وَتَوَعَّدُ (٥) مَازِنًا بِكُمْ وَأَنْتُمْ مَحَلُّ الدَّلِّ (٦) وَاللَّوْمِ التَّلِيدِ
 ٣- إِذَا مَا مَازِنٌ دَفَقَتْ إِلَيْكُمْ بِأَسَدٍ لَا تُهَيِّئُهُ بِالْوَعِيدِ
 ٤- يُبِيحُونَ السِّيُوفَ إِذَا اشْمَعَلَتْ (٧)

التخريج:

حماسة ابن الشجري، ج ١، ص ١٦١ - ١٦٢.

- (١) التيم، العبد، وتيم اللات عبداللات، وتيم الله عبدالله، والتيم، قبيلة عربية كبيرة، وتيم اللات من بني بكر بن وائل، جمهرة أنساب العرب، ص ٣١٤-٣١٦، وقد هجاهم جرير قائلاً:
 والتيمَ ألامَ من يمشي، والأُمهم أولادُ ذهلِ بنو السودِ المدانيسِ
 ديوان جرير، ج ١، ص ١٣١.
- (٢) هم بنو الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب بن ربيعة بن صعصعة، بطن من بطون تميم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٧٩، ٢٨٢، ٤٦٩.
- (٣) حماسة ابن الشجري، ج ١، ص ١٦١، "يقعع لي".
- (٤) ما يشير إلى تكرار تهدد قبيلة الوحيد لمازن قبيلة الشاعر.
- (٥) حماسة ابن الشجري، ج ١، ص ١٦١، "ويوعد".
- (٦) يشير إلى بيت شعر معاصره جرير يهجو فيه نميراً - بحضور الراعي التميمي - فأذللهم دون أن يرد عليه أحد منهم، يقول:
- فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا
 ديوان جرير، ج ٢، ص ٨٢١.
- (٧) اشمعلت، أسرع، والمشمعل، المسرح، يكون في الناس والإبل، والشمعلة، الناقة السريعة، ومنه اشمعل في أمره، أي جدّ ومضى فيه، المبهج في تفسير أسماء شعراء ديوان الحماسة، ص ٤٩، ولسان العرب، مادة (شمعل).

(٤)

حدّثني محمد بن الأزهر بن عيسى، قال حدّثني أبو الحسين بن عمرو بن خلف الضرير؛ قال جنت جناة من بني مازن بن عمرو بن تميم، فأخافهم بلال بن أبي بردة، وهو على البصرة، وتوعدهم، فجاؤوا إليه، فمثل بين يديه سعد بن ناشب فقال^(١):

[الطويل]

- ١- ولا تُوعِدْنَا يَا بِلَالُ فَإِنَّا وَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَشْفُقْ عَصَا الدِّينِ أَحْرَارُ
- ٢- وَإِنْ لَنَا إِمَّا خَشِينَاكَ مَذْهَبًا إِلَى حَيْثُ لَا نَخْشَاكَ^(٢) وَالدهرُ أطْوَارُ
- ٣- فَلَا تَحْمِلْنَا بَعْدَ سَمْعِ وَطَاعَةٍ عَلَى غَايَةٍ^(٣) فِيهَا الشَّقَاقُ أَوْ العَازُ
- ٤- فَإِنَّا إِذَا مَا الحَرْبُ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا بِهَا حِينَ يَجْفُوها بئُوهَا لِأَبْرَارُ
- ٥- وَلَسْنَا بِمُحْتَلِّينَ^(٤) دَارَ هَضِيمَةٍ^(٥) مَخَافَةَ مَوْتٍ^(٦) إِنْ بَنَّا نَبَتِ^(٧) الدَّارُ

قال: فقال له بلال: ليس كل ما يقوله السلطان يفعله يا سعد^(٨).

التخريج:

(١) أخبار القضاة، ج ٢، ص ٤٠.

(٢) يقصد الخروج من البصرة إلى صحرائها، وهو الطرح الآخر الذي يهدد سعد بن ناشب بلال بن أبي بردة به إن لم يكف عن التضييق على قومه.

(٣) أخبار القضاة، ج ٢، ص ٤٠، "حالة".

(٤) السابق نفسه، "بمخيلين".

(٥) دار هزيمة، أي دار ظلم نتفص فيها، وتهضم فيها حقوقنا، لسان العرب، مادة (هضم).

(٦) شرح حماسة أبي تمام للشنتمري، ص ٢٥١، "قوم".

(٧) أخبار القضاة، ج ٢، ص ٤٠، "تباينت".

(٨) أخبار القضاة، ج ٢، ص ٤٠.

الحماسة، عسيلان، ج ١، ص ٣٣٤. ديوان الحماسة برواية الجواليقي، ص ١٨٨. أخبار القضاة، ج ٢ ص ٤٠. شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، القسم الأول ص ٦٦٧-٦٦٩. شرح ديوان حماسة أبي تمام المنسوب لأبي العلاء، ج ١، ص ٤٢٠. شرح حماسة أبي تمام للشنتمري، ج ١، ص ٢٥١-٢٥٢. كتاب الحماسة للشنتمري، ج ١، ص ١٧٥. شرح ديوان الحماسة للتبريزي، ج ١، ص ٤٦٠-٤٦١. التذكرة السعدية، ص ١٢١-١٢٢. أسرار الحماسة، ج ١، ص ٢٢.

(٥)

كان سعد بن ناشب شديداً، مهيباً، وقد وقع بينه وبين رجل من أهل البصرة شر، فضربه سعد بالسيف وهرب، فقال^(١) يعتذر عن فراره:

[الطويل]

١- ولا تُوَعِدْتِي بِالْأَمِيرِ فَإِنِّي إِذَا مَا جَعَلْتُ الْمِصْرَ خَلْفِي^(٢) أَمِيرُ

٢- وإِتِي عَلَى الْأَمْرِ الْمَهِيْبِ إِذَا الْفَتَى ثَمَى هَمُّهُ عَمَّا يَرِيدُ جَسُوْرُ

فأمر الأمير بهدم داره، فهدمت^(٣).

التخريج:

سمط اللآلي، ج ٢، ص ٧٩٤.

(٦)

(١) سمط اللآلي، ج ٢، ص ٧٩٤.

(٢) الخِلف، ما عُلق على الراحلة خلف الراكب. وأخلف الرجل، أهوى بيده على مقبض سيفه ليسله من قرابه، لسان العرب، مادة (خلف)، وجعلت المصّر خلفي، أي تركته وغادرته. وقد ظنّت تلخّ على الشاعر فكرة الخروج من المدينة، التي يرى قهر السلطة وسطوتها تتجلّى فيها، وسواء أكان الشاعر يقصد أنه يجعل البصرة وراء ظهره ويدخل الصحراء؛ أم أنه يقصد قبضه مقبض سيفه وتوعدّ أعدائه به، فإنه في الحاليتين يشعر بالقوة والندية لبلال الذي يتهدده ويتوعده وقومه.

(٣) سمط اللآلي، ج ٢، ص ٧٩٤.

كان سعد بن ناشب رجلاً حاد الطبع، قاسي اللفظ، فلم ترض بذلك أمه وقيل: امرأته، ولامته على شراسة خلقه، وقساوة كلماته، فقال يدافع عن سيرته، ويشرح حقيقة نفسه:

[الطويل]

- ١- نُفِّدُنِي (١) فيما تَرى من شِراسِتي وشِدَّةِ نَفْسي أُمُّ سَعْدٍ (٢) وما تَذْري
 ٢- فقلتُ لها: إِنَّ الكَريمَ (٣) إذا (٤) حَلا لِيُفْقَى على حالٍ أَمَرَ من الصَّبرِ (٥)
 ٣- وفي اللَّيْنِ ضَعْفٌ والشِراسَةُ هَيْبَةٌ (٦) وَمَنْ لَمْ (٧) يَهَبْ يُحْمَلْ على مَرْكَبٍ وَعَر (٨)
 ٤- وما بِيَّ على مَنْ لَانَ لِي مِنْ فِظاظَةٍ ولكِنِّي فَظٌ أَبِيٌّ على القَسْرِ
 ٥- أَقِيم صَغا (٩) ذي المِيلِ حَتَّى أَرُدَّهُ وأُحْطِمُهُ حَتَّى يَعودَ إلى القَدْرِ

- (١) جمهرة الأمثال، ج ١، ص ٢٧٣، نظام الغريب، ص ٤٥، "تربني". وقد اختار أحمد الهاشمي هذه المقطوعة في باب الفخر والحماسة، جواهر الأدب، ج ٢، ص ٢٦٩-٢٧٠.
- (٢) جمهرة الأمثال، ج ١، ص ٢٧٣، كتاب الحماسة للشنتمري، ج ١، ص ١٧٤، نظام الغريب، ص ٤٥، "أم عمرو".
- (٣) الأمالي، ج ٢، ص ١٧٤، التذكرة السعدية، ص ٤٣-٤٤، "الحليم".
- (٤) الأمالي، ج ٢، ص ١٧٤، الحماسة البصرية، ج ١، ص ١٩٦، التذكرة السعدية، ص ٤٣-٤٤، "وإن".
- (٥) الصَّبر هو الدواء المرّ، ولا تُسكَّن كلمة الصبر إلا للضرورة الشعرية، لسان العرب (صبر).
- (٦) الحماسة، عسيلان، ج ١، ص ٣٣٣، "هينة"، وقد استبدلنا بها "هيبة"، وهي واردة في كل المصادر الأخرى بهذه الرواية، انظر مثلاً: ديوان الحماسة برواية الجواليقي، ص ١٨٧.
- (٧) شرح حماسة أبي تمام للشنتمري، ص ٢٥٠، "لا".
- (٨) محاضرات الأدباء، ج ٢، ص ١٤٩، وفي هذا البيت بعض معنى بيت زهير بن أبي سلمى:
 ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم، ومن لا يظلم الناس يظلم
 ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٧٧.
- (٩) ديوان الحماسة برواية الجواليقي، ص ١٨٧.

- ٦- فَإِنْ تُغْذِلْنِي تُغْذِلِي بِي مَرْزَأً^(١) كريم نثاً^(٢) الإعرار مشترك اليسر
 ٧- إِذَا هُمْ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عِزْمَهُ وصمّ تصميم السُرْجِي^(٣) ذي الإثر^(٤)

التخريج:

الحماسة، عسيلان، ج ١، ص ٣٣٣. ديوان الحماسة برواية الجواليقي، ص ١٨٧. كتاب الحماسة للشنتمري، ج ١، ص ١٧٤-١٧٥. الأمالي، ج ٢، ص ١٧٤. جمهرة الأمثال، ج ١، ص ٢٧٣، ولم يرو العسكري فيه إلا البيتين الأول والثاني. شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، القسم الأول ص ٦٦٤-٦٦٥. شرح ديوان حماسة أبي تمام المنسوب لأبي العلاء، ج ١، ص ٤١٩. شرح حماسة أبي تمام للشنتمري، ج ١، ص ٢٤٩-٢٥٠. سمط اللآلي، ج ٢، ص ٧٩٢-٧٩٣، ولم يرو البكري إلا البيتين الأول والسابع. محاضرات الأدباء، ج ١، ص ٤٩٢، ولم يرو الراغب الأصفهاني إلا البيت الثالث. شرح ديوان الحماسة للتبريزي، ج ١، ص ٤٥٩-٤٦٠. الحماسة البصرية، ج ١، ص ١٩٥-١٩٦. التذكرة السعدية، ص ٤٣-٤٤. أسرار الحماسة، ج ١، ص ٢١.

(١) رجل مرزأً بماله، كريم يكرم به على الآخرين، ويصيب الناس من خيره كثيراً، لسان العرب، مادة (رزأ).

(٢) شرح ديوان حماسة أبي تمام المنسوب إلى أبي العلاء، ج ١، ص ٤١٩، والنثاء، الحديث والخبر، نثاء، حدث بالخبر وأشاعه، أنشد ابن بَرِّي للخنساء:

وقد سمعتُ فلم أبججْ به خيراً محنتاً جاء ينثو رجع أخباري

ديوان الخنساء، ص ٢٩١.

والنثاء ما أخبرت به عن الرجل من حسن وسيء، ونثيته نثوان ونثيان، يقال فلان حسن النثاء، وقبيح النثاء، والاسم منه النثاء، والنثاء المغتاب. والنثاء مثل النثاء، إلا أنه في الخير والنثر، أما النثاء ففي الخير خاصة، الأمالي، ج ٢، ص ١٧٤، لسان العرب، مادة (نثأ).

(٣) والسريجي، ضرب من السيوف منسوبة إلى قين معروف مشهور بصناعة السيوف يدعى سريج، لسان العرب، مادة (سرج).

(٤) الأثر بفتح الهمزة وسكون الناء، فرند السيف، وهو اختيار ابن الأثير، أما أبو علي القالي فقد اختار كسر الهمزة، يقال جنئت على إثره بكسر الهمزة وسكون الناء، وأثره بفتح الهمزة والناء، والأثر والإثر والأثر ك(فعل) واحد ليس بجمع، الأمالي، ج ٢، ص ١٧٤، ولسان العرب، مادة (أثر).

ما نسب إلى سعد بن ناشب وإلى غيره

يذكر محمد حجي ومحمد الأخضر محققا كتاب "زهر الأكم" في فهرس الأعلام الملحق بالكتاب أن البيتين التاليين لسعد بن ناشب، ولكنهما لم ينسباهما إليه في متن الكتاب أو حواشي صفحاته^(١):

وحديثها كالقطر يسمعه راعي سنين تتابعت جدبا
فأصاخ يرجو أن يكون حياً ويقول من فرح هيارنا!

والواضح أن نَفَسَ هذين البيتين مختلف عن نَفَس شعر سعد بن ناشب الحماسي، فهو شعر غزل رقيق، ليس لسعد بن ناشب عناية به، والبيتان للراعي النميري^(٢).

وينسب إليه أيضاً^(٣):

إذا ملك لم يكن ذا هبة فدعوه فدلته ذاهبة

والبيت لأبي الفتح البستي^(٤)، يبدو فيه أسلوبه المعتني بالجناس الذي ظهر جلياً في شعره.

وينسب إليه كذلك^(٥):

-
- (١) زهر الأكم، ج ٣، ص ١٥٢.
 - (٢) شعر الراعي النميري، ص ٢٦٨.
 - (٣) زهر الأكم، ج ١، ص ٣٠٠.
 - (٤) أبو الفتح البستي حياته وشعره، ص ٢٢٨، وقد زادت العناية بالبديع بشكل عام في الشعر أواخر القرن الرابع الهجري، على يدي صاحب بن عباد وابن العميد.
 - (٥) انظر مثلاً: المحكم والمحيط الأعظم، وتاج العروس، مادة (برج).

يَا بؤْسَ لِحَرْبِ أَتَيْ وَضَعْتَ أَرَاهِطَ فَاسْتَرَّاحُوا
 مِنْ فَرٍّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَّاحُ
 بِئْسَ الْخَلَائِفُ بَعَدَنَا أَوْلَادُ يَشْكُرُ وَاللَّعْنُ أَحُ
 وَالْحَرْبُ لَا يَبْقَى لِحَا حِمِّهَا التَّخْيُّلُ وَالْمِرَّاحُ

هذه الأبيات ليست لسعد بن ناشب وإنما هي أبيات من قصيدة طويلة لسعد ابن مالك بن ضبيعة بن قيس من بني بكر بن وائل^(١)، وهو يشير في البيت الثاني إلى نسبه، "أنا ابن قيس"، وهو شاعر جاهلي، من سراة قبيلة بكر بن وائل، ومن فرسانها في حرب البسوس، التي دارت في الجاهلية بين ربيعة وحلفائها من جهة وشيبان وأحلافها من جهة أخرى، وهما من قبيلة بكر بن وائل، وقد استمرت الحرب بينهما أربعين سنة. وسعد بن مالك هو جد الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد.

(١) الحماسة، عسيلان، ج١، ص٢٦٥-٢٦٦، والتبويه على شرح مشكلات الحماسة، ص١٩٥، شرح ديوان الحماسة، للتبريزي، ج١، ص٣٥٦-٣٦٠، ونشوة الطرب، ج٢، ص٦١٦، وخزانة الأدب، ج١، ص٤٦٧-٤٧٣، وشعراء النصرانية قبل الإسلام، ص٢٦٤-٢٦٦.

الخاتمة:

رأينا أن العناية بالشاعر سعد بن ناشب وشعره كانت قليلة جداً، سواء لدى المصنفين العرب القدماء أو لدى المؤلفين المعاصرين، وقد أرجعنا سبب ذلك إلى قلة المعلومات عنه وعن شعره في مصادر التراث العربي، ومن هنا فقد كانت صورته غير واضحة في مصادر هذا التراث، وفي الدراسات العربية المعاصرة بعد ذلك، ولذلك جاء هذا البحث الذي حاولت من خلاله أن أسدَّ هذه الثغرة ما وسعني الجهد. وقد أوضحت فيه جوانب من صورة الشاعر الشخصية والشعرية بقدر ما أعانت المعلومات القليلة في المصادر والمراجع على ذلك، ويقدر ما استنتجته من شعر الشاعر. وقد استعرضت هذه المصادر والمراجع التي أشارت إليه وإلى شعره بإشارات سريعة مقتضبة. ونبهت على قلة هذا الشعر في مصادر التراث العربي، فلم يتجاوز شعره الذي استطعت جمعه (٣٢) بيتاً، على الرغم من طول التقصي والمثابرة على ذلك. كما نبهت في البحث إلى اقتصار شعر سعد بن ناشب على غرض الحماسة، وقد يكون سبب ذلك طبيعة نفسية الشاعر المستتارة والمتحدية في الوقت نفسه، وقد يكون سببه الظروف الحياتية الصعبة التي أحاطت به ويقومه في البصرة وبأديتها في تلك الفترة، من تهديد مسؤول شرطتها بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري له ولهم، ومن تشديد سلطة الدولة بشكل عام قبضتها على القبائل، وبخاصة القبائل المضرية، ومنها تميم قبيلة الشاعر سعد بن ناشب وبطونها. وقد قمت بدراسة مختصرة لشعر الشاعر فوجدته مقصوراً على معاني موضوع الحماسة الذي لم يقل في غيره كما أسلفنا. وقد ظهرت هذه المعاني من خلال قيم حماسية، أغلبها ذو طابع جاهلي، يُعلي من شأن القوة وما يتعلق بها من صفات أخرى مشابهة، كالتحدي، وقهر الآخرين، وظلمهم، حتى أنَّ الشاعر ليرى القسوة مظهراً مرغوباً من مظاهر القوة، وإن كانت قوة ظالمة غاشمة لا تتغياً

الحق، فهو يمارسها ضد الآخرين، ليرسم لنفسه صورة مهيبية في نفوسهم، وهو وإن كان يرفضها من مسؤول شرطة البصرة وواليتها إلا أنه يقبل ممارستها على غيره. إن هذه المعاني هي قيم تقدّر صفات الإقدام وتقّم الأهوال، وتكثر من الافتخار بالقبيلة، ومن هجاء أعدائها. كما ظهر في شعره بعض القيم الإسلامية القليلة التي تتبدّى في الإيمان بقضاء الله وقدره، والتمسك بطاعة أولي الأمر، وعدم شق عصا الطاعة عليهم ما داموا يؤدون واجباتهم المنوطة بهم تجاه رعيّتهم.

وقد كان شعر سعد بن ناشب مقطوعات شعرية قصيرة، تميزت بالوحدة الموضوعية، والعضوية، والنفسية، التي تعبر عن تجارب شعرية مرتبطة بمواقف واستجابات نفسية مشحونة. كما كان شعره متميزاً بظهور شخصيته واضحة فيه، متصفة بالأنفة والاعتداد بالنفس والتحدي. وعلى الرغم من سعة البحور التي جاء عليها شعر الشاعر، والتي كانت قادرة على استيعاب مشاعره، وعلى توصيل هذه المشاعر إلى الآخرين بالحرارة نفسها؛ فقد تميّز هذا الشعر الحماسي بسرعة الإيقاع، بسبب نفس منشئه المستثارة، وبسبب رغبته في تثير نفسيات قومه وتحميسها على من يتحداهم، سواء أكانت السلطة المتجلية ببلال بن أبي بردة مسؤول شرطة البصرة وواليتها أم ببعض القبائل التي كانت تناصب قبيلته العداوة. كما تميز شعر الشاعر بالمباشرة، إلا بعض الصور الشعرية ذات الصلة بموضوع الحماسة. ولما كان الشاعر من شعراء القرن الأول الهجري فقد جعل أهل النحو بعض أبيات شعره من الشواهد النحوية الشعرية.

تَبَيَّنَ المصادر والمراجع

- ١- أبو الفتح البستي: حياته وشعره، محمد مرسي الخولي، دار الأندلس، [د. م.]، ١٩٨٠.
- ٢- أخبار القضاة، وكيع، محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦هـ)، عالم الكتب، بيروت، [د. ت.].
- ٣- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تألي أبي العباس شهاب الدين أحمد ابن خالد بن حماد الناصري الدرعي السلاوي (ت ١٣١٥هـ)، اعتنى به محمد بن عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧.
- ٤- أسرار الحماسة، سيد علي المرصفي (ت ١٣٥١هـ/١٩٣٢م)، [مطبعة أبي الهول]، [القاهرة]، ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م.
- ٥- الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، للخالدين: أبو بكر محمد (ت ٣٨٠هـ)، وأبو عثمان سعيد (ت ٣٩١هـ)، حققه السيد محمد يوسف، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٥.
- ٦- الأمالي، تأليف أبي علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي (ت ٣٥٦هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، [د. ت.].
- ٧- الأمثال، أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٣٣٨هـ)، حققه وعلّق عليه وقدم له: عبدالمجيد قطامش، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، (من التراث الإسلامي، الكتاب السابع).
- ٨- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحن الذهن والهاجس، تأليف أبي عمر يوسف ابن عبدالله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد مرسي الخولي، مراجعة: عبدالقادر القط، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، [١٩٨١].

٩- البيان والتبيين، تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: وشرح عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الخامسة، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

١٠- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق: عبدالكريم العزباوي، راجعه مصطفى حجازي، [مطبعة الكويت]، الكويت، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، (سلسلة التراث العربي، ١٦).

١١- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان (ت ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦)، نقله إلى العربية عبدالطيم النجار، الطبعة الرابعة، دار المعارف، [القاهرة]، [١٩٧٧].

١٢- تاريخ خليفة بن خياط، أبو عمر خليفة بن خياط الليثي العصفري (ت ٢٤٠هـ)، تحقيق: أكرم ضياء العمري، ط ٢، دار القلم، دمشق، ومؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

١٣- تاريخ الطبري: تاريخ الملوك والرسل، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١١هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، [١٩٦٥].

١٤- تحقيقات في اللغة والأدب والعربية ١: سعد بن ناشب المازني، عزالدين البدوي النجار، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٩٠، المجلد ٦٥، العدد ٤، ص ٦٦٠-٦٨٨.

١٥- تحقيقات في اللغة والأدب والعربية ٢: شعر أبي نواس: قطعة من ديوانه برواية أبي بكر الصولي، عزالدين البدوي النجار، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٩١، المجلد ٦٦، العدد ٢، ص ٢٢٨-٢٣٩.

- ١٦- التذكرة الحمدونية، ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي (ت ٥٦٢هـ)، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦.
- ١٧- التذكرة السعدية في الأشعار العربية، تأليف محمد بن عبدالرحمن بن عبدالمجيد العبيدي (من رجال القرن ٨هـ)، تحقيق: عبدالله الجبوري، منشورات محمد علي بيضون ودار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- ١٨- تفسير التحرير والتتوير المعروف بتفسير ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، مؤسسة التاريخ، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- ١٩- التتبيه على شرح مشكلات الحماسة، صنّفه أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ)، حققه: حسن محمود هنداوي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
- ٢٠- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ)، الطبعة الثالثة، دار الكتب المصرية، [القاهرة]، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.
- ٢١- جمهرة الأمثال، تأليف أبي هلال العسكري (ت ٣٩٢هـ)، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبدالمجيد قطامش، المؤسسة العربية الحديثة، [القاهرة]، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
- ٢٢- جمع الجواهر في الملح والنوادر، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت ٤٥٣هـ)، ط ٢، حققه وضبطه وفصل أبوابه ووضع فهرسه: علي البجاوي، دار الجيل، بيروت، [١٩٥٣].
- ٢٣- جمهرة أنساب العرب، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار المعارف، [١٩٨٢].

- ٢٤- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، تأليف السيد أحمد الهاشمي (ت ١٩٤٣م)، مؤسسة المعارف، بيروت، [د. ت.].
- ٢٥- الحماسة، تأليف أبي تمام حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٣١هـ)، برواية أبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقي (ت ٥٤٠هـ)، تحقيق: عبدالمنعم أحمد صالح، [وزارة الثقافة والإعلام، ودار الرشيد للنشر، [يغداد]، [١٤٠٠هـ / ١٩٨٠]، (سلسلة كتب التراث، ١٠١).
- ٢٦- الحماسة، ترتيب الأستاذ أبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى الأعم (الشنتمري ت ٤٧٦هـ)، دراسة وتحقيق: مصطفى عليان، جامعة أم القرى، [مكة المكرمة]، ١٤٢٣هـ.
- ٢٧- الحماسة، لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٣١هـ)، تحقيق: عبدالله عبدالرحيم عسيلان، [جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية]، [الرياض]، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- ٢٨- الحماسة البصرية، تأليف صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق وشرح ودراسة: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- ٢٩- الحماسة الشجرية، ابن الشجري هبة الله علي بن حمزة العلوي (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبدالمعين الملوحي وأسماء الحمصي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٠.
- ٣٠- الحماسة المغربية: مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب، لأبي العباس أحمد بن عبدالسلام الجاوي التادلي (ت ٦٠٩هـ)، حققه: محمد رضوان الداية، الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
- ٣١- الحياة الأدبية في البصرة: إلى نهاية القرن الثاني الهجري، أحمد كمال زكي، دار المعارف، القاهرة، [١٩٧١].

٣٢- الحيوان، تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م.

٣٣- الخاشعة العابدة: رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، عبدالمنعم الحفني، الطبعة الثالثة، دار الرشاد، القاهرة، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

٣٤- خطط البصرة ومنطقتها: دراسة في أحوالها العمرانية والمالية في العهود الإسلامية الأولى، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٣٥- خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، تأليف عبدالقادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ)، تحقيق: محمد عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٣٦- دائرة المعارف الإسلامية، أُصِدِرَت بالألمانية والإنجليزية والفرنسية وأُعْتَمِدَ في الترجمة العربية على الأصلين الإنجليزي والفرنسي، يصدرها باللغة العربية أحمد الشنتاوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبدالحميد يونس، راجعها محمد مهدي علام، دار الفكر، [القاهرة]، ١٩٣٣.

٣٧- دلائل الإعجاز، تأليف أبي بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (ت ٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ)، الطبعة الثالثة، قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ودار المدني، جدة، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

٣٨- ديوان الخنساء، الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الحارث بن عمرو "الشريد" السُّلَمِيَّة (ت ٢٤هـ)، شرحه ثعلب أبو العباس أحمد بن يحيى بن سيار الشيباني النحوي (ت ٢٩٢م)، حققه: أنور أبو سويلم، دار عمار، عمان، ١٩٨٨.

- ٣٩- ديوان العباس بن الأحنف (ت ١٩٢هـ)، دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
- ٤٠- ديوان القتال الكلابي (ت ٦٦هـ)، حققه وقدم له: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٠م.
- ٤١- ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٢هـ)، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٢هـ.
- ٤٢- ديوان جرير، جرير بن عطية الكلابي اليربوعي التميمي (ت ١١٠هـ) بشرح محمد ابن حبيب (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق: نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩-١٩٧١، (سلسلة ذخائر العرب، ٤٣).
- ٤٣- ديوان زهير بن أبي سلمى، زهير بن أبي سلمى المزني (٥٣٠م - ٦٢٧م)، شرحه وضبط تصويبه وقدم له: عمر فاروق الطباع، دار القلم، بيروت، [د.ت.].
- ٤٤- روائع الشعر الأموي، أنيس بديوي، ومحمود طماش، وحسان الطيبي، دار المعرفة، [بيروت]، ٢٠٠٥.
- ٤٥- زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت ٤٥٣هـ)، تحقيق: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠١م.
- ٤٦- زهر الأكم في الأمثال والحكم، الحسن اليوسي: أبو علي نور الدين الحسن ابن مسعود بن محمد (ت ١١٠٢هـ)، حققه: محمد حجي ومحمد الأخضر، نشر بدعم معهد الأبحاث والدراسات والتعريب، دار الثقافة، [الدار البيضاء]، ١٤٠١ / ١٩٨١م.

٤٧- الزهرة، لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني (ت٢٩٧هـ)، صنّفه وقدم له
وعلق عليه: إبراهيم السامرائي، ط٢، مكتبة المنار، الزرقاء - الأردن،
١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م.

٤٨- سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، لأبي عبيد عبدالله بن عبدالعزيز بن
محمد البكري الأونبي (ت٤٨٧هـ)، تحقيق: عبدالعزيز الميمني، لجنة التأليف
والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٥٤هـ / ١٩٣٦م.

٤٩- سير أعلام النبلاء، تصنيف شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي،
(ت٧٤٨هـ)، تحقيق: صالح السّمّر، أشرف على تحقيق الكتاب وخرّج
أحاديثه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢ / ١٩٨٢م.

٥٠- شرح الشواهد الشعرية في أمّهات الكتب النحوية لأربعة آلاف شاهد شعري،
خرّج الشواهد وصنّفها وشرحها: محمد محمد حسن شرّاب، مؤسسة الرسالة،
بيروت، ١٤١٧ / ٢٠٠٧م.

٥١- شرح ديوان الحماسة، تأليف الخطيب التبريزي، أبي زكريا يحيى بن علي بن
محمد بن حسن بن بسطام الشيباني (ت٥٠٥هـ)، كتب حواشيه غريد الشيخ،
وضع فهارسه العامة أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت،
١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.

٥٢- شرح ديوان الحماسة، أبو علي أحمد بن محمد بن حسن المرزوقي
(ت٤٢١هـ)، تحقيق: أحمد أمين وعبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت،
١٩٩١.

٥٣- شرح ديوان حماسة أبي تمام، المنسوب لأبي العلاء المعري (ت٤٤٩هـ)،
دراسة وتحقيق: حسين محمد نقشة، دار الغرب الإسلامي، [بيروت]،
[١٩٩١].

- ٥٤- شرح حماسة أبي تمام: تجلّي غرر المعاني عن مثّل صور الغواني والتحلي بالقلائد من جوهر الفوائد في شرح الحماسة، تأليف أبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى الأعم النحوي الشنتمري (ت ٤٧٦هـ)، تحقيق وتعليق: علي المفضل حمّودان، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، ودار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- ٥٥- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد (٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- ٥٦- شعر الراعي النميري، دراسة وتحقيق: نوري حمودي القيسي وهلال ناجي، [مطبعة المجمع العلمي العراقي]، [بغداد]، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
- ٥٧- الشعر والشعراء، محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، [١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م].
- ٥٨- شعراء البصرة في العصر الأموي: دراسة في السياسة والاجتماع، تأليف عون شريف قاسم، الطبعة الثانية، دار الجيل، بيروت، ودار المأمون، الخرطوم، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
- ٥٩- الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، تأليف حسين عطوان، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠، (مكتبة الدراسات الأدبية، ٥٦).
- ٦٠- شهيدة العشق الإلهي: رابعة العدوية، تأليف عبدالرحمن بدوي، الطبعة الرابعة، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٨، (دراسات إسلامية، ٨).
- ٦١- عجائب المقدور في نوائب تيمور، لابن عريشاه، أبو محمد أحمد بن محمد بن عبدالله الدمشقي (ت ٨٥٤هـ)، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
- ٦٢- العقد الفريد، تأليف أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

٦٣- عيون الأخبار، تأليف أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، [القاهرة]، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.

٦٤- غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة، تأليف أبي إسحاق جمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى المعروف بالوطواط (ت ٧١٨هـ)، ضبطه وصححه وعلق حواشيه ووضع فهرسه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨.

٦٥- فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، لأبي عبيد البكري (ت ٤٧١هـ)، وهو شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)، حققه وقدم له: إحسان عباس وعبدالمجيد عابدين، دار الأمانة، ومؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٦٦- قواعد الشعر، ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن يسار الشيباني (ت ٢٩١هـ)، تحقيق: رمضان عبدالنواب، الطبعة الثانية، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦٦.

٦٧- كتاب الحماسة للشنتمري، ترتيب أبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى الأعم النحوي الشنتمري (ت ٤٧٦هـ)، دراسة وتحقيق: مصطفى عليان، جامعة أم القرى - معهد البحوث العلمية - مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ٢٠٠٢، (سلسلة تحقيق الإسلامي).

٦٨- الكامل في اللغة والأدب، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٩١هـ)، عارضه بأصوله وعلق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة، [١٩٧٧].

٦٩- لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، [د.ت.].

- ٧٠- المبهج في تفسير أسماء شعراء ديوان الحماسة، تأليف أبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ)، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
- ٧١- مجموعة المعاني، مؤلف مجهول، إعداد: عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- ٧٢- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: رياض عبدالحميد مراد، دار صادر، بيروت، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- ٧٣- المحبّر، ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي (ت ٢٥٦هـ)، رواية أبي سعيد الحسين السكري، اعتنى بتصحيحه أيلزة ليختين شتيتير، دار الآفاق الجديدة، بيروت، [د.ت.]، (نخائر التراث العربي، دون رقم).
- ٧٤- المحتسب في تبين شواذ القراءات والإيضاح عنها، تأليف أبي الفتح عثمان ابن جني (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق: علي النجدي ناصف وعبدالفتاح إسماعيل شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء كتب السنة، القاهرة، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.
- ٧٥- المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيّدة المرسي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
- ٧٦- المختار من شعر بشار: اختيائز الخالدين وشرّحه لأبي الطاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة التجيبي البرقي (ت ٤٤٥هـ)، اعتنى بتصحيحه السيد محمد بدر الدين العلوي، دار صادر، بيروت، ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م.
- ٧٧- معجم البلدان، لشهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

- ٧٨- معجم شعراء الحماسة، عبدالله عبدالرحيم عسيلان، دار المريخ، الرياض، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- ٧٩- من شعر المقاومة: الفدائي والأرض، فاروق شوشة، مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت، السنة ٢٠٠٢ شهر ١٢، العدد ٥٢٩، (أبواب ثابتة، لغتنا الجميلة).
- ٨٠- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، لأبي القاسم الحسن بن بشر الأمدي (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢، (سلسلة ذخائر العرب، ٢٥).
- ٨١- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تأليف أبي عبيدالله محمد بن عمران المرزباني (ت ٣٨٤هـ)، وَقَفَ على طبعه واستخرج فهارسه محب الدين الخطيب، الطبعة الثانية، [المطبعة السلفية ومكبتها]، القاهرة، ١٣٨٥هـ.
- ٨٢- المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره، لأبي محمد الحسن ابن علي بن وكيع التنيسي (ت ٣٩٣هـ)، قرأه وقدم له وعلق عليه: محمد رضوان الداية، دار قتيبة، دمشق، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٢م.
- ٨٣- نشوة الطرب من تاريخ جاهلية العرب، تأليف ابن سعيد الأندلسي (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق: نصرت عبدالرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٢.
- ٨٤- نظام الغريب، عيسى بن إبراهيم بن محمد الربيعي (ت ٤٨٠هـ)، استخرجه وصححه بولس برونله، [مطبعة هندية]، [القاهرة]، [د.ت.].
- ٨٥- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تأليف أبي العباس أحمد القلقشندي (ت ٨٢١هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، الشركة العربية للطباعة والنشر، [القاهرة]، ١٩٥٩.

- ٨٦- هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام، يوسف البديعي (ت١٠٩٣هـ)، تحقيق:
عبدالإله نبهان وعبدالكريم الحبيب، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٤هـ/
٢٠٠٣م.
- ٨٧- وفيات الأعيان، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان
(ت٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، [د.ت.].

"بناء الأسطول الأموي"

(النشأة والتطور)

الأستاذة الدكتورة غيداء عادل خزنة كاتبي

الجامعة الأردنية/ قسم التاريخ

الملخص

تمثل دراسة "بناء الأسطول الأموي" أهمية بالغة باعتباره يُعدّ نموذجاً مبكراً يظهر فيه مدى التطور الحضاري للأمم، حيث تبرز فيه قدرة الدولة الأموية على مواجهة التحديات أمام قدرتها على بناء الأسطول ضمن الإمكانيات المتوفرة لديها، كذلك يعكس وعي الدولة تالياً بضرورة تطوير عملية البناء بإنشاء مراكز تدريبية متخصصة تحت إشرافها منعاً للإهمال والتقصير. ومع أن الدراسة قامت بمحاولة استقراء واسعة للمصادر التاريخية المعاصرة للدولة الأموية أو القريبة منها، إلا أن هناك ثلاث مجموعات من المصادر أضافت الكثير من الفائدة للدراسة، وهي: أوراق البردي ابتداءً، بتفردها بالإشارة إلى المشاكل الملاحية والتنظيمات الإدارية البحرية والإجراءات المالية المعاصرة لمرحلة بناء الأسطول. كذلك الوثائق الفقهية وأهميتها في إمكانية الاطلاع والتعرف على عقود إنشاء المراكب لتوضيح مدى تطور صناعة السفن. ومن ثمّ الدراسات الأدبية وخاصة دواوين الشعر وتظهر أهميتها في التعرف على مهام السفن وأنواعها المستخدمة في الأسطول الأموي.

المقدمة

تُمثل دراسة الجوانب الحضارية للأمة، أهمية كبيرة لدى العديد من الباحثين الذين تصدّوا لدراسة تاريخ الأمة، محاولين رصد جوانبه، والوقوف على أبرز مضامين حركة التطور الحضاري فيه.

وانصبّ جُلّ اهتمامهم وتركيزهم على البحث والتنقيب في مصادره التاريخية التقليدية المطبوعة منها والمخطوطة. وعلى الرغم من قيمة تلك المصادر، إلا أنها تبقى مقتضبة تقتصر في محتواها على بعض جوانب تاريخ الأمة خاصة السياسي والاجتماعي منه، مما كان له انعكاسه على طبيعة الإنتاج العلمي والبحثي في الدراسات التاريخية المعاصرة، والتي اتسمت في معظمها بطابع التجسيد والوصف للواقع السياسي والاجتماعي للأمة، بينما بقيت بواعث ومكونات الحراك والتطور الحضاري للعديد من الجوانب الحضارية في منأى إلى حدٍ ما عن البحث والدراسة، بسبب عدم الالتفات إلى العديد من المصادر التي تناولت هذا التطور.

من هنا تشكل دراسة الأسطول الأموي قيمة أساسية تسير في اتجاهين، الاتجاه الأول: هو دراسة أحد الجوانب المبكرة للتطور الحضاري للأمة في مرحلة مجابهة الأخطار والتحديات؛ للوقوف على مدى قدرة هذه الأمة وضمن الإمكانيات التي تملكها على المواجهة، يساندها في صمودها مقدرة العديد من خلفاء الدولة الأموية وولاتها ودورهم في المساهمة في بناء الأسطول، لعل من أبرزهم الخليفة معاوية بن أبي سفيان (خلافته ٤١هـ - ٦٠هـ/٦٦١م - ٦٨٠م)، الذي يمكن تسميته المؤسس للأسطول الأموي، ووالي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي (ولايته ٧٥هـ - ٩٠هـ/٦٧٦م - ٧١٠م)، الذي يمكن تسميته أيضاً المجدد للأسطول الأموي، لتحاول هذه الدراسة تتبع مراحل بناء الأسطول الأموي وتطوره، تلك

المراحل التي أظهرت قدرة الدولة الأموية على إمكانية إدارة مواردها ضمن شبكة تواصل واسعة، شملت الاستفادة من موارد الدولة في جميع ولاياتها في مختلف الأصقاع والنواحي. أما الاتجاه الثاني: فتمثل في محاولة استقراء واسعة شملت كافة المصادر التاريخية المعاصرة للفترة الأموية أو القريبة منها و دراسة البرديات والوثائق الفقهية أو "العقود" والأشعار، إلى جانب الاستفادة من بعض الدراسات الأثرية والمعاجم اللغوية المعنية بالألفاظ المتعلقة بالملاحة والسفن، لإبراز ذلك الخط الذي يربط صناعة سفن الأسطول الإسلامي عبر فترات الدولة الإسلامية، بالإضافة إلى الدراسات الحديثة التي تناولت صناعة السفن التقليدية في الخليج العربي ومصر، والدراسات الاستراتيجية العسكرية البحرية الحديثة، مما شكّل مجالاً خصباً للدراسة. والبحث فتح الباب على مصراعيه ليس في الجانب المعلوماتي فحسب، بل على صعيد محاولة الدراسة القيام بالربط التاريخي لصناعة السفن، دلّ عليه تشابه أسماء السفن وأجزائها، وحتى عمليات البناء فيها حديثاً مع تلك التي استخدمت في الدولة الأموية.

وسعت الدراسة إلى محاولة المواءمة والاستفادة من مختلف المصادر فيما يتعلق بالمجال التطبيقي لبناء الأسطول الأموي - إضافة للمجال النظري الذي وفرته المصادر التاريخية - ولعلّ أبرز ما يمثل هذا الجانب التطبيقي تلك الحيوية والحركة التي يمكن أن نستشعرها في العديد من الأشعار، التي مكنت الدراسة من تتبع أنواع السفن، ومهامها، وتاريخ استخدامها، من خلال تاريخ ومناسبة القصيدة، أو الفترة التي عاصرها الشاعر الذي قالها.

وتبرز برديات الوالي الأموي (قرة بن شريك)، مدى حرص الدولة الأموية على متابعة شؤون الأسطول وتنظيم أموره لدرجة أنّ الدارس لهذه البرديات يعتقد أن تاريخ الدولة الأموية في العقد السادس من عمرها، هو ما يمكن تسميته عقد الاهتمام بالأسطول، كما ركزت اهتمامها على العمال من نجارين وحدادين وغيرهم ممن انبرى لمهمة الصناعة.

كما وفرت المصادر الفقهية قيمة لا يمكن الاستغناء عنها من خلال تناولها لعقود صناعة السفن وبنود اتفاقيات الإنشاء والصناعة، التي يظهر من خلالها مدى التطور والتشريع الذي التزمت به هذه الصناعة.

الأسطول الأموي (النشأة والتطور)

فن الملاحة عند العرب

من المسائل التي تستحق العناية في موضوع صناعة السفن، مدى معرفة المسلمين بالملاحة وفنون ركوب البحر، وقد ناقش بعض الباحثين تلك المسألة منطلقين من المصطلح وأصوله، فيبينوا أن العديد من مصطلحات العرب عن الملاحة وركوب البحر، كانت نقلاً عن غيرهم، بل إن مصطلح سفينة^(١) وعلى الرغم من شيوعه، ليس عربياً أيضاً، وانتهوا إلى أن معرفة المسلمين بالملاحة وفنونها كان قليلاً^(٢).

إن تلك النظرة، تتطلب البحث عن شواهد ذات دلالة عن معرفة العرب بالسفن وركوبها، وأولها أن معرفة العرب بالسفينة يرتبط ابتداءً بقدسية دينية تتمثل بأن كل فن من فنون علم البحر وأصوله متصلٌ بالأنبياء، وفي ذلك يقول ابن ماجد (ت حوالي ٤٩٠هـ / ١٤٩٨م): "أصل السفينة ذكرناه أنه من نوح على نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام، وأما الحجر المغناطيس الذي عليه المعتمد ولا تتم هذه الصنعة إلا به، وهو دليل على القطبين فهو استخراج داود عليه السلام.....، وأما ضرب حديد (بيت الإبرة) بالمغناطيس، فقبل أنه من داود عليه السلام فهو كان معنياً بالحديد وخواصه....."^(٣).

وثاني تلك الشواهد هو ما ورد في أشعار العرب عن السفينة بمعنى مركب، يقول أحد الأعراب وقد فرض له هشام بن عبد الملك (خلفته ١٠٥هـ - ١٢٥هـ / ٧٢٣م - ٧٤٢م)، وألحقه بغزو البحر:

(١) إن ما يعنينا هو ما يتعلق بلفظ سفينة بمعنى مركب (Markab)،

انظر 192 p. (Supplement) Safina, E. I. (Kinderman, K.؛

وانظر: الخضراوي، ديب، قاموس الألفاظ الإسلامية، اليمامة للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٩٥م، ص ١٩٧، وسيشار إليه فيما بعد: الخضراوي، قاموس الألفاظ الإسلامية.

(2) p: 192 (Supplement) (Kinderman, K. Safina, E. I.

(٣) ابن ماجد، شهاب الدين أحمد النجدي (ت حوالي ٤٩٠هـ / ١٤٩٨م)، الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، تحقيق: إبراهيم خوري وعزة حسن، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧١م، ص ١٩. ص ٢٤. وسيشار إليه فيما بعد: ابن ماجد، الفوائد.

أقول وقد لاح السفين مُلججاً وقد بُدّت بعد التقرب صُور
وقد عصفت ربح وللموج قاصف وللبحر من تحت السفين هدير^(١)

وقد تستخدم ألفاظ أخرى للدلالة على السفينة كما ورد في شعر بشار بن برد
(ت ١٦٧هـ / ٧٨٣م) في قصيدته التي يمدح فيها يزيد بن عمر بن هبيرة
(ت ١٣٢هـ / ٧٤٩م)^(٢)، أيام خلافة مروان بن محمد (خلافته ١٢٧هـ - ١٣٢هـ /
٧٤٥م - ٧٥٠م)، فقال يصف السفينة التي يركبها:

وملعب النون يرى بطنه من ظهره أخضر مستصعب
عطشان إن تأخذ عليه الصبا يفحش على البوصي أو يصخب
ركبت في أهواله ثيباً إليك أو عذراء لم تركب^(٣)

ويرتبط بالبحر وركوبه مسألة أخرى، وهي خوف العرب من ركوب البحر
ابتداءً، ربما لعدم وجود الخبرة البحرية لديهم، وخاصة عرب الشمال الذين كانوا

(١) ياقوت، شهاب الدين أبي عبدالله البغدادي الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، معجم البلدان، (٧) أجزاء،
تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١١م، مادة (الشربة)، ج ٣، ص ٣٧٧.
وسيشار إليه فيما بعد: ياقوت الحموي، معجم البلدان.

(٢) يزيد بن عمر بن هبيرة، أبو خالد، أمير العراقيين، جمع له الخليفة مروان بن محمد ولاية العراقيين، وصف
بأنه من القادة الدهاء والشجاعة، وعرف بالولاء للمؤمنين. للمزيد انظر: الذهبي، شمس الدين محمد بن
أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط ١١،
مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م، ج ٦، ص ٢٠٧. وسيشار إليه فيما بعد: الذهبي، أعلام النبلاء؛
الصفدي، صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي
مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م، ج ٢٨، ص ١٥. وسيشار إليه فيما بعد: الصفدي،
الوافي بالوفيات.

(٣) يستخدم الشاعر بشار بن برد (ت ١٦٧هـ / ٧٨٣م) في قصيدته هذه العديد من الألفاظ للدلالة على
السفينة على سبيل التشبيه وأحياناً تصل هذه التشبيهات حدّ الألفاظ لكثرتها، حتى شكل هذا الوصف
لأهميته وتنوعه اهتمام الكثير من الباحثين، للمزيد انظر: بشار بن برد، الديوان، تحقيق: محمد رفعت
ومحمد شوقي أمين، (٤) أجزاء، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٠م، ج ١، ص ١٤٧ - ص ١٤٩.
وسيشار إليه فيما بعد: بشار بن برد، الديوان؛ أبو زيد، علي إبراهيم، دجلة والسفينة في الشعر العباسي،
ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ١٨ - ص ١٩. وسيشار إليه فيما بعد: أبو زيد، دجلة والسفينة.

يستخدمون الطرق البرية في ترحالهم^(١)، واستمر هذا الخوف إلى عهد الخليفة عمر ابن الخطاب، الذي وجه المسلمين صوب الأمصار كالكوفا والبصرة، بقوله: "فليرتادوا منزلاً برياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر"^(٢).

ويبرر هذا الخوف بربطه بالبيئة، بيئة البادية التي ألفها العربي وخبرها، التي انعكست على العديد من مسميات النجوم التي تأثرت بأسماء حيواناتهم مثل: الأغنام والناقة^(٣)، كما انعكست على أسماء العديد من أدوات الملاحة مثل: الإسطرلاب^(٤)، الذي سُمي بالثوري والجاموسي والسلحفي^(٥)، وظهرت مؤثراتها في

(١) ربما يعكس ذلك ما قام به الخليفة معاوية بن أبي سفيان (خلافته ٤١هـ - ٦٠هـ / ٦٦١م - ٦٨٠م) فيما بعد، عندما أغزى اليمانية في البحر؛ وذلك لمعرفة مهارتهم وفنون الملاحة، وجعل مضر في غزو البر لقلعة معرفتهم بالملاحة البحرية، مما ولد ذلك التذمر بين القبائل كما تعكسه العديد من الأشعار، ومن ذلك قول أحد الأعراب:

يا أيها القوم الذين تجتمعوا
بعكاً أناس أنتم أم أباء
أترك قيس ترتعي في بلادكم
ونحن نسامي البحر والبحر زاخر
للمزيد انظر: عطوان، حسين، **مختارات من الشعر الأموي**، (٥) أجزاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٨م، ج ٥، ص ١١٣ - ص ١١٤. وسيشار إليه فيما بعد: عطوان، **مختارات من الشعر الأموي**.

(٢) البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)، **فتوح البلدان**، تحقيق: عبدالله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، ١٩٥٧م، ص ٣٨٧. وسيشار إليه فيما بعد: البلاذري، **فتوح البلدان؛ الطبري**، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م)، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (١٠) أجزاء، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤م، ج ٤، ص ٤١. وسيشار إليه فيما بعد: الطبري، **تاريخ الرسل**.

(٣) شهاب، حسن صالح، **فن الملاحة عند العرب**، دار العودة، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٧٩. ص ٨٠. وسيشار إليه فيما بعد: شهاب، **فن الملاحة عند العرب**.

(٤) الإسطرلاب آلة يونانية يعزى ابتكارها لمدرسة الإسكندرية في العصر الهليني (القرن الثاني بعد الميلاد) وقد تم تطويرها على أيدي العرب في القرون الوسطى، وصفته المصادر العربية بأنه: "عبارة عن قرص معدني مقسم إلى ٣٦٠ درجة، ويعرف بميزان الشمس"، للمزيد انظر: عبدالعليم، أنور، **الملاحة وعلوم البحار عند العرب**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٩م، ص ١٦٩. وسيشار إليه فيما بعد: عبدالعليم، **الملاحة وعلوم البحار**.

(٥) كورنجت، الأب موريس، **علم النجوم على عهد الخلفاء**، مجلة المشرق، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين، لبنان، ١٩٠٠م، ص ٨٣٩. وسيشار إليه فيما بعد: الأب موريس، **علم النجوم على عهد الخلفاء**.

أشعارهم، فكانت وراء مقارنة الشعراء للسفن وملاحيتها بالخيول وراكبيها، وفي ذلك يقول الشاعر الأموي الفرزدق (ت ١١٤هـ / ٧٣٢م) في شعره عن المهلب بن أبي صفرة:

وكأن للمهلب من نسيب ترى بلبانِه أثر الزيار
بخارك لم يقد فرساً ولكن يقود الساج بالمرس المغار^(١)

وبدأ يظهر بوضوح شيء من التفاخر والمنافسة بين العرب أنفسهم في السبق في معرفة علوم البحر وفنونه، وفي ذلك يقول ابن ماجد (ت بعد ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م)، في بيان أفضلية أهل المشرق: "ونحن يسهل علينا أن نساfer بمراكبهم في بحورهم، وقد كابرنا بعض منهم في ذلك حتى طلغوا عندنا، فأقروا لنا بالبحر وفنونه"^(٢).

ولعل من أبرز الشواهد على معرفة المسلمين بركوب البحار ومنافستهم لغيرهم ممن برع في فنونه، ظهور الأسطول الأموي ولعبه دوراً فاعلاً في السيطرة على البحار.

وعُدَّ لفظ الأسطول - كغيره من الألفاظ المتعلقة بالملاحة عند العرب - غير عربي^(٣)، بل هو مصطلح يوناني الأصل يعني مجموعة من السفن الحربية العاملة

(١) الفرزدق، همام بن غالب (ت ١١٤هـ / ٧٣٢م)، الديوان، تحقيق: علي فاعور، ١٩٨٧م، ص ١٨٤. وسيشار إليه فيما بعد: الفرزدق، الديوان.

(٢) ابن ماجد، الفوائد، ص ١١٤ - ص ١١٥.

(٣) الخفاجي، شهاب الدين محمود المصري (ت ١٠٦٩هـ / ١٦٥٨م)، شفاء الغليل في كلام العرب من الدخيل، تحقيق: عبدالمنعم خفاجي، مكتبة الحرم الحسيني، القاهرة، ١٩٥٢م، ص ٦١. وسيشار إليه فيما بعد: الخفاجي، شفاء الغليل.

سويًا، ويقال به بالعربية كلمة (عمارة)^(١)، وأحياناً تستخدم عبارات دالة على الأسطول مثل "ركب البحر"^(٢)، يقول ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ / ١٠٩٤م) في إشارته للأسطول الأموي ضمن أحداث سنة (٨٠هـ / ٦٩٩م): "خرج عبدالواحد بن أبي الكنود من الإسكندرية وركب البحر وغزا الفرنج حتى وصل قبرص"^(٣).

أمّا عن تاريخ استخدام لفظ (أسطول) فيذكر البعض أنه استخدم في حوالي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي^(٤)، ويستخدمه البعض في حديثه عن

(١) الزيات، حبيب، معجم المراكب والسفن في الإسلام، مجلة المشرق، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، عدد ٤٣، بيروت، ١٩٤٩م، ص ٣٢٢. وسيشار إليه فيما بعد: الزيات، معجم المراكب والسفن؛ فهمي، علي محمود، التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط من القرن السابع حتى القرن العاشر الميلادي، ترجمة: قاسم عبده قاسم، دار الوحدة، بيروت، ١٩٨١م، ص ١٣٧. ص ١٣٩. وسيشار إليه فيما بعد: فهمي، التنظيم البحري الإسلامي.

(٢) اليعقوبي، أحمد بن أبي جعفر بن وهب (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)، التاريخ، (٢) مجلد، تحقيق: عبدالأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٣، مج ٢، ص ٢٣٨، وسيشار إليه فيما بعد: اليعقوبي، تاريخ؛ البلاذري، أبي العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)، أنساب الأشراف، تحقيق: محمود الفردوس العظم، دار اليعقوبية العربية، دمشق، ١٩٩٩م، ج ٦، ص ٢٨٨. وسيشار إليه فيما بعد: البلاذري، أنساب الأشراف؛ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، (٤) أجزاء، تحقيق: محمد هشام النعسان وعبدالمجيد طعمة حلبي، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥م، ج ٣، ص ١٢٣. وسيشار إليه فيما بعد: المسعودي، مروج الذهب.

(٣) ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (١٦) جزءاً، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م، ج ١، ص ٢٥٧. وسيشار إليه فيما بعد: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة.

(٤) ساويروس بن المقفع، (ت ٤٤هـ / ١٠م)، تاريخ مصر من بدايات القرن الأول الميلادي حتى نهاية القرن العشرين من خلال مخطوطة تاريخ البطارقة، تحقيق: عبدالعزيز جمال الدين، مكتبة مدبولي، مصر، ٢٠٠٦م، ج ٢، ص ١٧٦ - ص ١٧٧. وسيشار إليه فيما بعد: ساويروس بن المقفع، تاريخ البطارقة.

البحرية الإسلامية أيام الخليفة الأموي مروان بن محمد، ولكن يظهر أنّ استخدام لفظ (أسطول) للدلالة على البحرية الإسلامية ظهر قبل ذلك، فأوراق البردي تقدم تاريخاً أقدم لاستخدام هذا اللفظ يعود إلى القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، وهذا ما تشير إليه بردية من والي مصر الأموي قرّة بن شريك (ولايته ٩٠هـ - ٩٦هـ / ٧٠٨م - ٧١٤م)^(١)، إلى أحد عماله مؤرخة في سنة (٩١هـ / ٧٠٩م) يطلب فيها أن يرسل المعيشة المقررة على كورته إلى الأسطول: "..... من أهل كورتك.... أرسل القمح والخبز ومعيشة المقاتلة لأسطول الغزو"^(٢).

أمّا فكرة إنشاء أسطول إسلامي فتعود إلى معاوية بن أبي سفيان، الذي استأذن الخليفة عمر بن الخطاب في بناء الأسطول بعد وصفه حال السواحل وما تتعرض له من هجمات البيزنطيين، فرفض طلبه واكتفى بتوجيهه نحو: "ترتيب المقاتلة، وإقامة الحرس على مناظرها"^(٣)، واتخاذ

(١) هو قرّة بن شريك بن مرثد بن الحارث بن حبيش العبسي، كان كاتباً للوليد بن عبد الملك الذي ولاه مصر بعد عزل أخيه عبدالله بن عبد الملك، أتهم بالظلم والجور. الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٣هـ / ٩٦٤م)، ولاية مصر، تحقيق: الدكتور حسين نصار، دار صادر، بيروت، ١٩٥٩م، ص ٨٤. وسيشار إليه فيما بعد: الكندي، ولاية مصر؛ ساويروس بن المقفع، تاريخ البطارقة، ج ٢، ص ١٤٢؛ الذهبي، أعلام النبلاء، ج ٤، ص ٤٠٩. ص ٤١٠؛ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، (٣٠) جزء في (١٥) مجلد، تحقيق: يوسف الطويل وعلي محمد هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م، مج ١٠، ج ٢١، ص ٢٠٣. وسيشار إليه فيما بعد: النويري، نهاية الأرب.

(2) Bell , Aphrodito , No 1354 , p: 281

وانظر الترجمة: أبو صفية، جاسر بن خليل، برديات قرّة بن شريك العبسي، دراسة وتحقيق: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ٢٠٠٤م، ص ٢٥٩. وسيشار إليه فيما بعد: أبو صفية، برديات قرّة بن شريك.

(٣) المناظر: تسمى المنظرة أو المرعبة وهي موضع في رأس الجبل، فيه رقيب ينظر ويراقب حركات العدو. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ / ١٣١٠م)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، مادة (نظر) ، مج ٥، ص ٢١٧. وسيشار إليه فيما بعد: ابن منظور، لسان العرب.

المواقيد^(١)، ولم يأذن له بغزو البحر^(٢)، ثم استأذن الخليفة عثمان بن عفان، فرفض طلبه ابتداءً^(٣)، ثم جاءت الموافقة مشروطة بعدم إلزام المسلمين في غزو البحر، بل الخروج طوعاً^(٤). وهنا لا بد من الإشارة إلى منطلقات معاوية بن أبي سفيان التي مكنته من النجاح في مواجهة مواقف الخلفاء الرافضة في البداية لبناء الأسطول الإسلامي^(٥)، والتي على ما يبدو كانت ذات صلة بطبيعة السواحل في الشام، فقد كانت سواحل بحرية طويلة، إضافة إلى التحديات البحرية البيزنطية التي واجهتها الدولة في فتح مدن الساحل وصعوبة الحفاظ عليها^(٦)، كما حصل مع بعض المدن الساحلية، كالإسكندرية سنة (٢٥هـ / ٦٤٥م)^(٧)، وقبرص للمرة الأولى سنة (٢٨هـ / ٦٤٧م) وللمرة الثانية سنة (٣٣هـ / ٦٥٣م)^(٨)، وهذه الصعوبة

(١) المواقيد: وهي أماكن مرتفعة أو أبراج مراقبة توقد فيها النيران، وسيلة للاتصال والمخابرة مع مواقع أخرى خاصة أيام الحروب والهجوم، ويطلق عليها أحياناً أبراج النار. ابن منظور، لسان العرب، مادة (وقد)، مج ٣، ص ٤٦٦؛ القيسي، ربيع، الملوية "منارة المسجد الجامع في سامراء"، مجلة سومر، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٠م، مج ٢٦، ص ٢٧٨، وسيشار إليه فيما بعد: القيسي، الملوية.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٧٥.

(٣) أشار البلاذري (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) إلى موقف الخليفة عثمان بن عفان ورفضه بناء الأسطول ابتداءً، متأثراً بموقف الخليفة عمر بن الخطاب السابق، حيث أجاب الخليفة عثمان بن عفان معاوية، قائلاً: "قد شهدت ما رد عليك عمر حين استأمرته في غزو البحر". البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٠٨.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٧٥؛ الطبري، تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٢٦٠ - ص ٢٦١.

(5) p: 194 (Supplement) Kinderman, K, Safina, E. I

(٦) الصايغ، أنيس، الأسطول الحربي الأموي في البحر الأبيض المتوسط، مكتبة رأس بيروت، بيروت، ١٩٥٦م، ص ١٤ - ص ١٨. وسيشار إليه فيما بعد: الصايغ، الأسطول الحربي.

(٧) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣١٠ - ص ٣١١.

(٨) البلاذري، المصدر نفسه، ص ٢٠٨ - ص ٢٠٩.

تكمُن في امتداد مساحة العديد من هذه المدن على البحر، فمدينة صور مثلاً؛ "مشرقة على بحر الشام داخله في البحر مثل الكف على الساعد يحيط بها البحر من جميع جوانبها إلا الرابع الذي منه بابها"^(١)، وتتطلب جغرافية مثل هذه المدينة وغيرها من المدن الساحلية ضرورة توفر أسطول يوازي قوة البحرية البيزنطية المعادية له، ليتمكن من حماية هذه الحدود البحرية المفتوحة، مع إمكانية الاستفادة من خبرة أهل السواحل في شؤون البحر^(٢).

إنّ مجال عمل الأساطيل البحرية يعتمد وبدرجة كبيرة على الإسناد والدعم الأرضي، وضرورة توفر قواعد أرضية ساحلية (موانئ) توزع على طول السواحل، مع توفر خدمات الإمداد للسفن وإصلاحها عند الحاجة^(٣)، ويبدو أنّ معاوية قد أدرك هذا الأمر، فعمل على إنشاء قواعد للأسطول على الساحل الشامي، ذلك الساحل الذي لفت انتباه الخليفة منذ بدايات الفتح الإسلامي، فنجح في إنشاء دار صناعة للسفن في عكا نُقلت أيام الخليفة هشام بن عبد الملك (خلافته ١٠٥هـ - ١٢٥هـ / ٧٢٣م - ٧٤٢م) إلى صور، واستمرت فيها حتى أيام الخليفة العباسي المقتدر (خلافته ٢٩٥هـ - ٣٢٠م / ٩٠٨م - ٩٣٢م)^(٤).

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (صور)، مج ٣، ص ٤٩٢-٤٩٣.

(٢) الصايغ، الأسطول الحربي، ص ١٣ - ص ١٤.

(٣) بلنير، لويس سي، و بيرس، جي ايزل، الجغرافيا العسكرية، ترجمة عبدالرزاق عباس حسين، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٥م، ص ٥١ - ص ٥٢. وسيشار إليه فيما بعد: بلنير، الجغرافيا العسكرية؛ رفعت، أشرف محمد، المفهوم الاستراتيجي للقوة البحرية، مجلة الدفاع - القوات العربية السعودية، الرياض، ٢٠٠٨م، ص ٥. وسيشار إليه فيما بعد: رفعت، المفهوم الاستراتيجي.

(4) p: 194 (Supplement) Kinderman, K, Safina, E. I

واستفاد الخليفة معاوية بن أبي سفيان من بعض العناصر التي تمتلك المعرفة في بناء السفن مثل الفرس حيث نقلهم إلى مدن طرابلس وصيداء وجبيل وصور على الساحل الشامي^(١)، وفي ذلك يقول ياقوت الحموي عند حديثه عن سبذان (وهي مدينة على مسافة أربعة فراسخ من البصرة): "كان سكانها قوماً من الفرس يعملون في البحر فلما قرب منهم العرب نقلوا ما خف من متاعهم مع عيالاتهم على أربعمئة سفينة"^(٢).

إن سياسة اتخاذ أماكن لدار الصناعة يرتبط كما يقول ياقوت الحموي، بالسيادة على تلك الأماكن حتى "اختلف باختلاف المتغلبين على الثغور الشامية"^(٣)، بل إن أهمية السيطرة على البحر الأبيض (البحر الشامي) هي التي دفعت الخليفة هشام بن عبدالمك فيما بعد إلى استعمال الأسود بن بلال المحاربي على بحر الشام^(٤).

وانتشرت دور الصناعة في العديد من المدن على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط، فوجدت في مصر دار للصناعة هي دار صناعة القلزم على البحر الأحمر، وتتمثل أهمية القلزم بأنه حلقة مهمة للاتصال بين البحر الأبيض

(١) اليعقوبي، أحمد بن أبي جعفر بن وهب (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)، البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩١م،

ص ٣٢٧. وسيشار إليه فيما بعد: اليعقوبي؛ البلدان؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٦٠.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (سبذان)، مج ٣، ص ٢٠٧.

(٣) المصدر نفسه، مادة (الأردن)، مج ١، ص ١٧٨؛ مادة (عكة)، مج ٤، ص ١٦٢.

(٤) ولي الأسود بن بلال المحاربي الداراني على البحر من قبل الخليفة هشام بن عبدالمك واستمر حتى توفي الخليفة سنة (١٢٥هـ / ٧٤٢م) فأقره الخليفة الوليد بن يزيد، وبعد أن تولى الخلافة يزيد بن الوليد عزله عن البحر وولاه الأردن سنة (١٢٧هـ / ٧٤٥م).

انظر: ابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسين بن هبة الله (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق و ذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من واردتها وأهلها، ٨٠ جزءاً، تحقيق: محب الدين العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥، ج ٩، ص ٦٧، وسيشار إليه فيما بعد: ابن عساكر، تاريخ دمشق؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (الشربة)، مج ٣، ص ٣٧٧.

والبحار الشرقية رغم صعوبة التنقل والملاحة فيه^(١)، يقول ياقوت الحموي: "وبحر القلزم مثل الوادي، فيه جبال كثيرة قد علا الماء عليها، وطرق السير منها معروفة لا يهتدى فيها إلا بربان يتخلل بالسفينة في تلك الجبال في ضياء النهار، وأمّا بالليل فلا يُسلك"^(٢)، ويبدو أنّ ذلك كان سبباً في تحوّل الأهمية عن القلزم التي اندثرت وأصبحت خراباً، إلى السويس، في حدود القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي^(٣).

وتتعدد الإشارات في برديات قرّة بن شريك إلى دار صناعة القلزم، ففي البردية المؤرخة في سنة (٧٠٩هـ/١٧٠٩م)، يوجه قرّة بن شريك رسالة إلى عامله بضرورة إرسال المتاع إلى القلزم دون تأخير:

"من قرّة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوة فقد فرضنا على كورتك أن ترسل متاعاً للقلزم، لتتظيف السفن وإصلاحها ومعيشة النواتية. وكنت قد كتبت إليك كتاباً فيما على أرضك من متاع القلزم، وأمرتك أن تعجل بذلك قبل أن تقل مياه خليج أمير المؤمنين، فإذا جاك كتابي هذا فعجل بما على أرضك من متاع القلزم، ولا تُؤخّر من ذلك شيئاً، ولا تُلجئي إلى أن أكتب إليك مرة أخرى، إذا كنت تفهم وتعقل؛ لأنك إن أخرت شيئاً من المتاع، وقد قلت مياه الخليج، فعليك أن ترسلها براً إلى القلزم وتدفع نفقات حملها من مالك.

كتب في ٨ طوبة (Tybe)^(٤)، ٨ إنكشن (= ٧٠٩هـ/١٧٠٩م).

(١) فهمي، التنظيم البحري الإسلامي، ص ٣١؛ أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ١٠١.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (القلزم)، مج ٤، ص ٤٤٠.

(٣) المصدر نفسه، مادة (القلزم)، مج ٤، ص ٤٤٠ - ص ٤٤١.

(٤) شهر طوبة القبطي يقابله شهر جمادى الأولى، وفي هذا الشهر يتم استخراج الخراج وحمله، وربما كان ذلك سبباً في طلب قرّة بن شريك الإسراع في إرسال المتاع، وهو كل ما يتصل بالسفن من أدوات للصناعة والصيانة والتتظيف ومعيشة المقاتلة. ابن مماتي، الأسعد بن المهذب (ت ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م)، قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٢٤٥. وسيشار إليه فيما بعد: ابن مماتي، قوانين الدواوين.

عنوان الظهر: ١٥ أمشير (Mechir)^(١)، ٨ إندكشن (= ٩١١هـ / ٧٠٩م).

أرسلت مع سعيد في تعجيل متاع القلزم^(٢).

ويظهر في البردية السابقة حرص قرة بن شريك على ضرورة إرسال المطلوب للقلزم قبل أن تقل مياه قناة خليج أمير المؤمنين، وهو الخليج الذي يربط بين نهر النيل وبحر القلزم^(٣)، و يبدو أن تقصير الولاة في الاهتمام به وبصيانته بعد خلافة عمر بن عبدالعزيز (خلافته ٩٩هـ-١٠١هـ / ٧١٧م - ٧٢٠م)^(٤)، قد أدى إلى خرابه خرابه وتراجع مكانة دار صناعة القلزم فيما بعد.

وتُظهر بردية أخرى حاجة دار صناعة القلزم إلى الأخشاب والحديد والمواد اللازمة لصناعة السفن وصيانتها^(٥)، مما يعكس مدى الخراب والضرر الذي يلحق بسفن الأسطول الأموي في بحر القلزم بسبب مشاكل الملاحة فيه، ولعل ما ذكره ياقوت الحموي في مادة "تاران" يعكس ذلك، فيقول: "تاران جزيرة في بحر القلزم بين القلزم وأيلة، وبيوتهم السفن المكسرة"^(٦).

ومن دور الصناعة أيضاً دار الصناعة في الإسكندرية، وإن لم تشر البرديات صراحة إلى وجود دار صناعة فيها، إلا أن العديد من البرديات تُلمح إلى أنها

(١) شهر أمشير الشهر السادس من السنة القبطية ويعني "عفريت الزوابع" يقابله شهر جمادى الآخرة العربي. الخوري، شحادة، قصة الأيام والشهور والأرقام وتسمياتها، دار الطليعة، دمشق، ٢٠٠١م، ص ٨٠، وسيشار له فيما بعد: الخوري، قصة الأيام.

(٢) انظر الترجمة: أبو صفة، برديات قرة بن شريك Bell, Aphrodito, No 1346, p:254-255

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٤١.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (الخليج)، مج ٢، ص ٤٤١.

(5) Bell, Aphrodito, No 1433, p: 369.p: 370

وانظر: فهمي، التنظيم البحري الإسلامي، ص ٣٤.

(٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (تاران)، مج ٢، ص ٦.

متلت مركزاً مهماً لانطلاق الغزوات البحرية للأسطول البحري الأموي، ففي البردية المؤرخة في سنة (١٩١هـ / ٧٠٩م)، يطلب قرّة بن شريك من عامله أن يرسل معيشة الأسطول، حيث جاء فيها:

"من قرّة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوة فإنني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فقد كتبت إليك في إرسال النواتية^(١) والصناع ومعيشتهم، ومعيشة المقاتلة في أسطول الغزو المصري، فإذا جاك كتابي هذا فعجل إرسال المعيشة المطلوبة من كورتك قبل أن تقل مياه قناة الإسكندرية، وإلا ستجبر على دفع أجر إرسالها براً إلى الإسكندرية....."^(٢).

كذلك أشارت بردية أخرى مؤرخة في سنة (٩٢هـ / ٧١٠م)، من خلال طلب قرّة بن شريك من عامله أن يرسل معيشة الأسطول - وهنا يخصص مادة غذائية بعينها وهي الزبدة- إلى الإسكندرية، حيث جاء فيها:

"من قرّة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوة فإنني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فقد طلبنا من كورتك تسعة مكايل من الزبدة بسعر ١ ½ للمكيال الواحد لمعيشة الجنود الذين يخرجون في غزوة سنة ٩ إندكشن العام (= ٩٢هـ / ٧١٠م)، وقد كتبت بذلك كتاباً إلى أهل القرى أرسل إليك، فإذا جاك كتابي هذا فاجمع المكايل المطلوبة من أهل القرى.... أرسلها إلى الإسكندرية مع رجالك الأمناء....."^(٣).

(١) النواتية : ترجع اللفظة حسب بعض الدارسين إلى أصل إغريقي هو (Nauta) وتعني الملاح، أو إلى أصل لاتيني (Nauticus)، القروي، أبو القاسم خلف بن أبي فراس (ت ق. ٤٠هـ / ق. ١٠م)، أكرية السفن، تحقيق: عبدالسلام الجماطي، منشورات تطوان، اسمير، المغرب، ٢٠٠٩م، هامش ص ٤٥. وسيشار إليه فيما بعد: القروي، أكرية السفن.

(2) Bell, Aphrodito, No 1353, p: 280.p: 281

انظر الترجمة : أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٥٨

(3) Bell, Aphrodito, No 1392, p: 381, p:382

وانظر الترجمة: أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٦٦-٢٦٧؛ فهمي، التنظيم البحري الإسلامي، ص ٣٤.

وتشير البرديات أيضاً إلى دار الصناعة في بابلون، جزيرة في النيل (جزيرة الروضة)، ففي البردية المؤرخة في سنة (٧٠٩ هـ / ٧٠٩ م)، يطلب قرّة بن شريك من عامله أن يرسل إلى بابلون المتاع ومواد لتنظيف السفن وإصلاحها، حيث جاء فيها: "..... تنظيف وتزويد متاع... للسفن و..... في جزيرة بابلون قبل عبدالأعلى بن أبي حكيم، صاحب العمل هذا العام، ٩ إنكشن (= ٧٠٩ هـ / ٧٠٩ م)، وكتبت بذلك كتاباً إلى أهل القرى أرسل إليك....." (١)، ويتكرر ذكر هذه الدار في العديد من البرديات، التي تشتمل على قوائم بمواد ضرورية من متاع السفن ومعيشة جنود الأسطول (٢).

ويرد في البرديات ذكر للعديد من المراكز والقواعد البحرية للأسطول الأموي على سواحل البحر الأبيض، دون أن تشير تلك البرديات صراحة إلى وجود دور صناعة فيها، لكن حاجة السفن للإصلاح والتنظيف والصيانة يزيد من إمكانية وجود دار للصناعة فيها، ومن هذه المراكز برقة (٣) التي تذكر في البرديات باسم (أنطابلس)، ففي البردية المؤرخة في سنة (٧١٢ هـ / ٧١٢ م)، يطلب قرّة بن شريك صرف معيشة نواتية (السفن) المتوجه لغزو إفريقيا، حيث جاء فيها:

"..... فأعطوا لبعث نواتية سفن أمير المؤمنين إلى أفريقيا..... في أجز كل نوتي ديناراً وسدس دينار، وفي معيشتهم إلى أنطابلس أحد عشر ديناراً وسدس ديناراً تدفع لهم من بيت المال" (٤).

(1) Bell, Aphrodito, No 1371, p:375

وانظر الترجمة: أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٦١ - ص ٢٦٢؛ فهمي، التنظيم البحري الإسلامي، ص ٤٥.

(2) Bell , Aphrodito , No 1408 , p:132

وانظر: أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ١٠٢؛ فهمي، التنظيم البحري الإسلامي، ص ٤٤ - ص ٤٥.
(٣) برقة كما ورد لدى ياقوت: اسم صقع بين الإسكندرية وأفريقيا واسم مدينتها أنطابلس وتفسيره الخمس مدن. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (برقة)، مج ١، ص ٤٦٢.
(٤) أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢١١ - ص ٢١٢.

ومن المراكز الأخرى أيضاً رشيد^(١)، ودمياط^(٢)، وتتيس^(٣)، وشكلت هذه المراكز مناطق إمداد مهمة لسفن الأسطول الأموي خاصة في مصر^(٤)، وبسبب الامتداد الواسع لساحل البحر الأبيض المتوسط، ولانتشار سفن الأسطول الأموي على طول هذا الساحل كان لا بد من توفر دور صناعة أخرى غير تلك المقامة في مصر، ومن بينها دار الصناعة في تونس^(٥)، وقد أنشأها والي إفريقيا حسان ابن النعمان في سنة (٥٨٢هـ / ٧٠١م)، وعمل على تجديدها والي إفريقيا عبيدالله بن الحجاب سنة (١١٤هـ / ٧٣٢م)^(٦).

أمّا المناطق الشرقية من الدولة الأموية، فالحاجة لوجود قوة بحرية فيها كانت ضرورية لمواجهة العديد من الأخطار ولعل من أبرزها خطر الخوارج^(٧)، الذي

(١) رشيد: بلدة على ساحل البحر والنيل قرب الإسكندرية. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (رشيد)، مج ٣، ص ٥٢.

(٢) دمياط: مدينة قديمة بين تتيس ومصر تقع على زاوية بحر الروم ونهر النيل، وهي ثغر من ثغور الإسلام. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (دمياط)، مج ٢، ص ٥٣٧.

(٣) تتيس: جزيرة في بحر مصر قريبة من البرما بين الفرما ودمياط، وتقع الفرما شرقها. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (تتيس)، مج ٢، ص ٦٠.

(٤) للمزيد عن هذه المراكز انظر: فهمي، التنظيم البحري الإسلامي، ص ٣٨.

(٥) تونس: أو تونس الغرب، مدينة كبيرة محدثة بأفريقية على ساحل بحر الروم، عمرت من أنقاض مدينة قديمة قريبة منها هي قرطاجنة، واسمها في القديم ترشيش. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (تونس)، مج ٢، ص ٧٠.

(٦) البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز (٤٨٧هـ / ١٠٩٤م)، المسالك والممالك، جزآن، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٩٢، ج ٢، ص ٦٩٥. وسيشار إليه فيما بعد: البكري، المسالك والممالك؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (تونس)، مج ٢، ص ٧٢؛ العنابي، محمد، عناية العرب بالأسفار البحرية وتخطيطهم للأسواق التجارية (مجموع في كتاب تطور علوم البحار ودورها في النمو الحضاري)، وزارة الشؤون الثقافية، تونس، ١٩٧٦، ص ٢٢. وسيشار إليه فيما بعد: العنابي، عناية العرب بالأسفار.

(٧) الخوارج: من الفرق الإسلامية اطلق عليها خصومها لقب الخوارج لخروجهم على الإمام والدين، من فرقهم النجدات والأزارقة والمحكمة وغيرها، وتجمع على اختلاف مذاهبها بتكفير الخليفة علي وعثمان والحكمين وأصحابهم، وتكفيرهم للخلفاء يوجب الخروج عليهم بوصفهم أئمة جائرين. للمزيد انظر: البيهقي، عبدالقاهر بن طاهر (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م)، الفرق بين الفرق، تحقيق: طه عبدالرؤف سعد، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ٤٥. وسيشار إليه فيما بعد: البيهقي، الفرق بين الفرق.

وصف البعض حروبهم مع الدولة الأموية بقوله: "لم يكن في الدولة الأموية بعد حروب الصحابة، أعظم من حربهم"^(١)، هذه الحروب التي لعبت السفن دوراً بارزاً فيها، لذلك حرصت الدولة الأموية على العناية بالأسطول والعمل على تطويره.

وتُظهر الروايات دور الحجاج بن يوسف الثقفي في هذا المجال، حيث يذكر ابن رسته (ت ٢٩٠هـ / ٩٢٠م) بأن الحجاج: "أجرى في البحر السفن المقيمة^(٢) المسمّرة غير المخروزة^(٣) المدهونة والمسطحة^(٤) غير ذوات الجآجىء^(٥)"^(٦)، كما يذكر اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م) أن الحجاج بن يوسف جعل لواسط جسر من السفن يربطها مع المدينة

(١) العباسي، الحسن بن عبدالله بن محمد (ت ٧٠٩هـ / ١٣١٨م)، آثار الأول في ترتيب الدول، مطبعة بولاق، القاهرة، سنة ١٩٨٧م، ص ١٨١. وسيشار إليه فيما بعد: العباسي، آثار الأول.

(٢) وهي التي يوضع عليها مادة القير وتسمى بالأرامية قيرا، وهي مادة سوداء تُطلى بها السفن والإبل وقيل هي الزفت، وتستخدم أيضاً في المباني وتوضع على السفن لمنع تسرب المياه إليها؛ عبدالله، عبدالعزيز، معجم الحرف والمهن، مجلة اللسان العربي، جامعة الدول العربية، الرباط، مج ٧، ١٩٧٠م، ص ٢٩٢. وسيشار إليه فيما بعد: عبدالعزيز، معجم الحرف والمهن؛ علي، فؤاد حسنين، الدخيل إلى اللغة العربية، مجلة كلية الآداب، مطبعة الملك فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٤٩م، مج ١١، ج ٢، ص ١٠. سيشار إليه فيما بعد: فؤاد حسنين، الدخيل إلى اللغة العربية.

(٣) أي التي استخدمت فيها المسامير بدلاً من خيوط النارجيل "جوز الهند" والتي تسمى بالسفن المخيطة نسبة إلى ذلك، فقد تميزت السفن العربية في البحر الأحمر والمحيط الهندي بأنها مخيطة وليست مسمرة، كما هو الحال في سفن البحر الأبيض المتوسط. للمزيد انظر: شهاب، حسن صالح، أضواء في تاريخ اليمن البحري، دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٢٦٠. وسيشار إليه فيما بعد: شهاب، تاريخ اليمن البحري.

(٤) المسطحة: رأى البعض من الباحثين أنها نوع من السفن العربية، وتسمى عند البرتغاليين مثلاً باسم (Mistico). عبدالعليم، الملاحة وعلوم البحار، ص ٣١؛ الزيات، معجم المراكب والسفن، ص ٣٢٩.

(٥) ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت ٢٩٠هـ / ٩٠١م)، الأعلام النفيسة، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩١م، ص ١٩٥-١٩٦. وسيشار إليه فيما بعد: ابن رسته، الأعلام النفيسة.

(٦) ذوات الجآجىء: جَوْجُو السفينة أي مقدمتها أو صدرها، ودعيت بذلك لانحنائها وميلها ولجوانح فيها كالأضلاع مما يلي الظهر. عبدالعليم، الملاحة وعلوم البحار، ص ٢٦؛ الزيات، معجم المراكب والسفن، ص ٣٢٩.

القديمة في الجانب الشرقي من دجلة^(١)، وقد دلّت الحفريات الأثرية على وجود منارة في واسط كانت تدل القوافل على الطرق، وتقع المنارة في القسم الشرقي من المدينة وبالتحديد في الركن الشمالي منها، وترتفع على علو أحد عشر متراً ويمكن مشاهدتها على بعد خمسة عشر كيلو متراً^(٢)، وربما كانت تلك المنارة قائمة أيام الدولة الأموية نظراً للحاجة إليها في فترة بناء مدينة واسط ذات الأهمية الاستراتيجية آنذاك.

واهتم الحجاج بن يوسف بحفر الأنهار في السواد مثل نهر زابيا فوق واسط- وسماه بذلك لأخذه من ماء الزَّابيين -^(٣)، وما يتبع ذلك ضرورة الاهتمام بالسفن، وربما يعكس هذه الضرورة قول المقدسي (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) وإن كان في فترة متأخرة في حديثه عن بناء بغداد: "فأنت بين أنهار لا يصل إليك العدو إلا في سفينة أو على قنطرة على دجلة والفرات"^(٤).

ورغم ذلك يبدو واضحاً أن الأسطول الأموي، ركز اهتمامه كثيراً على البحر الشامي كما ذكر سابقاً، ربما لوجود القوة البيزنطية فيه، مع ملاحظة مسألة هامة هنا وهي صعوبة الملاحة فيه، لأسباب تتعلق بجغرافية المنطقة في كثير من الأحيان، فقد أشارت بعض الدراسات الجغرافية المتخصصة إلى جانب من تلك الصعوبات، تتعلق بمجرى أنهار لبنان في المضائق وبين الجنادل والصخور التي تعيق مسيرها، فلا يمكن عندها تحويل مجراها إلى مجرى مستقيم متساوٍ و مستوفٍ

(١) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٢.

(٢) الحديثي، عطا، الصيانة الأثرية في واسط، مجلة سومر، مج ٣١، مديرية الآثار العامة، بغداد، ١٩٧٥م، ص ٢٠٠ وما بعدها. وسيشار إليه فيما بعد: الحديثي، الصيانة الأثرية.

(٣) المقدسي، محمد بن أحمد (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)، (رحلة المقدسي) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: شاکر لعيبي، دار سويدي، الإمارات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٣م، ص ١٢٧. وسيشار إليه فيما بعد: المقدسي، أحسن التقاسيم.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (زابيا)، ج ٣، ص ١٤٠.

لشروط الملاحة، لذلك قال الأقدمون أنها تشبه "ضواري السباع" الشرسة لشدة جريها واندفاع المياه فيها^(١).

بناء الأسطول الأموي

ارتبطت الحاجة إلى وجود أسطول إسلامي قادر على مواجهة الأخطار التي قد تتعرض لها الدولة من القوات البحرية المعادية في البحر الشامي ابتداءً، وقادر على دعم القوات البرية لمواصلة مهمتها الأساسية المتمثلة في الفتح والحماية، بضرورة توفير السفن اللازمة للأسطول للقيام بمهامه.

وتشير المصادر التي تتحدث عن الأسطول الأموي، إلى صنفين من السفن المستخدمة في الأسطول الأموي، يشتمل الصنف الأول على سفن لم تصنع ابتداءً لغرض استخدامها في هذا الأسطول، بل نجد إشارات تفيد باعتماد الأسطول على سفن كانت مصنعة أصلاً، ولكن أعيد تأهيلها وإصلاحها لتعمل في الأسطول، ومن ذلك ما ذكره الطبري (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) في أحداث سنة (٧٧هـ / ٦٩٦م) أن والي خراسان بكير بن وشاح الذي ولي غزو البحر في ما وراء النهر في هذه السنة للخليفة الوليد بن عبدالمك "اتخذت له السفن وجمعت"^(٢)، ومن ناحية أخرى فقد هيأت الفتوحات الإسلامية للمناطق الشرقية للدولة الأموية المجال للحصول على الأدوات الحربية، بما فيها الأدوات البحرية، ففي سنة (٨٧هـ / ٧٠٥م) وعند قيام والي خراسان قتيبة بن مسلم (ولايته ٨٦ - ٩٦هـ / ٧٠٥ - ٧١٤م) بفتح بلدة "بيكند" وهي بلدة بين بخارى وجيحون^(٣)، أخرج من خزائنها "عدة الحرب وآلة السفر"^(٤)، وربما كان المقصود بآلة السفر الأدوات والآلات التي تستخدم لغايات

(١) لامنس، هنري، لمحة اقتصادية في مجاري المياه اللبنانية، مجلة المشرق، مج ٧٠، المطبعة

الكاثوليكية، بيروت، ١٩٠٤م، ص ١٠٤٦.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ج ٦، ص ٣١٣.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (بيكند)، مج ١، ص ٦٣٢.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ج ٦، ص ٤٣٢؛ وتسمى البوصلة ب (الآلة) وفي ذلك يقول ابن ماجد : "ووجد

الآلة قبل السفر". عبدالعليم، الملاحة وعلوم البحار، ص ١٨٨.

السفر بما فيها لوازم لصناعة السفن والقوارب. وفي حملة طارق بن زياد على الأندلس سنة (١٩٢هـ/٧١١م) ترد إشارات أنه استخدم بعض مراكب التجار^(١)، كما اعتمد يزيد بن المهلب (ت ١٠٢هـ/٧٢٠م) على سفن التجار بعد إصلاحها في حروبه ضد الخوارج^(٢).

أما الصنف الآخر، فيشمل السفن التي صنعتها الدولة الأموية في العديد من دور الصناعة التي انتشرت على طول السواحل الخاضعة لسيادتها، نظراً لتوفر المواد الأساسية اللازمة لصناعة السفن في المناطق التابعة للدولة، فقد وفرت أراضي بلاد الشام الأخشاب اللازمة لصناعة السفن من أشجار الصنوبر والأرز^(٣) والبلوط والعرعر^(٤)، التي كانت تزخر بها جبال لبنان وسوريا^(٥)، إضافةً إلى

(١) ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري، (ت بعد ٧١٢هـ/١٣١٢م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩م، مج ٢، ص ٦. وسيشار إليه فيما بعد: ابن عذاري، البيان المغرب.

(٢) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ/٨٩٩م)، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، (٤) مجلدات، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م، ج ٣، ص ١٢١. وسيشار إليه فيما بعد: المبرد، الكامل.

(٣) الأرز: من أشجار الجبال، يكثر ببلاد الشام، وهو شجر طويل يستخرج من عروقه الرّقت، ويطلق على خشبه أسماء عدة منها بلغة أهل السراة "المناور". آل ياسين، محمد حسن، معجم النبات والزراعة، (٢) جزء، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٩م، ج ١، ص ٣٧١. وسيشار إليه فيما بعد: آل ياسين، معجم النبات والزراعة.

(٤) العرعر: شجر عظيم من شجر الجبال، ويقال له الأبهل وبالفارسية الأيرس ومنه يتخذ أجود أنواع القطران في بلاد العرب وتصبغ به الثياب. أبو حنيفة الدينوري، أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م)، كتاب النبات، (٣) أجزاء، تحقيق: محمد حميدالله، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩٧٤م، ق ٢، ص ١٢٨. وسيشار إليه فيما بعد: الدينوري، كتاب النبات.

(٥) سالم، السيد عبدالعزيز والعبادي، أحمد، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار الأحد، بيروت، ١٩٧٢م، ص ٢٤. وسيشار إليه فيما بعد: سالم، تاريخ البحرية.

أخشاب كانت تُجلب للشام من بلاد الأرمن والجبل الأسود^(١). أمّا مصر فقد اشتهرت ومنذ عهد الفراعنة بأنواع من الأشجار منها: النخيل والجميز^(٢) واللبخ أو البرساء^(٣) والأثل^(٤) والتين، إلا أن هذه الأشجار محدودة الفائدة في مجال نجارة السفن بسبب خشونتها وجفافها.

(١) ابن العديم، كمال الدين عمر بن أبي جرادة (ت ٥٦٦٠هـ / ١٢٦١م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، ١١ جزءاً، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٩م، ج ١، ص ٣٢٣، ص ٤٣٨، ج ٥، ص ٢٢٧١. وسيشار إليه فيما بعد: ابن العديم، بغية الطلب.

(٢) الجُميز: ويقال له الجميزى وسماه البعض تين فرعون ولعل هذه الإشارة دليل على قدمه، تشبه شجرته شجرة التين وتصل شجرته إلى حجم عظيم وترتفع من ثمانية أمتار إلى خمسة وعشرين متراً، وجذعها قصير في العادة، موطنه الأصلي بلاد النوبة ونقل منها إلى الحبشة ومصر والشام، ويقول البعض موطنه اليمن ويوصف خشبه بعدم الفساد بالتأثر بالطبقات الأرضية وشدة احتماله للرطوبة، يستخدم لصناعة السفن. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (عكة)، مج ٤، ص ١٦٢؛ الدمياطي، محمود مصطفى، مفردات النبات بين اللغة والاستعمال، مجلة المقتطف، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، مج ٨٨، ج ٢، سنة ١٩٣٦م، ص ٢٢٥-٢٢٦. وسيشار إليه فيما بعد: الدمياطي، مفردات النبات؛ آل ياسين، معجم النبات والزراعة، ج ١، ص ٣٧٣.

(٣) اللبخ: شجر عظيم معروف بمصر، ينشر خشبها ألواحاً، يجعلها أصحاب المراكب في بناء السفن وقيل إذا ضم منه لوحان وضما بشكل جيد وجعلا في الماء التحما وصارا لوحاً واحداً، يكثر في صعيد مصر. اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣١؛ الدينوري، كتاب النبات، ق ٢، ص ٢٥٤؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (أنصنا)، ج ١، ص ٣١٥؛ آل ياسين، معجم النبات والزراعة، ج ١، ص ٢٠٩.

(٤) الأثل: شجر من العضاة يشبه الطرفاء أو هو نوع منه، خشبه جيد تعمل منه البيوت، وله أصول غليظة تعمل منها الأبواب، استخدم خشبه لعمل منبر الرسول صلى الله عليه وسلم ينتشر في غابات بالقرب من المدينة المنورة. محمد، غازي رجب، المنبر في العصر الإسلامي الأول، مجلة سومر، مج ٣١، ج ٢، مطبعة الجمهورية، بغداد، ١٩٧٥م، ص ٢١٧. وسيشار إليه فيما بعد: محمد، المنبر في العصر الإسلامي؛ آل ياسين، معجم النبات والزراعة، ج ٢، ص ١٦٩.

وقصر قطعها أيضاً، مما دفع بالمصريين إلى استيراد الأخشاب الجيدة من الخارج خاصة من لبنان^(١).

ويمتد الارتباط باستيراد الأخشاب من لبنان إلى عهودٍ قديمةٍ، حيث يُذكر أن أول البعثات البحرية في عهد الملك المصري سنفرو (حوالي الألف الثالثة قبل الميلاد) كانت إلى لبنان لجلب خشب الأرز، على متن أربعين سفينة^(٢)، ويؤكد هذا الأمر بعض الرسائل التي عُثِرَ عليها في تل العمارنة^(٣)، والتي تعود إلى قرون قرون ما قبل الميلاد، حيث تذكر هذه الرسائل أن الأمير (أزيرون) وهو أحد أمراء الفنيقيين، أهدى إلى أحد ملوك مصر "الأشجار العظيمة" ولعل المقصود بها أشجار الأرز التي تكثر في لبنان^(٤)، واستمر الأمر إلى فترة لاحقة وهو ما يؤكدّه ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٦م) بإشارته إلى مادة (تينات): "وهي فرضة على بحر الشام قرب المصيصة تجهز منها المراكب بالخشب إلى الديار المصرية"^(٥)، إلا أن ذلك النقص في الأخشاب لم يمنع من استخدام الأخشاب المتوفرة في مصر لصناعة بعض أجزاء السفن خاصة في صناعة المجاديف^(٦).

(١) السويفي، مختار، مراكب خوفو حقائق لا أكاذيب، ط٢، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٢٥. وسيشار إليه فيما بعد: السويفي، مراكب خوفو.

(٢) ربيع، صدقي، المراكب في مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ١٠. وسيشار إليه فيما بعد: ربيع، المراكب في مصر.

(٣) تل العمارنة: هي مزرعة صغيرة مجاورة لواد موقعه جنوبي مدينة المنيا في الصعيد على مسافة ثمانين كيلو متراً منها عند ضفة النيل الشرقية، لامنس، هنري، أحوال لبنان في القرن الرابع عشر قبل المسيح وفقاً لما ورد في مراسلات تل العمارنة، مجلة المشرق، المطبعة الكاثوليكية، العدد ٣، بيروت، ١٩٠٠م، ص ٧٩١. وسيشار إليه فيما بعد: لامنس، أحوال لبنان.

(٤) لامنس، أحوال لبنان، ص ٧٩١.

(٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (تينات)، مج ٢، ص ٧٩.

(٦) سالم، تاريخ البحرية، ص ٢٤.

وتضمنت أوراق البردي إشارات عملية معاصرة لفترتها عن زراعة الأشجار في مصر، وتمدنا إحدى البرديات بإشارات هامة، تبين سياسة الدولة الأموية ممثلة بأوامر واليها على مصر قرّة بن شريك، بزراعة عدد من الأشجار التي تستخدم لغايات صيانة المراكب ومنها شجر الطلح^(١) ففي البردية المؤرخة في سنة (٧٠٩ هـ / ٧٠٩ م)

إشارةً إلى ذلك: "ثم أمر أهل أرضك بزراعة أشجار كثيرة، ولا سيما كروم العنب وشجر الطلح وغيرها من الأشجار"^(٢).

وتضمنت بردية ثانية مؤرخة أيضاً في سنة (٧٠٩ هـ / ٧٠٩ م) أنواعاً أخرى من الأشجار وهي التين والنخيل، أشير إليها في نهاية البردية المتضمنة طلب قرّة بن شريك من عامله إرسال مواد لإصلاح السفن، يقول نص البردية الذي يظهر فيها نقص واضح: "..... تنظيف وتزويد متاع... للسفن و.... في جزيرة بابلين قبل عبدالأعلى ابن أبي حكيم، صاحب العمل هذا العام، ٩ إندكشن (= ٧٠٩ هـ / ٧٠٩ م). وكتبت بذلك كتاباً إلى أهل القرى أرسل إليك، فإذا جاك كتابي هذا فأرسل المتاع المطلوب حسب ما جاء في كتابي، وادفعه إلى عبدالأعلى مع رجالك الأمناء الأكفيا، وأمرهم أن يسلموا المتاع، ويأخذوا بذلك كتاباً كتب في، ٩ إندكشن (٧٠٩ هـ / ٧٠٩ م).

حاشية: ... 12 1/2 جذوع نخل منشورة: ١١ بسعر 1/3 نصف دينار.

جذوع تين غير مشذبة(?) ١١ بسعر 1/3 دينار^(٣)."

(١) الطلح: وهو السنط منه نوعان أولهما أحمر يسمى السيل في مصر وشجرته صغيرة الحجم أو متوسطة ذات قلف أحمر اللون يضرب إلى السمرة، يوجد بمصر وبلاد النوبة والسودان والحبشة واليمن وخشبه أبيض، لكنه قليل التحمل وعرضة لفتك الحشرات، والثاني من الطلح اسمه الصقار ينتشر في السودان وقلها أبيض، ويسميا العامة أم غيلان، آل ياسين، معجم النبات والزراعة، ج ١، ص ٢٠٩؛ الدمياطي، مفردات النبات، ص ٢٢٩.

(٢) أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٦٦.

(3) Bell, Aphrodito, No 1371, p:375

وانظر الترجمة: أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٦١؛ فهمي، التنظيم البحري الإسلامي، ص ٨٦.

وتوفرت في المناطق الشرقية للدولة الأموية أخشاباً مثل الأبنوس^(١)، والصنل^(٢)، والساج^(٣) كانت تجلب من الهند^(٤)، وقد دلت العديد من الآثار الخشبية المتبقية خاصة في العراق، عن تنوع استخدامات هذه الأخشاب في مختلف الصناعات الخشبية مثل الأبواب والصناديق^(٥).

واشتهرت جرجان بعمل الأخشاب الجيدة، وقد استفاد منها والي خراسان يزيد ابن المهلب، عند فتحها للمرة الثانية في خلافة سليمان بن عبد الملك (خلافته ٥٩٦-٥٩٩ هـ / ٧١٥م - ٧١٧م)^(٦).

ويمكن القول أن خشب الساج شكل استخداماً واسعاً في نطاق صناعة السفن، وسبب ذلك أنه يتميز عن غيره من الأخشاب بقوة تحمّله وعدم تشققه أو تقلصه، إضافة إلى مرونته العالية في التشكيل والاستخدام، فضلاً عن قدرته على تحمل المياه، وقد استخدم بشكل خاص في صناعة السفن في الخليج العربي

-
- (١) الأبنوس: وهو شجر له خشب أسود، آل ياسين، معجم النبات والزراعة، ج ١، ص ٣٨٩.
- (٢) الصنل: شجر طيب الرائحة، خشبه أحمر ومنه الأصفر ومنه الأبيض، آل ياسين، معجم النبات والزراعة، ج ٢، ص ٢١٧.
- (٣) الساج: خشب يجلب من الهند، وهو شجر عظيم يذهب في نموه طولاً وعرضاً، منبته بالهند والزنج، خشبه أسود رزين ولا تكاد تبليه الأرض، تتحت منه (الدوانج) وهو خشب منقور مثل الزورق طويل يحمل خمسين رجلاً، وتتخذ منه أدقال المراكب العظام ببحر المشرق، وقيل أنه يشبه الأبنوس إلا أنه أقل سواداً منه، أبو حنيفة الدينوري، كتاب النبات، ق ٢، ص ٢٥؛ آل ياسين، معجم النبات والزراعة، ج ١، ص ١٥٨ - ١٥٩.
- (٤) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٤ هـ / ٨٦٧م)، التبصر بالتجارة، تحقيق: حسن حسني عبدالوهاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٣، ص ٣٤. وسيشار إليه فيما بعد: الجاحظ، التبصر بالتجارة.
- (٥) فرنسيس، بشير، والنقشبندي، ناصر، الآثار الخشب في دار الآثار العربية، مجلة سومر، مديرية الآثار القديمة، بغداد، ١٩٤٩م، مج ٥٥. وسيشار إليه فيما بعد: فرنسيس، الآثار الخشب.
- (٦) اليعقوبي، البلدان، ص ٢٧٧.

والبحر الأحمر، خاصة في صناعة الجسم الخارجي للسفن^(١)، ويعكس ذلك قول الجغرافي (ثيوفراستس ٣٧١ ق.م - ٢٨٧ ق.م) عند حديثه عن البحرين: "وفي هذه الجزيرة نوع من الخشب يستعمل في بناء السفن، وهو نوع يقاوم نفاذ الماء إلى داخل السفينة التي تبنى به ويدوم على مثل هذه الحال مئتي عام، لكنه في خارج الماء يبلى سريعاً"^(٢).

ولا بدّ من الالتفات إلى قضية هامة تتعلق بصناعة السفن في العصر الأموي، وهي أن الكثير من جوانب تلك الصناعة وأدواتها لم تنته إلينا عن طريق المصادر والدراسات التاريخية فحسب، بل عن طريق الشعر ووثائق البردي، مما يجعل الدارس في هذا المضمار يلتفت وبشكل إلزامي إلى الإشارات الواردة فيهما حول تلك الصناعة ومتطلباتها^(٣).

فيكثر مثلاً ذكر خشب الساج لدى الشعراء الأمويين، عند وصفهم السفن في أنهار الدولة الأموية الشرقية خاصة العراق، ومن ذلك مثلاً قول الشاعر أبي النجم الفضل بن قدامة (ت ١٣٠هـ / ٧٤٧م):

(١) القناعي، نجاه عبدالقادر، والخصوصي، بدر الدين عباس، تاريخ صناعة السفن في الكويت وأنشطتها المختلفة، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ١٩٨٢م، ص ٣٢. وسيشار إليه فيما بعد: القناعي، صناعة السفن في الكويت؛ كندرمان، هانس، مصطلح السفينة عند العرب، ترجمة نجم عبدالله مصطفى، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٢م، ص ١٢٢. وسيشار إليه فيما بعد: كندرمان، السفينة.

(٢) وما زال هذا النوع من الأخشاب يستخدم في صناعة السفن حتى الوقت الحاضر في الخليج العربي، خاصة في صنع جوانب السفن وسطوحها. جميل، فؤاد، الخليج العربي في مدونات المؤرخين البلديين الأقدمين، مجلة سومر، مديرية الآثار القديمة، بغداد، ١٩٦٦م، مج ٢٢، ج ١، ص ٤٣. وسيشار إليه فيما بعد: جميل، الخليج العربي في مدونات المؤرخين؛ الشملان، عبدالله خليفة، بناء السفن الخشبية في دولة البحرين، مركز البحرين للدراسات والبحوث، البحرين، ١٩٩٠م، ص ٤٦. وسيشار إليه فيما بعد: الشملان، بناء السفن الخشبية.

(٣) عدّ بعض الباحثين أن هذه المسألة لا تنطبق على دراسة العصر الأموي فحسب بل العصر العباسي أيضاً، على الرغم من وفرة المصادر التي تناولته. انظر: لجنة التحرير، السفن والمراكب في بغداد في عهد العباسيين، مجلة لغة العرب، عدد ٥٥، ج ٨، مطبعة الأينام للأبناء الكرمليين المرسلين، بغداد، ١٩٢٧م، ص ٤٦٢. وسيشار إليه فيما بعد: السفن والمراكب في بغداد.

قرقرور ساج مرسل الخطام فهو يشق الماء بانتحام^(١)

وكثيراً ما تعكس إشارات الشعراء الأمويين، جوانب مهمة في صناعة السفن المستخدمة أيام الدولة الأموية خاصة ما يتعلق بالأخشاب المستخدمة في هذه الصناعة، مثل قول الشاعر الأخطل (ت ٩٢هـ / ٧١٠م)، في وصف سفن نهر الفرات وأخشابها الصلبة القوية، بقوله:

يعج الماء تحت مسخرات يصك القار والخشب الصلاباً^(٢)

كذلك فإن الاعتماد على الأخشاب المستوردة من الهند، ليس مستغرباً، في ظل مطالعة الأشعار التي تشير إلى العلاقة الوثيقة مع الهند في العصر الأموي، فهذا الشاعر الأموي عبدالله بن عمر العرجي (ت حوالي ١٢٠هـ / ٧٣٧م) يصف السفن القادمة من الهند، بقوله:

كأنما بعثت بالنشر من سفن جاءت من الهند سيف البحر من عدن^(٣)

وإلى جانب الأخشاب، هناك مادة أخرى غاية في الأهمية لصناعة السفن وهي الحديد، إذ يعد الحديد من المواد الأولية اللازمة في صناعة السفن، تلك الصناعة التي اشتهر بها أهل دمشق، ونالوا بها شهرة واسعة^(٤).

(١) أبو النجم، الفضل بن قدامة (ت ١٣٠هـ / ٧٤٧م)، الديوان، جمع وتحقيق: سميح جبيلي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م، ص ٢٦٣، وسيشار إليه فيما بعد: أبو النجم، الديوان.

(٢) الأخطل، أبو مالك غياث بن غوث التغلبي (ت ٩٢هـ / ٧١٠م)، الديوان، تحقيق: فخر الدين قباوة، ط ٤، دار الفكر المعاصر، لبنان، ١٩٩٦م، ص ٢٣٣. وسيشار إليه فيما بعد: الأخطل، الديوان.

(٣) العرجي، عبدالله بن عمرو (ت حوالي ١٢٠هـ / ٧٣٧م)، الديوان، تحقيق: سميح جميل الجبيلي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م، ص ٣٣٥. وسيشار إليه فيما بعد: العرجي، الديوان.

(٤) ثابت، يوسف أفندي غنام، الأسلحة النارية الشرقية، مجلة المشرق، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، العدد الثالث، سنة ١٩٠٠م، ص ٨٧١. وسيشار إليه فيما بعد: ثابت، الأسلحة النارية الشرقية.

ويشير ابن العديم (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م) إلى جودة الحديد المصنوع في الثغور الشامية^(١)، وهو الحديد المحزوز المستخدم لصنع الكراسي والمهاميز والعمد والدبابيس^(٢) والسفن، كما أن توفره في مصر واليمن أفاد في عمل المسامير والمراسي والخطاطيف والنفوس^(٣)، وهذه من الآلات والأدوات المستخدمة في السفن، ويبدو أن اليمن التي أُنبتت المصادر في الإشارة إلى وفرة معدن الحديد فيها، خاصة في جبل نُقم (قرب صنعاء)، ومدينة صعدة^(٤)، قد استثمرت فيها المناجم لقرون طويلة منذ العهود القديمة^(٥).

ويتوفر معدن الحديد بشكل كبير في مصر أيضاً - التي تعتبر أهم مراكز صناعة سفن الأسطول الأموي - حيث توزع الحديد في شبه جزيرة سيناء، بالقرب من شواطئ خليج السويس، في هضبة ترتفع عن سطح البحر حوالي ستمئة متر، وفي الصحراء الغربية، بالقرب من صحراء لوبيا، والصحراء الشرقية بين شواطئ البحر الأحمر ووادي النيل، وتعتبر مدينة أسوان من أهم أماكن توفره وأقدمها، وقد

(١) الثغور الشامية هي بلاد كثيرة، من مدنها، أنطاكية، المصيصة، عين زربة، طرسوس، وأشار إليها ياقوت بقوله إنها "بلاد تعرف اليوم ببلاد ابن لاون، وهي بلاد لا قصبة لها"، ويفصلها عن ثغور الجزيرة جبل يعرف "بجبل اللكام" وهو جبل يتصل بحمص ودمشق ويسمى أيضاً جبل لبنان؛ ابن حوقل، القاسم بن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م)، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، دت، ص ١٥٤. وسيشار إليه فيما بعد: ابن حوقل، صورة الأرض؛ الثعالبي، أبو منصور عبدالمالك ابن محمد (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، لطائف المعارف، تحقيق: إبراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ١٥٦. وسيشار إليه فيما بعد: الثعالبي: لطائف المعارف؛ ياقوت، معجم البلدان، مادة (الثغور)، ج ٢، ص ٩٢.

(٢) ابن العديم، تاريخ حلب، ج ١، ص ١٠٦، ص ١٥٦.

(٣) سالم، تاريخ البحرية، ص ٢٤.

(٤) صعدة: مخلاف باليمن بينه وبين صنعاء ستون فرسخاً، وبينه وبين خيوان ستة عشر فرسخاً، وهي عامرة يقصدها التجار، بها مدايح الجلود، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (صعدة)، مج ٣، ص ٤٦١.

(٥) زكريا، وصفي، حديث اليمن، مجلة المقتطف، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، مج ٩١، ١٩٣٧م، ص ٢٠٠ - ص ٢٠٠٢. وسيشار إليه فيما بعد: زكريا، حديث اليمن.

دلت الحفريات والدراسات أن بداية استخدامه كان منذ أيام حكم الرومان، وكانوا قادرين على تمييز خامات الحديد، ويعلمون سر استخراجها^(١).

ومن أبرز طرق استخراج الحديد، جمع الرمال التي تشتمل على خاماته، ثم يتم وضعها في (سوبيات)^(٢) من طين يوقدون تحتها النار حتى يظهر الحديد ثم يقومون بتصفيته^(٣).

وتوضح برديات قرة بن شريك صناعة المسامير^(٤) الخاصة بالسفن والقوارب المستخدمة في الأسطول الأموي، كما توضح نوعاً فريداً من العلاقة بين الدولة والأفراد^(٥)، من خلال توزيع الحديد على الأفراد في القرى لصناعة المسامير، فقد جاء في البردية المؤرخة بشهر صفر سنة ٥٩١هـ / ٧١٠م:

(١) صادق بك، حسن، الحديد وصناعته في مصر، مجلة المقتطف، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، مج ٩١، ١٩٣٧م، ص ٣٨٧ - ص ٣٨٨. وسيشار إليه فيما بعد: صادق بك، الحديد وصناعته في مصر.

(٢) سوبيات: السيوب هي عروق من الذهب والفضة، تسبب في المعدن، تتكون فيه ونظير، وسميت سوبياً لانسيابها في الأرض، وهي المعدن المدفون في الأرض. ابن منظور، لسان العرب، مادة (سب)، مج ١، ص ٤٧٧.

(٣) شقير، سليم أفندي، المعادن في السودان، مجلة الهلال، مطبعة الهلال، القاهرة، عدد ١٥، ج ١، ١٩٠٧م، ص ٤٢٦. وسيشار إليه فيما بعد: شقير، المعادن في السودان.

(٤) المسامير: مفرداها مسمار تنتوع أشكالها بحسب كبر السفينة وطبيعة استخدام المسمار، وقد تصل أطوالها إلى درجة كبيرة، فأحياناً تستخدم في قاعدة السفينة لمسكها وأحياناً تدق لثبيت ألواح السفينة، حيث يحفر لرأسه حفرة ينزل فيها لكي لا يكون بارزاً، ويعيق بذلك التصاق الألواح فيما بينها. للمزيد عن أنواعها واستخدامها في الصناعة التقليدية للسفن انظر: الرومي، أحمد البشر، معجم المصطلحات البحرية في الكويت، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت، ١٩٩٦م، ص ٦٨. وسيشار إليه فيما بعد: الرومي، معجم المصطلحات البحرية.

(٥) ربما يعود سبب ذلك الاعتماد لخبرة أفراد القرى في عملية استخراج وتشكيل الحديد، وهي من الطرق التي توارثها الأفراد منذ عهد الفراعنة، حتى إنهم تمكنوا من زيادة صلابته بخلطه بالكربون والعمل على إحمائه وتغطيسه بالماء. للمزيد انظر: كارينتر، هارولد، وثليت، روبرتس، الحديد تعدينه وتقسيمته وصناعته عند قدماء المصريين، مجلة المقتطف، القاهرة، ج ١، مج ٧٧، ١٩٣٠. ص ٤٠٣. وسيشار إليه فيما بعد: كارينتر، الحديد عند قدماء المصريين.

بسم الله الرحمن الرحيم

من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوة

فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد،

فقد أرسلت إليك.... أربعة قناطير من الحديد لصناعة مسامير للقوارب،
حسب ما هو مقرر في كتابي هذا...

وللسنة الماضية (٦) أرتال للقنطار الواحد، وقد ألحقت بكتابي هذا صفة
الحديد المطلوب، مبيناً مقدار ما يصنع من كل صنف. وقد حسبنا مقدار ما يتلف
من الحديد.

فإذا جاك كتابي هذا فخذ الحديد وفرقه في القرى بمقتضى أمرنا في كتابنا
إليك دون محاباة أو ظلم لأي قرية في تفريق الحديد، ولكن قدر لكل قرية نصيبها
الذي يناسبها من كل صنف، وحثهم على أن يعجلوا بصناعة المسامير الجيدة
المصنوعة حسب الصفة المرسلّة إليك.

كتب في ٣ هاتور^(١) (Hathyr)، ٩ إندكشن (= صفر ٩١هـ / ٧٠٩م)

حاشية:

الصفة: ٤ قناطير

كتل (قطع) قنطاران تنقص إلى الثلث.

حديد مكسر (قطع صغيرة): قنطاران.

(١) هاتور: شهر قبطي يقابله شهر ربيع الأول، ويشير ابن مماتي (ت٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) في هذا الشهر
يتم تنظيم النشاط والعمل في السفن، (القواديس)، وهي السفن العظيمة. ابن مماتي، قوانين
الدواوين، ٢٤١.

هكذا: —

١ قنطار: ينقص إلى الثلث.

١ قنطار: ينقص إلى الربع^(١)

ويتكرر طلب صنع المسامير من أفراد قرية أفروديتو، ضمن بردية مؤرخة في سنة (٥٩١ / ٧٠٩م)، جاء فيها:

(1) Bell, Aphrodito, No 1369, p:374

وانظر الترجمة: أبو صافية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٦٠ - ص ٢٦١؛ فهمي، التنظيم البحري الإسلامي، ص ٩٠؛ وانظر برديات أخرى عن طلب المسامير لبناء السفن: مؤسسة آل البيت، الفهارس التحليلية للاقتصاد الإسلامي، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، عمان، ١٩٨٥م، ج ٣، ص ٤١. وسيشار إليه فيما بعد: الفهارس التحليلية للاقتصاد الإسلامي.

"بسم الله الرحمن الرحيم

من قرة بن شريك الوالي إليكم يا أهل الحقول الخمسة في قرية أفروديتو،
تسلموا من رئيسكم خمسين وزنة من الحديد الخام غير النقي من مخازن الحكومة،
واصنعوا منها بعد تنقيتها ثلاثاً وثلاثين وثلاث وزنة من المسامير"^(١).

ويتضح من البرديات أن الحديد الخام لصناعة المسامير ينقص بعد
تنقيته^(٢)، وينقص الحديد (الخردة) أيضاً، كما يشير السجل المالي (تقرير) المؤرخ
في سنة (٧١٣هـ / ١٣٠٣م)، إلى ذلك: "المجموع الكلي للحديد الخام: ثلاثة قناطير،
يصبح بعد تنظيفه قنطارين، حديد قطع (خردة): ١ ½ قنطار، يصبح بعد تنظيفه
قنطاراً واحداً،"^(٣).

ومن المواد الأخرى التي تستخدم في صناعة السفن، النحاس كما تشير
البرديات، فقد جاء في السجل المالي (تقرير) المؤرخ في سنة (٧١٣هـ / ١٣٠٣م)،
إشارة إلى قيمة سلاسل نحاسية تستخدم في صناعة السفن:

"كتب في ٢٤ مسري^(٤)، ١٤ إندكشن (= ٧١٣هـ / ١٣٠٣م)، في متاع القوارب
والسفن في جزيرة بابلليون، قبل القاسم بن كعب، صاحب العمل هذا العام
(١٣ إندكشن)، لجيش سنة ١٥ إندكشن (= ٧١٤هـ / ١٣٠٤م):

(1) Bell, Aphrodito, No 1408, p:132

وانظر الترجمة: فهمي، التنظيم البحري الإسلامي، ص ٨٩.

(٢) فهمي، التنظيم البحري الإسلامي، ص ٩١.

(٣) انظر الترجمة: أبو صفية، برديات قرة بن شريك، ص ٨٩.٢٤٧ Bell, Aphrodito, p:

(٤) مسري شهر قبلي يقابله شهر ذو الحجة العربي، ويشير ابن مماتي (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) في هذا
الشهر يكون جريان النيل في خليج الإسكندرية. ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص ٢٥٦.

قنطاران من السلاسل النحاسية، فأعطوا في ثمنها ثمانية دنانير وثلاث الدينار لكل قنطار^(١). وقد تميز المصريون بقدرة فائقة في صناعة النحاس منذ العصور القديمة^(٢)، وربما حصلوا على خامات النحاس من قبرص^(٣).

أما عملية بناء السفن - التي غالباً ما تتخذ شكل بعض الحيوانات البحرية خاصة الحوت، على اعتبار سبحة في الماء وقدرته من خلال شكله على مصادمة الماء وانسيابه فيه، نموذجاً لبعض هذه السفن^(٤)، فتبدأ بوضع القاعدة التي تكون في الغالب مستطيلة تضيق حول طرفيها لتتناسب المقدمة والمؤخرة^(٥).

وتستخدم حبال (النارجيل)^(٦) في بناء السفن المخيطة في الخليج العربي والمحيط الهندي التي يتم درسها وفتلها (غزلها) لترتبط بها ألواح السفن^(٧).

(1) Bell, Aphrodito, p: 89

وانظر الترجمة: أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٤٨.

(٢) كارينتر، الحديد عند قدماء المصريين، ٤٠٢.

(٣) فهمي، التنظيم البحري الإسلامي، ص ٩٢.

(٤) عبادة، عبدالفتاح، الأسطول الإسلامي، مجلة الهلال، ج ١، عدد ٢٢، ١٩١٣م، ص ٣٦. وسيشار إليه فيما بعد: عبادة، الأسطول الإسلامي.

(٥) الشمالان، بناء السفن الخشبية، ص ٣٢.

(٦) النارجيل: هو جوز الهند، ولا يصير صبرها على ماء البحر شيء، ومنه تتخذ حبال مراسي السفن في البحار، وتتسج منه أسرع السفن. أبو حنيفة الدينوري، النبات، تحقيق: برنهارد ليفن، دار فرانز شتايز، فيسبادن، ١٩٧٤م، ج ٣، ص ٢٥٢؛ الأمين، إسماعيل، العمانيون رواد البحر، دار رياض الرئيس، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٣١. وسيشار إليه فيما بعد: الأمين، العمانيون رواد البحر.

(٧) يشار أن هذه الخيوط تعمل من خلال أخذ قشور ثمر جوز الهند، ويتم وضعها في الماء حتى تتخذ شكل نسيج مثل شعر الخيل، ويصنع منها بعد ذلك حبالاً أو خيوطاً تخاط بها المراكب. الشمالان، بناء السفن الخشبية، ص ٣٠.

ولا يعني ذلك أن جميع السفن المستخدمة كانت مخرطة غير مُسمّرة، بل تشير بعض الروايات إلى ظهور السفن المُسمّرة في الخليج العربي والمحيط الهندي في الأسطول الأموي التي يعود الفضل في اتخاذها إلى الحجاج بن يوسف الثقفي، وما زالت صناعة السفن في الخليج العربي تستخدم الحديد في صناعتها^(١)، ولكن كان سبب استخدام خيوط (النارجيل) هو وفرتها وتكلفتها القليلة مقارنة بتكلفة الحديد العالية، أكثر من أن يكون ذلك الاستخدام لأسباب ملاحية^(٢).

كما نجد بعض الإشارات التي تفيد بأن سفن البحر الأبيض المتوسط نفسها والتي يغلب استخدام الحديد في صناعتها، كانت مخرطة حيث يذكر اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)، بأن المراكب الخيطية كانت تعمل عند قرية (ماسّة) الواقعة على ساحل البحر الأبيض في السوس الأقصى^(٣)، وهذا يعني عدم اقتصار الملاحة في البحر الأبيض أو سواه على نوع معين من المراكب.

وتتخذ السفن القلوع أو الشراعات وهو رواق السفينة، مركزه في وسط السفينة على خشبة طويلة تعرف بالدوقل^(٤)، ويطلق أهل مصر على الشراع اسم الصاري^(٥)، ويبدو أنّ الأسطول الأموي استخدم الشراع بشكليه (المربعة والمثلثة)، وذلك لاهتداء الملاحين العرب إليها^(٦).

(١) الشمالان، بناء السفن الخشبية، ص ٣٤.

(٢) القناعي، صناعة السفن في الكويت، ص ٣٥ - ص ٣٦.

(٣) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٦٠.

(٤) ابن سيده، أبو الحسن إسماعيل النحوي (ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٥م)، المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٦م، ج ٣، ١٨. وسيشار إليه فيما بعد: ابن سيده، المخصص.

(٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (كربون)، مج ٤، ص ٥٢١.

(٦) للمزيد انظر: فهمي، التنظيم البحري الإسلامي، ص ١٢٨؛ القناعي، صناعة السفن في الكويت، ص ٣٦.

وتنتهي صناعة السفن بعمل الجلفاط "Calfat" وهو العامل الذي يجلفط ويقلف السفن^(١)، ومهمة الجلفاط (القلفاط) تكون بعد اكتمال بناء السفينة نهائياً، فيقوم بخرز وخياطة ألواح السفن بالليف (يأخذ من النارجيل)، ويجعل خلالها القار، وهي مادة سوداء تُطلى بها السفن، تؤخذ من شجر أصله مر^(٢)، حيث يقوم الجلفاط بإدخال قطعة الكتان بين مسامير الألواح وخرزوها، ويعمل على مسحها بالزفت والقار^(٣)، حتى لا تتسرب المياه إلى السفينة وهي عملية ضرورية، غايتها سد الفراغات والثقوب الصغيرة التي تكون بين كل لوح وآخر من ألواح السفينة^(٤)، ويحتاج القلفاط (الجلفاط) في هذه العملية إلى بعض الأدوات التي مازال يستخدمها عمال صناعة السفن حتى اليوم، مثل (منقر كلفات) وهو عبارة عن قطعة حديدية ينتشعب أحد طرفيها إلى شعبتين لإدخال الخيوط بين الأخشاب وقلفتها حتى لا

(١) ويطلق سكان الخليج العربي مصطلح قلفاط أو قلاف على من يقوم بصناعة السفن، والقلاف هو من يقوم بتسوية الأخشاب ونجارتها وقلافتها، وتتصف هذه المهنة بالصعوبة فهي تتطلب العمل لساعات طويلة. القناعي، صناعة السفن في الكويت، ص ٤٢، ص ٤٤.

(٢) ويسمى شجر القار أيضاً (الخضخاض)، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (قار)، ص ٤، ص ٣٣٣؛ آل ياسين، معجم النبات والزراعة، ج ١، ص ٣٥٠.

(٣) ابن سيدة، المخصص، ج ٣، ص ١٩.

(٤) وتوضح عملية القلفطة التي تستخدم في الوقت الحالي لصناعة السفن الخشبية في الخليج العربي مدى التشابه والتقارب في عملية القلفطة، فبعد اكتمال بناء السفينة يأتي القلفاط بكمية من القطن، تعطى لأشخاص لغزلها خيوطاً طويلة ذات حجم أشبه بذبالة السراج وتسمى هذه الخيوط (ذبائل)، ثم يغمرونها بزيت النارجيل (جوز الهند) وبعد ذلك يدخلونها بين ألواح السفينة، لسد الفراغات فيها، وتستخدم في الكثير من الأحيان الزيوت السمكية ويسمى (الصل)، ويستخرج من أسماك صغيرة تسمى (عوم) حيث يدهن الوجه الخارجي لجسم السفينة، ويدهن الجزء المغمور من السفينة بالقيز مخلوطاً ببعض الدهون. الكسادي، الملاح بدر الدين أحمد، القاموس البحري (معجم مصطلحات البحرية في جنوب الجزيرة العربية)، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٤م، ص ٥٧. وسيشار إليه فيما بعد: الكسادي، القاموس البحري؛ القناعي، صناعة السفن في الكويت، ص ٣٥ - ص ٣٦؛ الشملان، بناء السفن الخشبية، ص ٣٠.

تتسرب المياه إلى داخلها^(١)، ولخطورة عمل الجلفاظ، تشير المصادر أحياناً إلى تلف العديد من السفن بسبب سوء قلفطتها^(٢)، ومن هنا عدت هذه المهنة من المهن الأساسية في العالم: "أحوج ما هم في العالم إلى قلفاظ جيد"^(٣).

وتمدنا برديات قره بن شريك بإشارات هامة عن أبرز جوانب تلك العملية، وترتبط بين الجلفاظ والنجار، ولكن تبرز أهمية وظيفة الجلفاظ من خلال ارتفاع أجره مقارنة بالنجار، فقد طلب قره بن شريك من أهل أشقوه إرسال نجار وجلفاظ إلى دار صناعة بابليون، لتجهيز وصناعة السفن فيها للسنة القادمة وهي سنة (٥٩١ / ٧٠٩م)، فقد جاء في بردية مؤرخة في سنة (٥٩٠ / ٧٠٨م)، ما نصه:

[بسم الله الرحمن الرحيم]

[من قره بن شريك إلى أهل مدينة أشقوه]

[فأعطوا لصنعة العين والقوادس وا]

[لسفن في جزيرة باب اليون قبل عبدالأعلى بن أبي حكيم]

[سنة تسعين لجيش سنة إ] حدى وتسعين نبطيين نو

[بجين ونجارا وجلفاظا ومعيشتهم ل]ثلثة أشهر. فإن أعطيتم

[الأجر فأعطو في أجر كل نوبج] دينرين، وفي أجر كل رج[ل]

[جلفاظ دينر] ونصف، وفي أجر نبطي نجار دينر وثلث في

(١) القناعي، صناعة السفن في الكويت، ص ٦٢؛ الشمالن، بناء السفن الخشبية، ص ٣٨.

(٢) القروي، أكرية السفن، ص ٧٧.

(٣) ابن عبدون، محمد بن أحمد التجيبي، رسالة في القضاء والحسبة، من كتاب ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٥٥، وسيشار إليه فيما بعد: ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة.

[كل شهر. وكتب مرثد في ذي الحجة تما]

[م سنة تسعين]^(١).

وتكرر طلب قرّة بن شريك في السنة التالية، أي سنة (٥٩١هـ / ٧١٠م) إلى صاحب أشقوة، بإرسال نجارين ومجلفطين للحاجة إليهم للعمل في السفن، وهذا ما تضمنه نص البردية المؤرخة في ٨ إنديكشن (٥٩١هـ / ٧١٠م):

"بسم الله الرحمن الرحيم

من قرّة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوة

أما بعد،

فأنت تعلم أننا بحاجة دائمة إلى نجارين ومجلفطين للعمل في السفن والقوادم، وفي بعض أعمال الإمارة وما تحتاجه من متاع، إذ لا مجال لإنجاز العمل دون هذا المتاع، وهي ذات نفع أيضاً لأهل القرى"^(٢).

ويبدو أن هناك نقصاً واضحاً في أعداد النجارين والمجلفطين للعمل في السفن، ويعود هذا النقص إلى بقاء الكثير من النواتية (الملاحين) في العديد من المناطق التي وجهوا إليها، واستقرارهم فيها، مما دفع قرّة بن شريك إلى السؤال عنهم، وعن عددهم، وعن عدد من توفي منهم أثناء عودته في البحر.

ونُتِبَ هنا نص البردية المؤرخة في سنة ٥٩١هـ / ٧٠٩م؛ لأهميتها:

"بسم الله الرحمن الرحيم

من قرّة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوة

(١) أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢١٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٦٥.

فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو

أما بعد،

فلا نعلم عدد النواتية الذين رجعوا إلى كورتك ممن خرجوا في أسطول الغزو إلى إفريقيا مع عطاء بن رافع الذي أغراه موسى بن نصير، ولا عدد الذين ظلوا في إفريقيا.

فإذا جاك كتابي هذا، فاكتب إلي بعدد النواتية الذين رجعوا إلى كورتك، واسألهم عن الذين ظلوا في إفريقيا، ولأي غرض ظلوا هناك. واسألهم عن عدد الذين ماتوا هناك، وعن رحلتهم بعد مغادرتهم. واكتب إلي بكل ما يعلمون وكل ما يخبرونك، وعجل بإرساله إلي بعد قراءة كتابي هذا.

كتب في ٤ أمشير (Mecheir)^(١)، ٨ إندكشن (= ربيع الآخرة ٩١هـ / ٧٠٩م).

حاشية: ١٥ أمشير (Mecheir)، ٨ إندكشن.

أرسل مع سعيد^(٢) في عمل كتاب بالنواتية الذين خرجوا مع عطاء بن رافع و.....^(٣).

ولا تظهر البرديات سبب إقامة النواتية في المناطق التي خرجوا إليها وعدم العودة للخدمة في الأسطول، لكننا نستشعر من خلال البرديات أيضاً أن هذه

(١) أمشير شهر قبلي واسمه القديم (ماكير)، يقابله شهر جمادى الآخرة العربي. الخوري، قصة الأيام، ص ٨٠.

(٢) يتكرر اسم العامل سعيد في البرديات خاصة المتعلقة بأمر النواتية والأسطول، ويبدو أنه كان عاملاً على البريد كما يتضح في البردية التي تحمل رقم (١٣٥١) لسنة ٩٢هـ / ٧١٠م،

Bell Aphrodito No 1351, p:279

وانظر الترجمة: أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٥٧.

(٣) انظر الترجمة: أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٥٦ - ص ٢٥٧.

Bell, Aphrodito, No 1350, p:279 ،

الظاهرة التي استمرت آثارها لسنوات تالية، قد يكون سببها التأخر في دفع أجور النواتية، وبالتالي جاءت إجراءات قرة بن شريك في محاولة منه لتجاوز تلك الظاهرة، فقد جاء في بردية مؤرخة في سنة ٨٩١هـ / ٧٠٩م، ما نصه:

"... [ولا] تتوان في بعث النواتية الذين طلبناهم من كورتك للعمل في القوارب والسفن، وغيرها من سفن الأسطول المصري لسنة ٨ إندكشن (= ٨٩١هـ / ٧٠٩م). وقد أمرنا حيان بن شريح أن يستأجر هؤلاء وأولئك الذين تأخرت في دفع أجرتهم المذكورة في كتابنا^(١)"

وتكرر طلب قرة بن شريك من بسيل صاحب أشقوه بالتعجيل في جمع المال المطلوب أجوراً للنواتية، وهذا ما تضمنته نص البردية المؤرخة في سنة (٨٩٢هـ / ٧١٠م):

"بسم الله الرحمن الرحيم
من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوة
فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد،
فإذا جاك كتابي هذا فعجل بجمع المال المطلوب، بمقتضى ما في كتابي،
وأرسله إلينا، ولا تتوان في ذلك.

كتب في ٦ بشنس^(٢) Pachon، ٩ إندكشن (= ٨٩٢هـ / ٧١٠م).

حاشية: أرسل مع إلياس بن Psebnuthius، في سبعة دنائير أجور سبعة نواتية^(٣).

(١) انظر الترجمة: أبو صافية، برديات قرة بن شريك، ص ٢٥٣ - ص ٢٥٤.

Bell, Aphrodito, No 1337, p: 272

(٢) بشنس شهر قبطي واسمه القديم (باخون) يقابله شهر رمضان العربي. الخوري، قصة الأيام، ص ٨٠ - ٨١.

(3) p:376 Bell, Aphrodito, No 1374, p:375

وانظر الترجمة: أبو صافية، برديات قرة بن شريك، ص ٢٦٢.

واتخذت الدولة قراراً بفصل نواتية سفن الشام عن نواتية سفن مصر، ويبدو أنه قرار إداري، جاء على خلفية نقص النواتية (الملاحين) - مع حاجة الدولة إليهم - لتنظيم صرف أجورهم، وقد أشارت إحدى برديات قرّة بن شريك إلى قرار التقسيم في البردية التالية التي تعود إلى شهر ربيع الأول^(١) ولم تؤرخ سنتها:

"بسم الله الرحمن الرحيم[يم]

من قرّة بن شريك إلى

بسيل صاحب أشقوة، فإني

أحمد الله الذي لا إله إلا

لا هو

أما بعد، فإني قد أمر

ت بقسمة نواتية سفن

مصر وسفن أهل الشام

وبأرزاق من يركب فيها من المقاتلة"

وحاول صاحب أشقوة التعامل مع تلك الظاهرة، بمتابعة الهاربين وتغريمهم^(٢)، ولعل هذا الإجراء جاء تالياً لإجراءات قرّة بن شريك، فقد جاء في نص إحدى البرديات المؤرخة في سنة (٩٠هـ / ٧٠٨م)، إشارة إلى ذلك:

تُلت [.....]

حيان من رسولك

كتب إلي أنك قد [أرسلت]

إلي بالنبطي الذ[وتي]

الذي فر وبالأرد[ب]عة [ا]

لدننير وتلت [الدينر الذي]

(١) شهر ربيع الأول العربي يقابله شهر هاتور القبطي واسمه القديم (أثور). الخوري، قصة الأيام، ص ٨٠ - ٨١.

(٢) النظر في ربط مسألة هروب النواتية (الملاحين) العاملين في الأسطول الأموي، ومسألة هروب (الفلاحين) العاملين في الأرض من كورهم، وإجراءات الولاة تجاههم.

غرّمته، وإني لم أ[ره]
فإن لم يك قدم إ[لي فابحث به]
وبما غرّمته. وا[لسلم]
على من اتبع ا[لهدي]
وكتب مد[مد بن]
عقبة في شهر ربيع [.....]
من سنة تسعين^(١).

إنّ موضوع النواتية وأجورهم، كان له انعكاسه على فقهاء الفترات التالية، خاصة في منطقة مصر والمغرب العربي وحتى الأندلس، ويتجلى ذلك لدى المذهب المالكي الذي انتشر بشكل واسع في تلك المناطق، فقد خصص بعض الفقهاء مثل القروي (ت ق ٤ هـ/ ق ١٠ م) في كتابه "أكرية السفن" باباً أسماه "أكرية النواتية في السفن" مشيراً إلى أهمية النواتية وأجاز اكتراءهم وإجارتهم بعد: "السفن هي الأصل، والنواتية الفرع؛ لأنه لا تجري سفينة إلا بهم"^(٢)، كما ناقش أجورهم وما يترتب عليهم من غرامات أو واجبات.

وتضمن كتاب القروي (ت ق ٤ هـ/ ق ١٠ م)، معلومات عن صناعة السفن تظهرها عقود صناعة القوارب، خاصة في المغرب العربي والأندلس في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وهي من الفترات المبكرة والقريبة لفترة الدراسة في ظل غياب ملامح هذه الصناعة في المصادر المعاصرة لفترة بناء الأسطول^(٣)،

(١) جروهمان، أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية، ط ٢، ٦ أجزاء، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٤م، ج ٣، ص ٢٥ - ص ٢٦. وسيشار إليه فيما بعد: جروهمان، أوراق البردي؛ أبو صافية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٠١ - ص ٢٠٢.

(٢) القروي، أكرية السفن، ص ٦٠، ص ٦٩.

(٣) اعتمد الباحث على تثبيت الجزء الخاص بالعقد من النص المحقق من كتاب أكرية السفن لأبي القاسم القروي (ت. ق ٤ هـ/ ق ١٠ م)، محاولاً تفسير بعض المفاهيم بما توفر لديه من مؤلفات ومعاجم.

وفيه يوضح القروي عقد معاملة (وثيقة) لإنشاء قارب، ذكرت فيه الأدوات اللازمة لصناعة القوارب من أخشاب وحديد وعُمال النجارة، وبعض الإشارات عن طريق صناعته، وجاء في هذا العقد (الوثيقة) ما نصه: "عامل فلان فلاناً النجار على أن ينشئ له قارباً قرلياً^(١)، طوله كذا وكذا، وعرض وسط قاعته كذا وكذا شبراً، وارتفاعه كذا وكذا ذراعاً بذراع الإنشاء وشبره ببلد كذا، تكون قرايبسه وتختائله وأقفاله^(٢)، وقوسه^(٣) من عود البلوط، وألواح^(٤) من عود الأرز بقطنيس^(٥)؛ ركنه مشرب، وأربعة أفعال أقرط وأفعال الطارمة، وقفلان على الحواجب القدامية وآخران

(١) قرلي: هو نوع من أنواع المراكب انتشر في الأندلس والمغرب، وربما كان ما أطلق عليه اسم (قروالة) وأحياناً (قربات) ويرجح تاريخ استخدامه سنة ١٢٣هـ/ ٧٤٠م. النخيلي، درويش، السفن الإسلامية على حروف المعجم، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، ص١١٩. وسيشار إليه فيما بعد: النخيلي، السفن الإسلامية؛ الزواري، علي، الملاحاة الصفاقسية من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، مجموع في كتاب (تطور علوم البحار ودورها في النمو الحضاري)، وزارة الشؤون الثقافية، تونس، ١٩٧٦م، ص١١٩. وسيشار إليه فيما بعد: الزواري، الملاحاة الصفاقسية.

(٢) الأفعال: قطع من الخشب وواحدتها قفلة وطول القطعة يكون على عرض مؤخرة السفينة، ولكل سفينة ثلاثة أفعال منها اثنتان تثبتان في مؤخر السفينة ويسمونها قفال وراء وثالثة في مقدمة السفينة يسمونها قفلة قدام، وتمتد هذه الأفعال على عرض السفينة، وتستخدم القفلة لأغراض عدة فأحياناً يمد عليها القماش ويستفاد منها بالحصول على الظل. الكسادي، القاموس البحري، ص٩٧-٩٨؛ الرومي، أحمد بشير، معجم المصطلحات البحرية في الكويت، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت، ١٩٩٦م، ص٧٨. وسيشار إليه فيما بعد: الرومي، معجم المصطلحات البحرية.

(٣) القوس: يستخدم هذا اللفظ في الخليج العربي للدلالة على آلة تستخدم لتقرب الأخشاب، ولكن دلالة اللفظ هنا يبدو أنها تدل على قاعدة القارب أو عامود هيكله الذي يقوم عليه بناء القارب، والذي يسمى في الخليج العربي (بيص). القناعي، صناعة السفن في الكويت، ص٦٨؛ الشملان، بناء السفن الخشبية، ص٦٠.

(٤) الألواح: وهي قطع الخشب التي تكون جسد السفينة أو القارب. الشملان، بناء السفن الخشبية، ص٦٠ - ص٦١.

(٥) قطنيس: ربما كانت تحريف لـ (قطنيس) وهو تجويف خاص في القارب يكون مخصص لحفظ ماء الشرب والطبخ خلال السفر في خزانات تصنع من الخشب وتطلى بالقار. الشملان، بناء السفن الخشبية، ص٦٦.

على الورانية، وجسر اللقصة بأقوالها وصفتين قطيس، ولقصة مقفلة ومناطق الخشبة والتعريق واللبريلات^(١)، ويكمل إنشائه ونجارته بما يحتاج إليه من المسامير لحد القلطة، وعلى فلان النقش وزفت التشبيك^(٢)، بكذا وكذا دينار. قبضها فلان أو قبض منها كذا، وبقي له سائرهما على الطول يأخذها متى شاء، معاملة صحيحة عرفاً قدرها ومبلغها ومنتهى خطرهما وتواصفا جميع ما يقوم به إنشاء القارب المذكور من خشب ومسمار صفة حضراها قامت عندهما مقام العيان، بلا شرط ولا مثوية ولا خيار، وشرع فلان النجار في إنشاء القارب المذكور، وتولى عمله في تاريخ عقد المعاملة المذكورة على سنة المسلمين في معاملاتهم، ثم تكمل العقد، فإن ضرباً أجلاً ذكرته، ولا يكون إلا مدة يصح فيها الإنشاء المذكور، ويصح العقد دونه^(٣).

وتمدنا تلك العقود بمعلومات تتعلق بطرق فحص مدى صلابة القوارب، خاصة عند الشراء، ومن ذلك أن يعتمد إلى قدوم^(٤)، يضرب بها عود^(٥) القارب

(١) اللبريلات: يفيد موضعها من النص أنها ربما تكون (البريات) وهي الأخشاب التي توضع جانبي السفينة في السدر، وتكون أعلى من السطحة. الشمالان، بناء السفن الخشبية، ص ٥٢.

(٢) الزفت والقار لهما استخدام واحد وهو دهن المراكب حتى لا يدخلها الماء، ويشير البعض أن الزفت الذي يأخذ من شجر الأرز أجود وأثبت من القار، لأن القار إذا لامسه ماء البحر المالح انتشر بينما الزفت يقاومه. آل ياسين، معجم النبات والزراعة، ج ١، ص ٣٧١.

(٣) القروي، أكرية السفن، ص ١٠١ - ١٠٢.

(٤) القدوم: وجمعه قدائم وقدم، وهو أداة يستخدمها عامل السفينة لسحت الخشب ونحته. القناعي، صناعة السفن في الكويت، ص ٦٢.

(٥) العود: خشبة كل شجر رق أو غلظ، والعود من الخشب قيل سمي بذلك لأنه في الأصل مأخوذ من شجر إذا قطع أخلف غيره، ويطلق أحياناً على الجزء الذي يثبت عليه الشراع ويسمى (الشراع الكبير)، ولكن يقصد بها هنا الخشب الذي يتكون منه هيكل القارب. السمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ/ ١٣٥٦م)، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، ٥ أجزاء، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٣م، ج ٣، ص ١٦٧. وسيشار إليه فيما بعد: السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، الشمالان، بناء السفن الخشبية، ص ٧٢؛ آل ياسين، معجم النبات والزراعة، ج ١، ص ٣٢٩.

لمعرفة مدى صلابته، ومعلومات عن بعض المواد الإضافية اللازمة للصيانة والإصلاح، وأخرى لازمة لجريان القارب وإرسائه^(١).

وتشير العقود إلى عمال السفن، وهم ما اصطلح على تسميتهم بـ (خدم السفن)، سواء كان خدماً من العبيد أو الأحرار^(٢)، الذين اعتمد عليهم في نقل الأحمال والبضائع للسفن.

ويلاحظ أن برديات قرّة بن شريك تؤكد على وجود العمال أو الأجراء وحاجة الأسطول إليهم في نقل المتاع والمواد اللازمة للأسطول، ففي البردية المؤرخة في سنة (٧١١هـ / ٧١١م) يطلب قرّة بن شريك من صاحب أشقوه تزويد دار الصناعة في بابلون بأربعة أجراء من أهل كورته للعمل على القوارب، لمدة ستة أشهر، وفيها قيمة أجرهم وثمان معيشتهم، واسم صاحب العمل في بابلون:

"بسم الله الرحمن الرحيم

من قرّة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوة

فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد،

فقد قسمنا على كورتك أربعة أجراء لمدة ستة أشهر للعمل على القوارب في جزيرة بابلون قبل عبدالأعلى بن أبي حكيم، صاحب العمل هذا العام، ٩ إندكشن (= ٧١٠هـ / ٧١٠م). وكتب بذلك كتاباً على أهل القرى أرسل إليك، وفيه قيمة أجورهم وثمان معيشتهم. فإذا رأت القرية أن تقايض بالمال فلها ذلك.

فإذا جاك كتابي هذا، فأرسل الأجراء بمقتضى ما في كتابي.... وادفعهم إلى عبدالأعلى للعمل على القوارب.

(١) القروي، أكرية السفن، ص ١٠١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٠، ص ٦٩.

كتب في ٦ بشنس (Pachon)، ٩ إندكشن (= ٥٩٢هـ / ١٠٧١م)^(١).

مما تقدم يبدو أنّ عملية بناء السفن انطلقت من معرفة الدولة بإمكانياتها لتوفير متطلبات البناء (من مواد خام وعمال) فأنجزت العملية باقتدار.

وميزت المصادر التي أشارت إلى الأسطول الأموي بين شكلين من أشكال السفن وهي أولاً: "السفن والمراكب العظام"^(٢)، أو أحياناً تُذكر باسم "المراكب البحرية"^(٣)، وهي على ما يبدو السفن التي تصلح أساساً للملاحة في البحر، ويؤكد ذلك تسمية ابن رسته (ت ٢٩٠هـ / ٩٠٢م) لها بقوله: "سفن البحر"^(٤)، التي لم تختص فقط بالقتال وإنما كان لها دور تجاري، وربما كان هذا الدور هو سبب إشارة بعض المؤرخين في فترة لاحقة من تاريخ الدولة الإسلامية لتمييز الموانئ التي تعمل بها هذه السفن، بقولهم: "تعمل فيها المراكب البحرية"^(٥).

أما الشكل الثاني فهي السفن الصغيرة والتي ترد في المصادر بلفظ "السفن" وأحياناً تتم الإشارة بدلالات لفظية مثل قولهم: زورق أو قرقور، وهي التي تصلح للملاحة في البحار والأنهار وإن كانت تلائم الأنهار أكثر، وفي هذا السياق يذكرها ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) في مادة "الثرثار" بقوله: "وإدٍ عظيم بالجزيرة تجري فيه مياه الأمطار وتصب في دجلة، ويقال أن السفن كانت تجري فيه"^(٦).

(1) Bell, Aphrodito, No 1386, p: 380

وانظر الترجمة: أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٦٣.

(٢) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٨.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (رودس)، ج ٣، ص ٩٠.

(٤) ابن رسته، الأعلام النفيسة، ص ٩٥.

(٥) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٤٨.

(٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (الثرثار)، ج ٢، ص ٨٩؛ ويبدو أن العادة غلبت في كثير من الأحيان على ألسن القوم من العرب فيطلقون كلمة النهر على مسيل الماء عموماً حتى وإن كان مجراه لا يكاد يبلغ مسافة بعيدة، وتلك الأودية والمياه الجارية يطلقون عليها أحياناً أنهاراً. لامنس، هنري، رسم المجاري النهرية في لبنان، مجلة المشرق، مج ٧، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٠٤م، ص ٤٦٢. وسيشار إليه فيما بعد: لامنس، المجاري النهرية.

ويتجلى هذا الفرق بوضوح في قول بكر عبدالله المزني (ت ١٠٦هـ / ٧٢٤م):
"مثلنا ومثل الحسن كمثّل سفينة بحرية عظيمة وقراقير تلوذ بها، فمتى تغرق
السفينة تهلك القراقير"^(١).

كثرت أنواع السفن المستخدمة في أسطول الدولة الأموية وتعددت أسماؤها،
وقد أتت المصادر خاصة مصادر الشعر الأموي على ذكر الكثير منها، إلا أنّ
العديد من الباحثين في مجال دراسة الأسطول لم يعتنوا بتلك الإشارات، مما جعلهم
مرتبكين في تحديد زمن استخدام بعض أنواع هذه السفن، وأحياناً أماكن انتشارها
واستخدامها، مما دفع الباحث في هذه الدراسة إلى الاهتمام بتحديد زمن استخدام
بعض هذه السفن أكثر من اهتمامه بتتبع أنواع السفن التي نالت نصيباً من اهتمام
الباحثين^(٢).

(١) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ / ١١٤٣م)، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار،
تحقيق: عبدالأمير مهنا، (٥) أجزاء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م، ج ١،
ص ١٩٥. وسيشار إليه فيما بعد: الزمخشري، ربيع الأبرار؛ والقرقر: هي كلمة فارسية الأصل وتعني
ضرباً من السفن، وقد تكون يونانية الأصل (Kerkouros) وتعني السفينة الخفيفة (كركورس). علي،
جهينة نصر، الكلمات الفارسية في المعاجم العربية، دار طلاس، دمشق، ٢٠٠٣م، ص ٢٧٧.
وسيشار إليه فيما بعد: جهينة، الكلمات الفارسية في المعاجم العربية.

(٢) النخيلي، السفن الإسلامية، ص ١٠، ١٧، ٤٣، ٤٦، ٥٤، ٥٩، ٦٥، ٩٢-٩٣، ١٠٢-١٠٣،
١١٨، ١٢٠-١٢٥، ١٤١-١٤٣؛ عواد، محمود، الجيش في العصر الأموي، رسالة دكتوراه غير
منشورة، الجامعة الأردنية، الأردن، ١٩٩٢م. ص ٣٦٩ - ٣٧٩. وسيشار إليه فيما بعد: عواد، الجيش
في العصر الأموي.

Fahmmi, A, M: Muslim Naval Organization in the Eastern Mediterreran, 2nd.
Ed. Cairo, 1966.pp149 . pp166.

ومن أنواع السفن:

أولاً: البارجة؛ عرفها البعض بأنها المراكب الهندية، وتستخدم فقط في المناطق الشرقية للخلافة الإسلامية^(١)، وأعاد بعض الباحثين أصلها إلى الكلمة الهندية "بيرة أو بيثرا"^(٢)، وكان أول معرفة المسلمين لها في فتوحاتهم لبلاد السند زمن ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي (ولايته ٧٥ هـ - ٩٥ هـ / ٦٩٤ م - ٧١٣ م) وهي من السفن التي يستخدمها لصوص السفن وقراصنتها الذين كانوا يغيرون على سفن المسلمين^(٣)، لكن يبدو أن استخدام هذه السفن لم يكن مقتصرًا على سفن الأسطول الأموي في المناطق الشرقية فحسب، بل استخدمت في الأسطول الأموي في البحر الشامي، ويرد اسم هذا النوع من السفن في إحدى برديات قرّة بن شريك، حيث جاء في البردية المؤرخة في سنة (٩٦ هـ / ٧١٤ م):

"كتب في برمهات من السنة نفسها. في نواتية للبوارج ولقادسين، لجيش الأسطول المصري، لسنة ١٤ إنكشن (٩٦ هـ / ٧١٤ م):

٢٩ نوتياً لخمسة شهور، ونصف دينار للمعيشة أثناء الرحلة إلى ثغر النيل: ٣ ½ دينار^(٤)."

ثانياً: البوصي؛ بوصي من الفارسية بوزي، وهي من سفن نهري الفرات ودجلة، ومن وسائل النقل المائية الصغيرة التي تبحر أمام السفينة الكبيرة في المياه الضحلة التي لا يمكن للكبيرة أن تسير فيها، وتبنى من نبات يسمى (البوص) وهو

(١) النخيلي، السفن الإسلامية، ص ١٠.

(٢) كندرمان، السفينة، ص ٢٨.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٦١٢.

(٤) أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٤٥.

الحلّفاء ويستخدمه أهل جنوب العراق^(١) ومنه جاءت تسميتها، وخلص العديد من الباحثين إلى أن استخدامها اقتصر على نهري الفرات ودجلة من خلال إشارات بعض الشعراء^(٢).

يقول الشاعر الأعشى (ت ٨٨ / ٦٢٩م):

مثل الفراتي إذا ما طمى يقذف بالبوصي والماهر^(٣)

وكذلك قول الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد (ت ٥٦٤م):

وأنتع نهّاض إذا صعّدت به كسكّان بوصيّ بدجلة مصعد^(٤)

وعلى الرغم من ذكر هذه الأشعار للبوصي كسفينة تستخدم في الأنهار، ولكن يبدو ومن خلال بعض الأشعار أيضاً ما يدل على استخدامها في البحر، ومن ذلك قول الشاعر أبي محجن الثقفي عمرو بن حبيب (ت ٣٠ / ٦٥٠م)^(٥)، يصف هربه من جزيرة في البحر يقال لها حضوضي:

من يجشم البحر والبوصي مركبه إلى حَضَوْضَى فبئس المركب التمسا^(٦)

(١) كندرمان، السفينة، ص ٤٧.

(٢) ذهب إلى هذا الرأي بعض الباحثين مثل: كندرمان، السفينة، ص ٤٨؛ عواد، الجيش في العصر الأموي، ص ٣٧٣.

(٣) الأعشى، ميمون بن قيس (ت ٨٨ / ٦٢٩م)، الديوان، تحقيق: يوسف شكري، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م، ص ١٤٣.

(٤) طرفة بن العبد البكري (ت ٥٦٤م)، الديوان، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال، ط ٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٠م، ص ٣٦.

(٥) بابتي، عزيزة فوال، معجم الشعراء المخضرمين والأمويين، جروس برس، لبنان، ١٩٩٨م، ص ٤٣٠.

(٦) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦ / ٩٦٦م)، الأغاني، ٢٥ جزءاً، تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم السعافين ويكر عباس، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٢م، ج ١٩، ص ٥. وسيشار إليه فيما بعد: الأصفهاني، الأغاني؛ واختلف في تحديد حضوضي، فقد ذكر ياقوت الحموي (٦٢٦ / ١٢٢٨م) أنها جبل في الغرب تنفي إليه العرب خلعاءها، وقال جزيرة في البحر، ويبدو أنها جزيرة في البحر كما يتضح من البيت. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (حضوضي)، مج ٢، ص ٣١٤.

كما يرد ذكر لاستخدامها في العصر الأموي، دلّ عليه قول الشاعر الحطيئة
(ت حوالي ٤٥هـ / حوالي ٦٦٥م):

وهند أتى من دونها ذو غوارب يقمص بالبوصي معروفٌ وردٌ^(١)

ثالثاً: الدرmonة^(٢)؛ وهي من السفن التي يرد استخدامها في الأسطول الأموي
في البحر الشامي، حيث تذكر إحدى السجلات المالية لقرّة بن شريك المؤرخة في
سنة (٩٥هـ / ٧١٣م) ما نصه:

"أحضر من قبل آخر....، كتب في ٦ بشنس، ١٣ إندكشن. إتماماً لأجور
النواتية المذكورين في الحاشية، وهم أربعة رجال من قرينك أرسلوا إلى أنطاليا
نواتية للقوارب والدرmonة لجيش سنة ١٢ إندكشن (٩٤هـ / ٧١٢م)، الذين خرجوا
من اللاذقية ورجعوا هذا العام (١٣ إندكشن = ٩٥هـ / ٧١٣م)"^(٣).

رابعاً: طيارة؛ جمعها طيارات، وهي نوع من السفن السريعة وموضع
استخدامها بغداد والبصرة^(٤)، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن استخدامها كان في
العصر العباسي^(٥)، ورأى آخرون أن استخدامها كان في العصر الأموي مرجعاً

(١) الحطيئة، أبو مليكة جروول بن أوس (ت حوالي ٤٥هـ / ٦٦٥م)، الديوان، دار الفكر العربي، بيروت،
٢٠٠١م، ص٤٦.

(٢) ربما كانت هي سفينة (الأردمونة)، ابن منظور، لسان العرب، مادة (قنس)، مج٦، ص١٧٠.

(3) Bell, Aphrodito, p:91, p:92

وانظر الترجمة: أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٥١.

(٤) كندرمان، السفينة، ص١٧٤؛

Fahmmi, .Muslim Naval, pp163

(٥) النخيلي، السفن الإسلامية، ص٩٢.

تاريخ استخدامها إلى خلافة عمر بن عبدالعزيز^(١)، وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد لها ذكراً لدى الشعراء قبل هذه المدة، فيذكرها مثلاً الشاعر الفرزدق أنها من السفن التي استخدمها الحجاج بن يوسف الثقفي، حيث يقول في قصيدة له:

طيارة كان للحجاج مركبها ترى لها من أذاة الموج أعوانا^(٢)

خامساً: العين^(٣) والقوادم^(٤)، وهي من السفن التي استخدمت في الأسطول الأموي في البحر الشامي ويأتي اسمها مقترناً، ورد ذكرها في العديد من البرديات، ومن ذلك البردية المؤرخة في سنة (٩٠هـ / ٧٠٨م):

١ [بسم الله الر] حمن الرّحيم

٢ [من قرّة بن شريك إلى أهل] بنده بديده من كورة القيس فا

٣ قبضوا من ماروت كورتكم خمسين رطل مريز

٤ من حديد الإمارة، فاصنعوا منها ثلاثة وتلثين رطل

٥ وتلث رطل مسامير، ثم ادفعوا ما صنعتم إلى عبدا

٦ لأعلى بن أبي حكيم لصنعة العين والقوادم سنة

٧ تسعين لجيش سنة إحدى وتسعين. فإن أعطيتم الأجر

(١) عواد، الجيش في العصر الأموي، ص ٣٧٥.

(٢) الفرزدق، الديوان، ص ٦٣٣.

(٣) العين لم نعثر لها على تعريف في المعاجم، لكن نجد عند البعض الربط بين كلمة الماء وكلمة العين مثل قولهم لنبع الماء عين، وذلك لوجود الماء فيه مثل العين، وربما كان ربط العين بالسفن من هذا الباب، انظر توضيح هذه العلاقات بين المفاهيم عند: السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ج ٣، ص ١٧٦-١٧٨.

(٤) القادس هي السفينة العظيمة وقيل صنفت من المراكب، ابن ممتي، قوانين الدواوين، ص ٢٤١؛ ابن منظور، لسان العرب، مادة (قدس)، مج ٦، ص ١٧٠.

٨ [ف] أعطوا دينر وثلاث دينر . وكتب

٩ [م] ارثد في شوال من سنة تسعين^(١).

كما ويرد ذكرها أيضاً في البردية المؤرخة في سنة (٩١١هـ / ٧٠٩م)، حيث جاء فيها:

"... فأنت تعلم أننا بحاجة دائمة إلى نجارين ومجلفطين للعمل في السفن والقوادم، وفي بعض أعمال الإمارة وما تحتاجه من متاع....."^(٢).

ويبدو أن إرسال المواد الخاصة بصناعة هذه السفن تحديداً من مسامير وغيرها قد تأخر فعلاً، يتضح ذلك من خلال تكرار الرسائل بطلبها، وفيما يلي نص إحدى البرديات المؤرخة في سنة (٩١١هـ / ٧٠٩م)، الذي يشير إلى هذا الأمر صراحة:

"... صاحب العمل [غير قادر] على الانتهاء من السفن والعين والقوادم دون أل..... وكذلك المسامير والصناع لإرسالهم.

فإذا جاك كتابي هذا فعجل إرسال المتاع المطلوب، وما تأخر على أهل كورتك، ولا تؤخرن شيئاً من ذلك، أو ترسل...، وأمر أهلها أن يؤدوا ما عليهم من المتاع عرضاً، ولا تقبل منهم مالاً في مقابل ذلك، ولا تلجئي إلي أن أكتب إليك غير كتابي هذا في إرسال المتاع المطلوب، إذا كنت تعقل أو تفهم، فأرسل المتاع المطلوب بعد قراءة كتابي هذا.

كتب في ١٨ طوبة (Tybi)، ٨ إندكشن (= ٩١١هـ / ٧٠٩م)^(٣).

(١) أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٠٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٠٦، ص ٢٦٥.

(3) Bell, Aphrodito, No 1348, p: 278

وانظر الترجمة: أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٥٥ - ص ٢٥٦.

سادساً: القرقور ضرب من السفن^(١)، عدّها بعض الباحثين من السفن التي استخدمت بالعصر الجاهلي مع الإشارة إلى عدم استخدامها في العصرين الراشدي والأموي^(٢)، وذهب آخرون إلى أنها من السفن التي استخدمت في العصر العباسي^(٣)، وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد لها ذكراً في العصر الأموي، فقد افتخر بعض الشعراء الأمويين مثل الأخطل (٥٩٢هـ / ٧١٠م) بكثرتها في نواحي العراق، في قصيدة له، قال فيها:

ولكن لنا بر العراق وبحره وحيث ترى القرقور في الماء يسبح^(٤)

كما نجد بعض الإشارات التي تدل على شهرة استخدامها في العصر الأموي مثل تشبيه الإبل بها، ومن ذلك قول الشاعر عدي بن الرقاع العاملي (ت حوالي ١٢٦هـ / حوالي ٧٤٣م) يصف ناقته:

نِعْمَ قُرْقُورَ الْمَرْوَرَاتِ إِذَا غَرِقَ الْخُرَّانُ فِي آلِ السَّرَابِ^(٥)

تنظيم الأسطول:

تميز الأسطول الأموي بالتنظيم الإداري والمالي، ويبدو ذلك واضحاً من خلال عدد من التدابير، يأتي في مقدمتها تحديد الوظائف ومهامها، بدءاً بالقيادة

(١) النخيلي، السفن الإسلامية، ص ١٢٣.

(٢) عواد، الجيش في العصر الأموي، ص ٣٧٨.

(٣) النخيلي، السفن الإسلامية، ص ١٢٣.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ج ٨، ص ٢٢٦.

(٥) العاملي، عدي بن الرقاع (ت حوالي ١٢٦هـ / حوالي ٧٤٣م)، الديوان، تحقيق: نوري حمود القيسي وحاتم صالح الضامن، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٨م، ص ٤٦، وسيشار إليه فيما بعد: العاملي، الديوان.

وألقاب من يتولاها، مثل لقب (صاحب البحر)^(١)، أو (عامل السفن)^(٢)، أو (ولاية البحر)^(٣) أو (غزو البحر)^(٤).

ومن الوظائف الأخرى المرتبطة بالأسطول الأموي، وظيفة (صاحب الجسر)^(٥)، وظهرت هذه الوظيفة في الولايات الشرقية للدولة الأموية، ومهمة صاحبها الإشراف على الجسور التي تقع على الأنهار ومسؤولية فتحها أمام العابرين، والعمل على بناء جسور أخرى^(٦)، وعلى ما يبدو فإن هذه الجسور كانت تعمل وتصنع من السفن التي كانت تربط وتشدّ إلى بعضها^(٧).

وفي سياق اهتمام الولاة بتنظيم الأسطول، قام والي مصر الأموي أسامة بن زيد (٩٦هـ - ٩٧هـ / ٧١٥م - ٧١٨م) بتنظيم الملاحة البحرية في ولايته، بعمل

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٨٤.

(٢) النويري، نهاية الأرب، مج ١٠، ج ٢١، ص ٢٦٢.

(٣) الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٣هـ / ٩٦٤م)، الولاة والقضاة، تحقيق: محمد حسن وأحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، ص ٣٢، ص ٦١. وسيشار إليه فيما بعد: الكندي، الولاة والقضاة؛ ويستخدم أحياناً لفظ "على بعث البحر"، المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٤) اليعقوبي، التاريخ، مج ٢، ص ٢٤٧؛ النويري، نهاية الأرب، مج ٩، ج ٢٠، ص ١٦٦، ص ١٦٧، ص ١٦٩.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل، ج ٦، ص ٢٨١؛ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، ج ٣، ص ١٢٦، النويري، نهاية الأرب، مج ١٠، ج ٢١، ص ١١٧.

(٦) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ١٢٦ - ص ١٢٧.

(٧) وقد أصبح لمثل هذه الجسور دور صناعة (تأكيد أنها من السفن أو تشبهها) في العصر العباسي زمن الخليفة المهدي (١٥٨هـ - ١٦٩هـ / ٧٨٥م - ٧٧٤م) على نهر دجلة في بغداد. البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٦، ص ٥٩٦؛ الطبري، تاريخ الرسل، ج ٧، ص ٤٣٢؛ النويري، نهاية الأرب، مج ١٠، ج ٢١، ص ١١٧. انظر: اليعقوبي، التاريخ، ٢٤٩.

سجلات تدون فيها أسماء أصحاب المراكب^(١)، كما اتخذ الأسطول رايات تنتشر فوق سفنه لتمييزها، وكان أول من اتخذها والي مصر عقبة بن عامر الجهني (٤٤٥. ٤٤٧ هـ / ٦٦٥ م. ٦٦٧ م)^(٢).

وتشير برديات قره بن شريك إلى إجراءات اتخذتها الدولة أيضاً لتطوير مهارات العاملين في الأسطول، من المجلفطين أو النجارين أو النواتية (الملاحين)، وذلك من خلال اعتماد مراكز لتدريب الشباب على صناعة السفن، على يد خبراء وفنيين ممن يتقنون هذه الحرفة، حيث جاء في إحدى البرديات:

بسم الله الرحمن الرحيم

من قره بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوة

أما بعد،

فأنت تعلم أننا بحاجة دائمة إلى نجارين ومجلفطين للعمل في السفن والقوادم، وفي بعض أعمال الإمارة وما تحتاجه من متاع، إذ لا مجال لإنجاز العمل دون هذا المتاع، وهي ذات نفع أيضاً لأهل القرى.

فإذا جاك كتابي هذا، فاعمل على اختيار الفتيان في كورتك وقراها، ومن رجالك المتميزين، لإعدادهم لأعمال مختلفة. واعهد بالفتيان إلى صناع متضلعين في فن صناعتهم من ذوي الخبرة والأمانة، وانظر في عملهم وأجرهم كل شهر، وتعهد أمر عملهم لئلا يؤول بهم الأمر إلى الإهمال والتقصير. واكتب إلي بأسمائهم وأسماء آبائهم، كل حسب قريته وصنعتة.

(١) شكلت ولاية أسامة بن زيد على مصر مرحلة تنظيمية مهمة طالت جميع النواحي الإدارية في الدولة خاصة المالية منها. ساويروس بن المقفع، تاريخ البطركة، ج ٢، ص ١٥٦ - ص ١٥٧؛ خزنة كاتب، غيداء، الخراج منذ الفتح الإسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري: الممارسات والنظرية، ط ٣، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠١ م، ص ١٤٢ - ص ١٤٣. وسيشار إليه فيما بعد: خزنة كاتب، الخراج.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ١٦٩.

وأمر أن يكون نصفهم لصنعة السفن وجلفطتها. واكتب إلي كتاباً بأسماء
الفتيان الذين عملوا في كورتك عام الأول. ثم أمر أهل أرضك بزراعة أشجار
كثيرة، ولا سيما كروم العنب وشجر الطلح وغيرها من الأشجار.
ولا أعرفن أنك قصرت في إنفاذ ما أمرتك به في كتابي هذا، وتفقد عمالك،
ولا تكن ذلك إلى أحد سوى نفسك، واكتب إلي كيف فعلت في ذلك. واعلم أننا
سنرسل، إن شاء الله، رجلاً ليراقب الأمور ويخبرنا بما فعلت، وهل نفذت أمرنا أم
لك تصرف آخر.

كتب في ٢٨ طوية (Tybe)، ٨ اندكشن (= ٧٠٩ / ٩١ هـ).
على الظهر:

قرة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوه

[سلم في.... أمشير (Mechir)، ٨ إندكشن من قبل فلان وفلان]، في
نجارين ومجلفطين و[.....] (١).

تضمنت البردية السابقة إشارة واضحة إلى حاجة الدولة للفنيين من النجارين
وعمال لصناعة السفن، كما تضمنت خطة العمل لمواجهة هذا النقص، مع التشديد
على الوالي بضرورة متابعة هذه الخطة بنفسه، مع مراقبة حثيثة من الدولة لضمان
النتائج.

ومن جانب آخر ترد إشارة إلى لباس الملاحين (النَّبَّان) (٢)، الذي وصفه
الشاعر الأموي الأخطل التغلبي (ت ٩٢ هـ / ٧١٠ م) بقوله:

(١) أبو صفية، برديات قرة بن شريك، ص ٢٥٧.

(٢) النَّبَّان: هذه الكلمة ليست سوى تحريف للكلمة الفارسية (تنبان)، وتعني سراويل قصيرة مقدار شبر
من الكتان يرتديها الملاحون يسترون بها العورة، وقد احتفظت الكلمة بمعناها أثناء مسارها إلى اللغة
العربية. ابن منظور، لسان العرب، مادة (تبن)، مج ١٣، ص ٧٢؛ التونجي، محمد، المعجم الذهبي
(عربي - فارسي)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠ م. وسيشار إليه فيما بعد: التونجي، المعجم
الذهبي؛ دوزي، رينهاردت، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، دار
الحرية، بغداد، ١٩٧١ م. وسيشار إليه فيما بعد: دوزي، المعجم المفصل.

ترى الملاح محتجزاً بليف يؤم بهن آجاماً وغابا
إذا التبان قاص عن مشيح صدفن ولم يردن له عتاباً^(١)

مهام الأسطول:

إن حرص الدولة على بناء الأسطول والسعي إلى تطويره، يعني ضمناً إعداده لمهام متعددة يأتي في مقدمتها مراقبة السواحل لمنع تعديات الأعداء ومواجهتهم أحياناً، فيذكر ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ / ٤٦٩م) ضمن حديثه عن أحداث سنة (٨٠هـ / ٦٩٩م): "خرج عبدالواحد بن أبي الكنود - ولي غزو البحر هذه السنة - من الإسكندرية وركب البحر وغزا الفرنج حتى وصل قبرص"^(٢).

ويبدو أن الأسطول الأموي كان على درجة عالية من التطور مكنته من مواجهة الروم في البحر، فيذكر ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ / ٤٦٩م) أيضاً، وضمن حديثه عن ولاية الوليد بن رفاعة (ولايته ١٠٩هـ - ١١٧هـ / ٧٢٧م - ٧٣٥م) على مصر، أنه سير جيشاً إلى جزيرة صقلية، فلقيته جيوش الروم فاقتتلوا في البحر^(٣)، كما يذكر ساويروس بن المقفع (ت في القرن ٤هـ / ١٠م) أنه في ولاية أسامة بن زيد على مصر (ولايته ٩٦-٩٧هـ / ٧١٥-٧١٨م) كانت مراكز الأسطول الأموي تعترض قوات الروم في البحر الأبيض المتوسط ضمن مهمة مراقبة البحر لمنع تعديات الروم على السواحل^(٤)، وإلى جانب دور الأسطول

(١) الأخطل، الديوان، ص ٢٣٣؛ وانظر بعض الأبيات الشعرية عن التبان لدى: الفرزدق، الديوان، ص ٦٧٩.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٥٧.

(٣) السابق نفسه، ص ٣٣٩.

(٤) ساويروس بن المقفع، تاريخ البطارقة، ج ٢، ص ١٥٦-١٥٧.

الأموي في الحماية والمراقبة^(١)، فقد لعب دوراً مميزاً في النقل، جاء مكملاً لدوره الأول، وهذا ما نفهمه من الإشارات الدالة إلى السفن أيام الأمويين، فيذكر مثلاً أن محمد بن القاسم الثقفي (ت ٩٥هـ / ٧١٤م) اعتمد عند فتح السند سنة (٨٩هـ / ٧٠٨م) على السفن، "فوافته تحمل السلاح والرجال والأداة"^(٢).

واعتمد صالح بن علي بن عبدالله (ت ١٣١هـ / ٧٤٨م) على السفن في ملاحقته لآخر خلفاء بني أمية (مروان بن محمد ١٢٧هـ - ١٣٢هـ / ٧٤٤م - ٧٤٩م)، فكان يسير على ساحل الرملة والسفن تسير بحياله^(٣) داعمة للجيش البرية.

وتنوعت استخدامات السفن في النقل، لتشمل إمداد المسلمين بالميرة ودعمهم بالموءن خاصة فيما يتعلق بنقل معيشة ومتاع مقاتلة الأسطول نفسه.

وتعكس برديات قره بن شريك حرص الدولة الأموية على ضرورة إرسال الموءن والميرة الخاصة بالأسطول، وتفتقرن هذه الأهمية بإرسال الصناعات والنواتية لحاجة الدولة الدائمة والمستمرة لهم، وهذا ما يظهر في البردية التالية المؤرخة في سنة (٩١هـ / ٧٠٩م):

"من قره بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوة

فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد،

فقد كتبت إليك في إرسال النواتية والصناعات ومعيشتهم، ومعيشة المقاتلة في أسطول الغزو المصري.

(١) عن مهام الأساطيل البحرية المعاصرة ينظر: رفعت، المفهوم الاستراتيجي، ص ٩-١٠.

(٢) النويري، نهاية الأرب، مج ١٠، ج ٢١، ص ١٨٧.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٦، ص ٦٥٥؛ الطبري، تاريخ الرسل، ج ٧، ص ٤٤٠.

فإذا جاك كتابي هذا، فعجل إرسال المعيشة المطلوبة من كورتك قبل أن نقل^(١) مياه قناة الإسكندرية، وإلا ستجبر على دفع أجر إرسالها براً إلى الإسكندرية، وانظر أن يكون النواتية جيدين ولهم خبرة؛ فقد أمرنا رسولنا ألا يعفيك حتى تبعث كل ما طلبناه من كورتك، فلا تقبل من أهل القرى مالا في مقابل المعيشة المطلوبة، وعلى أهل القرى أن يعجلوا إرسال المؤونة، وإذا وجدت أحداً منهم غير قادر على أن يقدم عرضاً، فخذ منه نقداً بما يعادل الثمن المذكور في كتابي هذا، وأرسله مع رسولك الأمين، وأمره أن يدفعه إلينا، وألا يقدم مالا لمن يتسلمون منه المعيشة، ولا تتوان في إرسال النواتية والصناع، وعجل ذلك، ولا ألومك فيه.

كتب في ٥ أمشير (Mechir) ٨ إندكشن (= ٩١١هـ / ٧٠٩م)

أرسل مع سعيد البريد في معيشة المقاتلة ونواتية أسطول الغزو المصري لسنة ٩ إندكشن (= ٩٢٢هـ / ٧١٠م)^(٢).

كذلك الحال فيما يتعلق بمتاع أسطول بحر القلزم، فجاءت تأكيدات قرّة بن شريك إلى صاحب أشقوة بضرورة إرسال متاع الأسطول دون تأخير، خوفاً من أن نقل مياه خليج أمير المؤمنين، مما يتطلب إرسالها براً^(٣).

وما يلفت الانتباه في البرديتين ضرورة التسريع في إرسال المؤن، باستغلال منسوب مياه بعض القنوات، ويفهم هذا من خلال التأكيد على إرسالها عن طريق قناة الإسكندرية، وخليج أمير المؤمنين في القلزم، وإلا فإن التأخير قد يتطلب

(١) الإشارة إلى قلة الماء، اصطلاح بحري يقصد به قلة العمق أو ضحالة الماء، القروي، أكرية السفن، هامش ص ٥٤.

(2) Bell, Aphrodito, No 1353, p: 280, p:281

وانظر الترجمة: أبو صافية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٥٨.

(٣) انظر نص البردية، ص ١٣ من البحث.

إرسال المؤن عن طريق البر إلى الإسكندرية أو عن طريق البر إلى القلزم بدلاً من إرسالها عبر القناتين.

وتظهر البرديات ضرورة تأمين أهل القرية مؤن المعيشة وهي - القمح والخبز - لمقاتلة الأسطول، كما جاء في بردية مؤرخة في سنة (٧٠٩هـ / ١٣٠٩م):

"..... من أهل كورتك.... أرسل القمح والخبز ومعيشة المقاتلة لأسطول الغزو، كما ذكر آنفأ... وما حملته في المعابر ينبغي أن يعاد إليهم....." (١)

وألزم أهل القرية بتقديم الأجود من الخبز، وهذا ما جاء في نص البردية التالية:

فإذا جاك كتابي هذا
فمر أهل أرضك فليقدموا
في صنعة الخبز (٢) وليحسنوا
صنعتهم؛ فإنه لا يصلح ا
لجيوش إلا الخبز الطيب
واعلم أنك إن ترسل
بخبز غير طيب لا يقبل منك

(1) Bell, Aphrodito, No 1354, p:281

انظر الترجمة: أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٥٩.

(٢) استخدمت لفظة (الخبز) في فترة لاحقة بمعنى ما يحصل عليه الجندي أو الأمير من عطاء عيناً أو نقداً أو ما يكفيه ويكفي الفرسان الذين في خدمته، وهو ما يبدو أنه تطور في المصطلح له جذوره. العربي، السيد الباز، المماليك، دار النهضة، القاهرة، بيروت، ١٩٧٩م، ص ١٧٠. وسيشار إليه فيما بعد: العربي، المماليك.

ويصبك فيه ما تكره. فابعث
على صنعته هذا الخبز من
يتعهده ويحسن صنعته؛ فإني
غير مرخص لك فيه إن شاء الله. والسلام على
من اتبع الهدى. وكتب
يزيد في شهر ربيع الأول م[ن] (١).

وألزم بسيل صاحب أشقوة في حال تقديم أحدهم -أي من أهل القرية- المال
مقابل المؤن، أن تكون القيمة واحدة دون نقصان، مع التأكيد على عدم الجمع بين
الأمرين، وهذا ما يظهر في برديات عدّة، فقد جاء في بريدية مؤرخة في سنة
(٥٩١ هـ / ٧٠٩ م)، ما نصه:

"..... وعلى أهل القرى أن يعجلوا إرسال المؤونة، وإذا وجدت أحداً
منهم غير قادر على أن يقدم عرضاً، فخذ منه نقداً بما يعادل الثمن المذكور في
كتابي هذا، وأرسله مع رسولك الأمين، وأمره أن يدفعه إلينا، وألا يقدم مالاً لمن
يتسلمون منه المعيشة، ولا تتوان في إرسال النواتية والصناع، وعجل ذلك، ولا
ألومناك فيه....." (٢).

وجاء في بريدية أخرى مؤرخة في سنة (٥٩١ هـ / ٧٠٩ م) حول الإجراء نفسه،
ما نصه:

"..... وإذا علمت أن أحداً من أهل كورتك أعطى أحد عمالك مالاً في
مقابل المعيشة المطلوبة بثمن يختلف عما ذكرته لك في كتابي، فأعدّه إليه
كاملاً....." (٣).

(١) أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٥٨.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٥٩.

وتضمن نص البردية تحذيراً للعامل في حال تجاوز هذا الإجراء:

"..... ولا أعلم أنك أخذت مالاً من أهل كورتك في المعيشة أقل من القيمة المقررة في كتابي، ولا تؤخرن إرسال الحبوب والخل المزيت إلى دمياط، ولا تهمل ذلك....." (١).

وعلى ما يبدو فإن المال كان يُدفع من أهل القرية نولاً^(٢) للقوارب والسفن التي تنقل متاع الأسطول، وهذا ما تشير إليه البردية المؤرخة في سنة (٩٠هـ/ ٧٠٨م):

"بسم الله الرحمن الرحيم

من قرّة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوة

[فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد]،

فقد قسمنا على كورتك سبعة دنانير نولاً للسفن التي تنقل المتاع للقوارب والغزوات البحرية العام، ٨ إندكشن (= ٩٠هـ)، وكتبنا بذلك كتاباً على أهل القرى أرسل إليك.

فإذا جاك كتابي هذا، فأرسل المال مع رسولك، وأمره أن يؤديه. وانظر ألا تعطي نولاً في شيء إلا في نول القمح والشعير إلى الأهرء في بابليون.

كتب في.... طوبة (Tybi)، ٨ إندكشن (= ٩٠هـ/ ٧٠٨م)، على ظهر الورقة من قرّة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوة^(٣).

(١) أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٥٩.

(٢) النول هو الأجر الذي يُدفع مقابل النقل في السفينة. ابن منظور، لسان العرب، مادة (نول)، مج ١١، ص ٦٨٣.

(3) Bell, Aphrodito, No 1387, p:381

وانظر الترجمة: أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٦٤ - ص ٢٦٥.

يتّضح من البردية السابقة ومن تاريخ كتابتها، مدى حاجة الدولة للمال لتغطية نفقات النقل، فقد كُتبت البردية في شهر طوبة (جمادى الأولى) وهو الشهر الذي يصادف جمع الخراج وحمله^(١) إلى الدولة، لتغطية حاجاتها في دفع أجور نقل القمح والشعير فقط.

ولأهمية المؤن وتأمين إرسالها، يأتي اهتمام الدولة بصيانة المعابر التي تنقل من خلالها المؤن إلى الأسطول، حيث جاء في البردية المؤرخة في سنة (٩٠٠هـ / ٧٠٨م) بخصوص دار الصناعة بالقلزم والمعابر فيها، ما نصه:

"قد فرضنا على كورتك أن تبعث صانعاً واحداً نجاراً لمدة أربعة أشهر، للعمل في المعابر التي تنقل {الطعام} إلى القلزم هذا العام، ٨ إندكشن (= ٩٠٠هـ / ٧٠٨م). وقررنا له أجره ومعيشتته ثلثي دينار في كل شهر، ما عدا... تدفع له من بيت المال، وكتبنا له بذلك كتاباً أرسلناه إليك.

فإذا جاك كتابي هذا، فابعث به بآلاته^(٢)، حسب ما جاء في الكتاب، وعجل ببعثه وادفعه إلى محمد بن أبي حبيبة، صاحب العمل.

كتب في ٦ توت (Thoth)^(٣)، ٨ إندكشن (= ٩٠٠هـ / ٧٠٨م)^(٤).

(١) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص ٢٤٥ .

(٢) لا تشير المصادر إلى طبيعة هذه الآلات، لكن يفترض أنها تشبه ما يستخدم في الصناعة التقليدية للسفن الخشبية، مثل استخدام المنقر (لنقر الأخشاب)، والقدم والمنشار والمطرقة والخيط (قياس طول الخشب). للمزيد عن هذه الآلات انظر: القناعي، صناعة السفن في الكويت، ص ٦٢، ص ٦٨.

(٣) شهر توت القبطي وبه تفتح السنة القبطية يقابله شهر محرم العربي. الخوري، قصة الأيام، ص ٧٩.

(4) Bell, Aphrodito, No 1336, p: 271

وانظر الترجمة: أبو صافية، برديات قرّة بن شريك، ص ٢٥٣؛ وللمزيد عن أجور النجارين انظر: الفهارس التحليلية للاقتصاد الإسلامي، ج ٣، ص ١٠١.

ويلاحظ من البردية السابقة أن مدة عمل النجار كانت أقل من مدة عمل غيره من الذين طلب إرسالهم إلى العمل في الأسطول، وربما كان سبب ذلك هو أن الأدوات التي يعمل بها النجار هي من ملكه وليس من ملك الدولة، كان هو السبب في نقص مدة عمله عن العمال (الأجراء) مثلاً كما في البردية التالية، كما يلاحظ أن أجرة النجار ومعيشتة تصرف من بيت المال ولا يقبل من أهالي القرى المقايضة بالمال بدلاً من إرسال النجار، وليس كما جرت العادة أن تكون أجور العمال من أموال تجمع من أهالي القرى، كل هذه الإجراءات تعكس مدى التنظيم والتدابير التي تتخذها الدولة في إدارة الشؤون المالية الخاصة بالأسطول.

أمّا عن إجراءات جمع الميرة من أهل القرية، فتعكسها بردية يتضح فيها حرص قرّة بن شريك على جمع الميرة في مواسم الحصاد ليكفل العدل وعدم التضيق على أهل القرية، فقد جاء في نص البردية المؤرخة في سنة (٩١١هـ/ ٧٠٩م):

"وأياك أن تطلب من أهل القرى خبزاً أو قمحاً حتى يحين وقت الحصاد إن شاء الله. وحين يشرعون في الحصاد اطلب منهم أن يؤدوا ما تأخر عليهم من الخبز والقمح، وأرسله إلى دمياط، ولا تؤخرن منه إردباً^(١) واحداً، وأنفذ أمرنا في ذلك، ولا تكن ذلك إلى أحد سوى نفسك. وقد كتبت إلى رسولي إليك في المعيشة أن يحضر معه كتاباً فيه مقدار المعيشة الذي أرسلته مع كل مسؤول عن حملها، وما معه من المال...^(٢).

(١) الإردب: مكيال مصري للحنطة يتألف من ستة وبيات وكل وبيبة تساوي ثمانية أقداح كبيرة أو من ستة عشر قدحاً صغيراً، ويصعب تحديده بدقة. هنّس، فالتر، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المترى، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م، ص٥٨. وسيشار إليه فيما بعد: هنّس، المكاييل والأوزان.

(٢) وانظر الترجمة: أبو صفية، برديات قرّة بن شريك، ص٢٥٩.

كتب في ٢٩ برمهاث^(١) (Phamenoth)، ٨ إندكشن (= ٩١هـ / ٧٠٩م).
إن الشهر الذي كتبت فيه هذه البردية وهو شهر برمهاث (رجب)، الذي
يجيء قبل شهر برمودة (شعبان)، وهو شهر حصاد جميع الحبوب^(٢)، يدل على
حرص قرة بن شريك في توجيه عماله وتوصيتهم بحسن معاملة أهل القرى وعدم
التضييق عليهم قبل موسم الحصاد.

والى جانب استخدام السفن في نقل الميرة، فقد ساهمت في نقل موجودات
أخرى، استخدمت في الزراعة وزيادة الإنتاج، ومن ذلك قيام الحجاج بن يوسف
التقفي ومن خلال عامله على السند محمد بن القاسم بنقل آلاف الجواميس من
السند إلى العراق^(٣)، لاستخدامها في الزراعة.

ومن لطيف ما يذكر عن دور السفن في هذا المجال، هو نقلها لقليل أهده
محمد بن القاسم للحجاج، وربما كان ذلك سبب تسمية (مشرعة الفيل) في مدينة
واسط بهذا الاسم^(٤).

ولعبت السفن بما فيها السفن التجارية دوراً في صراعات الدولة الأموية،
فيذكر أن قحطبة بن شبيب (ت ١٣٢هـ / ٧٤٩م) وهو أحد قادة أبي مسلم
الخراساني، قام بإرسال طائفة من أصحابه إلى الأنبار في سنة (١٣١هـ / ٧٤٨م)
لمصادرة جميع ما فيها من السفن ليعبر بها الفرات ليواجه الأمويين، فبعثوا له كل
سفينة كانت هناك^(٥)، واعتمد الوالي الأموي يزيد بن المهلب، على سفن التجار في

(١) برمهاث شهر قبلي واسمه القديم (فامانوت) يقابله شهر رجب العربي. الخوري، قصة الأيام، ص ٨٠.

(٢) ابن ممتي، قوانين الدواوين، ص ٢٤٧ - ص ٢٤٧.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٢٩؛ ابن العديم، تاريخ حلب، ج ١، ص ١٥٩.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (واسط)، ج ٥، ص ٤٠٣.

(٥) وقيل قد أمر أن تجمع له السفن من الأنبار إلى موضع يقال له دمما. مؤلف مجهول، أخبار الدولة
العباسية وفيه أخبار العباس وولده، تحقيق: عبدالعزيز الدوري وعبدالجبار المطلبي، دار الطليعة،
بيروت، ١٩٧١، ص ٣٦٧، وسيشار إليه فيما بعد: مؤلف مجهول، أخبار، الطبري، تاريخ الرسل،
ج ٦، ص ٩٨ - ص ٩٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٣٨٩؛ النويري، نهاية الأرب،
مج ١٠، ج ٢٢، ص ٢٠.

مرات عدة، مرة في مواجهاته ضد الخوارج^(١)، ومرة للهرب من سجن الحجاج بن يوسف^(٢)، ومرة أخرى بعد هزيمته في واسط، وقد اجتمع إليه في البصرة عدد من آل المهلب أعدت لهم السفن ليركبوا بها البحر، هاربين بها حتى جبال كرمان، وأحياناً أخرى كانت تقلهم حتى مدينة قنديل^(٣) من أرض السند^(٤)، وكثيراً ما اعتمد بعض قادة الخوارج على السفن في نقل خيولهم عابرين بها نهر الفرات، لمواجهة جيوش الدولة الأموية، أو للهرب منهم في بعض الأحيان^(٥).

وتشير روايات إلى هروب بعض الشعراء من سطوة ولاة الدولة الأموية بوساطة السفن، ومن ذلك هروب الشاعر المعروف بالنميري محمد بن عبدالله بن نمير (ت ٩٠هـ / ٧٠٩م) من الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد ركب النميري بحر عدن^(٦).

ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى استعمال السفن في نقل الوفود الزاغية في مقابلة الخليفة، أو من يطلب الخليفة مقابلتهم^(٧)، كما استعملت السفن في نقل أمراء

(١) شارك ملاحو السفن في الدعاية السياسية للأمويين من خلال دعوة ملاحى سفن الخوارج الانضمام إليهم، كما عمل حدادو السفن في أسطول الدولة الأموية جواسيس لنقل الأخبار من معسكرات الخوارج. البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٦، ص ٥٢٠؛ المبرد، الكامل، ج ٣، ص ١٢١.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٧، ص ٢٢٦؛ الطبري، تاريخ الرسل، ج ٦، ص ٤٤٨ - ص ٤٤٩.

(٣) قنديل مدينة بالسند وهي قسبة لولاية الندهة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (قنديل)، ج ٤، ص ٤٥٦.

(٤) اليعقوبي، تاريخ، مج ٢، ص ٢٣٨؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٦، ص ٦٥٥.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٧، ص ٥٤٩؛ النويري، نهاية الأرب، مج ١٠، ج ٢١، ص ٤٣.

(٦) ابن واصل، جمال الدين أبو عبدالله بن محمد الحموي (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م)، تجريد الأغاني، (٣) أجزاء، تحقيق: طه حسين وإبراهيم الأبياري، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٥٥م، ج ٢، ص ٧٦٩، وسيشار إليه فيما بعد: ابن واصل، تجريد الأغاني.

(٧) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٧، ص ٣٨٩. ابن عساکر، أبي القاسم علي بن الحسين بن هبة الله (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز

ورجال البلاط في قصور الخلفاء الأمويين، حيث يذكر سايروس بن المقفع أن القاسم والي مصر أيام هشام بن عبد الملك قد عمل: "مراكب مثل قصور الملوك وزينها، وكان يركب فيها نساءه وعبيده ويخرج في بلاد مصر ويمضي بهم إلى الإسكندرية، ويصعد إلى صعيد مصر وينتهي إلى أسوان، وكان يسير بصحبه جماعة من الجند والعسكر"^(١)، وفي إطار استخدام السفن في نقل زوجات الخلفاء يصف الشاعر الأموي عبيد الله بن قيس الرقيات (ت ٨٥هـ / ٧٠٤م) رحلة نساء الخليفة الأموي في نهر النيل بقوله:

فلمأ أن علون النيل والرايات تَخْتَفِقُ
وخمّل الأرجوان على السفين كأنه العلق^(٢)

وقد أحسن الشاعر الأموي الفرزدق (ت ١١٤هـ / ٧٣٢م) عند وصفه للسفينة وصفاً يعكس مدى التطور الذي بلغته السفن في الدولة الأموية، حيث يقول:

وراحلة قد عودوني زكوبها وما كنت ركاباً لها حين ترحل
إذا رفعوا فيها الشرع كأنها قلوص نعام أو ظليم شمردل^(٣)

ورغم هذا التطور، إلا أن الأسطول الأموي واجه تحديات أضرت بسلامته، ترتبط بالولادة ابتداءً، ومن ذلك تقصير بعض الولاة في صيانة الأنهار والخلجان، فيذكر ياقوت الحموي: "إن خليج أمير المؤمنين في مصر أمر بحفره عمر بن

بنواحيها من واديها وأهلها، تحقيق: صلاح الدين المنجد، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٤م، مج ٢، ق ١، ص ٤٣. وسيشار إليه فيما بعد: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق.

(١) سايروس بن المقفع، تاريخ البطارقة، ج ٢، ص ٢١٦ - ص ٢١٧.

(٢) عبيد الله بن قيس الرقيات (ت ٨٥هـ / ٧٠٤م)، الديوان، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، د. ت، ص ٦٣ - ص ٦٤. وسيشار إليه فيما بعد: الرقيات، الديوان.

(٣) الفرزدق، الديوان، ص ٤٣٠.

الخطاب سنة ٥٢٣هـ / ٦٤٣م، وفيه كانت تجري السفن إلى الحجاز، ولم تزل الولاة تستخدم هذا الخليج للنقل حتى أيام الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز، ثم أضاعته الولاة بعد ذلك وسفت عليه الرمال فانقطع^(١).

وأضرت صراعات الولاة فيما بينهم ونزاعاتهم على سلامة الأسطول، فكانت سبباً في بعض الأحيان في حرق عدد كبير من سفن الأسطول الأموي. فقد أقدم القائد بكير بن وشاح أثناء ولايته غزو البحر في خراسان إلى حرق السفن التي أعدها لغزو بلاد ما وراء النهر سنة (٥٧٧هـ / ٦٩٦م)^(٢) بسبب خلافه مع بعض الولاة.

وتسبب الصراع مع أعداء الدولة إلى حرق السفن حيث قام الخليفة الأموي مروان بن محمد سنة (١٣٢هـ / ٧٤٩م) بحرق عدد من سفن الأسطول الأموي قبل هروبه إلى مصر حتى لا يستفيد منها أعداؤه العباسيون^(٣)، كذلك قيامه بتدمير عدد من الجسور في مصر للسبب نفسه^(٤)، إضافة إلى الاضطرابات والفتن التي منعت أحياناً الأسطول الأموي من القيام بمهامه الرئيسية وهي الحماية والسيادة، فقد منعت قلاقل واضطرابات بلخ سنة (٥٨٩هـ / ٧٠٧م) أيام ولاية قتيبة بن مسلم من تحرك الأسطول الأموي في المناطق الشرقية للدولة الأموية^(٥)، كذلك الحال أيام ولاية الجنيد بن عبدالرحمن على السند أيام هشام بن عبدالملك^(٦)، وتعرضت سفن

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (الخليج)، ج ٢، ص ٤٤١.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ج ٦، ص ٣١٣؛ النويري، نهاية الأرب، مج ١٠، ج ٢١، ص ١٣٨.

(٣) سايروس بن المقفع، تاريخ البطارقة، ج ٢، ص ٣٨٢.

(٤) المقرئ، نقي الدين أبي العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

المعروف بالخطط المقرئية، (٤) أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ج ٢، ص ١٠٠.

وسيشار إليه فيما بعد: المقرئ: الخطط المقرئية.

(٥) النويري، نهاية الأرب، مج ١٠، ج ٢١، ص ١٧٣.

(٦) المصدر نفسه، مج ١٠، ج ٢١، ص ١٨٧.

الأسطول الأموي إلى الحرق المتعمد، خلال عمليات الهجوم التي تعرض لها الأسطول من قبل الخوارج، فقد أشعل قطري بن الفجاءة (ت ٧٩٩هـ / ٦٩٨م) عدداً من السفن، بأن وضع فيها القصب ثم أشعله ودفع به إلى سفن الجيش الأموي وأحرقها النيران^(١).

وقد رصد اليافعي (ت ٧٦٨هـ / ٣٩٥م) ضمن وفيات سنة (٩٣هـ / ٧١١م) وفاة من شارك في غزو البحر وأحرقت سفينته^(٢)، وحاولت الدولة الأموية مواجهة هذا الخطر، بإجراءات عملية حققت الغاية منها، فيذكر أن رئيس صنایع مصر أيام خلافة مروان بن محمد، نجح في إعداد خلطة تمنع حرق المراكب بالنار الإغريقية، من خلال أخذ الأطن (دهانات) والعقاقير وخلطها جميعها، ثم دهن مراكب الأسطول فتمنع احتراقها^(٣).

أما عن تركيبة هذه النار فيشير الطرسوسي (ت ٥٨٩هـ / ١٩٣م) أنها تتكون من مادة الفطران والكبريت المعدني والكبريت الأصفر، بالإضافة إلى الشحوم مثل شحم الماعز^(٤)، وقد يستخدم اللباد المبلولة بالخل المخمر التي يحتمي بها الجنود ومراكبهم من هذه النيران^(٥).

(١) المبرد، الكامل، ج ٣، ص ١٥٣؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٦، ص ٥١٩.

(٢) اليافعي، أبو محمد عبدالله بن أسعد اليميني المكي (ت ٧٦٨هـ / ٣٩٥م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق: خليل المنصور، (٤) أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج ١، ص ١٤٧. وسيشار إليه فيما بعد: اليافعي، مرآة الجنان.

(٣) ساويروس بن المقفع، تاريخ البطارقة، ج ٢، ص ٢٧٢ - ص ٢٧٣.

(٤) الطرسوسي، مرضي بن علي (ت ٥٨٩هـ / ١٩٢م)، موسوعة الأسلحة القديمة (تبصرة أرياب الألباب)، تحقيق: كارين صادر، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م، ص ١٨٠. وسيشار إليه فيما بعد: الطرسوسي، تبصرة أرياب الألباب.

(٥) الطرسوسي، تبصرة أرياب الألباب، ص ١٨٦.

وهناك إشارة إلى خطر آخر تعرضت له سفن الأسطول، وهو الغرق، فيذكر الكندي (ت ٣٥٠هـ / ٩٦١م) أنه في سنة (٦٤هـ / ٦٨٣م) هبت عاصفة أغرقت عدداً من سفن الأسطول^(١)، وقد ترد أحياناً إشارات تفيد بغرق بعض سفن الأسطول ومن عليها دون ذكر الأسباب، كما حصل لبعض سفن الأسطول التي كانت مجهزة لغزو جزيرة سردينيا في سنة (١١٩هـ / ٧٣٧م) فغرقت سفينة قائد الأسطول قثم بن عوانة ومن معه في البحر^(٢).

وأخيراً لا بد من القول بأن اهتمام الدولة الأموية بالبحر والسفن، كان له صدى واسع في وصايا الخلفاء الأمويين، فقد جاء في وصية عبدالملك بن مروان للفقهاء الشعبي، ما نصه: "علم ولدي العوم وخذهم بقلة النوم فإنهم يجدون من يكتب عنهم، ولا يجدون من يسبح عنهم، ولقد غرقت سفينة فيها جماعة من قريش، فلم يعطب ممن كان يسبح إلا واحد، ولم ينج ممن كان لا يحسن السباحة إلا واحد"^(٣).

كذلك يعكس هذا الحرص سياسة أمراء الجيوش وولاة الدولة في مختلف الأقاليم، ونستشهد هنا بخطبة أحد ولاة الدولة الأموية وهو قتيبة بن مسلم والي الحجاج بن يوسف على خراسان، يعاتب فيها قبائل العرب في جيشه وقد اعتزل بعضهم القتال في البحر والغزو في الأسطول في سنة (٩٦هـ / ٧١٤م)، بقوله: "يا معشر تميم، ويا معشر الأزد، أخلتكم السفن، وركبتم الخيل وقذفتكم المرادي"^(٤) وأخذتم الرماح"^(٥).

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٣٦٣.

(٢) السابق نفسه، ص ٢٨٤.

(٣) الزمخشري، ربيع الأبرار، ج ١، ص ١٩٥.

(٤) المرادي: هي خشبة تدفع بها السفينة تكون في يد الملاح. ابن منظور، لسان العرب، مادة (مرد)، مج ٣، ص ٤٠٢.

(٥) اليعقوبي، التاريخ، مج ٢، ص ٢٢٠.

إنّ هذا الحرص لم يكن في سياسة الدولة الأموية فحسب، بل طال أعداء الدولة وخصومها، وليس أدل على ذلك من حرص "الخوارج" على بناء السفن ومواجهة الدولة الأموية في كثير من الوقائع، خاصة في الولايات الشرقية، فعندما قام نجدة بن عامر الحنفي (ت ٥٧٢هـ/٦٩١م) ببعث سرية بالبر وأخرى بالبحر، أعطى سرية البر أكثر مما أعطى سرية البحر فنثار عليه أصحابه وقتلوه^(١). ويُفهم من هذه الإشارة أمران، الأول: مدى التطور الذي بلغته المعرفة البحرية فأصبحت أقل خطراً مما يكون في البر وغزوه، دلّ على ذلك إعطاء النصيب الأقل من الغنائم لمقاتلي البحر، والثاني: النقل السياسي الذي شكّله رجال غزو البحر حتى أصبحوا قوة قادرة على التغيير.

(١) النويري، نهاية الأرب، مج ١٠، ج ٢١، ص ٣٤.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

- (١) الأخطل، أبو مالك غياث بن غوث التغلبي (ت ٩٢ / ٧١١م)، الديوان، تحقيق: فخر الدين قباوة، ط٤، دار الفكر المعاصر، لبنان، ١٩٩٦م.
- (٢) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٦م)، الأغاني، (٢٥) جزءاً، تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٢م.
- (٣) الأعشى، ميمون بن قيس (ت ٨١هـ / ٦٢٩م)، الديوان، تحقيق: يوسف شكري، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.
- (٤) بشار بن برد (ت ١٦٧هـ / ٧٨٣م)، الديوان، (٤) أجزاء، تحقيق: محمد رفعت ومحمد شوقي أمين، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٠م.
- (٥) البغدادي، عبدالقاهر بن طاهر (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م)، الفرق بين الفرق، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٩٥م.
- (٦) البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م)، المسالك والممالك، جزآن، تحقيق: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٩٢م.
- (٧) البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)، أنساب الأشراف، تحقيق: محمود الفردوس العظم، دار اليقظة العربية، دمشق، ١٩٩٩م.
- (٨) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: عبدالله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، ١٩٥٧م.

(٩) ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت ٨٧٤هـ / ٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (١٦) جزءاً، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م.

(١٠) الثعالبي، أبو منصور عبدالمك بن محمد (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م)، لطائف المعارف، تحقيق: إبراهيم الإبياري وحسن كامل الصيرفي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠م.

(١١) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٤هـ / ٨٦٨م)، التبصر بالتجارة، تحقيق: حسن حسني عبدالوهاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٣م.

(١٢) الحطيئة، أبو مليكة جرول بن أوس (ت حوالي ٤٥هـ / ٦٦٥م)، الديوان، دار الفكر العربي، بيروت، ٢٠٠١م.

(١٣) أبو حنيفة الدينوري، أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥م)، كتاب النبات، (٣) أجزاء، القسم الثاني، تحقيق: محمد حميد الله، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩٧٤م.

(١٤) أبو حنيفة الدينوري، النبات، ج ٣، تحقيق: برنهارد لفين، دار فرانز شتاينر، فيسبادن، ١٩٧٤م.

(١٥) ابن حوقل، القاسم بن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م)، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.

(١٦) الخفاجي، شهاب الدين محمود المصري (ت ١٠٦٩هـ / ١٦٥٨م)، شفاء الغليل في كلام العرب من الدخيل، تحقيق: عبدالمنعم خفاجي، مكتبة الحرم الحسيني، القاهرة، ١٩٥٢م.

(١٧) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (١٣٤٧/هـ / ١٧٤٨م)، سير أعلام النبلاء، (٢٥) جزءاً، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط ١١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م.

(١٨) ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت ٢٩٠/هـ / ٩٠٢م)، الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩١م.

(١٩) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨/هـ / ١١٤٣م)، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، (٥) أجزاء، تحقيق: عبدالأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م.

(٢٠) ساويروس بن المقفع، (ت ق ٤٤/هـ / ١٠م)، تاريخ مصر من بدايات القرن الأول الميلادي حتى نهاية القرن العشرين من خلال مخطوطة تاريخ البطارقة، تحقيق: عبدالعزيز جمال الدين، مكتبة مدبولي، مصر، ٢٠٠٦م.

(٢١) السمين الحلبي، أحمد بن يوسف (ت ٧٥٦/هـ / ١٣٥٥م)، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، (٥) أجزاء، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٣م.

(٢٢) ابن سيده، أبو الحسن إسماعيل النحوي (ت ٤٥٨/هـ / ١٠٦٥م)، المخصص، (٥) أجزاء، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٦م.

(٢٣) الصفدي، صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤/هـ / ١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات، (٢٩) جزءاً، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.

(٢٤) الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠/هـ / ٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، (١٠ أجزاء)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤م.

(٢٥) الطرسوسي، مرضي بن علي (ت ٥٨٩هـ / ١٩٣م)، موسوعة الأسلحة القديمة (تبصرة أرباب الألباب)، تحقيق: كارين صادر، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م.

(٢٦) طرفة بن العبد البكري، (ت ٥٦٤م)، الديوان، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٠م.

(٢٧) العاملي، عدي بن الرقاع (ت حوالي ١٢٦هـ / ٧٤٣م)، الديوان، تحقيق: نوري حمود القيسي وحاتم صالح، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٨م.

(٢٨) العباسي، الحسن بن عبدالله بن محمد (ت ٧٠٩هـ / ٣٠٩م)، آثار الأول في ترتيب الدول، مطبعة بولاق، القاهرة، سنة ١٩٨٧م.

(٢٩) ابن عبدون، محمد بن أحمد التجيبي، رسالة في القضاء والحسبة، (من كتاب ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحاسب)، تحقيق: ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩٥٥م.

(٣٠) عبدالله بن قيس الرقيات، (ت ٨٥هـ / ٧٠٤م)، الديوان، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، د. ت.

(٣١) ابن العديم، كمال الدين عمر بن أبي جرادة (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، (١١) جزءاً، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٩م.

(٣٢) ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري، (ت بعد ٧١٢هـ / ١٣١٣م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س كولان و. إ. ليفي بروفنسال، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩م.

(٣٣) العرجي، عبدالله بن عمرو (ت حوالي ١٢٠هـ / ٧٣٧م)، الديوان، تحقيق: سميح جميل الجبيلي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م.

(٣٤) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من واديها وأهلها، مج ٢، تحقيق: صلاح الدين المنجد، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٤م.

(٣٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من واديها وأهلها، (٨٠) جزءاً، تحقيق: محب الدين العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

(٣٦) الفرزدق، همام بن غالب (ت ١١٤هـ / ٧٣٢م)، الديوان، تحقيق: علي فاعور، ١٩٨٧م.

(٣٧) القروي، أبو القاسم خلف بن أبي فراس (ت ق. ٤٠هـ / ق. ١٠م)، أكرية السفن، تحقيق: عبدالسلام الجعماطي، منشورات تطوان، أسمير، المغرب، ٢٠٠٩م.

(٣٨) الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٣هـ / ٩٦٤م)، ولاية مصر، تحقيق: الدكتور حسين نصار، دار صادر، بيروت، ١٩٥٩م.

(٣٩) الكندي، الولاية والقضاة، تحقيق: محمد حسن وأحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م.

(٤٠) مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده، تحقيق: عبدالعزيز الدوري وعبدالجبار المطلبي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧١م.

(٤١) ابن ماجد، شهاب الدين أحمد النجدي (ت حوالي ٤٩٠هـ / حوالي ٤٩٨م)، الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، تحقيق: إبراهيم خوري وعزة حسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧١م.

(٤٢) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ / ٨٩٨م)، الكامل في اللغة والأدب، (٤) مجلدات، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م.

(٤٣) المقدسي، محمد بن أحمد (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م)، رحلة المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: شاكر لعبي، دار سويدي، الإمارات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٣م.

(٤٤) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، مروج الذهب و معادن الجواهر، (٤) أجزاء، تحقيق: محمد هشام النعسان وعبدالمجيد طعمة حلي، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥م.

(٤٥) المقرئزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئزية، (٤) أجزاء، تحقيق: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

(٤٦) ابن مماتي، الأسعد بن المهذب (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م)، قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م.

(٤٧) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ١١٧٢هـ / ١٧٥٨م)، لسان العرب، (١٥) مجلداً، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

(٤٨) أبو النجم، الفضل بن قدامة (ت ١٣٠هـ / ٧٤٧م)، الديوان، جمع وتحقيق: سجيح جبيلي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م.

(٤٩) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، (٣٠) جزءاً في (١٥) مجلداً، تحقيق: يوسف الطويل وعلي محمد هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.

- (٥٠) ابن واصل، جمال الدين أبو عبدالله بن محمد الحموي (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م)، تجريد الأغاني، (٣) أجزاء، تحقيق: طه حسين وإبراهيم الأبياري، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٥٥م.
- (٥١) اليافعي، أبو محمد عبدالله بن أسعد اليمني المكي (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق: خليل المنصور، (٤) أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
- (٥٢) ياقوت، شهاب الدين أبي عبدالله البغدادي الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، معجم البلدان، (٧) أجزاء، تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١١م.
- (٥٣) اليعقوبي، أحمد بن أبي جعفر بن وهب (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)، البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩١م.
- (٥٤) اليعقوبي، التاريخ، (٢) مجلد، تحقيق: عبدالأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٣م.

المراجع:

أ- العربية:

- (١) الأمين، إسماعيل، العمانيون رواد البحر، دار رياض الريس، القاهرة، ١٩٩٠م.
- (٢) بابتي، عزيزة فوال، معجم الشعراء المخضرمين والأمويين، جروس برس، لبنان، ١٩٩٨م.
- (٣) بلتير، لويس سي، وبيرس، جي إيزل، الجغرافيا العسكرية، ترجمة عبدالرزاق عباس حسين، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٥م.
- (٤) التونجي، محمد، المعجم الذهبي (عربي - فارسي)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م.
- (٥) جروهمان، أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية، ط٢، ٦ أجزاء، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٤م.
- (٦) جميل، فؤاد، الخليج العربي في مدونات المؤرخين البلدانيين الأقدمين، مجلة سومر، مديرية الآثار القديمة، بغداد، ١٩٦٦م.
- (٧) الحديثي، عطاء، الصيانة الأثرية في واسط، مجلة سومر، مج ٣١، مديرية الآثار العامة، بغداد، ١٩٧٥م.
- (٨) خزنة كاتبي، غيداء، الخراج منذ الفتح الإسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري: الممارسات والنظرية، ط٣، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠١م.
- (٩) الخوري، شحادة، قصة الأيام والشهور والأرقام وتسمياتها، دار الطليعة الجديدة، دمشق، ٢٠٠١م.

- (١٠) دوزي، رينهاردت، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة
أكرم فاضل، دار الحرية، بغداد، ١٩٧١م.
- (١١) ربيع، صدقي، المراكب في مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،
القاهرة، ١٩٩٢م.
- (١٢) رفعت، أشرف محمد، المفهوم الاستراتيجي للقوة البحرية، مجلة الدفاع:
القوات العربية السعودية، الرياض، ٢٠٠٨م.
- (١٣) الرومي، أحمد البشر، معجم المصطلحات البحرية في الكويت، مركز
البحوث والدراسات الكويتية، الكويت، ١٩٩٦م.
- (١٤) أبو زيد، علي إبراهيم، دجلة والسفينة في الشعر العباسي، ط٢، دار
المعارف، القاهرة، ١٩٩٣م.
- (١٥) الزواري، علي، الملاحة الصفاقسية من القرن السادس عشر إلى القرن
التاسع عشر، مجموع في كتاب (تطور علوم البحار ودورها في النمو
الحضاري)، وزارة الشؤون الثقافية، تونس، ١٩٧٦م.
- (١٦) سالم، السيد عبدالعزيز والعبادي، أحمد، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر
والشام، دار الأحد، بيروت، ١٩٧٢م.
- (١٧) السويفي، مختار، مراكب خوفو حقائق لا أكاذيب، ط٢، الدار المصرية
الليبنانية، القاهرة، ١٩٩٦م.
- (١٨) الشمالان، عبدالله خليفة، بناء السفن الخشبية في دولة البحرين، مركز
البحرين للدراسات والبحوث، البحرين، ١٩٩٠م.
- (١٩) شهاب، حسن صالح، أضواء في تاريخ اليمن البحري، دار الفارابي،
بيروت، ١٩٧٩م.

- (٢٠) شهاب، حسن صالح، فن الملاحة عند العرب، دار العودة، بيروت، ١٩٨٢م.
- (٢١) الصايغ، أنيس، الأسطول الحربي الأموي في البحر الأبيض المتوسط، مكتبة رأس بيروت، بيروت، ١٩٥٦م.
- (٢٢) أبو صفية، جاسر بن خليل، برديات قرّة بن شريك العبسي دراسة وتحقيق: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ٢٠٠٤م.
- (٢٣) عبدالعظيم، أنور، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٩م.
- (٢٤) العريني، السيد الباز، المماليك، دار النهضة، القاهرة، بيروت، ١٩٧٩م.
- (٢٥) عطوان، حسين، مختارات من الشعر الأموي، (٥) أجزاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٨م.
- (٢٦) علي، جهينة نصر، الكلمات الفارسية في المعاجم العربية، دار طلاس، دمشق، ٢٠٠٣م.
- (٢٧) العنابي، محمد، عناية العرب بالأسفار البحرية وتخطيطهم للأسواق التجارية (مجموع في كتاب تطور علوم البحار ودورها في النمو الحضاري)، وزارة الشؤون الثقافية، تونس، ١٩٧٦.
- (٢٨) فهمي، علي محمود، التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط من القرن السابع حتى القرن العاشر الميلادي، ترجمة قاسم عبده قاسم، دار الوحدة، بيروت، ١٩٨١م.
- (٢٩) القناعي، نجاة عبدالقادر، والخصوصي، بدر الدين عباس، تاريخ صناعة السفن في الكويت وأنشطتها المختلفة، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ١٩٨٢م.
- (٣٠) الكسادي، الملاح بدر الدين أحمد، القاموس البحري (معجم مصطلحات البحرية في جنوب الجزيرة العربية)، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٤م.

- (٣١) كندرمان، هانس، *مصطلح السفينة عند العرب*، ترجمة نجم عبدالله مصطفى، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٢م.
- (٣٢) مؤسسة آل البيت، *الفهارس التحليلية للاقتصاد الإسلامي*، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، ج٣، عمان، ١٩٨٥م.
- (٣٣) ماهر، سعاد، *البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية*، ط٢، دار المجمع العلمي، المملكة العربية السعودية، جدة، ١٩٧٩م.
- (٣٤) النخيلي، درويش، *السفن الإسلامية على حروف المعجم*، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.
- (٣٥) هنتس، فالتر، *المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري*، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م.
- (٣٦) آل ياسين، محمد حسن، *معجم النبات والزراعة*، ٢ جزء، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٩م.

ب- غير العربية:

- (1) Bell, *Translations of the Greek Aphrodito Papyri in the British Museum*, Islam2 (1911).
- (2) Fahmami, A, M: *Muslim Naval Organization in the Eastern Meditterreran*, 2nd. Ed. Cairo, 1966.

المقالات:

أ- العربية:

- (١) ثابت، يوسف أفندي غنام، الأسلحة النارية الشرقية، مجلة المشرق، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، العدد الثالث، سنة ١٩٠٠م.
- (٢) الدمياطي، محمود مصطفى، مفردات النبات بين اللغة والاستعمال، مجلة المقتطف، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، مج ٨٨، ج ٢، سنة ١٩٣٦م.
- (٣) زكريا، وصفي، حديث اليمن، مجلة المقتطف، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، مج ٩١، ٩١٣٧م.
- (٤) الزيّات، حبيب، السفن والمراكب في بغداد في عهد العباسيين، مجلة لغة العرب، عدد ٥٥، ج ٨، مطبعة الأيتام للأباء الكرمليين المرسلين، بغداد، ١٩٢٧م.
- (٥) الزيّات، حبيب، معجم المراكب والسفن في الإسلام، مجلة المشرق، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين، عدد ٤٣، بيروت، ١٩٤٩م.
- (٦) شقير، سليم أفندي، المعادن في السودان، مجلة الهلال، مطبعة الهلال، القاهرة، عدد ١٥، ج ١، ١٩٠٧م.
- (٧) صادق بك، حسن، الحديد وصناعته في مصر، مجلة المقتطف، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، مج ٩١، ١٩٣٧م.
- (٨) عبدالله، عبدالعزيز، معجم الحرف والمهن، مجلة اللسان العربي، جامعة الدول العربية، الرباط، مج ٧، ١٩٧٠م.
- (٩) علي، فؤاد حسنين، الدخيل إلى اللغة العربية، مجلة كلية الآداب، مطبعة الملك فؤاد الأول، مج ١١، ج ٢، القاهرة، ١٩٤٩م.

- (١٠) عواد، كوركيس، الذخائر الشرقية، جمعه خليل عطية، ٧ مجلدات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٩م.
- (١١) فرنسيس، بشير، والنقشبندي، ناصر، الآثار: الخشب في دار الآثار العربية، مجلة سومر، مديرية الآثار القديمة، بغداد، ١٩٤٩م.
- (١٢) القيسي، ربيع، الملوية "منارة المسجد الجامع في سامراء"، مجلة سومر، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٠م.
- (١٣) كارينتر، هارولد، وتليت، روبرتس، الحديد تعدينه وتقسيته وصناعته عند قدماء المصريين، مجلة المقتطف، القاهرة، ج ١، مج ٧٧، ١٩٣٠.
- (١٤) كولنجت، الأب موريس، علم النجوم على عهد الخلفاء، مجلة المشرق، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، لبنان، ١٩٠٠م.
- (١٥) لامنس، هنري، أحوال لبنان في القرن الرابع عشر قبل المسيح وفقاً لما ورد في مراسلات تل العمارنة، مجلة المشرق، المطبعة الكاثوليكية، العدد ٣، بيروت، ١٩٠٠م.
- (١٦) لامنس، هنري، رسم المجاري النهرية في لبنان، مجلة المشرق، مج ٧٠، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٠٤م.
- (١٧) لامنس، هنري، لمحة اقتصادية في مجاري المياه اللبنانية، مجلة المشرق، مج ٧٠، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٠٤م.
- (١٨) محمد، غازي رجب، المنبر في العصر الإسلامي الأول، مجلة سومر، مج ٣١، ج ٢، مطبعة الجمهورية، بغداد، ١٩٧٥م.
- ب- غير العربية :

(1) Kinderman, K, Safina, E. I (Supplement)